سلسلة كنوز الحضارة

تـــاريخ الحضارة الأوربية

إعـــداد

د. أحمد توفيق محمد الأنصاري

د. إبراهيم جابر السيد

دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع

901.9
أ . ا
الأنصاري ، أحمد توفيق محمد .
سلسلة كنوز الحضارة / أحمد توفيق محمد الأنصاري .
{واخ}.-ط1.- دسوق: دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع.
428 ص ؛ 17 × 24 سم .
تدمك : 6 - 659 – 308 – 977 – 978
1. الحضارة – تاريخ .
أ - الأنصاري ، أحمد توفيق محمد (معد مشارك) .

رقم الإيداع : 2883 .

الناشر : دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع
دسوق - شارع الشركات- ميدان المحطة – بجوار البنك الأهلي المركز
هاتف- فاكس : 0020472550341 محمول : 00201277554725
E-mail: elelm_aleman2016@hotmail.com & elelm_aleman@yahoo.com

2022

الفهـــرس

مقدمة

الحضارة الأوربية هي الحضارة التي رسخت جذورها في الألفية التاسعة قبل الميلاد وذلك عند اكتشاف حرفة الزراعة على ضفاف الأنهار (الأردن، دجلة والفرات)، التي انتقلت بعدها إلى القارة الأوروبية وانتشرت فيها، وأدى هذا الأمر إلى انشاء الدول والمدن والإمبراطوريات فيها وتطويرها، وكانت البداية لها من اليونان ، لتقوى منها وتنتشر عبر القارة الأوروبية على يد الرومان، وازداد تطورها واعيدت صياغتها في القرن الخامس عشر في "عصر النهضة"، ونجحت في انتشارها عالمياً على يد (الإمبراطوريّات الإستعماريّة).

تميزت تلك الحضارة بعدم ثبوتها، بل كان يعاد تشكيلها باستمرار ، حيث تختلف الأسس التي قامت بها الحضارة عند الإغريق عن الحضارة اليونانية، ووسائل الترفيه كانت تختلف باختلاف الحضارات أيضاً. من الإمبراطوريات الغربيّة التي أثرت الحضارة الغربيّة على مدى عقود، الإمبراطوريّة الرومانيّة، وكذلك الإمبراطوريّة البيزنطيّة، وبعد تفكك الإمبراطوريتين تحولتا إلى دويلاتٍ أصغر، وظهرت لاحقاً "الإمبراطوريّة الرومانيّة المقدسة . ومن الحضارات الغربية القديمة بالإضافة للرومان والإغريق ، ظهرت الحضارة الكلتونيّة والحضارة الجرمانيّة. لم تخلو تلك الحضارات من الصراعات والتي سجلت عبر التاريخ بين الحضارات الشرقية والغربية، فقد تجلت تلك الصراعات في أعمال "هوميروس" القديمة، حيث قام بوصف حروب (الإسكندر الأكبر) واليونانيين ضد الفرس.

الفصل الأول

لمحة عن تاريخ أوربا

أوروبا إحدى قارات العالم السبع. وجغرافيًا تعد شبه شبه جزيرة كبيرة تكون الجزء الغربي الممتد من أوراسيا بين جبال الأورال وجبال القوقاز وبحر قزوين من الشرق والمحيط الأطلسي من الغرب والبحار البحر الأبيض المتوسط والبحر الأسود ومنطقة القوقاز من الجنوب والمحيط المتجمد الشمالي من شمال القارة.

وتعتبر قارة صغيرة نسبياً مقارنة ببقية القارات لكن قارة أستراليا أصغر منها.

إلى جانب حدود أوروبا الجغرافية يعود مفهوم حدود القارة إلى العصور القديمة الكلاسيكية، والتعسفي، حيث أصبح مصطلح "القارة" جغرافيّا في المقام الأول ولكنه يشمل أيضًا العناصر الثقافية والسياسية.

وكلمة أوربَّا أصلها إغريقي باليونانيّة (Ευρώπη): وتعني الوجه العريض، تصل مساحة القارة لحوالي 10.180 مليون كم ٪ 7.1) 2من مساحة الأرض). وهي القارة الثالثة من حيث عدد السكان في العالم إذ يزيد عدد سكانها عن 700 مليون نسمة) أي 11 ٪ من سكان الأرض. تمتدُّ روسيا وهي أكبر بلد أوروبي عبر كامل شمال آسيا و40٪ من أوروبا، في حين تعتبر دولة الفاتيكان أصغر دول القارة.

يتفق المؤرخين أن أوروبا، خاصةً في اليونان القديمة وروما القديمة هي مهد الحضارة الغربيةالمؤثرة على العالم .وقد لعبت أوروبا دورًا بارزًا

في الشؤون العالمية بدءاً من القرن الخامس عشر، وخاة عقب بداية الاستعمار. سيطرت الدول الأوروبية بين القرنين السادس عشر والعشرين، في أوقات مختلفة على الأمريكتين، ومعظم أفريقيا وأوقيانوسيا، وأجزاء كبيرة من آسيا. أدّت الثورة الصناعية، التي بدأت في بريطانيا العظمى في نهاية القرن الثامن عشر، إلى تغييرات اقتصادية وثقافيّة وإجتماعيّة راديكالية في أوروبا الغربية أولاً، لتشمل بعد ذلك العالم. وقد ازداد النمو السكاني الأوروبيّ بشكل كبير، إذ بحلول عام 1900، كان نصيب أوروبا حوالي 25% من مجمل سكان العالم .

أخذت الحربان العالميتان مسرحها وأحداثها بشكل كبير في أوروبا، ومساهمتها في الشؤون السياسيّة أخذت في الإنخفاض مع انخفاض هيمنة أوروبا الغربية في الشؤون العالمية في منتصف القرن العشرين وازدياد نفوذ كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي.

خلال الحرب الباردة، قسمت أوروبا على طول الستار الحديدي بين منظمة حلف شمال الأطلسي في الغرب وحلف وارسو فيأوروبا الشرقية. أدى التكامل الأوروبي إلى تشكيل مجلس أوروبا والاتحاد الأوروبي في أوروبا الغربية، ومع سقوط الاتحاد السوفياتي في عام 1991 انضمت دول أوروبية شرقية إلى الاتحاد الأوروبي. وتعد عملة اليورو وهي العملة الموحدة للاتحاد الأوروبي العملة الأكثر تداولاً في القارة.

أصل التسمية والتعريف:

في الميثولوجيا اليونانية، أوروبا هي ابنة آجينور ملك صور الفينيقي (ما يسمى في يومنا هذا لبنان)، وقيل أن القارة الأوروبية سميت على إسمها.

يعود مفهوم أوروبا ككيان ثقافي وجغرافي وسياسيّ موحّد إلى الإمبراطورية الرومانية بدايةً والمسيحية بشكل خاص، حيث كانت المسيحية من أسس وأركان القاعدة الثقافية الأوروبية وفي مناسبات محددة كانت الركن الوحيد للهوية الأوروبية، خاصّة عندما سعت الكنيسة الرومانية الكاثوليكية لبسط نفوذها الثقافي ومن ثم السياسي عليالغرب الأوروبي، فالأممية المسيحية أو مفهوم العالم المسيحي ظلت قوة سياسية ودافعًا فكريًا وعقائديًا وسياسيًا أثّر مباشرةً على مسيرة السياسية الأوروبية، بل إنه أصبح لب فكرة «المفهوم الغربي»، وقام بإستبدال المفهوم الجغرافي الأوروبي الضيق أو الروماني المحدود وأصبح يمثل شرعية جديدة بدأت تترسخ داخل الشعوب الأوروبية والوجدان السياسي فيها، وأصبح هذا المفهوم يمثل الشرعية السياسية والدينية على حد سواء.

التاريخ:

قرص برونزي عُثر عليه في بلدة نبرا الألمانية، يعود لحوالي سنة 1600 ق.م. يعتبر أقدم خريطة فلكية معروفة. لاحظ عنقود الثريا في أعلى اليمين.

تدل الأحافير التي اكتشفها العلماء على أن الإنسان الأول عاش في أوروبا منذ أكثر من مليون عام. وأهم الأشكال المعروفة عن إنسان ماقبل التاريخ إنسان نياندرتال والإنسان الكرومانيوني. عاش الإنسان النياندرتالي في حوالي الفترة التي تقع قبل 100,000 إلى 35,000 سنة مضت، وعاش

الكرومانيوني في الفترة التي تقع قبل 40,000 إلى 10,000 سنة خلت. وكـانوا يعيشون على الصـيد، وكثـيري التنقـل مـن مكـان إلى آخـر بحثًـا عـن الطعـام. ويعيشون في جماعات تتراوح بين 25 و30 فردًا .

تعلم الإنسـان في جنـوب شرقـي أوروبـا نحـو سـنة 6000 ق.م كيفيـة الحصول على قوته بفلاحة الأرض. مهد هذا التطـور المبكـر لوضـع اللمسـات النهائية لظهور الحضارات التي أدت بدورها لاستقرار الإنسان الذي كان دائـم التنقل بحثا عن الطعام. وقد كان عندما يستقر في مكان معين يقيم القـرى. وقـد تطورت بعض تلك القرى فيما بعد وأصبحت نواة لقيام المدن الأوروبية الأولى. بعد نحو عام 6000 ق.م بدأت تتجه أعداد أكثر فأكثر من الأوروبيين القـدماء نحو الزراعة، إذ أصبحت الزراعة مصدر الغذاء الرئيسي وحتى نهاية فترة ما قبل التاريخ، أي نحو سنة 3000 ق. م، فعمت كل أرجاء أوروبـا باسـتثناء منـاطق الغابات الكثيفة في الشمال .

قامت الحضارات الأوروبيـة الأولى في جـزر بحـر إيجـة شرقـي اليونـان. ازدهرت الحضارة الإيجية في الفترة بين 3000 ق. م و1200 ق.م .فكان سكان بعض الجزر الإيجية، خاصة في جزيرة كريت، يستخدمون نظامًا للكتابة، كما كان بينهم البحارة المغـامرون والتجـار. ظهـرت حضـارة مماثلـة للحضـارة الإيجيـة في جزيرة مالطة جنوبي إيطاليا .وبعد عام 2500 ق.م .تقريبًا أبحـر بحـارة مـن جزر بحر إيجة وجزيرة مالطة على طول السـواحل الجنوبيـة والغربيـة لأوروبـا. فكـانوا يقـدمون للشـعوب التـي وجـدوها في طـريقهم، طـريقتهم وأسـلوبهم في الحياة.

الحضارة الإغريقية القديمة:

كان للإغريق القدماء فضل كبير في قيام وازدهار الحضارة. فلقد نزحت قبائل من الشمال إلى شبه جزيرة اليونان حوالي عام 2000 ق. م. وعندما استقرت هذه القبائل في اليونان بدأت في تأسيس حضارة لها على نمط الحضارة الكريتية. أصبح الإغريق قوة ضاربة في منطقة بحر إيجة، حتى استولوا على المنطقة من الكريتيين في القرن الخامس عشر ق.م. وخلال القرون العديدة التالية توحدت مجموعات من تلك القبائل فكونت نوعًا جديدًا من الوحدات السياسية المستقلة. وكانت كل وحدة من هذه الوحدات تسمى بولس أو الدولة ـ المدينة. بلغت الحضارة الإغريقية أوج عظمتها خلال القرنين الخامس والرابع ق.م مع ظهور مدينتي إسبرطة وأثينا ومدن أخرى لاتقل نفوذًا وقوة. انتشرت فكرة الديمقراطية خلال هذه الفترة كما ازدهر الفن والعلم. إلا أن اليونان دخلت في الوقت نفسه تقريبًا في حروب طويلة.

أولاً: هزم الإغريق قوات الغزاة القادمة من الإمبراطورية الفارسية في الشرق.

ثانياً: نشبت الحروب الداخلية بين الدول ـ المدن الإغريقية نفسها. وباستمرار هذه الحروب بدأت قوة الإغريق السياسية في الانهيار. إلا أن أثينا ظلت مركزًا ثقافيًا للعالم القديم.

بلغت الإمبراطورية الرومانية أوج عظمتها خلال فترة مايعرف بالسلام الروماني التي استمرت من سنة 27 ق.م حتى سنة 180 م. لم تكن هناك دولة في تلك الفترة لها القوة الكافية لتمثل خطرًا على الإمبراطورية الرومانية. لذا أصبحت تلك الفترة فترة سلام. بلغ الفن والعلم الرومانيان الذروة، كما

ازدهرت التجارة في جميع أرجاء الإمبراطورية. اقتبس الرومانيون أفكارًا عديدة من الإغريق مما ساعدهم على نشر الثقافة الإغريقية في أنحاء إمبراطوريتهم. وغالبًا مايطلق على الثقافة الرومانية اسم الثقافة الهيلينية-رومانية. لكن كان للرومان أيضًا إسهاماتهم في الحياة الأوروبية بالتخطيط الدقيق للمدن وتشييد وإقامة شبكات الطرق. كما أصبحت اللغة اللاتينية أساسًا قامت عليه اللغات الرومانسية المتداولة في أوروبا اليوم. كما أصبح كثير من الأسس القانونية التي وضعها الرومان جزءًا من الأنظمة القانونية في أوروبا ولاحقًا جزءًا من الأنظمة القانونية في أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية.

بدأت المسيحية في فلسطين التي تقع في جنوب غربي آسيا وقد كانت جزءًا من الإمبراطورية الرومانية. وسرعان ما انتشرت في الجزء الأوروبي من الإمبراطورية. ظل الرومان يضطهدون المسيحيون الأوائل حتى مطلع القرن الرابع الميلادي، حيث منح الإمبراطور قسطنطين الكبير المسيحيين حرية العقيدة، وفي أواخر القرن الرابع الميلادي، أصبحت المسيحية الدين الرسمي للإمبراطورية .

وفي أواخر القرن الثاني الميلادي بدأت بعض القبائل القوية في الشمال والشرق تهديد الإمبراطورية الرومانية التي لم تعد تستطيع الدفاع عن جميع حدودها. فقد كانت الخلافات الداخلية تمثل تهديدًا آخر للإمبراطورية، بدأت الإمبراطورية تتفكك على أثره حتى أعاد الإمبراطور قسطنطين توحيدها عام 324م. في عام 395م انقسمت الإمبراطورية الرومانية بصورة نهائية إلى إمبراطوريتين.

فأصبح النصف الشرقي الإمبراطورية الرومانية الشرقية أو البيزنطية وكانت عاصمتها القسطنطينيةوالتي أصبحت مركز المسيحية الشرقية ومركز حضاري عالمي، فأضحت أعظم مدن العالم في ذلك العصر. أما باقي الإمبراطورية فأصبح الإمبراطورية الرومانية الغربية وكانت عاصمتها روما.

العصور الوسطى:

فقدت الامبراطورية الرومانية قوتها بعد انقسامها للإمبراطورية الشرقية والغربية. وتعرضت كل من أقوام القوط، الوندال، اللومبارديون، الفرنجة، والسكسون، والجوتيون الذين يقطنون بهسبانيا وجالايا وإيطاليا خارج حدود الامبراطورية الرومانية الغربية، إلى هجوم أقوام البربرية الالمان.

واستولى القوط الغربيون في حروبهم ضد الهون على مدينة روما متقدمين إلى جنوب نهر الدانوب بقيادة آلاريك في عام 410.

وسقطت الإمبراطورية الرومانية الغربية في 476. وبسقوط الامبراطورية الرومانية بدأت العصور الوسطى .

قام القوط الغربيين، الفرع الغربي من القوطيين اللذين تنقلوا من إيطاليا ثم إلى أسبانيا، بتأسيس مملكة كبيرة لهم هناك. واستولى الوندال، وهم جزء أخر من الشعب الألماني على روما في عام455، بقيادة أركان حرب جنسيرك.

وتقدم الفرنج- التابعين لقبائل البربر- إلى الغرب مباشرة، ووصلوا إلى داخل جالايا. وقام في الوقت نفسه كل من القوط والسكسون بتنظيم الهجوم والغزوات على بريطانيا الرومانية احدى الولايات في روما .

أمّا القوط الشرقيين- الفرع الشرقى من القـوط - فإسـتولوا عـلى أراضي روما أيضًا، وأسسوا مملكة كبـيرة لهـم فيإيطاليـا. لكـن عـلى الـرغم مـن ذلـك، لم تستمر هذه الامبراطورية كثيرًا، وانهارت بعد 60 عامًا مـن تأسسـيها. وأثنـاء هجوم البربرلم ينشأ نظام حكم قوى ومتين في إيطاليا .

قام الامبراطور البيزنطى جستنيانب ضم إيطاليا إلى اراضي الامبراطوريـة الرومانية بعد فترة مسـتفيداً مـن الاوضـاع السياسـية المتـوترة بهـا ولكـن بعـد وفاة البيزنطى جستنيانفي 565، قام اللومبارديون بالإستيلاء عـلى إيطاليـا مـرة اخرى.

سقط أغلب شبه جزيرة أيبيريا في القرن الثامن (711-718) بيد جيوش المسـلمين القادمـة مـن شـمال أفريقيـا. كانـت هـذه الفتوحـات جـزءاً من توسع الخلافة الإسلامية الأموية .تمكنت فقط منطقة صغيرة جبلية في الشمال الغربي من شبه جزيرة من مقاومة الغزو الأولي. بموجب الشـريعة الإسـلامية، جرت معاملة المسيحيين واليهود معاملة أهل الذمة. حيث يسـمح هـذا الوضـع للمسيحيين واليهود بممارسة دياناتهم كأهل الكتاب وكان عليهم دفع الجزية.

تطور اعتناق الإسـلام بـوتيرة متزايـدة باسـتمرار. يعتقـد بـأن المولـدون (المسلمون من أصول عرقية أيبيرية) قد شكلوا غالبية سكان الأنـدلس في نهايـة القرن العاشر .

إعتنق الفرنجة الديانة المسـيحية في القـرن السـادس المـيلادى. وأسسـت قبائل الفرنجية الإمبراطورية الكارولنجية والتي سيطرت على ألمانيـا، وفرنسـا، وبلجيكا، وهولندا، وسويسرا، وإيطاليا الحالية.

وقـد إعتمـدت بشـكل أسـاسي عـلى إرث الإمبراطوريـة التـي أسسـها الإفرنج بفرنسا. وفي عام 768 وصلت حدود الإمبراطورية لاقصى اتسـاع لهـا، وذلك بعد تولي شارلمان حكم الفرنجة .

وفي 25 ديسمبر 800 م أعلن البابـا ليـون الثالـث فيكاتدرائيـة القـديس بطرس في الفاتيكان، ليو شـارلمان امبراطـورًا للامبراطوريـة الرومانيـة. وحتـى ذلـك الوقـت اضـطرالبيزنطون، الحـاملين للقـب الامبراطـور الرومـاني، إلى الإعتراف بلقب امبراطورية شارلمان.

وانهـارت الإمبراطوريـة الكارولنجيـة بعـد وفـاة شـارلمان في 814 م. وفي منتصف القرن العاشر الميلادي، قام أوتو الأولـن حكـام الالمـان بالسـيطرة على الاراضي الخاضعة لحكم شارلمان، وأسس الإمبراطورية الرومانية المقدسـة، وفي عـام 962 م مـنح البابـا لونـوس الثـانى عشـر لقـب الامبراطـور الروماني إلى أوتو الأول .

وانضـمت الامبراطوريـة الرومانيـة المقدسـة إلى الكونفدراليـة الألمانيـة في وسط أوروبا. لكن بسبب عدم قدرتها على المنافسة فقـدت سـيطرتها وقوتهـا في عام 1806، وحلت محلها الامبراطورية النمساوية .

حتـى عـام 774 ظلـت زمـام الامـور بأيـدى اللولمبـارديون القـاطن بشمال إيطاليا. وفي عام 751 خاضـاللولمبارديون حروبًـا في الجنـوب وسـيطروا على رافينيا وآرادوا دعمًا من البابا بالفرنجة .

ولكن هزمت الإفرنج اللومبارديون، وعادت إيطاليا إلى البابا مرة أخرى. وبالتالي تأسست دولة بابوية مستقلة عن مدينة روما .

وردًا على ذلك، قام البابا الثالث ليو باسترداد كرامة ومكانة الإفرنج، وذلك باعلان الامبراطور شارلمان ملك عليها امّا في القرن الحادي عشر، قويت الدولة بضم العديد من الدول مثل: جمهورية البندقية، جمهورية جنوة، اتحاد لومبارد، مملكة نابولي، وجمهورية فلورنسا .

وفي ذلك الوقت كانت البابوية والإمبراطورية الرومانية المقدسة من أهم مراكز القوة في العالم. واندلعت العديد من المشادات والخلافات بين انصار كل قوى منهما في دول المدن بإيطاليا. وعرفت هاتين المجموعتين باسم الغويلفيون والغيبلينيون.

خلال القرون الوسطى، تم بناء مدارس قرب الكنائسوالكتدرائيات، ودعيت بمدارس الكاتدرائية .وكانت هذه المداراس مراكز للتعليم المتقدم، وبعض من هذه المدارس أصبحت في نهاية المطاف الجامعات الأولى في الغرب. وأُعتبرت مدرسة كاتدرائية شارتر أكثر المدارس شهرةً وتأثيرًا، حيث كان لها دور هام في حفظ الفكر القديم ونشر العلوم في العالم الغربي. مع ظهور مدارس الكاتدرائية في أوائل القرون الوسطى تحولت هذه المؤسسات إلى مراكز تعليم متقدمة، ومتطورة في كثير من الأحيان وشكلت نقطة انطلاق لكثير من الإنجازات في أوروبا الغربية، وفي وقت لاحق شجعت على حرية البحث وخرّجت مجموعة كبيرة ومتنوعة من العلماء والفلاسفة.

كان للمدارس وجامعات الكنيسة آثار ايجابية على تطوير العلوم، المؤرخين يذهب أبعد من ذلك إذ بحسبهم هذه المداراس تمثل بدايات العلم الحديث .

لم تكـن سـلطة كنيسـة القـرون الوسـطى دينيـة فقـط بـل دنيويـة أيضًـا، تمثلت بالدولة البابوية التي ثبتت أركانها فيالقرن الحـادي عشرـ؛ وتمثلـت أيضًـا بالدور القيادي في السياسة الذي لعبه البابا كوسيط بين مختلف ملوك أوروبا، إن قوة الكنسية السياسية، فضلاً عن وضع المسـيحيين المـتردي في الشرـق، ورغبـة أمراء أوروبا توسيع أملاكهم وثراوتهم والكـف عـن الاقتتـال الـداخلي، جعـل المنـاخ ملائـمًا لنشـوء الحمـلات الصـليبية التـي دعـا إليهاالبابـا أوربـانوس الثـاني سـنة 1094 خـلال مجمـع كليرمونـت جنـوب فرنسـا، وانطلقـت في إثره الحملة الصليبية الأولى التي استطاعت احتلال السـاحل السـوري إضـافة إلى لبنان وفلسطين ومناطق من تركيا والأردن ومصر.

عاشت الإمبراطورية البيزنطية عصرها الذهبي خاصًة تحت حكم الأسرة المقدونية حيث دعي عصـرهم بعصـر النهضـة المقدونيـة ففـي عهـدهم مـرت الامبراطورية البيزنطية نهضة ثقافيـة وعلميـة وكانـت القسـطنطينية في عهـدهم المدينة الرائدة في العالم المسيحي من حيث الحجم والثراء والثقافة.

فقـد كـان هنـاك نمـو كبـير في مجـال التعلـيم والـتعلم ممثلـة بجامعـة القسطنطينية ومكتبة القسطنطينية وجرى الحفاظ على النصوص القديمة وإعادة نسخها. كما ازدهر الفن البيزنطي وانتشرت الفسيفساء الرائعة في تـزيين العديـد من الكنائس الجديدة، وفي عصر الكومنينيون تجدد الاهتمام بالفلسفة الإغريقيـة الكلاسيكية، بالإضافة إلى تزايد الناتج الأدبي باليونانية العامية.

احتل الأدب والفن البيزنطيان مكانة بارزة في أوروبا، حيث كان التأثير الثقافي للفن البيزنطي على الغرب خلال هذه الفترة هائلًا وذو أهمية طويلة الأمد.

شمل العهد المقدوني أحداثًا ذات أهمية دينية. كان تنصير الشعوب السلافية مثل البلغار والصرب والروسإلى المسيحية الأرثوذكسية بصفة دائمة قد غير الخريطة الدينية لأوروبا ولا يزال صداه حتى يومنا هذا.

الفصل الثاني

أوروبا في العصور الوسطى

لقد حاول البعض أن يحصر العصور الوسطى بين 476، عندما سقطت الإمبراطورية في الغرب سنة 1453، وهي السنة التي سقطت فيها القسطنطينية في أيدي العثمانيين وانتهت فيها حرب المائة عام بين انجلترا وفرنسا.

إلا أن الناظر إلى التاريخ بتعمق يدرك أنه ليس من الحكمة ولا من الواقعية تحديد سنة بعينها لتكون حدًا فاصلًا بين عصر وعصر، لأن حلقات التاريخ متداخلة بشكل معقد.

على أنه من الممكن اعتبار القرن الرابع بداية العصر الوسيط لما حدث فيه من تطورات ضخمة على الصعيد السياسي والديني والجغرافي فقد تفاعلت فيه مختلف العناصر الأساسية التي كيفت تاريخ أوروبا العصور الوسطى..

وما قيل في القرن الرابع يمكن أن يقال في القرن الخامس عشر الذي حدث في آخره ما يسمى بحركة النهضة، حيث تحرك العقل الأوربي من كثير من القيود الكنسية فأبدع في مجالات متعددة.

ولا شك أن إلقاء نظرة موجزة على أوروبا في العصر الوسيط يساعدنا إلى حد بعيد في استقراء دوافع الحروب الصليبية ومعرفة أسبابها، ويكشف لنا النقاب عن مختلف العوامل والمؤثرات التي تفاعلت فنتجت عنها تلك الحروب.

أ - أحوال الإمبراطورية الرومانية:

كاذباً أعظم وحدة حضارية وسياسية عرفها التاريخ هي هذه الامبواطورلة التي بلغت من القوة والاتساع مالم يبلغه غيرها في تاريخ البشر،

فقد امتدت من المحيط الأطلسي غربًا حتى الفرات شرقًا. وتمكنت السلطة المركزية من إحكام سيطرتها على هذه المساحات الضخمة وذلك بوضع قوانين تناسب ذلك العدد الكبير من الشعوب. كما تمكنت الإمبراطورية من استيعاب شعوب ذات حضارات قديمة إلى جانب شعوب حديثة المولد. فازدهرت الحياة الاقتصادية والاجتماعية لأهل هذه الإمبراطورية وتركت لهم الحرية الفكرية والاعتقادية... فشهدت بذلك أزهى عصورها.

لم تكن هذه الإمبراطورية ملكية دستورية، ولكنها لم تكن كذلك عسكرية بحتة أو استبدادية مطلقة، حيث ساد العرف والقانون وتمسكت بكثير من مظاهر العصر الجمهوري.

ب - الضعف ومظاهر الانهيار:

بدأت هذه الإمبراطورية بعد ذلك تضعف شيئًا فشيئًا وقد بدا ذلك واضحًا في القرن الثالث للميلاد عندما انعدم النظام وتحكمت القوات العسكرية في عزل الأباطرة وإقامة غيرهم.. ثم بدأت الفرق الإمبراطورية في مختلف الولايات تتحكم في اختيار قادتها دون الرجوع إلى الإمبراطور إلى غير ذلك من مظاهر التفكك والاضمحلال، وأصبح النظام استبداديًا يعتمد على الجيش في تنفيذ إرادة الإمبراطور والضغط على الأهالي الذين بدءوا يتبرمون من الضرائب وغيرها وظهرت الحروب الأهلية.

أما في الخارج فقد زاد ضغط الجرمان كما تضاعف الخطر الفارسي على الولايات الآسيوية وفي أواخر القرن الثالث ظهرت بكل وضوح العوامل التي أدت إلى اضمحلال الإمبراطورية الرومانية ثم سقوطها حيث تفاقمت المشاكل السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية في الداخل، وازدادت الأخطار

الخارجية بشكل بارز وبدأت بعض الولايات تتجه نحو الانفصال عن جسم الإمبراطورية مستجيبة بذلك إلى طموح الأهالي الذين عمهم الاستياء والنقمة.

وبدأت الحكومة المركزية في محاولات يائسة للإصلاح كالفاعل بين السلطتين المدنية والعسكرية في الولاية وتصغير مساحة الولاية.

وساءت الحالة الاقتصادية نتيجة للحروب الأهلية وفرضت الضرائب الجمركية، وازدادت نسبتها.. كما أن الضرائب التي تفرض على الأرض قد تحرر منها كبار الملاك وفرضت على المستأجرين، وبذلك اختل بناء الجامع الروماني حيث ازداد الغني غنى وازداد الفقيد فقرًا، وتناقصت الطبقة الوسطى بشكل سريع وتدهور الإنتاج وانخفضت قيمة العملة التي لم يتردد بعض الأباطرة في تزويرها فارتفعت الأسعار ارتفاعًا جنونيًا وعمت النقمة وكثرت الثورات، واتسع نطاق أعمال السلب والقرصنة.

إذًا ..وضع داخلي متفجر صحبته أخطار خارجية جسيمة وبذلك أصبحت الإمبراطورية على شفا الهاوية، رغم إن بعض الأباطرة أحسوا بخطورة الوضع فسعوا للإصلاح..

ج - بارقة أمل:

وكان من أبرز هؤلاء الأباطرة المصلحين قسطنطين، نظرًا للأعمال الهامة التي قام بها والتي كان لها أثر واضح في تغيير وجه التاريخ الأوربي، وقد قام بخطوتين على جانب كبير من الأهمية حيث اعترف رسميًا بالديانة المسيحية ونقل عاصمة الإمبراطورية من روما القديمة إلى روما جديدة شيدها على ضفاف البسفور.

✓ **ومن أهم التغييرات التي قام بها:**

- التفرقة بين السلطتين الحربية والمدنية في الولايات.
- إدخال مبدأ الحكم الوراثي، وقد اعتمدت أسرته في ذلك على تأييد الجيش من جهة وعلى الدعامة الدينية من جهة أخرى.
- إنقاص عدد أفراد القوة العسكرية، والمواصلة في سياسة فتح الباب أمام الجرمان للانخراط في سلك الجيش كجنود نظاميين.
- مضاعفة الضرائب والخدمات الجمركية.
- إنزال طبقة الصناع إلى مرتبة العبودية بجعل الحرب والأعمال وراثية.
- أما في الجانب الديني فإن اعتناقه واعترافه بها رسميًا كان له أعظم الأثر فيما وصلت إليه المسيحية من مجد وعظمة بعد ذلك. وكان أن وجدت المسيحية متنفسًا كبيرًا بعد أن كانت تعاني من الضغوط والقتل والتشريد في صفوف رجالها. ولم تلبث الكنيسة أن حصلت على امتيازات هامة بوصفها راعية الديانة الرسمية للدولة.

وبعد قسطنطين قسمت الإمبراطورية بين أبنائه الثلاثة إلى أن تمكن أحدهم – وهو قسطنطيوس – من توحيدها مرة أخرى سنة 350.

د -إلى الانهيار من جديد:

سرعان ما بدأت الإمبراطورية ذلك تتعرض لعوامل الانحلال السريع عندما اشتدت هجمات الأعداء على حدودها دون أن تفلح جهود الأباطرة في صد تلك الهجمات أو في وقف تيار الانحلال، فبدأت قبائل القوط تتسرب داخل الأراضي الإمبراطورية تحت ضغط الهون الآسيويين.

وفي هذا الوقت أخذت الكنيسة تظهر على درجة كبيرة من القوة والثـروة وأصبح مصير الإمبراطورية معلقًا بين الجرمان ورجال الكنيسـة. ثـم انقسـمت الإمبراطورية إلى قسمين شرقـي وغـربي بـين ابنـي) ثيودسـيوس (وهـو مظهـر من مظاهر التفكك والانحلال الذي لم تفعل جهود المصلحين من الأباطرة قبـل ذلـك إلا أن أخـرت وقوعـه، ولم يكـد القـرن الخـامس ينتصـف حتـى كانـت الإمبراطورية الرومانية في الغرب قد مزقت إربًا لضياع معظم أجزائها في أيـدي القوى الخارجية من البرابرة وغيرهم.

٥- سقوط الإمبراطورية في الغرب وقيام الممالك الجرمانية:

توالت الضربات على الإمبراطورية الغربية فسقطت سـنة 476، وأصـبح الأمل الوحيد في الكنيسة التي التف حولهـا الإيطـاليون طـوال القـرون التاليـة ورأوا فيها الزعيم والسند الكفيلين بحمايتهم. وقد قامت ست ممالك جرمانية في غرب أوروبا على أنقاض الإمبراطورية الرومانية.

وهذه الممالك هي :مملكة أودواكي في إيطاليا - الوندال في شمال إفريقيـا - القوط الغربيون من اللـوار حتـى جبـل طـارق - البرجنـديون في وادي الـرون ووادي الساؤون - دولة الفرنجـة عـلى المـز والـراين الأدنـى - وصـغرى هـذه الممالك الجرمانية وهي مملكة السويفي في الجهات المعروفة حاليًـا بـأمم البرتغـال وغاليسيا.

ومن أهم هذه الممالك الست دولة الفرنجة التي يعتبر قيامها أهـم حـدث في تاريخ الغزوات الجرمانية لأنها كانت حركة توسعية أكثر منها هجرة تتصـرف بطابع الغزو.

وقد احتفظ الفرنجة بأصولهم وحضارتهم وحيويتهم الجرمانية بينما ذابت بقية الشعوب الجرمانية في المحيط اللاتيني الذي استقرت فيه.

وقد اعتنق الفرنجة المسيحية، والمهم في هذا هو أنهم اعتنقوها على عذابها الإثناسيوسي أو الغربي مخالفين في ذلك بقية الشعوب الجرمانية التي ظلت ممقوتة في الغرب بسبب أريوسيتها، فاكتسب الفرنجة بذلك عطف الكاثوليك وتأييدهم في جميع أرجاء غرب أوروبا وقام بذلك نوع من التعاون والارتباط والتآلف بين الفرنجة والنرمان وظهر ملوك الفرنجة في ثوب حماة المسيحية ورجالها في الغربة مما مهد لإيجاد نوع من التحالف بين البابوية وملوك الفرنجة مما كان له أبعد الأثر في مستقبل أوروبا العصور الوسطى.

وقد توسع الفرنجة في الاتجاهين الشرقي والشمالي إضافة إلى توسعهم في الجهات الغربية والجنوبية، وذلك عندما أخذ الأهالي من الرومان الكاثوليك في بقية أنحاء "غاليا" يتمنون الدخول تحت حكم الفرنجة الذين يتفقون معهم في المذهب، وقد ظهر هذا التوسع بوضوح خاصة عندما أنزل الفرنجة بالألمان هزيمة ساحقة حتى اضطروا إلى الدخول تحت حماية ملك القوط الشرقيين. على أن اعتناق الفرنجة للمذهب الكاثوليكي لم يلبث إن أثار روح البغضاء والكراهية بينهم وبين غيرهم من طوائف الجرمان الأريوسيين في غاليا مثل البرجنديين والقوط الغربيين وغيرهم.

و-صراعات بين الغزاة:

أما البرجنديون فقد استطاع كلوفس ملك الفرنجة إجبارهم على دفع الجزية - رمز التبعية – وأما القوط الغربيون فقد قتل ملكهم واستولى على جزء من مملكته، إلى أن تدخل ملك القوط الشماليين وحل الموقف وتم الاتفاق على أن يحتفظ كلوفس بجزء من مملكة القوط الغربيين في حين احتفظ ملك القوط الشرقيين بالجزء الآخر.

وقد اعتبر الفرنجة أن الملك إرث يقسم بين سائر أبناء الملك كسائر أنـواع الإرث.. ولذلك فقد قسم كلوفس المملكة بين أبنائه الأربعة وكـان لهـذا الأمـر أثره في مستقبل دوله الفرنجة. وقد تواصلت مقومات هذه الدولة – رغم ذلـك التقسيم – وخاصة وأن كلوبترا استطاع توحيد مملكة الفرنجـة مـن جديـد بعـد وفاة إخوته الثلاثة. إلا أن هذه المملكة العريضة لم تلبث أن انقسمت مرة أخـرى لتظهر فيها بكل وضوح الخلافات التاريخية والجنسية بين مختلف الأقسام.

ثم غزا القوط الشرقيون إيطاليـا في شـكل هجـرة عامـة اصـطحبوا فيهـا ناءهم وماشيتهم وكان زعميهم ثيوديك يعتبر أعظم شخصية سياسية في عصرـه وقد دخل إيطاليا صديقًا لا عدوًا، وتمتعت في عهده بحكم قوي حازم، وبالرغم من ذلك فقد ظل الخلاف المذهبي يحول دون حسن التفاهم بين الاثناسيوسـيين والأريوسيين، ولم يتمكن ثيودريك رغم كل الجهود التي بذلها مـن إقامـة مملكـة قوطية آمنة ثابتة الأركان في إيطاليا، ولم تخضع له هذه الحقيقة المؤلمة إلا في أواخر أيامه عندما قام إمبراطور الدولة البيزنطية باضطهاد كبير للأريوسيين. ولما لم يجد تدخل ثيودريك قام بحملة أكبر شناعة ضد الكاثوليك في إيطاليا. وعندما مـات ثودريك اختفى القوط الشرقيون من صفحة التاريخ كأمة قائمة بذاتها.

أما بريطانيا فقد انسحبت منها الفرق الرومانية في أوائـل القـرن الخـامس ثم تلاحقت عليها الأحداث إلى أن توارت تمامًا من مسرح التاريخ، حتى إذا مـا ظهرت من جديد كانت قد اتخذت صيغة جديدة وأصبحت إنجلترا لا بريطانيا، ذلك أن عناصر مختلفة من التيتون المقيمين على شـواطئ بحـر الشـمال وفي شـبه جزيرة جتلاند) مثـل الإنجليـز والسكسـون والجـوت (واصـلت غاراتهـا عـلى بريطانيا وخاصة بعـد انسـحاب الجيـوش الرومانيـة في أواخـر النصـف الأول

من القرن الخامس فاصطحبوا معهم نساءهم قصد الإقامة، فطردوا أهل البلاد الأصليين مما جعل المسيحية تختفي مؤقتًا من البلاد.

ولم يكن لهؤلاء الغزاة وحدة سياسية تربط البلاد تحت سيطرتهم وإنما أقاموا سبع ممالك قبلية عرفت باسم الممالك السبع واستمرت المنازعات بين هذه الممالك حتى استطاع اثلبرت- وهو أحد الملوك السبع - أن يفرض سيطرته عليها جميعًا. وكان هذا الملك قد تزوج من أميرة فرنجية مسيحية في الوقت الذي وصل إنجلترا القديس أوغسطين الصغير مبعوثًا من البابا جريجوري وكان لهذين العاملين أثر كبير في انتشار المسيحية بخطى حثيثة من جديد في هذه البلاد؛ حتى غدت الكنيسة أكبر قوة حضارية تعمل على نشر المدنية والوحدة القومية بين ربوعها.

وهكذا يتضح أن الغزوات التي قام بها البرابرة قد تركت أثرًا واضحًا في المجتمع الروماني وأدت إلى تحطيم الإمبراطورية الرومانية في الغرب ولم تفلح جهود الإمبراطور البيزنطي في استرداد الأقاليم المفقودة.

أما من الناحية الاقتصادية فإن الامبراطورية الرومانية كانت تشكو أعوام التدهور الاقتصادي قبل أن تقوم جموع الجرمان بغزو أراضيها، ذلك الغزو الذي زاد الطين بلة لما صحبه من حروب نتج عنها التدمير والخراب وتوقفت التجارة والصناعة والزراعة.

ولعل الناحية التي ظلت ثابتة في التطورات الجديدة هي الكنيسة الكاثوليكية التي احتواها الجرمان ولم يمسوها بسوء، حتى ازدادت في ذلك العصر قوة ونفوذًا، والواقع أن الأخطار التي ألقت بالعالم الروماني من جهة وسقوط الإمبراطورية الغربية من جهة أخرى جعلا الكنيسة الغربية تبدو

في صورة القوة الوحيدة التي يمكنها إنقاذ ما يمكن إنقـاذه مـن تـراث المـاضي. كما أصبح القساوسة بمثابة الزعماء الطبيعيين الذين التف حـولهم النـاس وسـط الأزمة الحادة التي أحاطت بهم.

إن فترة التاريخ الأوروبي التي نسميها "العصـور الوسـطى" تعتـبر عـادة من ألف سنة أو نحو ذلك بين سقوط الإمبراطورية الرومانية في الغرب (حـوالي 400 م)، وحتى بداية النهضة الإيطالية (في ج. 1400). في الواقع، وقـد صـاغ هذا المصطلح من قبل المؤرخين لاحـق، وتعنـي "العصـور الوسـطى"، والتـي قد تصبح اليوم بأنه "في الفترات الفاصلة بين مرات" - تلك الفترة التي جـاءت بعد الحضارات عالية من الإغريق و الرومان ، وقبل الحضارة عالية مـن عصـر النهضة: عصر البربرية والجهل، والأمية والعنف.

ما زلنـا نحصـل عـلى صـدى مـن هـذا في الأفكـار المحيطـة بمصـطلح "القوطية" - الظلام، الكئيب، الشرف. في الواقع، على الرغم مـن أن المـؤرخين الحديثين يعتبرون هذه القرون مهد العصر الحديث، وهو الوقت الذي كانت فيه العديد من عنـاصر مجتمعنـا الـذي نقـدره - الديمقراطيـة والتصـنيع والعلـوم وما إلى ذلك - جذورها. وكان واحداً مـن أكثـر العصـور الرائعـة والتحويليـة في تاريخ العالم.

ويمكن تقسيم هذه الفترة الطويلة ألف سنة إلى ثـلاث مراحـل رئيسـية، من طول غير متكافئ. وقد سـمى القـرون الخمسـة بعـد سـقوط رومـا (حتـى 1000 ج) العصور المظلمـة، وشـهدت انخفاضـا كبـيرا في مسـتوى الحضـارة المادية. وانكمشت التجارة لمسافات طويلـة، وانهـارت العملـة، عـاد الاقتصـاد في الغالب إلى المقايضة، وتقلصت المـدن بشـكل كبـير في الحجـم. محـو الأميـة،

ومع ذلك التعلم، كل ما اختفت. وقد أعيد تشكيل المجتمع الأوروبي مع ظهور القراصنة المكتفية ذاتيا، ثم جنود الحصان (فرسان)، وأخيراً الإقطاع. وقد عززت الكنيسة، التي كانت مؤثرة جدا في وقت سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية، عظمتها على المجتمع.

كانت الفترة من العصور الوسطى العليا، من حوالي 1000 إلى 1350، علامة مائية عالية من الحضارة في القرون الوسطى، وترك تركة دائمة في الكاتدرائيات المرتفعة والقلاع الضخمة التي نشأت في جميع أنحاء أوروبا. من حوالي 1350 إلى 1500 كانت فترة أواخر العصور الوسطى فترة انتقال، ورؤية ظهور أوروبا الحديثة.

تغيير الحدود:

بحكم التعريف تقع حضارة أوروبا في القرون الوسطى في أوروبا. ومع ذلك، من حيث تلك السمات التي نربطها مع المجتمع في العصور الوسطى - الإقطاع، والفروسية، المسيحية وهلم جرا - تغير الموقع مع مرور الوقت، ولم تغطي حقاً كل من أوروبا.

كانت جذور العديد من عناصر القرون الوسطى في المجتمع أصولها الجغرافية في مقاطعات الإمبراطورية الرومانية المتأخرة، ولا سيما غول (فرنسا) وإسبانيا وإيطاليا. عندما انهارت الإمبراطورية الرومانية و كانت هذه المحافظات قد اجتاحتها القبائل البربرية، فإن التوليف بين الثقافات الرومانية والألمانية خلق في نهاية المطاف مجتمعا "إقطاعياً" معترف به - وهو واحد من السمة المميزة للحضارة الأوروبية في القرون الوسطى (على الرغم من أن كلمة "الإقطاع" تحتاج إلى بعض التعامل الدقيق). وهذا يميز مناطق الإمبراطورية

الرومانية الغربية القديمة من الإمبراطورية الرومانية الشرقية.هنا، نجت السلطة الرومانيـة لمـدة ألـف سـنة أطـول ممـا كانـت عليـه في الغـرب، ومركـزة عـلى القسطنطينية. يصف العلماء الحديثون هذه الامبراطورية البيزنطية، وتـأتي لتـأثير الكثير من أوروبا الشرقية.

لم تكن أوروبا فى العصور الوسطى كالآن، بل كانت تنتشر بالخرفات التى لن تصدقها فلا يوجد أي مقارنة من أي نوع لآوروبا الآن وأوروبـا في العصـور الوسطى وقد رصدنا لكم في هذا المقال مظاهر حيـاة الإنسـان الأوروبـى قـديماً فى العصور الوسطى.

إحتساب الوقت:

فى أوائل القرون الوسـطى قـام الأوروبيـين بإبتكـار طريقـة غريبـة جـداً لإحتساب الوقت حيث قاموا بتقسـيم اليـوم إلى سـبع سـاعات فقـط متسـاوية فى الطول، وبسبب أن أيام الصيف أطول مـن أيـام الشـتاء كـان يـتم إحتسـاب الساعة فى الشتاء ب 60 دقيقة وإحتساب الساعة فى الصيف ب 150 دقيقة.

نـظام السجون :

فى تلك الفترة المظلمة، كان نظام السجون وحشـياً جـداً بكـل مـا تحملـة الكلمة عكس الآن تماماً، حيث لم يكن هناك أى نوع أو أى شـكل مـن أشـكال التحضر حيث كانت السجون عبـارة عـن قـلاع عاليـة جـداً والمسـجون يظـل فى السجن طوال اليوم ولا يرى الشمس إطلاقاً بل ويظل مكبل اليدين بالإضافة إلى سوء الطعام لدرجة أن معظم المساجين كانوا يموتون داخل السجون.

أرصفة الشوارع:

كانت الشواع فى أوروبا فى ذلك الوقت وفى معظم المدن الكبرى وتحديداً فى لندن قذرة بكل ما تحملة المعنى من كلمة حيث لم يكن هناك أرصفة فى الشوارع وكانت الشوارع غارقة فى المياة العفنة وروث الحيوانات طوال الوقت بالإضافة للطعام الفاسد الموجود فى الشوارع.

علاج للمشكلات النفسية:

لم يكن هناك أى علاج للمشكلات النفسية فى حيث المريض النفسى فى ذلك الوقت كانوا يظنون أنه مسوس من قبل الجن وكانوا يذهبوا به إلى الكهنة مما أدى إلى إنتشار الخرافات وساد التطرف والسحر وكانوا يعالجهوم بطرق مخيفة كالعزلة والضرب والجلد لتخرج الروح الشريرة وكانوا يجعلوهم مكبلين اليدين لفترات قد تصل إلى عشر سنوات.

عدد السكان:

عندما نقل أن عدد السكان قليل فنحن نعنى ذلك حيث كان عدد السكان فى ذلك الوقت فى لندن وباريس لا يتعدى 40 ألف نسمة فكانت أوروبا فى ذلك الوقت فارغة تماماً.

كرة القدم:

ربما تعد كرة القدم الآن اللعبة الشعبية الأولى وتعد أوروبا من القارات المتميزة فيها فقد كانت هذه الرياضة فى ذلك الوقت مزيج من الراكبى وكرة القدم الآن ونظراً للعنف الموجود فى اللعبة منع الملك إدوارد الثانى هذه الرياضة فى عام 1314.

الغالبية العظمى سكارى:

كان الغالبية العظمى للناس فى ذلك الوقت سكارى وكان من الصعب الحصول على مياة نظيفة وقد ظن الناس أن الماء فى ذلك الوقت صعب لعملية الهضم وكان يتم شرب النبيذ بشكل مفرط بدلاً من الماء.

الإستحمام:

أوروبا الحالية والمواطن الأوروبى الحالى ليس له علاقة بالمواطن الأوروبى فى القرون الوسطى، والأوروبى الأنيق النظيف الآن مختلف تماماً عن الأوروبى فى هذه القرون والذى كان يعتقد أن الإستحمام يسبب أضرار بدنية وصحية وأن الأطفال الذى يتعرض بدنهم للماء تتعرض أبدانهم للهشاشة على الرغم من إنتشار الحمامات فى المدن الكبيرة مثل أثينا وروما.

الموت بالطاعون:

يعتبر الطاعون او ما كان يعرف باسم الموت الأسود واحد من أكثر الأمراض فتكاً فى التاريخ، وفقاً لحسابات تاريخية قتل الطاعون ما يقرب من نصف سكان أوروبا فى ذلك الوقت فإذا كنت تعيش هناك فقد تكون نسبة إصابتك للطاعون تصل إلى 50٪.

أستند الطب على الخرافة:

فى القرون الوسطى فى أوروبا كان الذهاب للطبيب هى أسوأ مخاوفك فقد كان التنجيم سائد فى علاج الكثير من الحالات وقد كان يتم إستخدام الأدوات المدبدبة وبدون تخدير إطلاقاً وكانوا يستخدمون النظريات البرية لعلاج المرضى.

الفصل الثالث

طغيان الكنيسة في العصور الوسطى الأوروبية

إن كانت الكنيسة خسرت دينها ونفسها عندما اقتضت مصلحتها التحالف مع الإمبراطور قسطنطين وحَرَّفَت دينها ووثنت النصرانية من أجل الاعتراف بها ديناً رسمياً للإمبراطورية الرومانية، فإنها أيضاً أذلت أتباعها واستعبدتهم باسم الدين والدين منه براء عندما تطورت العلاقة بين الكنيسة والأباطرة إلى الشراكة في حكم أتباعهما في المجتمعات الإقطاعية الغربية، وفي تلك الفترة لعب رجال الدين الذين دخلوا على خط الإقطاع وتملكوا الإقطاعيات الكبيرة دوراً كبيراً وخطيراً في تخدير مشاعر الفلاحين المستعبدين والمظلومين والمقهورين عند الإقطاعيين، وامتصاص نقمتهم وإجهاض رغبتهم في الثورة والتمرد على ذلك الظلم، بكذبة: أن لهم -الفقراء- الجنة وملكوت السماء. وليت جشع رجال الدين النصارى وقف عند ذلك الحد ولكنه بعد أن استطاعت الكنيسة الهيمنة على الحياة كلها في أوروبا والتحكم في مصائر سكانها حكاماً ومحكومين وأصبح لها الكلمة الفصل والمطلقة على الجميع، امتدت أيدي الكنيسة ورجال الدين إلى ما في جيوب الفقراء من الزهيد من المال إن توفر ليسرقوه باسم صكوك الغفران التي أعطوا لأنفسهم الحق في منحها لهذا أو ذاك بدعوى التفويض الإلهي للبابا ظل الله في الأرض!.

فقد توجت الكنيسة تصرفاتها الشاذة وبدعها الضالة بمهزلة لم يعرف تاريخ الأديان لها مثيل عندما احتاجت إلى مزيد من السلطة الدينية والنفوذ المالي لمواجهة أعدائها، وقد كان ألد وأخطر أعدائها (المسلمين) أثناء الحروب

الصليبية التي بدأت تلوح علامات هزيمتها فيهـا بعـد أن بلـغ ضـعف الحـماس الديني في نفوس الأوربيين مبلغاً كبيراً وفقد المقاتلون ثقـتهم في الكنيسـة نتيجـة لخيبة أملهم في النصر الذي وعدتهم به وعداً قاطعـاً، ففكـرت في وسـيلة تجعـل المقاتل يندفع للاشـتراك في الحملـة الصـليبية فكانـت تلـك الوسـيلة (صـكوك الغفران)! حيث أصدر المجمع الثاني عشر المعـروف باسـم مجمـع لاتـيران سـنة 1215م قرار يمنح البابا حق امتلاك الغفران للمذنبين! يقول ول ديورانـت: أن صكوك الغفران كانت توزع على المشتركين في الحروب الصليبية ضد المسلمين. **وأنه لم يكن يحظى بالحصول على صك الغفران إلا أحد أثنين:**

1. رجل ذو مال يشترى الصك من الكنيسة حسب التسعيرة التي تحددها هي.
2. رجل يحمل سيفه ويبذل دمه في سبيل نصـرة الكنيسة والدفاع عنها وحراسة مبادئها.

وقد مثل ذلك ذروة الطغيان الكنسي ضد الفقراء والأمراء على حد سواء، وكانت أول أمرها من أسباب قـوة الكنيسـة ودعـائم شـموخها، حيـث قويـت الكنيسة وتدعمت سلطتها بالجحافل البربرية التـي تطوعـت للقتـال في سـبيلها من أجل الحصول على الغفران. وبالمقابل كانت لهـا نتـائج سـلبية عـلى الكنيسـة ووضع حد لطغيانها نهائياً بعد عدة قرون، فقد انخفضت سلطة الملوك والأمـراء والنبلاء الذين كانوا جنوداً للكنيسـة يقـاتلون بأنفسـهم في الحـروب الصـليبية. ورأوا أنهم أصبحوا هـم وشـعوبهم ليسـوا إلا أدوات أو صـنائع رجـال الـدين يمنون عليهم بالعفو إن رضوا ويعاقبونهم بالحرمان إن سـخطوا، كـما أن الثـراء الذي حصلت عليه الكنيسة جعلها تبدو منافسـاً قويـاً لأصـحاب الإقطاعيـات وكبار الملاك ما أثار في نفوسهم شعور العداوة لها والحقد عليها.

أضف إلى ذلك الأسباب الأخرى التي تجدها في كل الكتب عند الحديث عن ظروف نشأة العلمانية في الغرب، والثورة ضد الكنيسة، **مثل**:

1. **الطغيان الديني (محاكم التفتيش)**: بدء من فرض عقيدة التثليث، مروراً باضطهاد الكنيسة لكل المخالفين لها، انتهاء بثورة مارتن لوثر المزعوم أنها (إصلاحية). يقول برنتن: "لم يكن بوسع الكثيرين من أفراد المجتمع الغربي أن يعترفوا صراحة وجماعة بالإلحاد أو اللاارادية أو بمذهب الاتصال بالله أو بأية عقيدة أخرى غير (المسيحية) إلا خلال القرون القلائل الأخيرة، وقد كان الكفار الذين يجاهرون بكفرهم قلة نادرة في الألف سنة التي استغرقتها القرون الوسطى.

2. **الطغيان السياسي**: فقد تحول رجال الدين إلى طواغيت وسياسيين محترفين، وتملكتهم شهوة عارمة للتسلط ورغبة شرهة في الاستبداد، بزعم تطبيق الشريعة وأن البابا ظل الله على الأرض. فقد كانت الكنيسة ترى أن خضوع الملوك لها ليس تطوعاً منهم بل واجباً يقتضيه مركزها الديني وسلطانها الروحي جاء في البيان الذي أعلنه البابا (نقولا الأول) قوله: "إن ابن الله أنشأ الكنيسة؛ بأن جعل الرسول بطرس أول رئيس لها، وأن أساقفة روما ورثوا بطرس في تسلسل مستمر متصل..(لذلك) فإن البابا ممثل الله على ظهر الأرض يجب أن تكون له السيادة العليا والسلطان الأعظم على جميع (المسيحيين)، حكاماً كانوا أو محكومين".

3. **الطغيان المالي**: يستطيع المرء أن يقول دون أدنى مبالغة أن الأناجيل (المسيحية) لم تنه عن شيء نهيها عن اقتناء الثروة والمال، ولم تنفر من شيء تنفيرها من الحياة الدنيا وزخرفها، وجاءت القرون التالية فشهدت مفارقة

عجيبة بين مفهوم الكنيسة عن الدنيا وبين واقع الكنيسة العملي، **ونستطيع أن نلخص مظاهر الطغيان الكنسي في هذا المجال بما يلي:**

- **الأملاك الإقطاعية:** يقول ول ديورانت: "أصبحت الكنيسة أكبر ملاك الأراضي وأكبر السادة الإقطاعيين في أوروبا، فقد كان دير "فلدا" مثلا، يمتلك (15000) قصر صغير، وكان دير "سانت جول" يملك ألفين من رقيق الأرض، وكان "الكوين فيتور" (أحد رجال الدين) سيداً لعشرين ألف من أرقاء الأرض، وكان الملك هو الذي يعين رؤساء الأساقفة والأديرة، وكانوا يلقبون بالدوق والكونت وغيرها من الألقاب الإقطاعية، وهكذا أصبحت الكنيسة جزءً من النظام الإقطاعي. وكانت أملاكها الزمنية، أي المادية، وحقوقها والتزاماتها الإقطاعية مما يجلل بالعار كل (مسيحي) متمسك بدينه، وسخرية تلوكها ألسنة الخارجين على الدين ومصدراً للجدل والعنف بين الأباطرة والباباوات".

- **الأوقاف:** كانت الكنيسة تملك المساحات الشاسعة من الأراضي الزراعية باعتبارها "أوقافاً" للكنيسة بدعوى أنها تصرف عائداتها على سكان الأديرة وبناء الكنائس وتجهيز الحروب الصليبية، إلا أنها أسرفت في تملك الأوقاف حتى وصلت نسبة أراضي الكنيسة في بعض الدول درجة لا تكاد تصدق، وقد قال المصلح الكنسي (ويكلف) وهو من أوائل المصلحين: "إن الكنيسة تملك $1/3$ أراضي إنجلترا وتأخذ الضرائب الباهظة من الباقي، وطالب بإلغاء هذه الأوقاف واتهم رجال الدين بأنهم "أتباع قياصرة لا أتباع الله".

- **العشور:** فرضت الكنيسة على كل أبتاعها ضريبة "العشور" وبفضلها كانت الكنيسة تضمن الحصول على عشر ما تغله الأراضي الزراعية والإقطاعيات، وعشر ما يحصل عليه المهنيون وأرباب الحرف غير الفلاحين. يقول ويلز: "وكانت الكنيسة تجبي الضرائب ولم يكن لها ممتلكات فسيحة ولا دخل عظيم من الرسوم فحسب، بل فرضت ضريبة العشور على رعاياها، وهي لم تدع إلى هذا الأمر بل طالبت به كحق".
- **ضريبة السنة الأولى:** لم تشبع الأوقاف والعشور نهم الكنيسة الجائع وجشعها البالغ بل ظلت ترهق كاهل رعاياها بالرسوم والضرائب الأخرى، ولما تولى البابا حنا الثاني والعشرين جاء ببدعة جديدة هي "ضريبة السنة الأولي" وهى مجموعة الدخل السنوي الأول لوظيفة من الوظائف الدينية أو الإقطاعية، تُدفع للكنيسة بصفة إجبارية، وبذلك ضمنت الكنيسة مورداً مالياً جديداً.
- **الهبات والعطايا:** كانت الكنيسة تحظى بالكثير من الهبات يقدمها الأثرياء الإقطاعيون للتملق والرياء أو يهديها البعض بدافع الإحسان والصدقة، كما أنهم كانوا يخشون غائلة غضب الكنيسة بحرمانهم من المغفرة عند الاحتضار على الأقل. وقد قويت هذه الدوافع بعد مهزلة صكوك الغفران إذ انهالت التبرعات على الكنيسة وتضخمت ثروات رجال الدين كما أسلفنا.
- **العمل المجاني "السخرة" :** لم تقتنع الكنيسة ورجال الدين بامتلاك الإقطاعيات برقيقها بل أرغمت أتباعها على العمل المجاني في حقولها وفي مشروعاتها، لا سيما بناء الكنائس والأضرحة، وكان على الناس

أن يرضخوا لأوامرها ويعملون بالمجان لمصلحتها مدة محددة هي في الغالب يوماً واحداً في الأسبوع ولا ينالون مقابل ذلك جزاءً ولا شكوراً.

- **المواسم المقدسة والمهرجانات الكنسية:** التي كانت تدر الأموال الطائلة على رجال الكنيسة، فمثلاً "في سنة 1300 م عقد مهرجان لليوبيل واجتمع له جمهور حاشد من الحجاج في روما بلغ من انهيال المال إلى خزائن البابوية أن ظل موظفان يجمعان بالمجاريف الهبات التي وضعت عند قبر القديس بطرس".

وهكذا كانت الجماهير ترزح تحت أثقال الكنيسة وأعبائها المالية المرهقة، وكان الملوك والأباطرة ورجال الدين الصغار يحسون بذلك أيضاً ولم يكن في وسع أحد أن يرفض شيئاً من ذلك، فالشعب خاضع تلقائياً لسطوتها، والملوك كانوا يخشون بأسها من جهة كما كانت بينهما مصالح مشتركة من جهة أخرى، إذ كانت الكنيسة تمدهم بأسباب البقاء، ولكنهم كانوا يتحينون الفرصة لإعلان احتجاجهم. يقول تولستوي :"لقد استولى حب السلطة على قلوب رجال الكنيسة كما هو مستول في نفوس رجال الحكومات، وصار رجال الدين يسعون لتوطيد سلطة الكنائس من جهة ويساعدون الحكومات على توطيد سلطتها من جهة أخرى". إذن فمصلحة السلطتين تقتضي بقاء الأوضاع على صورتها الواقعة.

4. **الصراع بين الكنيسة والعلم:** بما أن الدين بصبغته الإلهية النقية لم يدخل المعركة في أوروبا العصور الوسطى، فإن الأصح أن نسمي ما حدث في الغرب صراعاً بين الكنيسة والعلم وليس بين الدين والعلم.

وقد كان الصراع نتيجة خطأين فادحين ارتكبتهما الكنسية:

- **أحدهما**: تحريـف حقـائق الـوحي الإلهـي وخلطهـا بكـلام البشرـ، والخرافات الوثنية والمعلومات البشرية التـي جعلتهـا الكنيسـة عقائـد إلهية تدخل في صلب الدين وصميمه، وعدت الكفر بها كفراً بـالوحي والدين.
- **والآخر**: فـرض الوصـاية الطاغيـة عـلى مـا لـيس داخـلاً في دائـرة اختصاصها، وحاسبت الناس لا على معتقدات قلوبهم فحسـب، بـل على نتائج قرائحهم وبنات أفكارهم.

أثر الكنيسة على الفكر الأوربي

لقد نقد المفكرون الأوربيون الكنيسـة وحـاولوا إصـلاحها، ومـع تقـدم العلوم والمعارف، اصطدموا بالكنيسة وحدث مـا سـمي بالصـراع بـين الـدين (المسيحي الكنسي) والعلم، وحينما أتيحت لهم فرصة التحـرر مـن ذلـك الـدين استغلوها إلى أبعد الحدود ، ولذلك فإن الكنيسة أضرت بالدين لكونهـا السـبب في نبذه والتحرر منه.

ولا بد من التأكيد هنا أن الذي حدث في أوربا ليس راجعا إلى الدين بوجه عام، وإنما بالدرجة الأولى إلى المسيحية وعقائدها وشعائرها ورجال الدين فيهـا، فالنتائج التي سبق ذكرها تولدت في بيئة معينـة، ونتيجـة لظـروف معينـة وديـن معين، وهذا الحكم لا ينسحب على الإسـلام والمجتمعـات الإسـلامية، لانتفـاء التعارض والصراع بين العلم والدين في الإسلام ، بل على العكس هنـاك دعـوة للتفكر والنظر والتأمل.

لقد تهيأ للكنيسة في العصور الوسطى سلطان واسع النطاق ، روحيا بحكم وظيفتها، وسياسيًا بسبب ضعف الملوك والأباطرة ، وأدى انهيار الإمبراطورية الرومانية في الغرب عام 476 م إلى ازدياد سلطة الكنيسة، فسيطرت الكنيسة على التعليم بالمدارس، واحتكرت لنفسها تأويل الكتاب المقدس ، وأدانت كل من جاهر بحقيقة لم تقرها من قبل ، ويكفي أن نعلم أن التقدم للحصول على الدكتوراه في القانون يحتاج لموافقة الأسقف.

لقد أدت تفسيرات الكنيسة لنصوص العهد القديم لمناقضة العلم صراحة، كالقول بدوران الشمس حول الأرض، واعتبار أمراض المسيحيين مردها إلى الشياطين، واستبعاد علم طبقات الأرض والأنثروبيلوجيا، إضافة لاعتبار علم الكيمياء فنا شيطانياً خبيثاً، وغيرها من التناقضات الكثيرة مع العلم.

وقفت الكنيسة بعد ذلك بالمرصاد لكل فكر مخالف لها، ولكل صاحب رأي مغاير لرأي آبائها ورجالها، واضطهدت المخالفين إن وجدوا وقمعتهم، وأقامت من أجل ذلك محاكم التفتيش المشهورة بالتعذيب والتنكيل التي لم يعرف لها التاريخ مثيلاً.

بعد هذه المقدمة والتمهيد ندخل في صلب الموضوع، متناولاً مراحل محاولات تحرر العقل الأوربي من قيود الكنيسة، والتي بدأت بنقد الكنيسة ومحاولة إصلاحها، وانتهت بالثورة على الكنيسة وما تتبناه من مسائل تتعارض مع ما وصل إليه العلماء.

أولاً: نقد الكنيسة الذي كان له أسباب أهمها: تدهور المستوى الأخلاقي لرجال الدين المسيحي وتفشي حالات الفساد بينهم، كشربهم للخمر وارتكابهم للزنا وغير ذلك، إضافة لاستغلال رجال الدين لنفوذهم بفرض ضرائب على رعايا الكنيسة، وجمعهم الأموال بطرق غير مشروعة، ناهيك عن طبيعة المعتقدات المسيحية المخالفة للعقل البشري كالتثليث والتجسيد.

لقد تطور هذا النقد من الأمور الأخلاقية لرجال الدين فحسب، إلى نقد التعاليم الكنسية ، ثم نقد الدين برمته، ومن الحركات التي قامت بالنقد: الكاثاريون ومعناها الأطهار، والولدانيون بقيادة بطرس والدو المتوفى سنة 1217 م .

ثانياً: بوادر الصراع بين الدين والعقل منذ القرن الثاني عشر على يد أكثر من شخصية، بطرس أبيلا و أنسلم وألبرتس ماجنوس وتوماس أكونياس وغيرهم، ولعل أبرزهم الفيلسوف الفرنسي بطرس أبيلارد، صاحب فلسفة الشك والتشكيك في كل شيء حتى في طبيعة المسيح.

ولا شك أن الصراع الذي بدأ بين العقل والكنيسة له أسباب أهمها: طبيعة الدين المسيحي واحتوائه على مسائل عقدية غامضة ، وأصول إيمانية معقدة ، كعقيدة التثليث التي كانت عقبة أمام التفكير العقلي السليم ، بسبب التحريف والتبديل الذي تعرض له الكتاب المقدس (التوراة والإنجيل) ، إضافة إلى سيطرة رجال الكنيسة على مقاليد العلم والعلماء ، واحتكار الكنيسة واستبدادها بفهم وتفسير الكتاب المقدس.

ثالثاً: ثورة الإصلاح الديني البروتستانتي التي خرجت على الكنيسة الكاثوليكية، ونددت بعيوبها ومفاسدها، والتي مهدت لظهورها طبعاً الحركات النقدية للكنيسة، وفقدان البابوية الكثير من نفوذها وهيبتها منذ القرن الرابع عشر بسبب الأسر البابوي (من عام 1305 – 1377) والانشقاق الكبير (بين عام 1378 – 1417) وتطور العقلية الأوربية تطوراً دنيوياً، بعدما كانت ترى الكنيسة هي الملجأ والملاذ، بسبب صكوك الغفران مثلا وموضوع الاستحالة.

لقد كان من أشهر قادة الإصلاح البروتستانتي: مارتن لوثر وزوينجلي وكالفن، وقد تحدث الكاتب عن نبذة لحياة كل منهم ، فمارتن لوثر – وهو الشخصية الأبرز في الإصلاح البروتستانتي والتي تنسب المدرسة إليه – تدين له حركة الإصلاح الألماني بقيامها وصفاتها، والذي أنكر صراحة صكوك الغفران و عصمة البابا وعصمة المجامع الكنسية، ودعا لإخضاع رجال الكنيسة للسلطة المدنية، عدم احتكار البابا لتفسير الكتاب المقدس، إضافة إلى إباحة الزواج للقسس ، وقد تزوج مارتن لوثر فعلاً بإحدى الراهبات.

والحقيقة أن هذه الحركة لا تعتبر إصلاحاً بل استقلالاً، فهي لم تزد على نقد الكنيسة الرومانية وليس نقد المسيحية، وإنشاء كنيسة جديدة بأفكار مختلفة ، فالكنيسة الرومانية ما زالت قائمة، وجذور وأصول المسيحية بشكل عام ما زالت قائمة، ولم تجرؤ الحركة على نقدها وإصلاحها، ففكرة التثليث والتجسد والخلاص ما زالت قائمة في كل المذاهب المسيحية، وكذلك التحريف في الكتاب المقدس ما زال قائماً.

رابعاً: ثورة العقل الأوربي على الدين المسيحي المتمثل بالكنيسة، فكانت ثورة على أمرين: على الكنيسة وفسادها الأخلاقي والمادي، وعلى المسيحية كدين يخالف العقل ويعوق الفكر أمام التقدم العلمي، واتجه العقل الأوربي إلى إحياء المذهب الإنساني من آداب اليونان والرومان، والاهتمام بالطبيعة وحب ارتياد المجهول.

لقد كان من نتائج ثورة العقل الأوربي تحرره من القيود الكنسية المفروضة على العقل والتفكير، والذي ولد كراهية للكنيسة، وتحرراً منها ومن الدين كذلك، إضافة إلى التحول إلى الترف وحياة التبذل والتهتك ونبذ كل التقاليد الدينية والآداب العامة، فانطلقت الشهوات من عقالها، وفشى الفساد حتى استغرق العصر كله.

خامساً: الصراع بين الدين (المسيحية) والعلم في أوربا في ظل التقدم العلمي، الذي أبرز مدى ملائمة أو موافقة ما تنتجه العقول الأوربية لما تؤمن به الكنيسة، وما جاء بالكتاب المقدس، و جناية رجال الدين المسيحي على دينهم كبيرة، إذ إن ما دسوه في كتبهم كان من بين أهم أسباب الصراع مع العلم.

ففي باريس حرم البرلمان الفرنسي – مدفوعاً من رجال الكهنوت – المباحث الكيميائية، التي قام بها شبان اشتغلوا بالعلم التجريبي، وفي إيطاليا قضى الإكليروس على أكاديمية البحث الطبيعي التي أنشأها تليزيو في نابلي عام 1560 ، وكذلك قاومت بريطانيا البروتستينية الجمعية الملكية والمجمع البريطاني لتقدم العلم ، ووصل هذا الصراع إلى أوجه في القرنين 16 و 17 ، مع نظريات علم الفلك الحديث التي زلزلت أركان الكنيسة.

سادساً: العلمانية التي اختلف كثيراً في معناها بين فتح العين وكسرها، وعلى كل حال فهي تعني بالاجمال اللادينية أو الدنيوية، واستبعاد الدين من توجيه شؤون الحياة، وقد نشأت العلمانية في أوربا بسبب الظروف الخاصة التي مر ذكرها هناك في الغرب، وبالتالي فلا يمكن بأي حال من الأحوال استنساخها في المجتمعات الإسلامية التي ليس فيها أي عامل من تلك العوامل التي أدت ظهورها .

سابعاً: التحول إلى الفكر المادي عند الأوربيين بفعل موقف الكنيسة من العلم، وتطلق المادية على المذهب القائل بأن الظواهر المتعددة للأشياء ترجع إلى أساس واحد هو (المادة)، ويرى أن العالم مجموعة مكونة من شيء واحد، والمادة أساس كل شيء، والحياة والحركة ما هي إلا وظيفة من وظائف المادة أو صفة من صفاتها، وهذه المادة لم يخلقها الله تعالى، بل قديمة أزلية، لا تتغير قوانينها ولا تفنى، ولكن العلم الحديث أثبت بشكل قاطع اهتراء هذه النظرية وبطلانها، من خلال تأكيده على أن الكون له بداية، وأن أزلية المادة وهم وباطل بطلانا تاماً.

لقد كان للكنيسة وأفعالها المقيدة للعقل والعلم، أثر بارز وظاهر في اتجاه العقل الأوربي إلى الاتجاه المقابل تماماً، ألا وهو الإيمان بالمحسوس والمادة فحسب، وطرح الدين (المسيحي) جانباً، والكفر بمبادئه وعقائده وغيبياته.

الفصل الرابع

العصر الوسيط

(عصر الفيودالية والنظام الفيودالي)

1. خصائص العصر الوسيط (عصر الفيودالية و النظام الفيودالي):

درج المؤرخون الأوربيون منذ عصر النهضة على تقسيم تاريخ أوربا إلى مجموعة عصور متعاقبة هي: العصر القديم بمرحلتيه اليونانية و الرومانية، والعصر الوسيط ثم العصر الحديث. واتخذوا من بعض الأحداث السياسية العسكرية الكبرى مفاصل بين عصر وآخر.

ويجمعون في هدا الشأن بأن سنة 476 ميلادية، التي تم فيها وضع حد لسيادة الإمبراطورية الرومانية تمثل نهاية العصر القديم و بداية العصر الوسيط. بينما اعتبروا سنة 1453 ميلادية، تاريخ سيطرة الأتراك العثمانيين على القسطنطينية، نهاية العصر الوسيط و بداية العصر الحديث. ومن ثم، يكون العصر الوسيط قد استغرق حوالي ألف سنة. شهدت خلالها أوربا بوجه عام ومناطقها الغربية بوجه خاص أحداثاً متميزة و تطورات متباينة، سواء من حيث الإيقاع أو من حيث المظاهر.

تعود مقدمات تلك الأحداث والتطورات إلى الفترة الممتدة بين القرنين الثالث و الخامس. وهي فترة اصطلح على تسميتها بالعصر الإمبراطوري الأسفل. شهدت خلالها الإمبراطورية الرومانية أزمة متعددة المظاهر انتهت بسقوط روما سنة 476 م. على اثر موجة غزو أولى قامت بها شعوب قدمت من شمال أوربا عبر فترات، واستقرت على أطراف الإمبراطورية قبيل بداية الغزو.

وإذا كان ذلك الغزو قد أدى إلى نهاية وجود الإمبراطوربة الرومانية، فقد أدى مــن جهــة ثانيــة إلى الإسراع بــوتيرة تلــك الأحــداث و التطــورات. إذ استطاعت تلك الشعوب، المعروفة بالشعوب الجرمانية، أنتسيطر عـلى أقـاليم غرب أوربا التي كانـت ولايـات تابعـة للإمبراطوريـة. وأسسـت بهـا كيانـات سياسية. فكان ذلك إيذانا ببداية مسلسل التجزئة السياسية و تدهور المؤسسات العمومية. وهو مسلسل استفحلت حلقاته خلال السنوات والقرون التـي تلـت عمليات الغزو، رغم بعض المحـاولات التـي رامـت العـودة بأوربـا إلى عهـود الوحدة. و قد تمت تلك المحاولات في نطاق محدود و آلت إلى الفشل. وبالتالي، وجب الانتظار حتى أواسـط القـرن الخـامس عشـر لتبـدأ محـاولات الوحـدة ولتشرع المؤسسات في التبلور في اطارالدول المركزية الناشئة.

وواكبت مسلسل التجزئة السياسية سلسلة حروب شبه متواصـلة داخـل أوربا وخارجها (كانت الممالك الأوربية طرفاً فيها) استغرقت العصــر الوسـيط برمته. حدثت أولاها بـين الممالـك الجرمانيـة التـي تأسسـتغداة الغـزو. وتلتهـا حروب خاضها أكبر حكام هاته الممالك، كحروب شارلمان الملك-الإمبراطـور فيجرمانيا وايطاليا وأسبانيا. ثم الحروب التـي جـرت فصـولها بمناسـبة الموجـة الثانية من موجات الغزو التي قام بها هـذه المـرة السـكندنافيون والهنغـاريون. والحروب بين المسيحيين و المسلمين، وأبرزهـا الحـروب الصـليبية في المشــرق وحرب الاسترداد في الأندلس. وانتهت سلسلة حروب العصر الوسيط بحـرب المائة سنة بين فرنسا و انجلترا اللتان انضمت لهما ممالك أخرى.

ومن المفيد أن نذكر في هذا المقام بأن العصر الوسيط في أوربا هو عصر الفروسية والفرسان. فقد شكل الفرسان الشريحة السفلى في الأرستقراطية. وكانوا موزعين على شكل فرق(مليشيات). تعمل كل واحدة منها تحت إمرة أحد أفراد الشريحة العليا في الأرستقراطية .و تربط بين الطرفين روابط خاصة تعرف بالروابط الفيودو- فصلية (les liens féodo-vassaliques). وقد مثلت هذه الروابط كنه ظاهرة الفيودالية.

وبما أن الحرب كانت اهتمام الفرسان الأول والأخير، فقد كانت الوقائع بين أفراد الأرستقراطيات المحلية أو الجهوية أمراً مألوفاً. و قد بلغت الوقائع ذروتها سنة 1337 حين اندلعت حرب المائة سنة المشار إليها آنفاً. وكانت تتخلل سلسلة الحروب والوقائع، أو تسبقها أو تتلوها، حركات اجتماعية- دينية كان يقوم بهاالفلاحون. وأبرزها حركات القرنين الحادي عشر و الرابع عشر.

وفي جميع الأحوال كان هؤلاء الفلاحون، الذين شكلوا السواد الأعظم في مجتمع أوربا العصر الوسيط، هم حصاد تلك الحركات و الحروب. كما كانوا في نفس الوقت هم الحطب المغذي للحروب بما يقدمونه من خدمات وضرائب و مغارم و مكوس لفائدة الأرستقراطية العقارية التي سخر أفرادها كل الوسائل القانونية و العسكرية للاستفادة من فائض إنتاج عمل الفلاحين. الذين كان الواحد منهم ملزما بقضاء أكثر ساعات النهار في وضعية انحناء نحو الأرض التي غدت خلال العصر الوسيط مصدر الإنتاج الرئيسي، بل مصدر حياة ووجود مجتمع بأكمله.

والجدير بالذكر في هذا الصدد أن عملية إعادة تشكيل الخارطة السياسية في أوربا بعد انهيار الإمبراطورية الرومانية واكبتها عملية إعادة تشكيل مماثلة « للخارطة الاقتصادية » التي لم تعد مشكلة من أنشطة واضحة المعالم: نشاط فلاجي في الأرياف ومبادلات تجارية وأنشطة حرفية وخدماتية في الحواضر. بل اختزلت كثيراً، حتى أنها لم تعد تشمل سوى النشاط الزراعي.

في حين اختفت المبادلات التجارية والأنشطة الحرفية ومختلف الخدمات، بما فيها الأنشطة الفكرية التي اشتهرت بها مدن الإمبراطورية الرومانية. ولم تعرف هذه الأنشطة الانتعاش إلا بعد مطلع القرن الحادي عشر. حين أفضت النهضة الزراعية التي شهدتها الأرياف إلى حدوث تحولات هائلة شملت جميع مناحي الحياة.

بدأت تلك النهضة تسجل تراجعاً ارتسمت معالمه الأولى حوالي 1316– 1317. وأصبحت واضحة منذ حوالي 1320 ايذانا بحدوث انقلاب في الظرفية، سرعان ما تحول إلى أزمة اقتصادية وديموغرافية واجتماعية وسياسية و عسكرية وفكرية استغرقت القرنين الرابع عشر والخامس عشر.

وانطلاقاً مما تقدم نخلص إلى القول بأن مجمل أحداث و ظواهر وتطورات العصر الوسيط، بما فيها ظاهرة الفيودالية، التي سنتناول جوانبها بتفصيل، حدثت في الأرياف التي مثلت إطارها الرئيسي؛ على الأقل حتى مطلع القرن الحادي عشر. حيث ستشرع المدن الناشئة في الانضمام إلى الأرياف كفضاء لأحداث و تطورات ما بعد سنة 1000. و لذلك نؤكد منذ البدء بأن تاريخ العصر الوسيط في أوربا هو عموما تاريخ أرياف.

فمنذ القرن الثالث للميلاد شهدت الإمبراطورية الرومانية مشاكل متعددة المظاهر، ازدادت تفاقماً حتى سنة 476 تاريخ سقوط روما. وكان من بين مظاهر تلك المشاكل تدهور المدن. وتواصل هذا التدهور خلال القرون اللاحقة حتى أن العديد منها اختفى تماماً. وإن المدن القليلة التي استمرت في الوجود تقلصت مساحتها وتراجع عدد سكانها. وبالتالي، أصبحت الأرياف هي إطار جميع الأنشطة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية حتى مطلع القرن الحادي عشر. حيث شهدت حركة التمدين بداية انتعاش سيتواصل خلال القرون الموالية. **فشرعت المدن بموازاة تلك الحركة في استعادة جانب من وظائفها وجانب من الهيمنة التي كانت تمارسها على الأرياف قبل القرن الثالث.**

ويجب التنبيه، بأن عملية الاستعادة تلك كانت محدودة نسبياً، حيث إن المبادلات التجارية التي تعتبر من أبرز الوظائف التي تحتضنها المدن ظلت مرتبطة بما كانت تقدمه الأرياف من منتجات زراعية ستشهد تراجعاً منذ سنتي 1316–1317. وسيتأكد هذا التراجع بعد سنة 1320 وعلى امتداد قرنين من الزمان.

كما أن التشكيلة الاجتماعية التي تمنح المدن هوية مجتمعية تتطابق وتسميتها كمدن لم تأخذ في التبلور إلا بعد مطلع القرن الرابع عشر. لأن البورجوازية، التي كان يفترض أن تكون الطبقة السائدة في تلك المدن، كما سيحدث بعد مطلع القرن السادس عشر، ظلت هجينة بعد عودة حركة التمدين إلى الانتعاش.

مما لا شك فيه أن الفقرات السابقة تسلط بعض الضوء على خصائص العصر الوسيط، وتساعد على فهم السياق العام الذي "نشأت" فيه وتطورت فيه الفيودالية في معناها الضيق كروابط والتزامات ذلت صلة بالفيف(*le fief*) أو في معناها الواسع كنظام اقتصادي و اجتماعي.

2. دلالات مفهومي " الفيودالية " و " النظام الفيودالي "

تعتبر كلمة " فيودالية " تعريبا للمصطلح الفرنسي " *Féodalité* " الـذي شرع في استعماله بفرنسا ابتداء من مطلع القرن السابع عشر؛ في وقـت أخـذت تستعمل فيه بباقي أقطار أوربا مصطلحات مرادفة كمصطلح " *Feudalismo* " الذي استعمله الايطـاليون و الإ سـبانيون و مصـطلح " *Feudalism* " الـذي استعمله الأنجليزيون و مصطلح " *Feudalismus* " الذي استعمله الألمانيون. و يندرج هذا التعدد و التنوع في سياق تعدد و تنـوع اللغـات الناشـئة في أقطـار أوربا. حيث أصبح سكان كل قطر يستعملون لغة خاصة بهـم ابتـداء مـن هـذه الفترة.

وقد تم اشتقاق جميع المصطلحات السالف ذكرهـا مـن الكلمـة اللاتينيـة فيـوداليس" *Feodalis* " أو مـن كلمـة " *Feodum* " التـي أصـبحت الكلمـة الأكثر تداولا في النصوص ابتداء من مطلع القرن الحادي عشـر ، و تعني الفيف " *le fief* ". و هو قطعة أرض كان شخص (و قد يكون أيضا مؤسسـة دينيـة) يسمى " سنيورا " (*un seigneur*) يقدمها لشخص آخر. فيصبح المستفيد مـن قطعة الأرض تابعا للمانح و يسمى فصلا (*un vassal*). يلتزم بتقديم خدمات و التزامـات معينـة للسـنيور. و تنشـأ عـن عمليـة تقـديم الفيـف وعـن تلـك الالتزامات روابط خاصة بين الطرفين.

وقد ظلت كلمة فيـودوم " *Feodum* "تعنـي منـذ هـذا التـاريخ و حتـى مطلع القرن الثامن عشر الفيف و الالتزامات المترتبة عـلى التـابع المسـتفيد منـه. وبعد مطلـع القـرن الثـامن عشــر أخـذ مفكـرو أقطـار غـرب أوربـا يعطـون للمصطلحات الحديثة المشتقة من كلمـة فيـودوم مضـامين و دلالات متنوعـة. وتجلى هذا التنوع بشكل أكبر في فرنسا عاصمة فكر الأنوار الـذي سـاد في أوربـا خلال القرن الثامن عشر.

فقد ظل رجال القانون و المهتمـون بتـاريخ المؤسسـات حريصـين عـلى استعمال مصطلح "*féodalité*" بمعناه الضيق الأصلي، أي الفيف و ما يترتـب عن الاستفادة منه من التزامـات وروابـط. أمـا أقطـاب الفكر السـياسي، أمثـال لـويس مونتسـكيو (*Charles Louis Montesquieu*) (1689 - 1755) وهنـري دي بـولانفليي (*Henri de Boulainvilliers*) (1658 -1722) الذين عاصروا مرحلة سيادة السلطة المركزية في كل من فرنسـا و انجلـترا، فقـد استعملوه عند الحديث عن التجزئة السياسـية التـي شـهدتها أوربـا بعـد القـرن التاسع، و ما نشأ عنها من طرق و أساليب خاصة في تدبير السلطة؛ التي أصـبح يمارسها أفراد الأرستقراطية. كل واحـد مـنهم يمارسـها في حـدود رفعـة ترابيـة ضـيقة. في حـين أعطـى الفلاسـفة و المنظـرون، أمثـال فرانسـوا مـاري أرويـة (*François Marie Arouet*) المعـروف بفـولتير (*Voltaire*) (1698- 1778) للمصطلح دلالات أوسع. فاستعملوه بمعنى نسـق مـن التطـور (*un processus d'évolution*). أو بمعنى نمط من أنماط الحيـاة(*un mode de vie*) كانت تتبناه مجتمعات غرب أوربا خلال العصر الوسيط . و يمكن أن يتبناه أي مجتمع في أي مجال جغرافي . فالفيودالية من وجهة نظرهم ليست مجرد ظاهرة خاصة شهدتها مجتمعات أوريا في العصرـ الوسـيط ،بـل هـي نسـق مـن أنسـاق التطور أو نظام حياة حدث في العصر القديم . كما حدث في العصر الوسـيط . و له امتدادات في العصر الحديث .

وعلى غرار الفلاسفة و المنظرين أعطى المفكرون الاقتصاديون ، و أبرزهم الانجليزي أدم سميث (*Adam Smith*) (1723-1790)،لمصطلح فيوداليـة دلالات أوسع كذلك. فقد رأوا بأن الفيف الذي اشـتق منـه هـو أولاً و أخـيراً

عقار (*un bien–fonds*) اكتسى أهمية بالغة بالنظر إلى سيادة النشاط الزراعـي في العصر الوسيط .و قد شكل تبعا لذلك مصدر ثروة بالنسبة للسـيد و التـابع. ومن ثم، لا يمكن الحديث عنه و عن الالتزامات و الروابط المتصـلة بـه بمعـزل عن الحياة الاقتصادية. فانكبوا على دراسة بنيـة ذلـك العقـار و مكونـات تلـك الثـروة و مجـالات صرفهـا و مـا إلى ذلـك مـن قضـايا ذات صـلة بالأوضـاع الاقتصادية التي شهدتها أقاليم غرب أوربا زمن سيادة الفيودالية.

وقد شكلت طروحات الفلاسفة و المنظرين و المفكرين الاقتصاديين نقطة انطـلاق بالنسـبة لمـاركس وانجلـز و أتبـاعهما الـذين ذهبـوا بعيـداً. فجعلـوا من الفيودالية نمط إنتاج،أي نظاماً سوسـيو- اقتصـادياً نشـأ بعـد نهايـة النظـام العبودي. وانتهى عندما بدأت تترسخ قواعـد النظـام الرأسـمالي. أي أن النظـام الفيودالي نشأ في أوربا عندما تراجع دور العبيد كقوى منتجة و لم تعد العلاقـات الاجتماعية قائمة على العبوديـة. و بـدأ في الانحـلال عنـدما هيمنـت المبـادلات التجارية على الحياة الاقتصـادية؛ و بـدأت العلاقـات الاجتماعيـة تأخـذ منحـى منسجماً مع تطور قـوى الإنتـاج. و معنـى ذلـك أن فـترة سـيادة نمـط الإنتـاج الفيودالي حدث خلالها تطـابق بـين قـوى الإنتـاج التـي بلغـت مسـتوى معينـاً مـن التطـور والعلاقـات الاجتماعيـة التـي حققـت بـدورها مسـتوى معينـاً من التطور.

وتبعاً لانتشار الفكر الماركسي، فقد تبنى هذا الطرح العديد مـن المفكـرين والباحثين في أقطار أوربا وأمريكا و آسيا و إفريقيا. و أصبحوا يفضلون استعمال أحد المفهومين المركبين : "نمط الإنتاج الفيـودالي" (*mode de production féodal*) أو " النظام الفيودالي " (*système féodal*) بدل مفهـوم الفيوداليـة.

لأن لها دلالة شاملة تنطبق على جميع بنيات المجتمع السياسية و الاقتصادية والاجتماعية والفكرية. ويمكن استعمالها عند البحث في بنيات مجتمعات أخرى غير المجتمعات الأوربية. فيمكن حينئذ الحديث عن نمط إنتاج فيودالي في اليابان أو في الصين أو في أحد أقطار إفريقيا.

وانطلاقاً مما تقدم، يتضح بأن المضامين و الدلالات التي أعطاها مفكروأوربا لمصطلح فيودالية و للمصطلحات المرادفة له مضامين ودلالات مختلفة. وقد تحول الاختلاف إلى تباين حينما لجأ ثلة من المفكرين إلى استعمال مصطلحات مركبة هي نمط الإنتاج الفيودالي (*le mode de production féodal*) أو النظام الفيودالي (*le système féodal*). بحيث لم يعد ممكنا إحداث تقارب بين وجهات النظر. لأن المصطلحات ارتقت إلى مستوى المفاهيم، نظرا لصبغتها الإجرائية و الوظيفية و نظراً لما يعكسه استعمالها من مواقف و رؤى و مناهج في البحث. ولازال هذا التباين حتى اليوم أحد سمات الإنتاج الإسطريوغرافي المتصل بالموضوع.

وإجمالاً يمكن التمييز في عموم الباحثين و المفكرين بين فئتين: فئة تتبنى وتستعمل مفهومالفيودالية (أو أحد المفاهيم المرادفة له حسب لغة المفكر أو الباحث). وتلخص مضمونه في كونه الفيف والالتزامات المرتبطة به والعلاقات القائمة بين الذي يقدمه والذي يستفيد منه. وفئة تتبنى وتستعمل مفهوم نمط الإنتاج الفيودالي أو النظام الفيودالي بمعنى نسق من التطور شهده مجتمعغرب أوربا خلال مرحلة معينة من تاريخه تطابقت فيها قوى إنتاج، وصلت مستوى معينا من التطور، مع علاقات اجتماعية منسجمة معها.

ورغم المناظرات والملتقيات التي سعت بعض الجهات التي نظمتها إلى تقريب وجهات نظر الفئتين، فإن التباين أصبح قدراً محتوماً. بل إن هذا التباين أخذ في فرنسا طابع الجدل الحاد الذي أفضى منذ مطلع القرن العشرين إلى ظهور وشيوع استعمال مفهوم جديد في أوساط المفكرين و الباحثين المشبعين بفكر ماركس وانجلز وهو مفهوم الفيوداليسم *(Féodalisme)* المرادف لمفهومي نمط الإنتاج الفيودالي والنظام الفيودالي. وقد تبنت هذا المفهوم الأوساط العلمية. و دخل قاموس اللغة الفرنسية الذي يتميز بكونه القاموس الأوربي الوحيد الذي يتضمن مفهومين هما : " *Féodalité* " و" *Féodalisme* ".

والحقيقة أن هذه الإضافة لم تعمل على إثراء رصيد لغة الباحثين الفرنسيين بقدر ما جعلت الهوة الفاصلة بين الذين يستعملون هذا المفهوم أو ذاك أكثر عمقا. ويخطأ البعض حين يعتبرون هذه الازدواجية مجرد اختلاف في اللغة أو المفاهيم المستعملة. بل على العكس من ذلك تماما تعكس، في اعتقادنا، اختلافاً في الرؤى و المناهج المتبعة كما سيتبين ذلك من خلال العناصر التي سيتم تناولها في هذا البحث.

3. مصادر دراسة الفيودالية و النظام الفيودالي:

تفادياً لأي فهم خاطئ قد يوحي به هذا العنوان، نوضح بأن دراسة الفيودالية و النظام الفيودالي لا تتم انطلاقاً من مصادر جد خاصة، بل على العكس من ذلك تستوجب الإحاطة بمختلف جوانبهما العودة إلى قاعدة معلومات و معطيات متنوعة لاستقاء المادة التاريخية. تتمثل هذه القاعدة في المصادر الأركيولوجية و المصادر الخطية.

أولاً: المصادر الأركيولوجية:

يفرض هذا النوع من المصادر حضوره لاعتبار أساسي هو أن الفيودالية هي في كنهها ظاهرة حربية.إذ أن الوقائع العسكرية تصدرت أحداث الحقبة التي سادت فيها. و بما أن عملية خوض الحروب أصبحت تشغل بال أفراد الأرستقراطية منذ انهيار الإمبراطورية الرومانية، ثم حدثت تحولات بعد مطلع القرن الحادي عشر جعلت الحروب تصبح من اهتماماتهم الرئيسية، فقد اقتضى الأمر بعد هذا التاريخ إقامة تحصينات؛ أبرزها القصور (*les châteaux*) والقلاع (*les donjons*) والقصور المشيدة على تلال طبيعية أو اصطناعية (*les mottes castrales*). وقد أصبحت هذه المنشآت من أبرز معالم المشهد ألمآثري (*paysage le monumental*) في أرياف أوربا. وغدت مراكز للقيادة وممارسة السلطة من قبل أفراد الأرستقراطية. ومن ثم، فان البحث في ظاهرة الفيودالية وما يتصل بها من مؤسسات اقتضى منذ عقود مضت القيام بعمليات مسح جوي و تنقيب ميداني لتحديد مواقع تلك المنشآت و الكشف عن بقايا ما اندرس منها. وقد أفضت مختلف العمليات التي بوشرت في مختلف أنحاء أوربا، وفي فرنسا بوجه خاص، باعتبارها "مهد الفيودالية" كما يقال، إلى نتائج بالغة القيمة عززت رصيد قاعدة المعلومات و المعطيات التي كانت حتى بدايات القرن الماضي تستقى من النصوص في المقام الأول؛ الأمر الذي مكن من إعادة رسم خارطة الانتشار الجغرافي للفيودالية ، و من إعادة تحديد المجال الترابي الذي كانت تمارس فيه سلطة أفراد الأرستقراطية خلال فترة سيادة الفيودالية.

وقد تمت صياغة أهم نتائج عمليات الاستشعار الجوي (*la détection aérienne*) والتنقيب الميداني في تقارير و عروض و دراسات أهمها على الإطلاق عروض وتقارير الملتقيات الدورية التي دأب على تنظيمها منذ سنة 1962 مركز الأبحاث الأركيولوجية القروسطوية *le Centre de Recherches Archéologiques médiévales*) التابع لجامعة (*Caen*).

ثانياً: المصادر الخطية:

تمثـل المـادة التاريخيـة التـي تتضـمنها المصـادر الخطيـة الجانـب الأكـبر من قاعدة المعلومات والمعطيات الضرورية لدراسـة الفيوداليـة ومـا يتصـل بهـا من مؤسسات، فضلا عن السياق التاريخي الذي نشأت وتطورت فيـه. ويتـألف هذا النوع من المصادر من مصنفات متنوعة ومتفاوتة القيمة. يمكن أن نذكر من بينها كتب الإخباريـات (*les Chroniques*) وكتـب الحوليـات (*les Annales*) والكتـب التـي تـروي سـير القديسـين والقديسـات وتتحـدث عـن كرامـاتهم (*les récits hagiographiques*) ونصـوص الظهـائر والمراسـيم والقـرارات الصـادرة عـن *الملوك* (*les Diplômes et les Edits royaux*) والمـتن الـذي تكونه نصوص القوانين الجرمانية "الباربارية" (*les Lois Barbares*) ووثائق العقود (*les Formulaires*).

وعموماً يمكن استعراض نماذج من أهم هذه المصنفات كما يلي:

أولاً: كتب الإخباريات و الحوليات:

أ. الإخباريات:

1- Abbon de Fleury (mort en 1040), Siège de Paris par les Normands, éd. et trad. François Guizot in Collection des mémoires relatifs à l’histoire de France depuis la formation de la monarchie française jusqu’au 13e siècle, Paris, éd. J.L.J. Brière, vol. I, 1824.
2- Flodoard de Reims (mort en 966), Chronique, éd. et trad. François Guizot in Collection des mémoires…
3- Hugues de Fleury (mort après 1122), Chronique, éd. et trad. François Guizot in Collection des mémoires…
4- Raoul Glaber (mort en 1047), Chronique, éd. et trad. François Guizot in Collection des mémoires…
5- Richer de Reims (mort en 998), Histoires, texte édité , traduit et annoté par Jean Guadet, Paris, éd. Jules Renouard, 1845, 2 vol.

ب. الحوليات

1. Anonyme, Annales de Saint- Bertin et de Metz, éd. et trad. François Guizot in Collection des mémoires relatifs à l'histoire de France depuis la formation de la monarchie jusqu'au 13e siècle, Paris, éd. J.L.J. Brière, vol. I, 1824.
2. Annales de Saint- Bertin et de Saint-Vaast suivies de fragments d'une chronique inédite, éd. Abbé César Auguste Dehaisnes, Paris, éd. Jules Renouard, 1871.
3. Eginhard (mort en 840), Annales des rois Pépin, Charlemagne et Louis-le Débonnaire, éd. et trad. François Guizot in Collection des mémoires…, vol. III, 1824.

ثانياً: سير القديسين والقديسات:

1- Bernard d'Angers (mort vers 1050) et continuateurs, Les miracles de Sainte-Foy de Conques (morte en 303), éd., Auguste Bouillet, Paris, A. Picard, 1897.
2- Moine anonyme, Vie de Saint-Didier évéque de Cahors (630-655), éd. René Poupardin, Paris, A. Picard, 1900.
3- Saint Odon abbé de Cluny (mort en 942), Vie de Géraud d'Aurillac (mort en 909).

ثالثا: الظهائر والمراسيم الملكية:

1- Eugène de Rozière, Recueil général des formules usitées dans l'Empire des Francs du Ve au Xe siècle, Paris, éd. Auguste Durand, 1859-1871, 3 vol.
2- Recueil des actes de Louis II le Bègue, Louis III et Carloman II rois des Francs (877-884), éd. Félix Grat, Jacques de Font-Reaulx, Georges Tessier et Robert-Henri Bautier, Paris, Imprimerie Nationale, 1978.
3- Recueil des actes de Robert I et Raoul rois de F rance (922-936), éd. Jean Dufour, Paris, Imprimerie Nationale, 1978.
4- Recueil des actes de Lothaire et de Louis V rois de France (954-987), éd. Louis Halphen et Ferdinand Lot, Paris, Imprimerie Nationale, 1908.
5- Recueil des actes de Philippe Ier roi de France (1059-1108), éd. Maurice Prou, Paris, Klincksieck, 1908.

الفيودالية بمعنى الفيف و روابط الفصالة:

يجمع جل الباحثين الغربيين، عامة و الفرنسيين بوجه خاص، بأن نشأة الفيودالية تعود إلى مطلع القرن الحادي عشر. ويربطون تلك النشأة بالتحولات السياسية التي بدأت تشهدها أقاليم غرب أوربا ابتداء من سنة 1000. وهي تحولات تمثلت في استفحال تدهور السلطات المركزية ونهاية الدور الذي كانت تقوم به المؤسسات العمومية في تدبير شأن القمطيات. مما أدى إلى حدوث فراغ سياسي و انعدام الأمن و الاستقرار.فوجد أفراد الأرستقراطية أنفسهم مضطرين إلى إيجاد صيغ جديدة للتآزر فيما بينهم. فظهرت من جراء ذلك الفيودالية – أي الروابط المتمحورة حول الفيف – كصيغة من صيغ التآزر المنشود. و قد شارك في تفعيلها جميع أفراد الأرستقراطية. بحيث أن كبار الملاكين العقاريين كانوا يقدمون قطع أرض لمتوسطي الملاكين، وهؤلاء كانوا يقدمون بدورهم قطع أرض للفرسان. وكانت هذه العملية تباشر وفق طقوس خاصة و في مراسيم احتفالية تتم فيها تسمية مانح قطعة الأرض سنيورا والمستفيد منها فصلا. يؤدي يمين الولاء للمانح ويتعهد بأداء خدمات والتزامات ذات صبغة عسكرية في المقام الأول. كانت تقتضيها الظرفية التي "نشأت" فيها الفيودالية. وإذ اتخذت تلك الروابط منحى عمودياً، فقد اتخذت أيضا شكل علاقات أفقية. لأن الفصل كان بإمكانه أن يكون تابعاً لأكثر من سنيور. وتفادياً لأي انزلاقات أو مشاكل قد تترتب عن تعدد علاقات الفصل الواحد ،فقد تم إيجاد ضوابط ملزمة، هي جزء من الروابط التي كانت تنظم الروابط بين كل سنيور والفصل التابع له كما سنرى لاحقاً. ولهذا الاعتبار و لغيره اتخذت الفيودالية طابع نظام متكامل (*un régime*).

ومن هذا المنطلق يحق للمرء أن يتساءل كيف وصلت الفيودالية إلى هذا المستوى الأعلى من التطور و الاكتمال خلال هذه الفترة التاريخية، أي فترة ما بعد سنة 1000؟ ألم تسبقها أشكال وصيغ من الروابط هيأت لها إمكانية التطور؟ خاصة إذا علمنا بأن الفرد الأوربي، سواء كان ينتمي لعامة المجتمع أو لخاصته، لم يكن يعيش منعزلاً عن الأفراد الآخرين المنتمين لفئته أو لطبقته أو لطائفته. كما لم يكن منعزلاً عن الأفراد المنتمين لغير فئته. ولا يختلف اثنان في القول بأن أفراد الأرستقراطية، الذين يهمنا أمرهم في هذا المقام، كانت تربط بينهم منذ عهود قديمة روابط اقتضتها المصالح المشتركة.

ونحن إذ نطرح هذه التساؤلات و نقدم هذه المعطيات، فللتذكير بأن عددا من المؤرخين، وخاصة منهم الفرنسيون، الذين سيأتي ذكر أسماء بعضهم لاحقا، ينكرون أن تكون الفيودالية – أي الروابط الفيودو – فصلية – امتداداً للروابط التي كانت قائمة بين أفراد الأرستقراطية قبل سنة 1000، أو شكلاً متطورا لتلك الروابط. ودعواهم في ذلك هو أن الفيف بوصفه حجر الزاوية في تلك الروابط لم يظهر ولم يصبح محور الفيودالية إلا ابتداءا من مطلع القرن الحادي عشر. كما أن كلمة فيودوم نفسها التي اشتق منها مصطلح فيودالية لم يبدأ تداولها في النصوص إلا بعد سنة 1000.

وخلافاً لهذا الاعتقاد، سنحاول في هذا القسم تأكيد فكرة مفادها أن الفيودالية تضرب بجذور عميقة في تاريخ غرب أوربا تعود على الأقل إلى القرن الثالث للميلاد. وقد تطورت لتصل إلى مرحلة النضج ابتداء من مطلع القرن الحادي عشر. ونميز في مسيرة الفيودالية الطويلة التي امتدت من القرن الثالث حتى نهاية العصر الوسيط بين ثلاثة مراحل كبرى: أولاها مرحلة

علاقــات الرفاقــة (*le Compagnonnage*) التــي كــان يقيمهــا أفــراد الأرستقراطية الجرمانية مع مجموعة شباب. كانوا يتخذونهم رفقاء و حراسا لهـم في نفس الوقت. و تمثل هذه العلاقات في اعتقادنـا أصـول الفيوداليـة. و ثانيهـا مرحلـة علاقـات الفصــالة (*le vasselage*) التــي أصـبح يقيمهـا أفـراد الأرستقراطية في الممالك التي تأسست بعد انهيار الإمبراطورية الرومانية. وكانت هذه العلاقات قائمة بينهم و بين مجموعة أتباع (محاربين في المقام الأول). قامت في بـادئ الأمـر عـلى عطـاء غـير الأرض يسـمى بنفسـيوم (*beneficium*)؛ ثم أصبحت الأرض أساس هذه العلاقات منـذ منتصـف القـرن التاسـع. وقـد استغرقت الفترة الزمنية الممتدة من القرن السادس حتـى نهايـة القـرن العـاشر. أما المرحلة الثالثة، فهي مرحلة نضج الفيوداليـة. و خلالهـا أصـبحت علاقـات الفصالة التي سادت خلال المرحلة السابقة قائمة على الفيـف. و لـذلك نسـمي العلاقات التي سادت خلال المرحلة الثالثة باسم الروابط الفيودو- فصلية تميـزا لها عن علاقات الفصالة.

أصول الفيودالية: علاقات الرفاقة عند الجرمان:

لا يمكن البحث في جوانب تـاريخ أوربـا خـلال العصـر الوسـيط دون استحضار الجرمان، باعتبارهم إحـدى أبـرز القـوى التـي أثـرت بشـكل فعـال في مجريات أحداث هذه الحقبة التاريخية. وأثـروا تبعـا لـذلك في نظـم وحضـارة الحقبـة المـذكورة. ويكفـي أن نـذكر مجـدداً بـأنهم هـم الـذين أجهـزوا عـلى الإمبراطورية الرومانية سنة 476. فساهموا بذلك في إعادة تشكيل خارطة أوربا السياسية. وتجاوز فعلهم حدود البنيات السياسية ليشـمل البنيـات الاقتصـادية والاجتماعية وعناصر السكان. ولا زالت مظـاهر تـأثيرهم في تـاريخ وحضـارة

غرب أوربا سارية المفعول إلى يومنا هذا. بل تجاوز تأثيرهم حدود القارة الأوربية ليشمل مناطق من إفريقيا بعد أن نجحت مجموعة قبلية من الجرمان، متمثلة في الو ندال، من إقامة مملكة ببعض أقاليم شمال إفريقيا.

وقد بات من المعروف اليوم بأن الشعوب الجرمانية تنحدر من أصول هندو- أوربية. كانت تقيم في المناطق المحيطة ببحر البلطيق؛ و بالتحديد في الأقاليم التي تتشكل منها اليوم كل من السويد والدانمارك والنرويج والأقاليم المجاورة لها. وامتد مجال تواجدها في اتجاه بحر الشمال ومصبي كل من نهر الألب ونهر الويزر.ثم شرعت بعد سنة 900 قبل ميلاد المسيح في القيام بحركة نزوح نحو الجنوب حتى أصبحت مستقرة حوالي القرن الثالث للميلاد في الأقاليم الواقعة شمال جبال الألب و نهر الدانوب و شرق نهر الراين.

يعد مصنفاً سايوس يوليوس قيصر (*Caius Julius Caesar*) (100 ق.م. – 44 ق.م.) و بوبليوس كورنيليوس تاسيتوس (*Publius Cornelius Tacitus*) (55 ق.م. –120 م.) أهم المصادر الخطية التي يعتمدها الباحثون في استقاء معلومات عن نمط حياة وتنظيمات الشعوب الجرمانية. فقد كان الأول قائداً عسكرياً مارس السلطة واستكمل مشوار حياته المهنية كمدون للأحداث. خاض سلسلة حروب بين سنتي 58 ق.م. و 51 ق.م. لإخضاع غاليا (*Gallia*)1 أو غالة (*la Gaule*). فوجد نفسه وجها لوجه أمام الجرمان الذين كانوا يشنون غارات على غاليا بين الفينة و الأخرى. فخاض ضدهم عدة وقائع. اضطر في إحداها إلى عبور نهر الراين لاستئصال شأفتهم في مواطنهم. وقد دون مذكراته عن تلك الحروب في مؤلف2 نشره

1 - كانت غاليا تتكون قبيل سنة 58 ق.م من مجموع الأقاليم التي تتشكل منها فرنسا اليوم بالإضافة إلى الأقاليم التي تعرف حاليا ببلجيكا و أجزاء من شمال ايطاليا و بعض أقاليم ألمانيا. وكل هذه الأقاليم كانت خارج دائرة السيطرة الرومانية باستثناء أقاليم الجنوب التي كانت خاضعة للرومان منذ سنة 121 ق. م.

2- يعرف هذا المؤلف في ألأوساط الفرنسية باسمين :

سنة 51 ق.م. يتضمن مادة طيبة عن السلتيين (*les Celtes*) أو الغاليين، سكان غاليا. كما يتضمن معلومات قيمة – وإن كانت ضئيلة – عن تنظيمات الجرمان العسكرية. بينما كان الثاني مؤرخا محترفا تجول في بعض مواطن القبائل الجرمانية. ودون هو الآخر مشاهداته في مؤلفنشره سنة 98 م.[1] يحفل بمعلومات غزيرة حولها تعد تكملة لما ورد في مذكرات يوليوس قيصر.

يتضح من المؤلفين بأن الشعوب الجرمانية كانت تتألف من عدة قبائل. يمكن التميز فيها بين ثلاث مجموعات كبرى تبعا لمجال استقرارها و هي: الجرمان الغربيون ، ويتألفون من قبائل الألمان والسويڤ والماركومان والفرنجة. والجرمان الشرقيون، ويتألفون من قبائل الو ندال و القوط و البورغنديين و اللا نكڤوبارديين. و أخيراً الجرمان الشماليون، و يتألفون من جرمان جبال الألب وجرمان أقاليم بحر الشمال وجرمان العالم الاسكندناڤي.

كانت كل قبيلة، من مجموع القبائل، تتكون بدورها من مجموعة عشائر تمثل فيها العائلة (بالمعنى الواسع للكلمة) الخلية الأساسية. وقد كانت تعيش على الزراعة وتربية المواشي والقنص والصيد والحرب التي كانت من أبرز اهتمامات أفرادها من الذكور[2]. فقد كان محاربو إحدى القبائل يشنون غارات على بعض المراكز الواقعة على الحدود مع الإمبراطورية الرومانية. وأحياناً كان مجموعة محاربين من إحدى القبائل يشنون غارات على قبيلة أخرى. فتقع بين

Commentaires sur la Guerre de la Gaule ou La Guerre des Gaules و قد اعتمدنا في هذا البحث على نسخة منه نقلها إلى الفرنسية و أعدها للنشر Charles Louandre. وصدرت بباريس سنة 1868 عن منشورات Charpentier. (تضم هذه النسخة النصان اللاتيني والفرنسي).

1- يتعلق الأمر بكتاب Germaniae الذي اعتمدنا على نسخة منه حققها و نشرها Jacques Perret تحت عنوان La Germanie؛ و صدرت سنة 1967 عن منشورات Les Belles Lettres بباريس. و تتضمن هذه النسخة النص اللاتيني و ترجمته الفرنسية.

2 - Jules César,Guerre des Gaules,Op. Cit. Livre IV,pp. 143-144.

أيديهم غنائم، وعدد من الأسرى يبيعونهم كعبيد في الأسواق الرومانية الواقعة بمحاذاة نهري الراين والدانوب. ويحصلون على نقود يصرفونها في شراء سلع ترفيهية ومواد استهلاكية من تلك الأسواق.

وكان من الطبيعي أن تتزايد حاجياتهم باستمرار. فترتبت عن ذلك زيادة في غارات القبائل على بعضها البعض وارتفاع في حدة الضغط الذي كانت تمارسه بعض تلك القبائل على أطراف الإمبراطورية الرومانية. فدفع هذا الضغط الأباطرة و كبار الموظفين الرومان إلى اللجوء إلى سياسة تقديم الهدايا العينية و النقدية لرؤساء تلك القبائل و أعيانها و كبار محاربيها[1] بهدف استقطابهم و صرفهم عن شن غارات على الأقاليم الحدودية. وبذلك أخذت تتراكم في حوزة هؤلاء الرؤساء والأعيان وكبار المحاربين ثروات عينية ونقدية. أضافوها إلى ما كانوا يحصلون عليه من هدايا وأعطيات من لدن اسر القبائل التي كانوا ينتمون إليها بحكم مكانتهم السياسية و الاجتماعية أو العسكرية. بوصف بعضهم رؤساء قبائل، والبعض الآخر أعضاء في مجالس القدماء (أو الشيوخ)(*les conseils des anciens*) أومحاربون كبار. فأصبحوا متميزين عن باقي أفراد القبائل التي ينتمون إليها. و شكلوا طبقة أرستقراطية وراثية. كما كونوا مجلساً دائماً (*un conseil permanent*) أصبح يمارس السلطة في القبيلة. و استطاع بعض أعضاء هذا المجلس الارتقاء إلى مصاف الملوك. نعرف من بينهم اليوم أسماء أولائك الذين قادوا الجرمان إلى اقتحام أقاليم غرب أوربا وشمال إفريقيا أمثال شلدريك الأول (*Childéric*) ملك الفرنجة وألريك (*Alaric*) ملك القوط الغربيين وجنسريك (*Genséric*) ملك الو ندال.

1- Tacite , La Germanie , Ibid. , p. 73.

وكـان مـن تبعـات تنـامي ثـروة أفـراد الطبقـة الأرسـتقراطية و تميـزهم عن سائر الأفراد، أن لجـأ عـدد مـنهم الـر اسـتقطاب مجموعـات مـن الشـباب أصبحوا يشكلون حاشياتهم. فكانوا يحضرون اجتماعاتهم ومجالسهم. واتخذوهم في نفس الوقت حرسـاً خاصـاً لهـم. يسـهرون عـلى حمـايتهم وحمايـة ممتلكـاتهم ومرافقتهم في تنقلاتهم. وقد كان كل ارسـتقراطي يحـرص عـلى انتقـاء الشـباب المكـونين لحاشـيته وحرسـه. فيشـترط أن تكـون سـمعة الواحـد مـنهم طيبـة. وأن يكون على دراية بفنون الحرب والقتال.

وقد تحدث تاسيتوس عن هذه المجموعات من الشـباب باسـم" الرفقـاء "(*les compagnons*) قائلاً في نص تقتضي الضرورة إثباته رغم طولـه:"(...) إن إحدى سمات النبالة هي أن يحضى بعض الأفراد برضى بعض الرؤسـاء.وهي رغبة بعض الأفراد من الشباب أيضاً. إذ يسعون إلى الانضمام إلى بعض الأقوياء. و قد كان يتم التعبيرعن هذه الرغبة منذ قـديم. وإن الفـرد لا يخجـل حـين يجـد نفسه من بين الرفقاء(...) بل إن الرفقاء يتنافسون ليكون الواحد منهم أكثر قرباً من الرئيس. كما يتنافس الرؤساء ليكون للواحد منهم أكـبر عـدد مـن الرفقـاء. إنه المجد، إنها القوة أن يكون الواحد محاطا دائما بمجموعة كبيرة من أفراد شباب يمثلـون الصـفوة. فهـم زينـة أوقـات السـلم وحـرس أوقـات الحـرب(...) إن الحرص عليهم شديد، ومن أجله تقـدم لهـم الأعطيـات. وغالبـاً مـا يكفـي اسمهم لتحديد نتيجة الحروب..."[1]. و يقول في موضع آخر "(...)إن الرؤساء يحاربون من أجل النصر، أما الرفقاء فيحاربون من أجل رئيسهم".[2] وينتصرون له ظالماً أو مظلوماً.

1-Ibid. , p. 78.
2- Ibid. , p. 79.

ومما لا شك فيه، أن النصوص التي يتضمنها مصنف تاسيتوس تأكد المنحى الحربي "العسكري" الذي أخذته علاقات الرفاقة بين الشباب المحاربين و الملوك و أعيان و رؤساء القبائل. وينسجم هذا التطور، فيما يبدو، مع طبائع القبائل الجرمانية المعروفة بميلها إلى الحرب والقتال منذ أزمنة غابرة كما يوضح ذلك يوليوس قيصر في مذكراته(1). واستمرت كذلك زمن تاسيتوس؛ الذي يذكر بأن الواحد من أفراد تلك القبائل لم يكن يباشر أمراً خاصاً أو عاماً إلا وهو يحمل سلاحه(2). ومهما يكن من أمر، فإن تاسيتوس الذي خص مسألة الرفاقة بحديث مسهب في مصنفه لا يفصح عما إذا كانت تقدم للرفقاء الشباب قطع أرض أم لا؟ والأكيد أن كل أرستقراطي كان يسهر على إيواء أفراد المجموعة التابعة له. ويقوم بتلبية حاجياتهم من ملبس و مأكل و مشرب. ويقدم لكل واحد منهم فرسا وقطع السلاح التي تتطلبها مهامه كمحارب. بالإضافة إلى بعض الهدايا و التحف أو أعداد من العبيد الذين يتم الحصول عليهم بعد كل غارة محلية على إحدى القبائل أوغارة على أحد المواقع الرومانية.ومن هذا المنطلق نعتقد أنهم لم يكونوا يستلمون قطعا أرضية. لأنهم لم يكونوا في حاجة إلى مصدر عيش(3)، ولأن مهامهم كانت تقتضي بأن يظلوا بالقرب من سيدهم.

ويبدو أن هذه الروابط التي تعود إلى ما قبل القرن الثالث استمرت في الوجود والتطور خلال القرنين الرابع والخامس رغم أنه من الصعب تتبع مسارها خلال هذه الفترة نظراً للغموض والاضطراب الذي ميزها. فقد ترددت

1- أنظر الكتاب الرابع من مؤلف يوليوس قيصر La Guerre des Gaules

2 - Tacite ,La Germanie, Op.Cit., p.78.

3- هذا ما يفهم من حديث مارك بلوك(Marc Bloch) حين يذكر في معرض حديثه عن الروابط خلال هذه الأزمنة بأنه كانت تفوح منها رائحة "خبز الدار"(le pain de ménage) أنظر في هذا الصدد كتابه :

La Société Féodale, Paris, Albin Michel, 1968, pp.233-249 et p.259.

الأوضـاع في الإمبراطوريـة الرومانيـة بسـبب الفـوضى السياسـية والعسـكرية والمصاعب الاقتصـادية و الاضـطرابات الاجتماعيـة. وزادت مـن تفـاقم تلـك الأوضـاع عمليـات الغــزو الجماعــي الــذي قامــت بــه القبائــل الجرمانيــة. ومن المعطيات الدالة على استمرارها و تطورهـا هـو أن بعـض الكلـمات التـي تؤلف اليوم ما يسمى بقاموس الفصـالة، مثـل كلمـة ڤاسـو (*vasso*) و كلمـة ڤاسوس (*vassus*)، كانت مستعملة في اللغة اللاتينية المتداولة مـن قبـل العامـة قبل القرن السادس. وستدخل ضمن لغـة المـتن الـذي تتـألف منـه القـوانين " الباربارية " (*les lois barbares*) التي أصبحت تـنظم المعـاملات في الممالـك الجرمانية بعد القرن السادس، وخاصة المجموعة المعروفة بالقانون السالي *la loi Salique*)[1] والمجموعـة المعروفـة بالقـانون الضـفي (*la loi Ripuaire*)[2]. ففي هذه القوانين أصبحت كل من كلمـة ڤاسـو و كلمـة ڤاسـوس تطلـق عـلى العبيد وكذلك على مجموع الأفراد المرتبطين عن طريق الـولاء بـأفراد آخـرين[3]، أي أتباع. ويتضح من خلال القوانين المذكورة بأن هـؤلاء الأتبـاع كـانوا أفـراداً متواضعين من الناحية الاجتماعية، ولكنهم كـانوا، خلافـاً للعبيـد، أحـراراً مـن حيث الوضع القانوني. بدليل أن القانونان السالي والضفي يوضحان بأنهم كانوا

1- يمثل القانون السالي مجموعة الأعراف التي كانت تحتكم إليها مجموعة من قبائل الفرنجة. و فد تم تدوينها بين سنتي 507 و 511 على عهد كلوڤيس (Clovis) أول ملوك الفرنجة في غاليا أو(غالة). فأخذت شكل مدونة قوانين مؤلفة من 65 بندا على شكل فقرات متفاوتة الطول. ثم خضعت لعمليات تكملة و تنقيح عدة مرات بين سنتي 511 و 533 و بين سنتي 567 و 593 ثم بين سنتي 763 و 764 . و تم تصحيحها أخيرا سنة 798. و صدرت بعد تحقيق نصها في عدة طبعات من بينها طبعة 1828 التي تضم مجموعة القوانين السالية و مجموعة القوانين الضفية باللغتين اللاتينية و الفرنسية في كتاب واحد تحت عنوان :
Lois des Francs (contenant la loi Salique et la loi Ripuaire), texte traduit et annoté par Jean François- Aimé Peyré , Paris, Imprimerie de Firmin Didot, 1828.

2- نسبة إلى مجموعة قبائل من الفرنجة كانت مستقرة قبيل عمليات الغزو بمناطق محاذية لنهر الراين. فسموا بالفرنجة الضفيين(les Francs Ripuaires).

3- أنظر الفقرة 35 ، البند6 من القانون السالي ضمن الكتاب المشار إليه في الهامش السابق.

يحضــرون الاجتماعـات العموميـة (*les plaids*). ومـن المعلـوم أن حضـور الاجتماعات خلال فترة سيادة الممالك الجرمانية الناشئة في أقـاليم غـرب أوربـا، كان مقتصرا على الأفراد الأحرار،كيفما كان موقعهم في علاقة التبعية.

تسمح المعطيات التي أوردناها بتأكيد وجـود روابـط تبعيـة قبـل القـرن الثالث للميلاد. نشأت في أطراف أقـاليم غـرب أوربـا. ثـم انتقلـت في مرحلـة لاحقة، أي بعد سنة 476 ، إلى قلبها. فهل معنى ذلك أن الفيودالية ذات أصول جرمانية؟ هذا ما نميل إليه رغم أن قلة من الباحثين هم وحـدهم الـذين أثـاروا هذه المسألة. ومن بينهم الفرنسـي فرنسوا ڭيزو (*Francois Guizot*) الـذي يؤكد في كتاب صدر له سنة 1830 بأنه ليس مـن المعقـول أن تصـل الفيوداليـة إلى مرحلـة الاكـتمال دون أن تكـون لهـا مقـدمات[1]. و إذ تفـادى جعـل تلـك المقدمات ذات أصول جرمانيـة أو رومانيـة، فقـد دعـا إلى رصـدها مـن خـلال البحث في ثلاثة عناصر. أولاها طبيعة الملكية الترابيـة وثانيهـا انصـهار السـيادة مع ملكية الأرض وثالثها منظومة المؤسسات التشريعية والقانونية والعسكرية[2]. أما الأنجليزي سير فرنسيس بالغريب (*Francis Palgrave*) فقـد كـان أكثـر وضوحا حـين ذهـب إلى التأكيـد بـأن بعـض عنـاصر الفيوداليـة ذات أصـول جرمانية. حملها الجرمان معهم من أدغـال جرمانيـا. ومـن بـين تلـك العنـاصر الولاء (*l'hommage*) الـذي يـتم التعبـير عنـه عمليـا بانحنـاء شـخص أمـام شخص آخر و وقوفه على الـركبتين و قـولا بترديـده لعبـارة " أريـد أن أصـبح

1- Francois Guizot , Histoire de la civilisation en France depuis la chute de l'Empire romain,(3 éme édition), Paris, Victor Masson, 1851, Tome III, p.227.
2 - Ibid. pp.230-231.

رجلك "[1]. أما قطب المدرسة التاريخية الفرنسية المعاصرة مارك بلوك فقد نعت مسألة الأصول بكونها "معضلة" يصعب الحسم فيها. واكتفى في موضوعها ببضعة أسطر. أبان فيها عن ميله إلى اعتبار أصول الفيودالية جرمانية- رومانية في نفس الوقت. امتزجت مع مرور الزمن.[2] وعلى غراره ذهب روبير بوتريش (*Robert Boutruche*) إلى القول بثنائية الأصول حيت أكد بأن " الفصالة "[3] نشأت من جراء قيام أفراد الأرستقراطية في مختلف الممالك الجرمانية الناشئة بإحياء علاقات الرفاقة (الجرمانية)وعلاقات الإذعان و التضرع (*la recommandation*) التي كانت منتشرة في ربوع الإمبراطورية الرومانية خلال المرحلة المتأخرة من عمرها[4].

وتعقيباً على ما ذهب إليه بوتريش، نوضح بأن علاقات الإذعان والتضرع قامت بين بعض الأفراد الأثرياء من الأرستقراطية الرومانية وكبار الموظفين. وأخذت طابع الزبونية و تبادل المصالح. بينما كان أفراد آخرين من متوسطي الحال أو من الفقراء يضعون أنفسهم رهن إشارة أولائك الأثرياء وكبار الموظفين لخدمتهم و الانخراط في زمرتهم نظير الحصول منهم على ما يسد رمقهم. و لكنها لم تأخذ في كل الأحوال ذلك المنحى الحربي الذي أخذته علاقات الرفاقة. لأن الإمبراطورية الرومانية، حتى تاريخ سقوطها، ظلت "دولة مؤسسات" كانت فيها أمور حفظ الأمن الداخلي وخوض الحروب موكولة لمؤسسات وأجهزة رسمية، أبرزها الجيش النظامي. وبالتالي، فان أفراد الأرستقراطية الرومانية لم يكونوا في حاجة إلى تكوين "مليشيات عسكرية"

1- Francis Palgrave, History of the Anglo – Saxons, London, William Tegg , 1869, p. 211.
2-Marc Bloch ,La Société féodale , Op.Cit. ,pp. 213-214.-
3- أي العلاقات التي سادت خلال ما سميناه بالمرحلة الثانية من مسيرة الفيودالية.
4- Robert Boutruche , Seigneurie et Féodalité, Paris, Aubier, 1975, Tome I ,p.166.

مسخرة لحمايتهم. ولكن لا بأس من التنبيه في هذا المقام بأن العادة جرت في جميع ولايات الإمبراطورية بأن يحيط كل واحد من أفراد الأرستقراطية نفسه بحاشية من الأتباع و الأصدقاء و "الزبائن" ومن ضمنهم بعض أفراد الحرس الخاص. ولا شك أن هذا الإجراء الأخير أخذ في الاستشراء بموازاة تفاقم الأوضاع الأمنية خلال المراحل المتأخرة من عمر الإمبراطورية.

ومهما يكن من أمر،فان روابط التبعية لم تكن قائمة على الفيف خلال هذه المرحلة الأولى من مسيرة الفيودالية حسب الإفادات التي تقدمها النصوص المتوفرة. كما أن تلك الروابط كانت تتم في نطاق محدود نسبياً، على اعتبار أن المعنيين بها كانوا نفرا من علية القوم و مجموعة شباب يسعون لتحسين أوضاعهم الاجتماعية. ويطمحون لتحقيق المجد من خلال استغلال شجاعتهم و مقدراتهم القتالية.

ولكن يجب التذكير في هذا المقام بمقولة "أول الغيث قطرة". فهذه الروابط كانت في بداياتها. وبما أن حالة عدم استقرار الأوضاع الأمنية استمرت بعد سنة 476 على امتداد عدة قرون، فقد استدعى الأمر من أفراد الأرستقراطية البحث المتواصل عن سند حرصا على ذواتهم و على ممتلكاتهم. وكان من تبعات ذلك أن اتسع نطاق تلك الروابط كما سنرى لاحقاً. ولا بأس من التذكير بأن علاقات التضرع والإذعان استمرت هي الأخرى في خط موازي مع علاقات الرفاقة. فالأوضاع السياسية المتردية والظرفية الاقتصادية الصعبة ظلت تدعو الأغنياء إلى البحث عن سند و الفقراء إلى البحث عمن يحميهم و يلبي حاجياتهم[1].

1- اكتفينا في هذا المقام بذكر الأوضاع السياسية و الاقتصادية دون ذكر اعتبارات أخرى أسهمت بدورها في تفعيل تلك العلاقات ومن بينها المواقف الذهنية السائدة. فالأغنياء، وهم أيضا الأقوياء، بقدر ما كانوا يبحثون من وراء علاقات الإذعان و التضرع عن السند،فقد كانوا ينشدون أيضا القيادة و تحقيق الشهرة.

من علاقات الرفاقة إلى علاقات الفصالة:

تميزت الممالك الجرمانية بكونها لم تكن دول مؤسسات قوية ومتطورة كما كان الأمر خلال سيادة الإمبراطورية الرومانية. لأن السلطة فيها ظلت منذ عهد الملوك الأوائل، وعلى امتداد حوالي ثلاثة قرون،[1] تختزل في شخص الملك الذي كان قائد حرب في المقام الأول. يعتبر، طبقا لتقليد جرى العمل به منذ عهود قديمة، الكيان الذي يخضع لسلطته بمثابة غنيمة تمت حيازتها بعد النصر. يتصرف فيها كيفما شاء، ثم يقسمها على أبنائه قبيل وفاته. و لذلك فان " الرجالات " الذين كانوا يساعدون الملك في إدارة و تدبير " الغنيمة " كانوا بمثابة خدام أكثر من كونهم موظفي دولة. لم يتعد فعلهم و تأثيرهم حدود دائرة ضيقة. و من ثم، ظلت الأقاليم البعيدة عن القصر، الذي يمثل المركز،بمنأى عن تأثير الملك و خدامه. وهذا ما يؤكده روبيرفوصيي(*Robert Fossier*) حين يذكر بأن عدم فعالية المؤسسات و الأجهزة في مملكة الفرنجة بغالة، كما في مملكة القوط الغربيين باسبانيا أو في مملكة اللومبارديين بايطاليا دفع بعض كبار الملاكين العقاريين، بمن فيهم كبار رجال الدين، إلى الاستعانة بعدد من فرق العبيد الذين كانوا في ملكيتهم و بمجموعات من الشباب. إذ كانوا يسهرون على إيوائهم و إعالتهم و تزويدهم بالسلاح نظير القيام بحراسة ممتلكاتهم2. و قد كانت مهام هؤلاء المسلحين تتجاوز حدود الحراسة إلى المشاركة في أي اشتباك قد يقع بين المالك العقاري الأرستقراطي و أحد جيرانه. و كذلك الإنخراط ، تحت إمرة سيدهم، في الحروب الدفاعية أو الهجومية التي تخوضها المملكة. ويكتسي هذا المعطى أهمية كبرى نظرا لما سيترتب عنه مستقبلاً من نتائج فيما يخص علاقة " الدولة " بظاهرة الفيودالية، لذلك سنتوقف عنده قليلاً.

1- أي منذ سقوط الإمبراطورية الرومانية سنة 476 و حتى بداية حكم شارلمان سنة 768، الذي سيسعى إلى القيام بسلسلة إصلاحات إدارية و قضائية و اقتصادية للرقي بمستوى المؤسسات.

2 - Robert Fossier, Histoire sociale de l’Occident médiéval, Paris, Armand Colin, 1970, p.98.

فقد كانت الحروب من الثوابت التي رافقت تاريخ الممالك الجرمانية منذ مراحل تأسيسها. حتى إن إحدى الباحثات ذهبت إلى القول بأن فترات السلم خلال مرحلة سيادة الممالك الجرمانية كانت بمثابة الفاصل بين مشهدين في عرض مسرحي. ومع ذلك، فان ذلك الفاصل لم يكن مرغوبا فيه.[1] ويبدو أن هذا القول ينطبق أيضا على الفترات التاريخية التي تلت مرحلة سيادة الممالك الجرمانية حسب خلاصة انتهت إليها باحثة أخرى.[2]ودون استعراض كرونولوجية الحروب التي خاضتها هاته المملكة أو تلك، يمكن التمييز فيها بين ثلاثة أشكال : حروب توسعية، و حروب دفاعية، و حروب ناتجة عن نزاع بين أفراد إحدى الأسر المالكة أو بين الأسرة الحاكمة في مملكة من الممالك و بعض العناصر المتمردة على السلطة. بالإضافة إلى شكل آخر أشرنا إليه سابقاً، وإن لم يكن يعني القائمين على الأمرمباشرة، تمثل في الحروب الخاصة (*les guerres privées*) بين بعض الأسر الأرستقراطية داخل المملكة الواحدة. وفي جميع الأحوال كانت وقائع تلك الحروب كثيرة. و كانت تتطلب التوفر على موارد بشرية هائلةو متجددة باستمرار؛ و هو الأمر الذي لم يكن من السهولة بمكان لاعتباراتديموغرافية[3] واقتصادية[4]. ومن ثمة، تتضح صحة ما ذهب إليه مارك بلوك منذ ثلاثينيات القرن الماضي حين أكد بأن التحدي الأكبرالذي كان على القائمين على الأمر رفعه لم يكن متصلا بمسألة تدبير شأن ممالكهم أوقات

1 - Colette Beaune, Le miroir du pouvoir, les manuscrits des rois de France au Moyen Age, Paris, Bibliothèque de l'image, 1997, p.95.

2 - Hélène Débax, La féodalité languedocienne XIe-XIIe siècles. Serments, hommages et fiefs dans le Languedoc des Trencavel, Toulouse, Presses Universitaires du Mirail, 2003, p.234.

3- كانت أعداد سكان أقاليم غرب أوربا قليلة منذ سنة 476 حتى مطلع القرن التاسع؛ حيث بدأت تلك الأقاليم تشهد بداية نمو ديموغرافي سيتضح أكثر بعد حوالي سنة 1000. و تعزى تلك القلة لأسباب بشرية و طبيعية، من بينها الحروب و الانتفاضات الاجتماعية و الأوبئة والمجاعات.

4- تتمثل هذه الاعتبارات في تدهور مختلف الأنشطة و ندرة السيولة النقدية لدفع مرتبات الجند. فضلا عن كون تكاليف إعداد الفارس الواحد كانت باهضة. فالفرس لوحده كان سعره خلال القرن السابع يبلغ ثلاث مرات ضعف سعر الثور.

السلم، بقدر ما كان يتمثل في كيفية الحصول على العناصر البشرية اللازمة لخوض الحروب[1]. لذلك كانوا يستنفرون عند كل وقعة كل الذكور الأحرار القادرين على حمل السلاح. كما كانوا يستعينون بخدمات أفراد الأرستقراطية الذين كانوا يعززون "جيوش الملوك" بما كان تحت إمرتهم من عناصر مسلحة. وسيزداد الأمر حدة في الممالك التي أصبحت محاذية لمراكز الوجود الإسلامي في أوربا بعد أن نجح المسلمون في فتح الأندلس سنة 711 وشرعوا في عبور جبال البرانس. وأهم الممالك التي نعنيها في هذا المقام مملكة غاليا (أو غالة) التي كان يحكمها شارل[2] محافظ قصر أوسترازيا إبان فترة أوج الفتوحات الإسلامية في أوربا بعد سنة 711. فقد شرع في استنفار جميع من له قدرة على حمل السلاح. بل فكر جدياً في استحداث فرق من المحاربين تمتطي صهوات الخيول بعد أن كان معظم محاربي المملكة من المشاة[3]؛ في حين كان المسلمون يعتمدون في حروبهم على الفرسان إلى جانب المشاة. وفي هذا الصدد، يفيدنا أحد إخباريي القرن الثامن[4]، بأن شارل نجح بعد سنة 716 في تكوين فرق من الفرسان انضمت إلى صفوف خاصة محاربيه(حرسه الخاص) الذين كانوا مرتبطين

1- Marc Bloc, La société féodale, Op.Cit., pp.217-218.

2- هو شارل ابن ببين هرسطال(Héristal).ولد حوالي سنة 688 وتوفي سنة 741. كان دوقا لمقاطعة أوسترازيا. ثم أصبح محافظا لقصرها بين سنتي 737 و741. و بما أن الملوك المنتمين للأسرة الميروڤنجية الذين تعاقبوا على حكم غالة منذ سنة 638 كانوا ضعاف الشخصية أو صغار السن، فان محافظي القصور هم الذين كانوا بمثابة ملوك فعليين. و قد برز من بينهم محافظو قصر أوسترازيا : ببين هرسطال ثم ابنه شارل الذي لقب بشارل مارتل (Charles Martel) (أي شارل المطرقة) بعد وقعة بواتيي أو بلاط الشهداء.

3- يجب أن ننبه في هذا المقام بأن الممالك الجرمانية لم تكن تتوفر على جيوش نظامية كما كان الأمر خلال سيادة الإمبراطورية الرومانية، لذلك كان الملوك يستنفرون عند كل حرب الذكور الأحرار القادرين على حمل السلاح. كانوا ينظمون على شكل فرق من المشاة. أما الفرسان المشاركون في تلك الحروب فكانوا يتألفون أساسا من الفرسان العاملين تحت إمرة أفراد الأرستقراطية والفرسان التابعين للملوك. و يمثلون حرسهم الخاص (les antrustions). و سيتزايد عدد الفرسان المحاربين تحت إمرة الملوك بعد إصلاحات شارل العسكرية.

4- يتعلق الأمر بمؤرخ مغمور يدعى فريدگير(Frédégaire). ينتمي لمنطقة بورغونديا و عاش معظم حياته في مقاطعة أوسترازيا. وضع مصنفا سنة 660 يتناول الأحداث منذ بدء الخليقة حتى حوالي 642. و من ضمنها الأحداث التي شهدتها ممالك كل من الفرنجة و اللومبارديين و القوط الشرقيين و الغربيين. ثم تعاقب على استكمال نص الكتاب ثلاثة إخباريين مددوا الفترة التي يتناولها حتى حدود سنة 768. تم تحقيق و ترجمة هذا المصنف المؤلف من عدة نسخ إلى مختلف اللغات الأوربية. و قد اعتمدنا في هذا البحث على ترجمة فرنسية أنجزها فرانسوا گيزوت (François Guizot) وصدرت بباريس سنة 1823 ضمن منشورات J.-L.-J. Brière في كتاب يتضمن مؤلف غريغوار أسقف مدينة تور (تاريخ الفرنجة) و مؤلف فريدگير (إخبارية) (Chronique) تحت عنوان :

Collection des Mémoires relatifs à l'histoire de France

بقائدهم شارل بعلاقات تبعية وولاء. وكان المحاربون العاملون تحت إمرة أفراد الأرستقراطية يعززون هذا الجيش؛ بالإضافة إلى كل من له قدرة على حمل السلاح. وقد حقق انتصارات كاسحة في جميع الوقائع التي خاضها ضد السكسونيين(*les Saxons*) والألمن (*les Alamans*) والفريزيين (*les Frisons*). وتمكن من إيقاف المد الإسلامي في وقعة بواتيي (*Poitiers*) (بلاط الشهداء) سنة 732. ثم اتجه نحو الجنوب حيث استرد أقاليم أكيتانيا وبورغونديا وبروڤانسيا. واستكمل بذلك وحدة غالة.

وأهم ما في الأمر،هو أن القائمين على الأمر في غالة بدوا ، منذ عهد شارل مارتل، أكثر اقتناعا من أي وقت مضى بمدى ثقل الأرستقراطية على المستويين العسكري والسياسي ، فارتأوا الاستمرار في تسخيرها لتحقيق مشاريعهم. ولذلك أخذوا يغضون الطرف عن إجراءات أفراد الأرستقراطية الذين ظلوا يدينون بالولاء للقائمين على الأمر ولممثليهم في مختلف القومطيات؛ ولكنهم لم ينفكوا في نفس الوقت يعملون على توسيع نطاق شبكة علاقات التبعية التي سبق أن أرسى قواعدها آباؤهم وأجدادهم منذ أمد بعيد. وكان من نتائج سياسة غض الطرف أن أصبحت لإجراءات أفراد الأرستقراطية شيئاً فشيئاً تداعيات في دائرة كل قرية تقع بها ممتلكات هذا الأرستقراطي أو ذاك. تجلت تلك التداعيات في كون عموم الفلاحين المقيمين في تلك القرى أصبحوا يخضعون أكثر للقوة التي يلمسون وقعها وليس لتلك التي يشعرون بصداها. وهذا أمر طبيعي إذا علمنا بأن القوة اقترنت في جميع المجتمعات ومنذ فجر التاريخ بالثروة. فالذي يملك الثروة يملك القوة. فيتقرب له من هم أنداده أو الأقل منه ثروة و يذعن له المستضعفون[1].

1- و من هنا نفهم لماذا تنعت النصوص الأرستقراطي بالقوي (Potentat) و المسيطر(Dominus). و من هنا الفعل الفرنسي سيطر (dominer) .

ومـن ثـم، فـان تلـك الإجـراءات ذات الطـابع الحـربي، ومـا اسـتتبعها من علائق، أخذت تتبلور وتترسخ أكثر فأكثر في ربوع قـرى غـرب أوربـا عـلى حساب علاقـات التضــرع والإذعـان (*la recommandation*) التـي ضـاق نطاق استعمالها دون أن تختفي بصورة نهائية، طالما أن نسبة كبيرة من أفراد مجتمـع غرب أوربا كانت تعيش في حالة إملاق. ولذلك، فان عدداً منهم ظلوا يضـعون أنفسهم رهن إشارة متوسطي الحال والأغنياء لخدمتهم، أو فقـط لاسـتجدائهم والحصول منهم على ما يسد رمق أفراد أسرهم.

ويؤكد روبير بوتريش غلبة العلاقـات ذات البعـد الحـربي (العسـكري)، مسـتدركاً في ذات الوقـت موقفـه السـابق بخصـوص ثنائيـة أصـل الفيوداليـة في قولـه :"المحصـلة النهائيـة هـي أن الفصـالة، في معناهـا الحقيقـي، نشـأت في أوساط المحاربين وفق مقتضيات ستتضح و ستتبلور أكثر مستقبلاً. وستفضي في ذات الوقت إلى إرساء التزامات أكثر تخصصاً ستلقي بضـلالها عـلى علاقـات التضرع و الإذعان"[1].

ويبدو أن موعد أجرأة مقتضيات الفصالة لم يتأخر كثيراً. فالملوك الجرمان الأوائل في غالة وفي الممالك الأخرى كانوا يغضون الطرف عـن مختلـف أشـكال علاقات التبعية. ولكن ملوك ما بعد العقد الثالث مـن القـرن الثـامن أصـبحوا منخرطين في تفعيلها. ويعني هذا الانخـراط في أعـين بعـض البـاحثين[2] نجـاح الأرستقراطية في الهيمنة على "المؤسسة الملكية" في تلك الممالك.

---

1 - Robert Boutruche, Seigneurie et féodalité, Op.Cit. Tome I, p.170.

2- أنظر على سبيل المثال ما يذكره ميشال كابلان (Michel Kaplan) حول الموضوع في كتابه :
Histoire médiévale, Tome I, Le Moyen Age IVe-Xe siècles, Paris, Boréal, 1994, p.168.

وتمثل سنة 757 لحظة حاسمة في هذا الاتجاه. وقعت أحداث تلك اللحظة في غالة أكبر الممالك الجرمانية و" مهد الفيودالية ". وأورد اينهارد أو ايجنهارد (*Eginhard*)[1] تفاصيلها في " حولياته " ضمن أحداث سنة 757 كما يلي :" كان الملك ببين (*Pépin*)[2] يرأس جمعا ببلدة كومين (*Commynes ou Compiègne*)[في أحد أيام تلك السنة] فقدم تسلون (*Tassilon*) دوق (*Duc*) بڤاريا. ومثل بين يدي الملك وقدم له الولاء عن طريق لف اليدين. ثم وضع يده على الكتاب المقدس وأقسم اليمين بأن يصبح تابعا للملك وابنيه السيد شارل و السيد كارلومان. وهذا ما يتوجب أن يقوم به بتفان و إخلاص كل فصل لسادته. وقام أعيان بڤاريا الذين قدموا مع تسلون بدورهم بتأدية فروض الطاعة والولاء "[3].

يكتسي النص من دون شك أهمية قصوى لكونه يتضمن معطيات ذات قيمة بالغة في تاريخ الفيودالية. **ولذلك يستوجب إبداء الملاحظتين الآتيتين:**

أولاً: يسجل النص نقلة نوعية في طبيعة علاقات التبعية، وخاصة فيما يتعلق بأطرافها. فقد كانت علاقات الرفاقة تربط منذ ما قبل القرن الثالث بين مجموعة محاربين وأحد أعيان أو رؤساء القبائل الجرمانية أو أحد كبار محاربيها.

1- يعتبر من أشهر إخباريي غالة. ولد حوالي سبة 770 أو 775 و توفي سنة 840. ينحدر من أسرة نبيلة.تلقى تعليمه الأولي بمنستير فولدا (Fulda) شرق غالة. و أبان عن فطنة ونباهة منذ نعومة أظافره، فتم إرساله سنة 791 إلى المدرسة الملكية الملحقة بقصر شارلمان لاستكمال تعليمه. و ظل بالقصر،حيث قربه شارلمان منه و أصبح من خاصته. و عينه كاتبا خاصا له و"وزيرا".
نظم مجموعة قصائد و وضع عدة مؤلفات أشهرها عمل "بيوغرافي"حول شخص شارلمان يعرف ب"حياة شارلمان"(Vita Karoli) و كتاب الحوليات(Annales) الذي يشك بعض الباحثين في نسبته لايجنهارد.

2-هو ببين ابن شارل مارتل. يعرف ببيبن القصير نظرا لقصر قامته. ولد حوالي سنة 715 و توفي سنة 768. شغل منصب محافظ قصري كل من نوستريا و أوسترازيا بمملكة غالة بين سنتي 741 و 751. ثم أقصى آخر الملوك الميروڤنجيين و أصبح ملكا لمملكة غالة منذ سنة 751 حتى تاريخ وفاته.

3- Éginhard, Annales,Texte traduit et édité par François Guizot dans Collection des Mémoires relatifs à l'histoire de France, Paris, J.-L.-J., Librairie, 1824, pp. 6-7.

واستمرت حتى سنة 476 تاريخ سقوط الإمبراطورية الرومانية كما رأينا من قبل. ثم أصبحت تربط بين أحد أفراد الشريحة العليا في الأرستقراطية العقارية ومجموعة محاربين حتى سنة 757. وسيستمر هذا النوع من الروابط وفق مقتضيات جديدة. ولكن سنة 757 تسجل بداية دخول أطراف جديدة سامية في شبكة علاقات التبعية.ونعني بهذه الأطراف الملوك وكبار رجالات الممالك من أقماط ودوقات وغيرهم. كان لكل واحد منهم أتباع. ولكن بعد هذا التاريخ أصبح بعضهم تابعا للبعض الآخر. وكلهم أتباع للملك أو لمحافظي القصور الذين أصبحوا ملوكا دون أن تتم تسميتهم كذلك.

ثانياً: يقدم النص صورة عامة عن المراسيم التي أخذت تتم فيها علاقات الفصالة، و التي ستتم فيها الروابط الفيودو- فصلية بعد ذلك. كما يتحدث عن أهم المقومات التي سيرتكز عليها هذا النوع من الروابط خلال المرحلة الثالثة من مسيرة الفيودالية. و تتمثل هذه المقومات في الولاء الذي يقدمه الفصل، و عملية وضع يديه ملفوفتين بين يدي السنيور(*la dation*)،وعملية أداء القسم باستعمال أشياء أو بقايا مقدسة (*les Reliques*).

و انطلاقا من هاتين الملاحظتين تبدو التطورات التي يتحدث عنها النص مفاجئة و مثيرة للدهشة. إذ لا يعقل أن تأخذ علاقات الفصالة هذا الطابع الرسمي؛ و تتم مباشرتها في هذه الأجواء بدءا من سنة 757 دون مقدمات.

وتوضيحاً للأمر نذكر بمعطى أوردناه في مقدمة هذا المبحث وهو أن "رجالات الدولة " في الممالك الجرمانية كانوا بمثابة خدام للملوك. عدد منهم كانوا خداماً "مدنيين" يؤلفون حاشية الملك و خاصة أقربائه. وعدد آخر

كانوا خداماً "عسكريين". يتشكلون من الحرس ويمثلون صفوة حملة السيف. يقيم هؤلاء الحراس بجانب الملك. يسهرون على حمايته أوقات السلم ويخوضون إلى جانبه الوقائع أيام الحرب. يتمتعون بحظوة خاصة لدى الملك. تتضح إذا علمنا بأن أحد بنود القانون السالي المنظم للعلاقات والمعاملات في مملكة غالة الميروڤنجية كان يقضي بأن يدفع قاتل أحد هؤلاء الحراس ذعيرة يفوق مبلغها ثلاث مرات مبلغ الذعيرة التي يدفعها الجاني إذا تعلق الأمر بمقتل "مواطن"؛ حتى و إن كان هذا "المواطن" إفرنجيا (*un franc*) أو أحد البرابرة (*unbarbare*)[1].

والجدير بالذكر أن هؤلاء الحراس، الذين كانوا صفوة حملة السيف كما ذكرنا آنفا، كانوا يمثلون أيضا نخبة خدام الملك. كانت تربطهم به علاقات تبعية تقوم على الولاء (*la fidélité*) والقسم الذي يؤديه الواحد منهم بعد أن يضع يديه ملفوفتين بين يدي الملك. ويجمع عدد من الباحثين[2] بأن هذه العلاقات، بمختلف مقوماتها و الطقوس التي كانت ترافقها، ورثها ملوك القرنين السادس والسابع عن الأجداد والأسلاف[3]. ونفس علاقات التبعية هاته أصبحت تربط بين الملوك وخدامهم "المدنيين" كمحافظي القصور والأقماط والدوقات و كبار رجال الدين وكبار الملاكين العقاريين بعد تأسيس الممالك الجرمانية. كانت تقوم هي الأخرى على الولاء و القسم، و وضع الخادم (أي التابع) يديه ملفوفتين بين

1- ينص القانون السالي في البند الأول من الفقرة (أو المادة) 43 على أنه إذا قتل أحدهم إفرنجيا أو أحد البرابرة يلزم بدفع غرامة قدرها 8000 دنير (deniers) أو 200 " فلس"(sous) من ذهب. بينما بنص البند الرابع من نفس الفقرة (أو المادة) على أنه إذا قتل أحدهم حارسا من حراس الملك (membre de la Truste) يلزم بدفع غرامة قدرها 24000 دنير أو600 "فلس" من ذهب. أنظر الصفحة 149 من القانون السالي ، طبعة 1828 التي سبقت الإحالة عليها.

2- من بينهم على سبيل المثال جون- بيير بولي (Jean-Pierre Poly) و اريك بورنازيل (Eric Bournazel) مؤلفا كتاب :
La mutation féodale, Paris, P.U.F. (Collection Nouvelle Clio) 1980.

3- أنظر ص.109 من نفس الكتاب.

يدي الملك. و الجديد في الطقوس المصاحبة لهذه العلاقات هو أن القسم أصبح يعتمد في أدائه على الكتاب المقدس الذي يضع التابع يده عليه. وقد أدرج كعنصر جديد بعد أن تبنت الممالك الجرمانية المسيحية كديانة رسمية[1]. وسيتواصل العمل بهذه الطقوس خلال القرون الموالية. وسينضاف عنصر جديد إلى العناصر المكونة لها بعد مطلع القرن الحادي عشر و هو عملية تقديم السنيور حفنة تراب أو غصن شجرة صغير مورق للفصل دليلاً على تقديم الفيف.

ونذكر بأن غياب هذا العنصر بالنسبة للباحثين الذين ينكرون وجود فيودالية قبل مطلع القرن الحادي عشر، يعني غياب الفيف كعنصر مادي في علاقات التبعية وغيابه كمصطلح في نصوص ما قبل سنة 1000. ونحن إذ نقر بدورنا بما يذهبون إليه، نؤكد في المقابل بأن الأرض كانت حاضرة في علاقات الفصالة ولو على نطاق ضيق نسبياً. كيف ذلك؟.

لقد كانت علاقات الرفاقة تقوم على عطاء كان يقدمه السيد للرفيق كما ذكرنا فيما مضى. تمثل في المأوى و المأكل والمشرب و السلاح والحصان. وظل نفس العطاء يمثل محور علاقات الفصالة خلال القرنين السادس والسابع والنصف الأول من القرن الثامن. ثم حدث أن دخل القائمون على الأمر وممثلو السلطة "المركزية" كطرف في علاقات الفصالة، فضلاً عن أطرافها القدامى ككبار رجال الدين و كبار الملاكين العقاريين. فأصبح بعضهم " سنايرة "

1- نشير في هذا الصدد إلى أن كلوفيس(Clovis) أول ملوك مملكة غالة الميروفنجية (وهي أكبر الممالك الجرمانية) اعتنق المسيحية يوم 25 دجنبر 498. بعد مرور 16 سنة على اعتلائه عرش هذه المملكة.أنظر تفاصيل الحدث عند كَريكَوار أسقف كنيسة تور(Tours) فيكتاب :
Histoire des Francs, traduction et édition Robert Latouche, Paris, Les Belles Lettres,1995, Livre II, chap. 31, pp.120-121.

(*des seigneurs*) و بعضهم أفصالا. حينها لم يعد من المعقول أن يظل العطاء على حاله. بمعنى أنه كان يجب أن يرقى إلى مستوى هذه الأطراف السامية. فكيف أصبحت طبيعته؟.

كان حرياً بالإخباري الذي نقل إلينا خبر اجتماع ببين القصير سنة 757 ومقدم دوق بڤاريا إلى بلدة كومين و تقديمه لفروض التبعية و الولاء للملك أن يخبرنا عن نوعية العطاء الذي قدمه الملك السنيور لفصله الدوق، ولكنه لم يفعل. ويبدو أن ثمة ما يبرر عدم بث الإخباري في الأمر، لأن تسلون كان في غنى عن ذلك العطاء الذي يقدم لمتوسطي و بسطاء الأفصال. كما لم يكن ينتظر أن تمنح له قطعة أرض و هو الدوق الذي يتصرف في أرض شاسعة المساحة؛ وهي دوقية بڤاريا التي كان يحكمها.وربما كان العطاء هو الدوقية نفسها التي أقر ببين تسلون على حكمها.

وعلى كل، فان كتب الإخباريات و الحوليات تفيدنا بأن العطاء الذي كان معروفا منذ قرون ظل معمولاً به في أوساط الفئات المتوسطة والدنيا المعنية بعلاقات الفصالة. ولكن الأمر اختلف بالنسبة لخاصة المجتمع. فقد شرع شارل مارتل قبيل سنة 732 في تقديم قطع أرض تقع ضمن ممتلكات الأسرة الحاكمة لنفر من أتباعه من كبار أفراد الأرستقراطية عرفانا بما أسدوه من عون و مساندة. كما وزع قطعا أخرى على كبار أتباعه من حملة السيف. وبما أن الوقائع كانت كثيرة، و أعداد المحاربين كانت في تزايد مستمر، لم يكن ممكنا أن يستمر في تقديم قطع أرض من ممتلكاته أو من ممتلكات المملكة، لذلك لجأ إلى مصادرة مساحات شاسعة من الأراضي التي كانت في حوزة الكنائس. وكان من الطبيعي أن يثير هذا الإجراء حفيظة تلك المؤسسات. وفي ذلك خسارة لشارل مارتل الذي كان

في حاجة إلى سندها؛ خاصة وأنه كان لازال محفظ قصر يحكم "نيابة" عن ملك يحضى بالشرعية. واستدراكاً للموقف دعي إلى إيجاد مخرج للمشكلة. فعقدت ثلاث مجامع دينية بين سنتي 742 و 744. انتهت إلى الإقرار بأن الأراضي التي صودرت من الكنائس و وزعت على أفصال (محاربين أو غير محاربين) تظل في ملكية تلك المؤسسات. ولا حق للأفصال فيها إلا حق الاستغلال الذي ينتقل إلى ورثة الفصل بعد وفاة هذا الأخير. وقد يتوقف مفعول حق الاستغلال إذا ارتأى الملك ذلك. ويلتزم الأفصال المستغلون لما في أيديهم من أراضي بتقديم ضريبة محددة. نص عليها عقد كان يبرمه كل فصل مع الكنيسة مالكة الأرض. بينما كان يبرم ذات الفصل عقدا آخر مع الملك باعتباره السنيور المانح لحق الاستغلال. ومنذ هذا التاريخ وحتى مطلع القرن الحادي عشر بدأت ترتسم في الأفق معالم علاقات الفصالة المتمحورة حول قطعة أرض كعطاء يعرف في النصوص باسم " بنفسيوم " (*beneficium*)[1]. وتترك نفس النصوص الانطباع بأن مجال استعمال هذا النوع من العطاء أخذ يتسع على حساب العطاء الذي كان معمولا به منذ ما قبل القرن الثالث للميلاد (أي المأوى و المأكل وما شاكل ذلك). كما أن أعداد المعنيين بالعطاء "القديم" ظلت في تراجع رغم عدم وجود معطيات رقمية تثبت ذلك.

ويمثل عهد شارلمان (768 – 814) فترة حاسمة في اتساع نطاق استعمال قطع الأرض كعطاء في علاقات الفصالة. و قد استمر هذا الاتساع حتى نهاية حكم الأسرة الكارولنجية حسب الخلاصة التي انتهى إليها فردناند لوط

1- يجدر التنبيه إلى أن كلمة بنفسيوم لا تطلق فقط على قطعة أرض، و إنما على أي شيء يقدمه شخص لشخص آخر للانتفاع به. و قد يكون ذلك الشيء كمية من الحبوب أو مبلغا من المال.

(*Ferdinand Lot*) منذ عـدة عقـود[1]. وقـد كـان محقـاً في ذلـك. عـلى اعتبـار أن شارلمان خاض حروباً كثيرة في اسبانيا وايطاليا و جرمانيا أفضت إلى الحصول على مساحات شاسعة من الأرض. وزع قطعاً كثيرة منهـا عـلى عـدد مـن أفـراد الأرستقراطية الذين ارتبطـوا بـه بعلاقـات تبعيـة و ولاء. ولكنـه حـرص عـلى ألا يكون لهم عليها سوى حق الانتفاع، لكي يحرص كل مسـتفيد عـلى التشـبث بالولاء ويضع في حسبانه بأن قطعة الأرض قد تنتـزع منـه إذا لم يـف بالتزاماتـه العسكرية المتمثلة في استنفار ما تحت إمرته من محـاربين عنـد الضــرورة. وعـلى كل، فقد أصبحت الأرض حجر الزاوية في علاقة الملوك الكـارولنجيين بـأفراد الأرستقراطية. وهذا ما يفهم مـن كـلام الباحثـان جـون- بيـير بـولي (*Jean–Pierre Poly*) واريك بورنزيل (*Eric Bournazel*) اللذان تناولا المسألة منذ بضع سنوات وأكدا بأن البنفسيوم غدا عنصراً أساسياً في علاقات الفصـالة منـذ منتصـف القـرن التاسـع[2]. ونعتقـد مـن جانبنـا بـأن هــذا التطـور ينسـجم مـع مسـارعلاقات الفصـالة التـي اتخـذت منـذ عهـد شـارلمان طابعـاً رسـمياً. وأصبحت إحدى الأدوات المعتمدة في الحكم والتسيير.

ويبدو هذا التطور في علاقة الدولة بالفصالة غريباً إذا علمنا بـأن شـارلمان قام بعدة إصلاحات[3] في مجـال الإدارة والقضـاء ونظـام الحكـم بهـدف إرسـاء دعائم "دولة مركزية" ذات مؤسسات يخضع لسلطانها جميـع سـكان المملكـة – الإمبراطورية. وكان من المفـترض أن تفضـــي تلـك الإصـلاحات إلى تقلـيص

1 - Ferdinand Lot, « Le serment de fidélité à l’époque franque », in Recueil des travaux de Ferdinand Lot, Paris – Genève, Droz, 1968, TomeII ,p. 343.

2- أنظر الصفحة 117 من كتابهما La mutation féodale: الذي سبقت الإحالة عليه.

3- نشرت دراسات وأبحاث كثيرة حول شخصية شارلمان و حول إصلاحاته. يمكن العودة على سبيل المثال إلى الدراسة المستفيضة التي أنجزها لوي هالفن (Louis Halphen) منذ عقود تحت عنوان : Charlemagne et l’empire carolingien,Paris, Albin Michel,1947, réédition,1968.

مساحة شبكة علاقات التبعية والحد من سطوة أفراد الأرستقراطية؛ خاصة وأن شارلمان قرر الإشراف شخصياً على تعيين الأقماط والدوقات وكبار رجال الدين على رأس مختلف القمطيات. وحرص على أن يكونوا هم المسؤولين المباشرين على إقرار الأمن وعلى جباية الضرائب وهم المشرفين على أمور القضاء. وزاد بأن دعم هذا الإجراء بإقرار مبدإ الرقابة المستمرة بواسطة المبعوثين الملكيين (*les missi dominici*)؛ الذين كانوا يتجولون عبر مختلف القمطيات ويرفعون له تقارير عن سير الأقماط والمؤسسات الدينية وعن سلوك أفراد الأرستقراطية. غيران هذه الإجراءات لم تحدث القطيعة المنتظرة مع علاقات الفصالة، لأن شارلمان كان يراعي في اختيارالأقماط والدوقات وكبار رجال الدين أن يكونوا من أشد المخلصين للأسرة المالكة. تربطهم بشخص الملك علاقات تبعية وولاء، أي علاقات فصالة. على أن يغدوا في المقاطعات التي يشرفون على إدارتها "سنايرة" (*des seigneurs*) يرتبط بهم بعلاقات فصالة مختلف رجال الدين و كبار الملاكين العقاريين. بينما تترك لعموم فلاحي المقاطعات و "المواطنين" الأحرار حرية اختيارالسنايرة الذين يرغبون في الارتباط بهم بعلاقات فصالة.

وبناء عليه يتضح بأن الإصلاحات التي قام بها شارلمان في مجال نظام الحكم و إدارة القمطيات لم تكن تهدف استئصال علاقات الفصالة بقدر ما كانت تروم "ترويضها" أو بعبارة أصح تقنينها[1]. لأن عملية استئصالها كانت صعبة ،حتى لا نقول مستحيلة، لاعتبارات **يمكن إيجاز أهمها فيما يلي :**

1- نقصد بتقنينها sa canalisation. أي جعلها تأخذ مسلكا واحدا يبتدأ عند أدنى فرد في المجتمع متمتع بحق الحرية و ينتهي عند شخص الملك باعتباره " سنيور السنايرة "(le suzerain).

أولاً: رسوخ علاقات الفصالة في المجتمع عامة، وفي أوساط الطبقة الأرستقراطية التي تبنتها كتقليد منذ قرون. ولم يكن بإمكان شارلمان المضي قدماً في إصلاحاته الإدارية بإلغاء هذا التقليد. ومن ثم التنكر لأفراد الأرستقراطية الدين أسدوا خدمات جلة لآبائه و أجداده أوصلتهم إلى دفة الحكم على حساب ملوك الأسرة الميروڤنجية.

ثانياً: افتقار الدولة إلى أطر كافية و محترفة لتدبير شؤونها في وقت أصبحت فيه مترامية الأطراف بعد الحروب التوسعية. وبالتالي، فان الضرورة كانت تقتضي الاستمرار في الاعتماد على أفراد الأرستقراطية في تدبير مختلف القمطيات من خلال علاقات الفصالة التي أرسوا دعائمها والتي مكنتهم من القيادة والتسيير.

ثالثاً: محدودية الموارد المالية الضرورية لتغطية النفقات التي تتطلبها مهام الحكم والتدبير ودفع مرتبات "موظفي" الدولة من رجال الدين والعلمانيين رغم الإصلاحات الاقتصادية والمالية التي قام بها شارلمان. وبالتالي، كان لابد من استعمال الأرض كوحدة نقدية لتغطية النفقات الإدارية والعسكرية. وبما أن الحروب التي خاضها شارلمان و فرت مساحات شاسعة من الأرض، فقد أغنت عن المضي قدماً في البحث عن مصادر السيولة النقدية. كما أن تلك الوفرة شجعت على المنح المطلق أحياناً وعلى المنح المشروط بحق الاستغلال في أحايين كثيرة. وكان من تبعات ذلك أن استغل عدد من أفراد الأرستقراطية وفاة شارلمان فسيطروا على قطع الأرض التي منح لهم حق استغلالها. كما أن خلفاؤه حادوا عن السياسة التي انتهجها في هذا المضمار والتي كان يتبعها فيما مضى محافظو القصر. وذلك حين قرروا بأن تصبح ملكية الفصل على قطعة الأرض

التي منحت له كعطاء (*beneficium*)، ملكية تامة مطلقة نظير استمراره على الولاء سواء كان سيده، أي "سنيورة" أحد الخواص أو سيده الملك شخصياً.

وانطلاقاً مما تقدم، نخلص إلى القول بأن علاقات الفصالة التي نشأت في الممالك الجرمانية زمن ضعف السلطات المركزية، كان من المفترض أن تتراجع في مرحلة بدأت تترسخ فيها نسبياً أسس الدولة المركزية. غير أن هذا التطور لم يحصل. بل على العكس من ذلك تماما اكتست تلك العلاقات مشروعية وارتقت إلى مصاف القوانين المنظمة للعلاقات والمعاملات. وهذا ما حدث بالذات في غالة التي غدت في عهد شارلمان إمبراطورية مترامية الأطراف. شمل نفوذها معظم أقاليم غرب أوربا. وستشكل الاضطرابات الداخلية التي شهدها هذا الكيان بعد وفاته بالإضافة إلى عوامل خارجية المناخ الأمثل لكي تنطلق تلك العلاقات نحو آفاق أرحب سنتوقف عند تجلياتها في الفصل الموالي.

الروابط الفيودو- فصلية:

هيا انهيار الامبراطورية الكارولنجية و ماتلاه من اضطرابات داخلية وغارات خارجية[1] المناخ الملائم لاتساع مجال انتشار علاقات الفصالة في غالة وفي مجموع أقاليم غرب أوربا. والحقيقة أن تلك العلاقات لم تتوقف أبداً عن الانتشار منذ عهد محافظي القصور كما أوضحنا ذلك فيما مضى. وكان من الممكن أن يأخذ انتشارها منحى تصاعدياً منذ عهد شارل مارتل، غير أن شارلمان نجح في التخفيف من إيقاع مسيرتها حين عمل على تقنينها. وبذلك وفق أيضاً في كبح جماح أفراد الطبقة الأرستقراطية ووضعهم تحت السيطرة ولو إلى حين. وبعد وفاته افتقدت غالة، و الغرب الأوربي عموماً، حاكماً في مثل

1-نعني هنا غارات الفكينج أو النورمان و غارات القبائل الهنغارية و غارات المسلمين انطلاقا من الأندلس.

حنكته وقوة شخصيته. فخلى الجو لأفراد الأرستقراطية الذين عادوا مجدداً لتفعيل علاقات الفصالة التي أصبحت منذ هذا الوقت متحورة حول الفيف أكثر من أي وقت مضى. كما اجتهدوا في بسط سلطانهم على عموم الفلاحين. وشرعوا في إرساء الآليات والوسائل الكفيلة بتحقيق مكاسب معنوية ومادية من وراء ذلك السلطان. وقد استفادوا لتحقيق مبتغاهم من الاضطرابات والفوضى السياسية. ومع ذلك فيجب التنبيه في هذا المقام، بأن أفراد الأرستقراطية من كبار الملاكين العقاريين وكبار رجال الدين لم يستغلوا تلك الأوضاع للإسراع بإعلان تمردهم أو للتحلل من سلطة القائمين على الأمر في الممالك التي قامت في غالة، وفي أقاليم غرب أوربا الأخرى، بعد انهيار الإمبراطورية الكارولنجية. فقد استمروا، حتى العقد الأخير من القرن العاشر، يدينون بالولاء للملوك مباشرة أو للأقماط الذين يمثلونهم في القمطيات. وتجلى ذلك في كونهم ظلوا يؤدون فروض الطاعة للملوك مباشرة، ويحضرون أشغال "الاجتماع الملكي" (*le plaid royal*). وهو واحد من بين اجتماعين سنويين كان يرأسهما الملك. كما ظلوا يؤدون يمين الولاء للأقماط. بعضهم يقومون بذلك بوصفهم أفصالا لهؤلاء الأقماط وبعضهم الآخريقومون بذلك بوصفهم "مواطنين" خاضعين لسلطة الأقماط. وبما أنهم من علية القوم، فقد كان يتوجب عليهم القيام عمليا بأداء الولاء، وحضور الاجتماعات الدورية التي يدعو إليها القمط (*les plaids comtaux*). وعند تعيين قمط جديد على رأس القمطية، كان كبار الملاكين العقاريين وكبار رجال الدين يقومون بتقديم ولائهم للقمط الذي تم تعيينه. وإذا تعذر على أحدهم القيام بذلك لأسباب قاهرة كان ينيب عنه من يقوم بالعملية. كأنهم بذلك يقدمون فروض الطاعة والولاء للملك

شخصياً. وهذا التقليد ظل يجري به العمل منذ عهد شارلمان[1]. ولكن بعد مطلع القرن الحادي عشر بدأت تظهر معالم الاتجاه نحو مرحلة جديدة في مسار تطـور الفيودالية.

نشترك مع عموم الباحثين في القول بأن هذه المرحلة تميزت بكون الفيـف أصبح خلالها يمثل حجر الزاوية في العلاقات بين أفراد الأرسـتقراطية. ولكننـا نختلف معهـم حـين نـذهب إلى اعتبارهـا مرحلـة ثالثـة اكتمـل خلالهـا نضـج الفيودالية كما أشرنا إلى ذلك في مقدمة هذا القسـم. في حـين، يـذهب البـاحثون إلى اعتبار هذه المرحلة مرحلة أولى ووحيدة نشأت خلالهـا الـروابط الفيـودو – فصلية، وخلالها أيضاً تبلورت تلك الروابط. و ينكرون اعتبار علاقات الفصالة مقدمة لهذه الروابط.

ومهما يكن من أمر، فقد قام البـاحثون منـذ عقـود برصـد مسـيرة هـذه الروابط و باستعراض السياق الذي "نشـأت" وتطـورت فيـه. بعضـهم اختـار الغرب الأوربى ككل مجالاً جغرافياً لتناولها، وبعضهم اختار أحد أقطاره الحالية كإطار جغرافي للقيام بذلك، بينما ارتأى البعض الآخـر تناولهـا في حيـز جغـرافي أضيق. وبما أننا نتفق معهم، على الأقل في كون فـترة مـا بعـد سـتة 1000 تمثـل مرحلة تبلور الروابط الفيودو – فصلية، فقد ارتأينا في هذا الفصل اعتماد بعض المنغرافيات الإقليمية للقيام باستعراض أبرز مظـاهر هـذا التبلـور كـما حـدثت في قمطيتين تنتميان لغالة الموسـومة بكونهـا "المـوطن الأصـلي" للفيوداليـة همـا

1- تحدث بتفصيل عن هذا التقليد هنكمار(Hincmar)أسقف كنيسة مدينة ريمس(Reims) في كتابه :
De Ordine Palatii , texte latin et sa traduction française établit par la Bibliothèque de l’ Ecole des Hautes Etudes, Paris, Editions f.Vieweg , 1885.
ومن المعلوم أن هنكمار الذي عاش بين سنتي 806 و 882 قضى فترة من حياته في خدمة لويس التقي(Louis le Pieux) و شارل الأصلع(Charles le Chauve) خلفاء شارلمان.

قمطية ماكوني (*le Mâconnais*)[1] وقمطيـة بـروڤانسـيا (*la Provence*)[2]؛ وفي إقليمين بعيدين عن غالة هما إقليـم اللاسـيوم (*le Latium*)[3] أحـد أقـاليم ايطاليا، وإقليم قطلونيا (*la Catalogne*)[4] الواقع في شبه جزيرة ايبيريا.

شكلت قمطية ماكوني مجـالاً جغرافيـاً لأطروحـة أصـدرها جـورج دوبي (*Georges Duby*) سـنة 1953. وقـد أنجـز هـذه الأطروحـة بـين نهايـة الأربعينيات ومطلع الخمسينيات من القـرن العشريـن؛ خـلال مرحلـة خاصـة من مسيرة البحث التاريخي في فرنسا. تميزت بكون الرؤيـة الضـيقة التـي تختـزل الفيودالية في الفصالة والفيـف والمؤسسـات المتصـلة بهـا كانـت هـي السـائدة في أوساط الباحثين في التاريخ الأوربي الوسيط[5] وكـذلك في أوسـاط المهتمـين

1- Georges Duby , La société au XIe et XIIe siècles dans la région mâconnaise, Paris, A. Colin, 1953.

2 - Jean-Pierre Poly, La Provence et la société féodale, 879-1166, contribution à l'étude des structures féodales dans le Midi, Paris, Bordas, 1976.

3- Pierre Toubert , Les structures du Latium médiéval :Le Latium méridional et la Sabine du IXe siècle à la fin du XIIe siècle, Paris, les Editions de Boccard, 1973, 2 vol.

4- Pierre Bonnassie, La Catalogne du milieu du Xe à la fin du XIe siècle :Croissance et mutations d'une société, Toulouse, Association des publications de l'Université de Toulouse-Le Mirail ,1975-1976, 2 vol..

5- نذكر من بين هؤلاء الباحثين فوستيل دي كولانج (Fustel de Coulanges) المتوفى سنة 1889. وأوگيستان فلبش (Augustin Fliche) المتوفى سنة 1951. وفرديناند لوط (Ferdinand Lot) المتوفى سنة 1952.أنجز هؤلاء المؤرخين أبحاثا كثيرة ذات قيمة علمية بالغة. شكلت حجر الزاوية في لائحة المراجع التي اعتمدها مؤرخو ما بعد الحرب الكونية الثانية. ومن بين أبحاثهم نذكر على سبيل المثال:

- Fustel de Coulanges,Histoire des anciennes institutions françaises, Paris, Hachette, 1901-1914. 6 Tomes.
- Augustin Fliche, La chrétienté médiévale (395-1254), Paris, Editions de Boccard, 1929.
- Ferdinand Lot, La France des origines à la guerre de Cent ans, Paris, Gallimard, 1941.

بالقانون و تاريخ المؤسسات[1]. بينما كانت الرؤية الواسعة التي تبناها مارك بلوك (*Marc Bloch*)[2]، والتي ترى الفيودالية إحدى التجليات التي اتخذتها البنيات الاجتماعية في تطورها خلال العصر الوسيط، لا زالت تبحث لها عن موطئ قدم. ولذلك، جاءت أطروحة دوبي مثقلة بإرث الماضي ومستشرفة في ذات الوقت النقلة التي ستحدث بعد تزايد تلامذة بلوك. وهذا ما يتضح من عنوانها و كذلك من مضمونها. فقد تضمن عنوانها كلمة "مجتمع" على شاكلة عنوان كتاب مارك بلوك. أما مضمونها فتضمن فصولاً مطولة خصصها الباحث للفصالة والفيف. وأخرى خصصها لرصد التحولات التي شهدها مجتمع الماكوني خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر. سعى فيها جاهداً إلى إقناع القارئ بأن الفصالة والفيف كانا مجرد واجهتين لمؤسسات نشأت وتطورت في سياق تلك التحولات الاجتماعية. و رغم الجهد المبذول، لم يستطع جورج دوبي التحرر من نظرة المؤرخين القدامى للفيودالية[3] حين يرون بأنها

1- نذكر من بين هؤلاء المهتمين جاك فلاش (Jacques Flach) المتوفى سنة 1919.رجل قانون له عدة مؤلفات من بينها :

- Etudes critiques sur l'histoire du droit romain au Moyen Age, Paris, Librairie Larose et Forcel, 1890.

وفرانسوا اوليفيي – مارتان (François Olivier- Martin) المتوفى سنة 1952. هو أيضا رجل قانون له عدة مؤلفات من بينها :

- Histoire du droit français des origines à la Révolution, Paris, Montchrétien, 1948.

2- يعد من أبرز المؤرخين الباحثين في اقتصاد و مجتمع فرنسا في العصر الوسيط. دعا إلى ضرورة تغيير مناهج البحث. و أسس لهذا الغرض رفقة زميله لوسيان فيفر (Lucien Febvre) المجلة الشهيرة "حوليات التاريخ الاقتصادي و الاجتماعي" ((Annales d'Histoire Economique et Sociale التي لازالت تصدر إلى اليوم باسم "الحوليات، التاريخ، العلوم الاجتماعية" (Annales Histoire Sciences Sociales. كما أنجز عدة أبحاث قبل أن يلقى حتفه رميا بالرصاص على يد القوات النازية يوم 16 يونيو 1944. و من أهم ما صدر له :

Les caractères originaux de l'histoire rurale française (1931).Et La société féodale (1939).

3- ننبه القارئ بأن ما نذكره في هذا الشأن ينطبق على أطروحة دوبي التي صدرت سنة 1953. أما بعد ذلك فقد تطورت نظرته كثيرا كما يتضح من خلال مؤلفاته اللاحقة مثل كتاب Guerriers et paysans (1969) وكتاب Les trois ordres ou l'imaginaires du féodalisme (1978)

تمثل الحصيلة المنطقية لانفراط وحدة الإمبراطورية الكارولنجية. إذ يذهب على غرارهم إلى الاعتقاد بأن تدهور مؤسسة القمطية في إقليم الماكوني أفضى إلى تشكل شبكة من الروابط الفيودو – فصلية انخرط فيها أفراد الأرستقراطية في هذا الإقليم.

أولاً: تدهور مؤسسة القمطية:

يفيدنا جورج دوبي بأن إقليم الماكوني كان منتظماً في إطار قمطية نشأت منذ العهد الكارولنجي في سياق عملية إعادة تنظيم "الإدارة الترابية". وقد حصل فتور في علاقة هذه القمطية بالمؤسسة الملكية منذ شهر غشت من العام 843، تاريخ توقيع معاهدة ڤردان (*Verdun*) التي تم بموجبها تقسيم الإمبراطورية الكارولنجية بين الإخوة الثلاث أبناء الملك لويس التقي (*Louis le Pieux*). وتحول هذا الفتور إلى نوع من القطيعة منذ سنة 951 . فقد زار الملك لويس الرابع قمطية ماكوني خلال هذه السنة. وبعد هذا التاريخ لم تطأها أقدام ملك حتى حوالي سنة 11166 . ورغم هذه التطورات، فإن مؤسسة القمطية والمؤسسات العمومية المتصلة بها ظلت منذ سنة 951 وحتى حدود سنة 980 أو 982 تمارس دورها في إقرار الأمن و جباية الضرائب والإشراف على أمور القضاء والسهر على ممارسة الشعائر الدينية في ربوع قمطية الماكوني. ولذلك فإن عموم الفلاحين وغيرهم من الأفراد الأحرار ظلوا يثقون في تلك المؤسسات. ولم يعودوا يبحثون عن الأمان والاطمئنان في علاقات القرابة أو في صيغ أخرى مماثلة لها. أما أفراد الأرستقراطية اللائكية، فقد استمروا من جانبهم في احترام مؤسسات القمطية. ولم يكونوا يترددون في مد يد العون للقمط وللمؤسسات الدينية في الحالات العادية، كما في الظروف

1- Georges Duby, La société au XIe et XIIe siècles…, Op. Cit. p.91 et p.540.

الاستثنائية. غير أن مستجدات شهدتها القمطية أخذت تأثر سلباً في علاقة أفراد الأرستقراطية اللائكية و الدينية بالقمط.

فابتداء من سنة 982 تولى إدارة القمطية أوت ݣيوم (*Otte Guillaume*) الذي أمضى السنوات الأولى من فترة ولايته في سلسلة حروب توسعية ضد جيرانه. استنزفت موارد القمطية واضطر لإنهائها دون تحقيق طائل ليتفرغ لإقرار السلم الاجتماعي[1] في ربوع القمطية على اثر موجة العنف التي أخذت تجتاحها.

لم يخف أفراد الأرستقراطية تذمرهم من سياسة أوت ݣيوم، ولكن المصالح المشتركة اقتضت أن يلتفوا حوله لمواجهة هذه المستجدات الداخلية. ويفيدنا جورج دوبي بأن عملية التصدي لأعمال العنف التي أخذت تقوم بها مجموعات من الفرسان والتي واكبتها حركات احتجاج في أوساط الفلاحين شكلت في حقيقة الأمر سلاحاً ذو حدين: فقد أبانت عن تظافر جهود القمط وأفراد الأرستقراطية ورجال الدين في تدبير الشأن العام. كما أبانت عن حرص جميع الأطراف على سلامة المؤسسات واستمرارية دورها. ولكنها دلت في نفس الوقت على أن مؤسسة القمطية لم تكن قادرة لوحدها على مواجهة أعمال العنف أو التصدي لحركات الاحتجاج. وبما أن تلك الأعمال والحركات اتخذت

1- نقصد هنا ما يعرف بحركة سلام الله(la Paix de Dieu) التي ظهرت سنة 989 بإقليم أكيتانيا،جنوب غالة، ثم انتشرت في مختلف أقاليم غالة. و هي حركة ذات مسحة دينية اجتماعية. نشأت في أوساط رجال الدين و تبنتها المؤسسات الدينية. كانت تهدف إلى اقرارالسلم الاجتماعي بين المسيحيين على اثر حركات العنف التي بدأت تندلع هنا وهناك في سياق التحولات الكبرى التي بدأت تشهدها أقاليم غرب أوربا.
وقد كان هدفها الأسمى في حقيقة الأمر هو حماية المؤسسات الدينية، و الحرص على حرمتها. لذلك عقدت الكنائس سلسلة اجتماعات للنظر في آليات تطبيق الحركة.أقرت على إثرها جعل المؤسسات الدينية أماكن حرما يجرم من اقتحمها أو اعتدى على الأفراد العزل المحتمين بها. كما أقرت كذلك جعل أيام الأحد و الاثنين والثلاثاء و الأربعاء أياما حرما لا يتم فيها القتال.و نفس الأمر ينطبق على الأيام التي تتصادف مع تخليد الأعياد الدينية. لمزيد من التفاصيل بخصوص هذا الموضوع يمكن العودة إلى كتاب :
Dominique Barthélemy, L’an mil et la paix de Dieu: la France chrétienne et féodale (980-1060), Paris, Fayard, 1999.

في بادئ الأمر مسحة دينية، فقد تزعمت المؤسسات الدينية عملية مجابهتها. فأمدها ذلك بشحنة معنوية وجعل كبار رجال الدين ينفردون باتخاذ بعض القرارات دون العودة إلى القمط؛ من قبيل عقد الاجتماعات دون سابق إعلان للبث في آليات التصدي لتلك الحركات. فكان هذا الإجراء لوحده يمثل مؤشراً على تزايد تنامي سلطة كبار رجال الدين وتراجع هيبة القمط أوت كَيوم الذي أخذ يتخلى عنه كبار أفراد الأرستقراطية اللائكية بدورهم. و هذا ما تأكد لاحقاً بعد سنة 1000 حيث أخذ عدد الحاضرين لاجتماعات القمط يتراجع بشكل مستمر. و إذا صدقنا جورج دوبي، فإن اجتماعاً دعا لانعقاده أوت كَيوم سنة 1005 لم يحضره سوى أفصال القمط و نفر من كبار رجال الدين و أعيان الأرستقراطية اللائكية. أما اجتماع سنة 1010 فلم يحضره سوى أفصال القمط وأسقف القمطية مرفوقاً بأحد مساعديه[1]. وبعد هذا التاريخ أخذت تلك الاجتماعات تكتسي طابعاً عائلياً. حيث لم يعد يحضرها سوى أقرب المقربين من القمط وأفراد عائلته وأشخاص آخرين تربطهم به صلات قرابة.

ومعنى ذلك أن أفراد الأرستقراطية، من كبار الملاكين العقاريين اللائكيين وكبار رجال الدين تحللوا من سلطة القمط وقطعوا صلاتهم بمؤسسات القمطية. وأضحوا سادة أنفسهم وسادة سكان القمطية الذين أصبحوا خاضعين لنفوذهم في إطارما نصطلح على تسميته "بالسنيورية الإلزامية"[2] (*la seigneurie banale*). كما شيدوا القصور التي اتخذوها مراكز لممارسة السيادة. وشكلوا، لتفعيل تلك السيادة أجهزة ومؤسسات تابعة لهم. تقوم بإقرار الأمن وجباية الضرائب وتشرف على أمورالقضاء. وبموازاة ذلك ارتبطوا فيما بينهم بعلاقات فصالة متمحورة حول الفيف.

1- Georges Duby, La société au XIe et XIIe siècles…,Op.Cit.,p. 168.
2- سنعرف بهذه المؤسسة و سنتحدث عن بنيتها بتفصيل في موضع لاحق.

ثانياً: تشكل الروابط الفيودو – فصلية:

يعود جورج دوبي في معرض حديثه عن الروابط الفيودو – فصلية ليقنع القارئ ضمنيا بأن انخراط أفراد الأرستقراطية الماكونية في هذه الروابط يمثل النتيجة المنطقية التي آل إليها تدهور مؤسسة القمطية. ويفيدنا في هذا الصدد بأن النصوص التي اعتمدها توضح بأن الصلة بين الفيف و الولاء[1] (*l'hommage*) أصبحت وثيقة في الماكوني ابتداء من سنة 1030. حيث غدت كل عملية تقديم فيف تستوجب من المستفيد منه تقديم الولاء وأداء القسم. وتبعاً لذلك خصص صفحات مطولة لرصد مسيرة الفيف و للحديث عن الولاء وعن الطقوس التي كانت تتم فيها عملية تقديم الفيف وعملية أداء الولاء. **وأهم الملاحظات التي يمكن استخلاصها من تلك الصفحات هي كما يلي:**

أولاً: لم تكن العلاقات بين جميع أفراد الأرستقراطية في إقليم الماكوني قائمة على الفيف. فقد مثل حجر الزاوية في العلاقات القائمة بين أفراد الشريحة السفلى وأفراد الشريحة المتوسطة في الطبقة الأرستقراطية، وكذلك بين أفراد هذه الشريحة و أفراد الشريحة العليا، أما بين أفراد الشريحة العليا فقامت روابط "فيودو – فصلية " غير مستندة على الفيف. وقليلاً ما كان أحد أفراد هذه الشريحة يقدم فيفا لفرد آخر. لأن أفراد هذه الشريحة كانوا ينحدرون كلهم من أسر نبيلة و عريقة مالكة لأراضي مترامية الأطراف، و لأن الأمر يتعلق هنا بشخصين متساويين في المقام والقوة. ومن ثم، لم يكن من اللائق أن يسلم

1- ننبه القارئ بأننا نستعمل كلمة ولاء كمرادف لكلمة hommage . كما أننا سنستعملها لاحقا كمرادف لكلمة fidélité. في حين أن هناك فرقا بين الكلمتين الفرنسيتين. لذلك فإننا عند كل استعمال لكلمة ولاء نسجل بين قوسين ما يقابلها في اللغة الفرنسية حسب سياق النص.

أحدهم فيفا للآخر، لأن عملية تسليم الفيف تحيل إلى نوع من الدونية. كما تجعل المستفيد من الفيف في وضعية تبعية و خضوع للشخص مانح الفيف.

ثانياً: اتخذت عملية تقديم الولاء (*l'hommage*) في قمطية ماكوني شكلا عمودياً وآخر أفقياً. فقد كان بإمكان الشخص الواحد المنتمي للشريحة السفلى أو للشريحة المتوسطة في الأرستقراطية أن يتسلم فيفين من مانحين. فيغدو بذلك فصلا "لسنيورين". وغالباً ما كانت تتكرر مثل هذه الحالات في أوساط حملة السيف الذين كان الطلب عليهم قوياً، لذلك كان "السنايرة" يتنافسون في استقطابهم بمنح الأفياف و التخفيف من أعباء الخدمات والالتزامات. بينما لم يكونوا هم أيضا يترددون في الاستجابة لتلك الإغراءات. فكان الواحد منهم يضع مهاراته القتالية رهن إشارة أكثر من سنيور لزيادة رصيده من الأفياف. غير أن تعدد مثل هذه الروابط كان يطرح أحياناً بعض المشاكل، حين يقع سوء تفاهم بين سنيورين. فيجد الفارس المرتبط بهما بعلاقة فصالة نفسه في وضعية حرجة.

ومهما يكن من أمر فالمحصلة النهائية التي يخرج بها قارئ أطروحة جورج دوبي هي أن قمطية الماكوني وقعت في شراك الفيودالية بعد تدهور مؤسسة القمطية و نهاية دورها في رعاية شؤون أفراد المجتمع. فغدت بذلك إحدى المجالات الجغرافية الممثلة لهذه الظاهرة في ربوع غالة. ومن ثمة، فإن قصة العلاقة بين قمطية الماكوني والفيودالية تلخص إلى حد بعيد قصة غالة مع هذه الظاهرة تبعا للانطباع الذي تتركه الأطروحة. ففي الماكوني كما في مجموع تراب غالة بدأت تلك القصة عندما تدهورت المؤسسات السياسية، وحدث فراغ سياسي أفضى إلى تجزئة متقدمة للسلطة التي أصبح يمارسها كل من استطاع إلى ذلك سبيلاً.

فانتفت المؤسسات. وانتفت معها أية صلة تربط الفرد بالدولة. فماذا يمكن أن يقال عن صلة قمطية بروڤانسيا بالفيودالية؟

شكل إقليم بروڤانسيا مجالاً جغرافياً لأطروحة أنجزها جون بيير بولي (*Jean–Pierre Poly*) الباحث الذي يزاوج بين المقاربة التاريخية و المقاربة القانونية في تناول قضايا العصر الوسيط في أوربا.

وتندرج هذه الأطروحة و الأطروحتان اللتان سيأتي الحديث عنهما بعد حين[1] ضمن مشروع علمي طموح انبرى للقيام به ثلة من الباحثين منذ سبعينيات القرن الماضي. سعى لدحض فكرة كانت رائجة في أوساط الباحثين في تاريخ العصر الأوربي الوسيط خلال خمسينيات وستينيات القرن المذكور. مفادها أن موطن الفيودالية هو الأقاليم الممتدة بين نهري اللوار والراين التي شكلت قلب الإمبراطورية الكارولنجية. أما أقاليم جنوب غالة، ومعها أقاليم جنوب أوربا، فلم تشهد ظاهرة الفيودالية. وإذ قدر لبعض تلك الأقاليم أن تشهد بعض تجليات الظاهرة، فقد كانت تجليات دخيلة على نظمها و بنياتها.

وقد عبر جون بيير بولي عن مقاصد أطروحته منذ الصفحات الأولى من خلال السؤال المحوري الآتي: هل ينطبق المخطط الخاص بالفيودالية، الذي صاغه مؤرخو مرحلة ما بعد الحرب الكونية الثانية انطلاقاً من نصوص تنتمي للأقاليم المعروفة بمهد الفيودالية، على إقليم بروڤانسيا خاصة، و أقاليم جنوب غالة عامة؟[2]

1- يتعلق الأمر بأطروحتي بيير توبير و بيير بوناصي اللتين أرجأنا الحديث عنهما بعد الحديث عن أطروحة جون بيير بولي لأنها تهم أحد أقاليم غالة.

2 - Jean-Pierre Poly, La Provence …, Op.Cit., p.IV.

وقد اقتضى الجواب عن هذا السؤال من قبل الباحث اعتماد ما ينفي عن ألفي نص من النصوص المعروفة " بالمواثيق " (*les chartes*). بالإضافة إلى ترسانة أخرى من المصنفات؛ ككتب التاريخ العام و الحوليات و سجلات الأديرة والنصوص الهاجيوغرافية التي تعرض لسير وكرامات القديسين والقديسات وغيرها من النصوص.

خلص جون بيير بولي بعد استقرائها إلى خلاصة مفادها أن قمطية بروڤانسيا انخرطت هي الأخرى في ظاهرة الفيودالية من أبوابها الواسعة. وأن مقومات الظاهرة في هذا المجال الجغرافي لم تقل نضجاً وتكاملاً عن مثيلاتها في وسط أو شمال غالة.

ويفيدنا على غرار جورج دوبي بان الفيودالية اتبعت في نشأتها و تطورها بقمطية بروڤانسيا مسارين متوازيين: واحد ذو طابع سياسي تمثل في نهاية دور المؤسسات العمومية. والثاني ذو صبغة عقارية تمثل في تشكل شبكة من العلاقات تمحورت حول الفيف. ولكن لحظة انطلاق المسار الأول كانت أسبق من لحظة انطلاق المسار الثاني. حيث انطلق المسار السياسي بين سنتي 1000 و1040. ولم ينطلق المسار العقاري إلا بعد مطلع القرن الثاني عشر.

وبناء عليه، ففي إقليم بروڤانسيا كما في إقليم الماكوني شكلت مؤسسة القمطية أم المؤسسات. كانت تباشر بواسطة أجهزتها الاقتصادية والقانونية والقضائية تدبير الشأن العام. وإليها كانت تحتكم سائر فئات المجتمع من خاصة وعامة.

وإذا كانت حركة هدنة الله قد شكلت منعطفاً حاسماً في مسار تلك المؤسسات بقمطية الماكوني، كما رأينا من قبل، فإن تطورات ذات بعد اقتصادي – ديموغرافي حدثت خلال الفترة الممتدة بين سنتي 950 و 1040 هي التي أفضت هذه المرة إلى التحولات السياسية والاجتماعية التي شهدتها بروفانسيا بعد سنة 1040.

وقد تمثلت هذه التطورات في كون أن أفراد الأرستقراطية، من كبار ومتوسطي الملاكين العقاريين، أصبحوا يلاقون صعوبات في إيجاد الأيدي العاملة الكافية لاستثمار استغلالياتهم المترامية الأطراف. بفعل التراجع الديموغرافي و تقلص أعداد العبيد الذين كانوا يسخرون منذ قرون في مختلف الأنشطة الزراعية. ومن ثم، لم يجدوا أمامهم من حل سوى القيام ببسط سلطانهم المعنوي والمادي على عموم الفلاحين الأحرار. فشرعوا في إرساء الآليات لتحقيق هذا المبتغى.

ومن المفيد التذكير مجدداً في هذا المقام، بأن القمط كان هو المسؤول الوحيد منذ عهد شارلمان، وقبله أيضاً، الذي تتجسد في شخصه السلطة في ربوع القمطية. فهو الذي يمتلك ما تسميه بحق الإلزام[1] (*le droit de ban*) الذي يسري مفعوله في حدود دائرة ترابية معينة هي القمطية. و بمقتضى هذا الحق، الذي تقوم بأجرأته عدة أجهزة، يقوم القمط بالقيادة (*le commandement*) و يسهر على إقرار الأمن، ويدعو كبار أفراد الارستقراطية لحضور الاجتماعات السنوية التي تعقد للبث في القضايا التي تهم القمطية، ويشرف على جباية الضرائب، وعلى شؤون القضاء، كما يشرف على استخلاص الذعائر والغرامات.

1- يسمى هذا الحق باللغة اللاتينية Bannus. وبما أنه حق ملزم (un droit contraignant) ، فقد ارتأينا ترجمة اسمه بالفرنسية Le ban أو le droit de ban بعبارة حق الإلزام.

فحدث في قمطية بروڤانسيا أن شرع عدد من أفراد الأرستقراطية اللائكية في التطاول على بعض هذه الحقوق. فأخذوا يسهرون على إقرار الأمن في ربوع القرية التي تقع بها ممتلكاتهم العقارية. ونجحوا في التأثير على أشغال المؤسسات القضائية. وأنشأوا مؤسسات اقتصادية كالأفران والمعاصر والطاحونات. واحتكروا استغلالها.

وبالنظر إلى ثروة أفراد الأرستقراطية و ما كانوا يملكونه من نفوذ قوي، فقد أصبحت لمعظمهم اليد الطولى داخل القرى. بل إن عدداً منهم نصبوا أنفسهم "اقماطا" في تلك القرى. التي تحولت كل واحدة منها إلى "سنيورية إلزامية". أي إلى دائرة ترابية يمارس الأرستقراطي في حدودها حق الإلزام بكل تجلياته.

وقد كان التطور حاسماً في هذا الاتجاه، في نظر جون بيير بولي، حين أصبح أفراد الأرستقراطية في بروڤانسيا يشيدون القصور والحصون دون طلب إذن من مؤسسة القمطية. فأخذت هذه المنشآت تنتشر هنا وهناك بإيقاع سريع. إذ قبيل حدود سنة 1040 أضحت إحدى المعالم البارزة في المشهد العمراني بقمطية بروڤانسيا. الأمر الذي دفع الباحث إلى التساؤل عن أسباب هذه الظاهرة.

انتهى جون بيير بولي في معرض جوابه عن هذا السؤال إلى التأكيد بأنه لم يكن ثمة مبرر أمني داخلي أو خطر عسكري خارجي يدعو إلى إقامة هذه التحصينات، خاصة و أن المسلمين الذين كانوا يهددون القمطية تراجعوا عن حدودها منذ سنة 1972. فما من تفسير لهذه الظاهرة ، في اعتقاده، سوى

1 - Jean-Pierre Poly ,La Provence…,Op.Cit., p. 127.

أن أفراد الأرستقراطية كانوا يسعون بخطى حثيثة لعسكرة القرى لسببين: أولاً لحماية أنفسهم وحماية ممتلكاتهم بدل التعويل على الأجهزة العمومية لتحقيق الحماية. وثانياً لإيجاد قاعدة مادية لتفعيل سلطانهم على سكان القرى.

وانطلاقاً مما تقدم، يذهب جون بيير بولي إلى الاعتقاد على غرار جورج دوبي بأن القصر (*le château*) أو الحصن أصبح من وجهة نظر معنوية رمزاً للسلطة. ومن وجهة نظر مادية مركزا لمؤسسة هي السنيورية الإلزامية. انطلاقاً من هذا المركز أضحى الأرستقراطي، أي السنيور، يمارس حق الإلزام على سكان القرية.

وإذ قدر لأفراد الأرستقراطية في بروڤانسيا النجاح في الاستحواذ على حق الإلزام، و سحب البساط من تحت أقدام القمط، فقد أفرغوا بذلك مؤسسة القمطية من أي محتوى، و نجحوا في نفس الوقت في إيجاد مخرج لأزمة اليد العاملة التي كانت وراء كل هذه الترتيبات.و إذا كانت هذه التحولات قد حدثت دون أن ترافقها أحداث دامية كبرى كما حدث في قمطيات أخرى،فقد أدت مع ذلك ، إلى حدوث " قطيعة " بين عهدين في بروڤانسيا[1] كما يؤكد ذلك جون – بيير بولي :عهد ما قبل الفيودالية، وعهد الفيودالية. ورغم ذلك فان الباحث يشد انتباهنا إلى مسألة أساسية و هي أنه حتى نهاية القرن الحادي عشر كانت الظاهرة "تستعد لحط الرحال" بالديار البروڤانسية. وكان عليها أن تبدأ المسار الثاني من رحلتها لكي تستكمل مسيرتها و تصبح نظاماً متكاملاً.

1- Ibid. p. 129.

بدا جون بيير بولي معالجته لهذا المسار بالتذكير بأن الفئات الاجتماعية في قمطية بروڤانسيا ارتبطت فيما بينها بمختلف أشكال وصيغ علاقات التبعية منذ القدم كما هو الشأن في مختلف قمطيات غالة. فالفقراء ارتبطوا بالأغنياء، والضعفاء ارتبطوا بالأقوياء بعلاقات تضرع وإذعان. بينما ارتبط نفر من كبار أفراد الأرستقراطية الدينية واللائكية مع القمط بعلاقات ولاء (*la fidélité*).

وقد كانت علاقات الولاء بين هذه الأطراف التي تهمنا فيما نحن بصدده، تستند في بعض الحالات إلى عقار. هو عبارة عن "بنفسيوم" استفاد منه عدد من "علية القوم" الذين أبانوا عن إخلاص وتفان في خدمة القمط والقمطية. تمثل ذلك البنفسيوم في الأغلب الأعم في مجموعة حصون. كان المستفيدون منها يقومون بحراسة المناطق التي تقع بها نظير استمرارهم على ولائهم للقمط. وحسب الإفادات التي يقدمها لنا جون بيير بولي، فإن النصوص القليلة التي تتحدث عن هذا الشكل من العلاقات لا تتضمن مصطلحات تندرج ضمن ما يسمى بقاموس الفصالة. كما أنها لا تتضمن معلومات عن الطقوس والحركات (*les gestes*) المتصلة بعلاقات الفصالة من قبيل الانحناء و عملية أداء اليمين. باستثناء نص واحد يعود لسنة 990 يفيد بأن ريكولف (*Riculf*) أسقف كنيسة فريجوس (*Fréjus*) وقف على ركبتيه (*s'est agenouillé*) يوماً ما بين يدي القمط كما يفعل الفصل أمام سيده السنيور[1]. ولا شك أن هذا الحدث يكتسي دلالة بالغة الأهمية؛ الأمر الذي دفع جون بيير بولي إلى التساؤل عما إذا كان هذا الانحناء تعبيراً عن علاقة فصالة أم أن ما قام به الأسقف كان مجرد تعبير عن الإخلاص والولاء في أرقى صوره؟ جواباً عن هذا السؤال يذكر بولي بأنه

1- Ibid., p. 160.

من الصعب الحسم في المسألة انطلاقاً من شهادة منفردة. ولكنه لم يتردد مع ذلك في الجزم بأن الطقوس والشعائر المرافقة لعلاقات الفصالة لم تظهر في قمطية بروڤانسيا إلا بعد مطلع القرن الثاني عشر. ويذكرنا في هذا المقام بأن عدداً من أفراد الأرستقراطية الذين شيدوا القصور و الحصون ، كما ذكرنا فيما مضى، شكلوا مليشيات عسكرية كانت تعمل تحت إمرتهم؛ وكان من المفروض أن يكون أفرادها أ فصالا لهم، ورغم ذلك فقد كانت العلاقات القائمة بينهم وبين أفراد الأرستقراطية قائمة على الولاء، ولم تكن علاقات فصالة. ويدعم جون بيير بولي وجهة نظره هاته بالقول بأن المصادر الخطية التي اعتمدها في انجاز أطروحته لا تتضمن سوى 19 نصاً تعود للفترة الممتدة بين سنتي 1040 و1100 تتحدث عن الولاء (*la fidélité*). ولا تشير من قريب أو من بعيد إلى الفصالة (*la vassalité*). وبعد سنة 1100 وحتى حدود سنة 1166 انضاف إليها 16 نصاً. تعززت بظهور عدد من العقود الفيودالية (*des conventions féodales*) بلغ عددها 22 عقداً. وأهم ما في الأمر هو أن معظم هذه النصوص بالإضافة إلى العقود المشار إليها أصبحت تتحدث بكل وضوح عن الفصالة وما يتصل بها من طقوس.

والمحصلة النهائية هي أن قمطية بروڤانسيا انخرطت بدورها في سلك القمطيات التي سادت فيها الفيودالية. وقد وجدت في جون بيير بولي الباحث الذي أثبت ذلك بالحجة و الدليل. فماذا يمكن أن يقال عن اللاسيوم أحد أقاليم شبه جزيرة ايطاليا.

ظل الباحثون حتى نهاية الستينيات من القرن الماضي يروجون لوجهة نظر مفادها أن الأراضي التي كانت خاضعة لسلطة البابوية في شبه جزيرة ايطاليا ظلت بمنأى عن ظاهرة الفصالة حتى حدود سنة 999 حين اعتلى عرش البابوية رجل الدين الفرنسي جربير الأورياكي (*Gerbert d'Aurillac*) المعروف باسم البابا سلفستر الثاني(*Sylvestre II*).

يذكر روبير بوتريش، أحد الباحثين المتأخرين المروجين لهذا الطرح[1]، بأن البابا المذكور أبان خلال الأربع سنوات التي قضاها على رأس البابوية عن حيوية ونشاط لرد الاعتبار لمؤسسة البابوية، ولنشر تعاليم المسيحية في بعض أقاليم أوربا الشرقية المعروفة اليوم ببولندا وهنغاريا. ولم يخف رغبته في وضع الحجاج القاصدين بيت المقدس تحت حماية البابوية. بل دعا إلى حمل السلاح لتحرير الأماكن المقدسة. فشرع في استقطاب حملة السيف من المتحمسين لهذا المشروع. وشجع أفراد الأرستقراطية على تكوين مليشيات والانخراط في روابط الفصالة.

وإذ ارتبط هذا المشروع بشخصية البابا سلفستر الثاني ، فقد شهد نوعاً من التعثر بعد وفاة هذا الأخير سنة 1003 . ولذلك ظلت الفيودالية محتشمة في هذه الربوع. ولم يقدر لها الاكتمال لتصل إلى مستوى أعلى من التبلور حسب مزاعم بوتريش و الباحثين السابقين.

1- أنظر كتابه الذي سبقت الإحالة عليه ، الجزء الأول، ص ص.224-225.

تمثل أطروحة بيير توبير (*Pierre Toubert*) الصادرة سنة 1973 قطيعة مع هذا الطرح. فقد خلص بعد قراءة جديدة لترسانة من النصوص تهم الفترة الممتدة بين القرنين التاسع و الثاني عشر بأن الأمر عكس ما روج له الباحثون تماماً.

وحقيقة هذا الأمر هو أن فيودالية إقليم اللاسيوم (*le Latium*) الذي اختاره مجالاً جغرافياً لبحثه، فيودالية "محلية الصنع". كانت وراء إرساء قواعدها مؤسسات دينية، أبرزها دير فارفا (*Farfa*)[1] ودير سوبياكو (*Subiaco*)[2]. فقد دأبت هاتان المؤسستان منذ مطلع القرن الحادي عشر على تقديم قطع أرض لأفراد ينتفعون بها مدى الحياة (*des tenures livellaires*) سعياً منها لاستقطاب أكبر عدد ممكن من المريدين.

ويفيدنا بيير توبير بأن دير فارفا كان مؤهلاً أكثر من دير سوبياكو في التسريع بوتيرة إرساء دعائم الفيودالية. فقد كان يملك موارد مادية وبشرية هائلة. تمثلت في تحف نادرة وقطع أرض شاسعة المساحة وأعداد كبيرة من المريدين. كانوا في معظمهم يتألفون من فلاحين يقيمون في قرى محيطة بالدير، ويحظون بحمايته فيما يعرف "بالمحميات" (*les sauvetés*). لذلك ارتأى رجال الدين القائمون بأمر دير فارفا إنهاء العمل بالصيغة السالف ذكرها. وشرعوا منذ سنة 1062 في منح قطع أرض كأفياف للمريدين، الذين

1- ينتسب هذا الدير للقديسة ماريا (Sainte – Marie). يقع في منطقة صابين أو صابينا على بعد حوالي 50 كلم. من روما. تعود نشأته إلى القرن السادس للميلاد. اتبع خلال رحلته الطريقة البندكتية. أنظر في هذا الشأن :

John Howe, Church and social change in eleventh century Italy, University of Pennsylvania Press, 1997.

2- أنشأ هذا الدير القديس بنوا (Saint Benoît) حوالي سنة 500 ميلادية. وقد اتبع الطريقة البندكتية كدير فارفاً.

يتقنون استعمال السلاح، مقابل خدمات عسكرية. وسرعان ما تلت هذه العملية عمليات مماثلة خلال السنوات الموالية. ثم تضاعفت خلال العشرية الممتدة بين سنتي 1080 و1090. وغدت هي الصيغة الأكثر تداولاً بين دير فارفا و الراغبين في الانضمام للمليشيات التي أنشاها. ومنذ هذا التاريخ بدأت ظاهرة العسكرة تأخذ منحى تصاعدياً في الأراضي الواقعة في منطقة صابين (*Sabine*) الخاضعة لنفوذ دير فارفاً. ثم أصبحت الظاهرة واضحة أكثر بعد سنة 1100 حسب الإفادات التي تقدمها النصوص التي اعتمدها بيير توبير[1].

وقد سمحت نفس النصوص لبيير توبير بالقول بأنه ابنداءا من حوالي سنة 1120 أخذ نفس المشهد يتشكل في المنطقة المحاذية لنهر التيبر (*le pays Tibertin*) الخاضعة لنفوذ دير سوبياكو. فقد أبان نفر من أفراد الأرستقراطية اللائكية عن رغبة جامحة في الاستحواذ على أراضي تدخل ضمن ممتلكات هذا الدير، فاقتضت ضرورة صد الأطماع من رجال الدين المشرفين عليه الالتحاق بركب زملائهم رجال دين دير فارفا. فاجتهدوا بدورهم في استقطاب "المريدين" (*Fides equites*) من بين الذين يتقنون فنون الحرب والقتال وامتطاء صهوات الخيول. فمنح الدير لكل منخرط في العملية فيفا. وشكل مجموع المنخرطين مليشيات عسكرية. ارتبط أفرادها بسادتهم من رجال الدين بروابط فيودو – فصلية. و تعهدوا بالخدمة العسكرية.

انطلاقاً مما تقدم يتضح بأن مؤسسات دينية "صغرى" نسبياً هي التي تزعمت حركة إرساء الفيودالية في شبه جزيرة ايطاليا ، أو على الأقل في إقليم اللاسيوم وفي الأراضي المحاذية لنهر التيبر. و هذا ما يستفاد من كلام بيير توبير

1- Pierre Toubert, Les structures du Latium…, Tome **II**, p. 1105.

حين يذكر بأن عملية إرساء الفيودالية في ايطاليا اندرجت ضمن اهتمامات "المؤسسات العمومية" وليس ضمن اهتمامات الأفراد كما حدث في أقاليم غالة(1). و قد تأكد هذا البعد "المؤسساتي العمومي" أكثر حين انضمت البابوية إلى العملية. فما هي الإجراءات التي قامت بها أم المؤسسات الدينية في هذا الشأن؟

يذكرنا ما يورده بيير توبير من معطيات و هو بصدد الجواب عن هذا السؤال بما حدث في غالة قبيل أن يتولى شارلمان حكمها. فقد كانت روابط الفصالة قد استشرت في أوساط الطبقة الأرستقراطية من مجتمعها. وبما أنه كان من الصعب استئصال الظاهرة، فقد فكر في احتوائها ،كما ذكرنا فيما مضى، من خلال إضفاء الطابع المؤسساتي عليها. وذلك بأن جعلها إحدى وسائل الحكم وممارسة السلطة. وهذا بالذات ما حاولت البابوية القيام به في ايطاليا.

فقد شرع الباباوات منذ مطلع القرن الثاني عشر في نسج خيوط شبكة من الروابط الفيودو – فصلية. وشجعوا كبار رجال الدين وكبار الملاكين العقاريين اللائكيين على الانخراط فيها؛ مستحضرين في هذا الشأن ما سبق أن قام به البابا سلفستر الثاني. ولتحقيق النجاح في مسعاهم اتبعوا مسلكين أساسيين: تمثل المسلك الأول في عملية شراء مجموعة قصور وحصون كانت في حوزة بعض أفراد الأرستقراطية. منحت لهم فيما مضى قصد الانتفاع، أو بسطوا عليها نفوذهم في ظروف غير عادية. فاشترتها منهم البابوية وعادت لتمنحها لهم كأفياف نظير الإقرار بتبعيتهم لها كأفصال. وتمثل المسلك الثاني في عملية "شراء للولاءات". فقد كان عدد من كبار الملاكين العقاريين يدينون

1- Ibid., Tome II,p. 1183.

بالولاء (*la fidélité*) للبابوية منذ القدم. فارتأى الباباوات تقديم مبالغ مالية لهؤلاء على أن يتحولوا من مجرد أشخاص يدينون بالولاء للمؤسسة إلى أفصال تابعين لها.

ويفيدنا بيير توبير بأن البابوية حققت نجاحاً منقطع النظير في هذا الاتجاه. إذ بعد مضي سنوات قليلة شرع كثير من كبار الملاكين العقاريين وعدد من الأقماط في تقديم فروض الطاعة للبابوية بالانحناء وتقديم الولاء (*l'hommage*) وتأدية القسم كما يفعل سائر الأفصال(1). وبذلك، فإن الفيودالية التي سبق لها أن بلغت مستوى من النضج في إقليمي اللاسيوم وصابينا اكتمل نضجها أكثرعلى يد البابوية. واتسع انتشارها هذه المرة في مجال جغرافي أوسع.

والجدير بالذكر أن ما أقدمت عليه البابوية كان ينسجم من جهة مع ما كان يعتمل في ايطاليا وفي غرب أوربا عامة من أحداث وتحولات انطلقت منذ مطلع القرن الحادي عشر. فكان على هذه المؤسسة الدينية أن تركب تيار مرحلة جديدة من تاريخ غرب أوربا اختلط فيها الديني بالدنيوي. وأصبحت فيها المؤسسات الدينية تجنح نحو طلب الدنيا كما كان يفعل أفراد الأرستقراطية اللائكية(2). كما كان يستجيب من جهة أخرى مع رغبة البابوية في أن تكون تحت إمرتها مليشيات تمدها بالقوة وتسمح لها بقيادة المسيحيين في المشروع الحربي الشهير بالحروب الصليبية.

1- Ibid., Tome II, p. 1135 et suivantes..

2- Jules Gay, Les Papes du XIe siècle et la chrétienté, Paris, Gabalda, 1926,p.126. voir aussi Jean Flori,
Croisade et chevalerie, XIe – XIIe siècles, Paris – Bruxelles, De Boeck Université, 1998, pp. 15-16.

تـترك الفقـرات السـابقة الانطبـاع لـدى القـارئ وكـأن نشـأة وتطـور الفيودالية، في إقليمي اللاسيوم وصابينا، حـدثا في سـياق مختلـف عـن السـياق الذي حدثا فيه في إقليمي الماكوني و بروڤانسيا. ففـي هـذين الإقليمـين حـدث أن تدهورت المؤسسات العمومية. فاتجهت عمليـة تـدبير الشـأن العـام نحـو "الخوصصة "؛ و ذلك حين قام أفراد الأرستقراطية (فرادى) بالسطو على حـق الإلزام وشرعوا في تشييد القصور. ثم أصـبحوا يمارسـون ذلـك الحـق في إطـار سسنيوريات إلزامية أنشـأوها. وارتبطـوا فـيما بيـنهم في شـبكة مـن العلاقـات تمحورت حول الفيف.

في ايطاليا لم يحدث التدهور المشـار إليـه. فقـد كانـت المؤسسـات الدينيـة تشكل دائما ما يمكن تسميته ببنيات استقبال. حيث كانت تحتضن أفراد المجتمع وتسهر على تأطيرهم. كما أن منظومة القوانين التي كانت تـنظم المعـاملات بـين الأفراد ظلت قوية. ومن ثم لم يتهافـت أفـراد الأرسـتقراطية اللائكيـة في إقلـيم اللاسيوم على تطبيق قوانين جديدة. ولم يسارعوا إلى التسلط على شؤون القضاء. ورغم أنهم شرعوا منذ منتصف القرن العاشر في تشييد القصور و إقامـة منـاطق النفوذ، فإنهم لم يلجئوا إلى نسـج روابـط فيـودو – فصـلية كـما فعـل زملائهـم في عدد من أقاليم غالة[1]. وهذا ما يفسر في نظر الباحـث عـدم مواكبـة الـروابط الفيودو – فصلية (أي الفيودالية في معناها الضيق) في إقليم اللاسـيوم لظـاهرة تشييد القصور و إقامة مناطق النفوذ كما حدث في أقاليم غالة. لكن هذا لا يعني بأن أفراد الأرستقراطية (اللائكيـة بوجـه خـاص) ظلـوا في إقلـيم اللاسـيوم

1 - Pierre Toubert, Les structures du Latium…, Tome II, p. 1097.

بمنأى عن الفيودالية أو بمنأى عما كانت تقوم به المؤسسات الدينية. **فكيف يوضح بيير توبير هذا الأمر؟**

يفيدنا بيير توبير بأن حضور أفراد الأرستقراطية في قلب الأحداث يتجلى من خلال الحديث عن "حركة إعادة الهيكلة" التي شهدها إقليم اللاسيوم بين سنتي 920 و 1030، والتي شملت مختلف المجالات كأشكال السكن الريفي وأساليب الزراعة والبنيات الاجتماعية و طرق تدبير الشأن المحلي. وقد كانت وراء تلك "الحركة" تحولات كبرى، أبرزها النمو الديموغرافي[1] الذي حدث في مجال جغرافي يتميز بصعوبة تضاريسه وقلة أراضيه الصالحة للزراعة. الأمر الذي كان يستدعي التدخل لإعادة تنظيم ذلك المجال بشكل يجعله قادراً على استيعاب التزايد المذكور دون إعاقة النمو الاقتصادي (أي التوسع الزراعي) الذي بدأ يرتسم في الأفق منذ نهاية القرن العاشر. ولتحقيق هذا المسعى قام أفراد الأرستقراطية بتجميع سكان إقليم اللاسيوم في قرى محصنة بأسوار أقاموها لهم في المرتفعات وفي المناطق الوعرة التي لم تكن مستغلة من قبل. فأفضى ذلك إلى ظهور تجمعات سكنية جديدة. أطلق عليها الباحث اسم "الأنكستلمنطو" (*l'incastellamento*)[2]. والواقع أن الأمر يتعلق بظاهرة تجاوزت كثيراً حدود التجمعات السكنية. **اكتست دلالات متعددة وترتبت عنها نتائج بالغة الأهمية يمكن إجمالها فيما يلي:**

1- Ibid., Tome I, p. 313.

2- أطلق بيير توبير كلمة " الأنكستلمنطو " على التجمعات السكنية في قرى محصنة معلقة في المرتفعات .ويستعمل الفرنسيون كلمة Enchâtellement كمرادف لها. و على غرار بيير توبير ، استعمل روبير فوصيي (Robert Fossier) كلمة encellulement للحديث عن التجمعات السكنية في إقليم بيكارديا (la Picardie).

أولاً: أشرف على إقامة تلك التجمعات أفراد الأرستقراطية الدينية واللائكية. أحياناً كانوا يقومون بذلك مجتمعين، وفي أحايين أخرى متفرقين.فانتهى على اثر ذلك عهد تميز فيه العمران الريفي بتفرق المساكن. وحل عهد أصبحت فيه المساكن متجمعة. وغداً "الكاستروم" (*le Castrum*) هو النواة الأساسية في التنظيم الترابي. وبالمثل انتهى عهد كانت فيه أرياف ايطاليا مجالاً جغرافياً مفتوحاً، يمكن أن تتحرك ساكنته في جميع الاتجاهات. وحل عهد أصبح فيه الفلاحون قرويون (*des villageois ou des castellanus*). يقيمون تحت رحمة أفراد الأرستقراطية في تجمعات مغلقة يمكن نعتها بلغة عصرنا " بالكيطوهات " (*des ghettos*).

ثانياً: ترتب عن إقامة القرى المحصنة نهاية العمل بنظام الدومين الكبير (*le grand domaine*) الذي كان سائدا خلال الحقبة الكارولنجية. والذي بمقتضاه كانت الأراضي الصالحة للزراعة موزعة إلى استغلاليات كبيرة، شاسعة المساحة. فأصبح الآن كل دومين مقسما إلى وحدات صغرى يتوسطها قصر المالك العقاري. وتكتسي إعادة الهيكلة هاته دلالة بالغة في نظر بيير توبير لأنها تعني نهاية العصر الوسيط وبداية العصر الوسيط في إقليم اللاسيوم.

ثالثاً: يختلف بيير توبير مع بعض الباحثين حين يربطون بين ظاهرة "الأنكستلمنطو" وغارات المسلمين على بعض المواقع الايطالية. ويوضح في هدا المقام بأن أقدام المسلمين وطأت إقليم اللاسيوم بين سنتي 870 و 910. وقد استطاع المسلمون الوصول إلى كنيسة القديس بطرس. ثم ابتعدوا عن الإقليم نهائياً بعد هزيمتهم في وقعة 915. في حين أن عملية تشييد القرى المحصنة لم تنطلق إلا بعد سنة 920[1].

1 - Ibid. Tome I,p. 311.

وبناء على ما تقدم يخلص بيير توبير إلى القول بأن المنشآت الجديدة أقيمت في بادئ الأمر لإعادة تنظيم السكان. وبعد ذلك غدت أطرا تعتمل فيها حياة سكان الأرياف. بل إن جميع الأحداث والتطورات السياسية والاقتصادية والاجتماعية أصبحت الآن تعتمل في هذه الفضاءات الجديدة. وكأنه بذلك يقر ضمناً بأنها لا تختلف عن السنيوريات الإلزامية التي أرسى دعائمها أفراد الأرستقراطية في قمطيتي الماكوني و بروڤانسيا كما رأينا فيما مضى. ويؤكد بيير بوناصي فعلا، في معرض تعليقه على أطروحة بيير توبير، بأن تجمع السكن الريفي في إقليم اللاسيوم أو تفرقه في إقليم قطلونيا لا يعدوان كونهما مجرد تجليات اتخذها السكن هنا وهناك. أما في واقع الأمر،فقد كان السكان تحت سيطرة الطبقة الأرستقراطية التي استطاع أفرادها امتلاك حق اتخاذ القرار، أي امتلاك حق الإلزام[1].

وإذا كان مالكو حق الإلزام في قمطيات غالة قد حصنوا أنفسهم بتشييد القصور المنيعة، وشكلوا المليشيات للاستناد عليها في أجرأة ذلك الحق، فيبدو أن الهاجس الأمني أو العسكري لم يكن غائباً تماماً عن أذهان أفراد أرستقراطية اللاسيوم. لأنهم بقدر حرصهم على حل المشاكل الديموغرافية عن طريق إعادة تنظيم المجال ، فقد كانوا أيضاً حريصين من خلال إقامة القرى المحصنة وتشييد القصور على حماية أنفسهم وحماية ممتلكاتهم العقارية. و جعلها في مأمن من أي خطر قد يتهددها من قبل الفلاحين، الذين أخذت أعدادهم تتكاثر بشكل ملفت، أو من قبل أية قوى أجنبية.

1- Pierre Bonnassie, Le Latium au cœur du Moyen Age, in Anuario de estudios medievales, No 09,
1974-1979, pp.723-731.

نخلص في ضوء ما تقدم إلى القول بأن بيير توبير أبان بما لا يقبل الجدل بأن إقليم اللاسيوم، وبمعيته مجموع أقاليم ايطاليا، شهد ظاهرة الفيودالية. وأن الأمر يتعلق بظاهرة أصيلة نشأت وترعرعت في نفس الإقليم. وبالمثل فقد أبان بأنه انتهى زمن كان يتم فيه النظر إلى فيودالية غرب أوربا انطلاقاً فقط من النموذج الماكوني أو من نماذج الأقاليم الواقعة في الشمال بين نهري الراين واللوار. ونؤكد من جانبنا بأن أطروحة بيير توبيرالتي حظيت باهتمام خاص في الأوساط العلمية[1] غدت منذ صدورها نموذجاً يقتدى من قبل المهتمين بالبحث في المؤسسات السياسية والقانونية و في البنيات الاجتماعية و الزراعية في أقاليم جنوب أوربا. وقد تلتها بعد سنتين فقط أطروحة بيير بوناصي حول إقليم قطلونيا التي أحدثت القطيعة بصفة نهائية مع الطروحات التي ظلت رائجة حتى مطلع سبعينيات القرن الماضي، سواء فيما يتعلق بنشأة وتطور الفيودالية، أو فيما يتعلق بطبيعة هذه الظاهرة في أقاليم جنوب غالة وأقاليم أوربا المتوسطية. **فماذا يمكن أن يقال عن الفيودالية في إقليم قطلونيا؟**

اعتمد بيير بوناصي لانجاز بحثه على ما ينيف عن 15000 نص تعود للفترة الممتدة بين منتصف القرن العاشر ونهاية القرن الموالي. توزعت بين سجلات أديرة ومواثيق وعقود ونصوص هاجيوغرافية وغيرها. خلص بعد استقرائها إلى فكرة أساسية وهي أن إقليم قطلونيا شهد خلال الفترة المذكورة تحولات اقتصادية كبرى واكبتها عملية إعادة تشكل للبنيات الاجتماعية. ومن ثم، فخلافاً لجورج دوبي وبيير توبير الذان يربطان نشأة الفيودالية بالتحولات السياسية، يذهب بيير بوناصي إلى التأكيد بأن نشأة و تطور ظاهرة الفيودالية في إقليم قطلوتيا لا يمكن فهمها وتتبع مسارها إلا باستحضار النمو الاقتصادي الذي أفضت إليه تلك التحولات الاقتصادية.

1- دليلنا في ذلك التعاليق و التقارير الكثيرة التي خصصها بها الباحثون في الدوريات و المجلات المتخصصة.

أولاً: نهاية الركود الاقتصادي في إقليم قطلونيا و بداية النمو:

يفيدنا بيير بوناصي بأن النصوص التي اعتمدها تسمح بالقول بأن إقليم قطلونيا كان منتظما خلال الفترة موضوع البحث في هيأة قمطيات؛ أكبرها قمطية برشلونة. وعلى غرار قمطية الماكوني، فقد ظلت مؤسسة القمطية قوية في قطلونيا حتى حدود سنة 950. حيث كان القمط مهاب الجانب. يدين له بالولاء جميع السكان من خاصة وعامة. وربما كان التماسك والتآلف في قطلونيا أقوى مما كان عليه في سائر القمطيات نظرا لقربها من مراكز وجود المسلمين في الأندلس. أما اقتصادياً، ففد كانت قطلونيا إقليماً فقيراً حتى حدود السنة المذكورة. يقيم سكانها المؤلفين في معظمهم من فلاحين في المناطق الوعرة. يعيشون في إملاق و تغلب على حياتهم الرتابة.

ويفيدنا بيير بوناصي بأن أقماط قطلونيا تحللوا من تبعيتهم لملوك غالة منذ عهد بوريل الثاني(*Borrell II*) الذي تولى مهام القمطية بين سنتي 948 و992 . فحرموا من أي سند يحميهم، ولذلك ظلوا حريصين على كسب ود خلفاء قرطبة بحفظ المواثيق وتبادل الهدايا و الصلات. ولم يجرؤوا يوماً على مناوشة مسلمي الأندلس رغم أنهم تعرضوا لبعض الحملات العسكرية مثل تلك التي قادها المنصور بن أبي عامر سنة 985 م. / 374 ه. و تلك التي قام بها ابنه عبد الملك سنة 1003 م./ 393 ه. ورغم انقلاب موازين القوى لصالح مسيحيي شبه جزيرة ايبيريا بعد سقوط الخلافة واتجاه الأندلس نحو التجزئة، فقد استمر أقماط قطلونيا في نهج سياسة الود والمهادنة اتجاه القائمين على الأمر في الممالك الطائفية خلافاً للسياسة التي انتهجها القشتاليون. وأهم ما تجرؤوا على القيام به هو حماية بعض الممالك الطائفية الصغرى مثل مملكتي سرقسطة وطرطوشة والمشاركة في بعض الحملات التي قام بها مسيحيو شبه جزيرة ايبيريا ضد مسلمي الأندلس والسماح لعدد من المحاربين القطلانيين بوضع مهاراتهم القتالية رهن إشارة بعض القوى الإسلامية مقابل أجر.

ويبدو أن سياسة الأقباط وخدمات المحاربين عادت بالنفع على القمطية وعلى سكانها. فقد أخذت تتسرب إليها كميات مهمة من القطع الذهبية الأندلسية. ساهمت منذ حوالي سنة 980 في إنعاش اقتصادها. حيث أعطت دينامكية للنشاط الزراعي الذي كان معتمد سكانها. و أسهمت في إذكاء المبادلات التجارية، وإن ظلت منتجات الأرض موضوع تلك المبادلات. مما أفضى إلى نهضة اقتصادية. بدأت معالمها تتضح أكثر ابتداء من سنة 1020[1].

وينبهنا بيير بوناصي في هذا المقام يأته من الخطأ القول بأن العوامل الخارجية وحدها هي التي أدت إلى حدوث الانتعاش الاقتصادي. والصواب هو أن استقرار الأوضاع الأمنية على حدود قطلونيا هيأ الظروف الملائمة لجهود مضنية كان يقوم بها الفلاحون منذ منتصف القرن العاشر. تمثلت في عمليات توسيع للمساحات الصالحة للزراعة عن طريق استصلاح الأراضي الهامشية وتجفيف بعض المستنقعات و تحسين أساليب الأداء في العمل الزراعي. وأتى ذهب الأندلس ليقدم قيمة مضافة لتلك الجهود.

والحصيلة هي أن عوامل خارجية وأخرى داخلية تظافرت لتنتقل قمطية قطلونيا من مرحلة الركود إلى مرحلة النمو[2]؛ ومن مرحلة الانغلاق إلى مرحلة الانفتاح. وقد تجسدت صور هذا الانتقال في ارتفاع كمية عائدات الأرض، وانتعاش الأسواق، وازدياد حدة السيولة النقدية، وانتعاش حركة البناء والتشييد وتحسن ظروف عيش السكان، وارتفاع وتيرة الترحال في اتجاه المراكز المسيحية والإسلامية.

1- Pierre Bonnassie, La Catalogne du milieu du Xe à la fin du XIe siècle : croissance et mutations d’une société, Toulouse, Association des publications de l’Université de Toulouse-Le Mirail,1975-1976, Tome I, p. 433 et p. 479.

2- Ibid. , Tome I, p. 480.

ثانياً: النمو الاقتصادي وتشكل الروابط الفيودو – فصلية:

كـان مـن تبعـات النمـو الاقتصـادي أن ازدادت قيمـة و أهميـة الأرض. وأصبحت موضوع رهان حاد و صراع مكشوف بـين عمـوم الفلاحـين و كبـار الملاكين من أفراد الأرستقراطية الذين تزايد جشعهم. فلجـأ هـؤلاء إلى تشـييد الحصون و القصور المنيعة و تشكيل المليشيات العسكرية على غـرار مـا قـام بـه أقـرانهم في مختلـف قمطيـات غالـة. و شرعـوا في شـن الغـارات عـلى بعـض المؤسسات الدينية و على الفلاحين للاستحواذ على ما في حوزتهم من أراضي.

وآل الصراع بطبيعة الحال لأفراد الأرسـتقراطية الـذين نجحـوا في بسـط سلطانهم على معظم فلاحي قطلونيا من خلال إرساء السنيورية الإلزامية. التـي تمثل في نظر الباحث مؤسسة أقيمت للاستفادة مـن الـثمار التـي أسـفرت عنهـا جهود الفلاحين[1].

ويبدو أن المكاسب الماديـة و المعنويـة التـي حققهـا أفـراد الأرسـتقراطية لم تثنـيهم عـن طلـب المزيـد. فأينعـت رؤوس الكبـار مـنهم. و أخـذوا يرنـون بأبصارهم نحو مؤسسة القمطية. و دخلوا فعلا في صراع مكشوف مـع القمـط رايموند برنجر الأول (*Raimond Béranger Ier*) . نجحوا على إثره في بسط سلطانهم على القرى الواقعة في منطقـة قطلونيـا العليـا. و أسسـوا بهـا مـا يشـبه الكيانـات السياسـية المسـتقلة (*des dominations territoriales autonomes*). بينما فشـلوا في تحقيـق نجـاح مماثـل في الحـاضرة برشـلونة وفي القـرى التابعـة لأعمالها. ومرد هذا الفشل في نظـر بيـير بونـاصي يكمـن في قـوة سـلطة القمـط

1- Ibid. ,Tome II, p. 537. Voir aussi du même auteur Les cinquante mots clefs de l'histoire médiévale, Toulouse, Privat, 1981, p. 27 et p.86.

في هذه المناطق و في انضمام سكان الحاضرة و فلاحي القرى إلى صفوفه تجنباً للسقوط في قبضة أفراد الأرستقراطية.

والأهم من ذلك هو أن الانتصار الذي حققه القمط في هذه المواجهة شكل منعطفاً حاسماً في مسيرة المؤسسات السياسية والبنيات الاجتماعية في قطلونيا. فقد خبر رايمند برنجر قوة خصومه، فارتأى أن يتحول من قمط يشرف على تدبير الشأن العام و يرعى شؤون جميع أفراد المجتمع من خاصة وعامة إلى قائد للارستقراطية. فكان هذا التحول يعني بالنسبة لبيير بوناصي دخول قطلونيا في " عصر الفيودالية "[1]. حيث غدت الروابط الفيودو – فصلية هي أساس العلاقات بين الأقماط الذين تعاقبوا على إدارة قطلونيا و كبار أفراد الأرستقراطية. وقد تميزت هذه الروابط بكونها كانت تتم أمام الملأ في طقوس و مراسيم خاصة. ثم أصبحت منذ سنة 1040 تتم عبر مواثيق أو عقود(*les convenientiae*).[2] فكان كل واحد من كبار الأرستقراطية يبرم عقدا مع القمط؛ بوصف الأول فصلا والثاني سنيورا. وبموجب هذه العقود كان يتم تحديد واجبات وحقوق كل طرف من طرفي العقد. وقد تزايد عدد هذه العقود خلال السنوات الموالية. وواكبتها في تفس الوقت روابط فيودو – فصلية من دون عقود بين المنتمين للشريحة السفلى والمنتمين للشريحة الوسطى في الطبقة الأرستقراطية وكذلك بين هؤلاء والمنتمين للشريحة العليا في نفس الطبقة.

والمحصلة النهائية هي أن شبكة الروابط الفيودو – فصلية بلغت في ظرف لا يتجاوز العقدين بعد سنة 1040 مستوى رفيعاً من النضج والتبلور

1- Pierre Bonnassie, La Catalogne…, Op. Cit., Tome II, p. 680.

2- Pierre Bonnassie, « Les conventions féodales dans la Catalogne du XIe siècle », in Les structures sociales de l'Aquitaine , du Languedoc et de l'Espagne au premier âge féodal, Paris,éd. Du C.N.R.S., 1969, pp.187-208.

لم يسبق له مثيل في مختلف أقاليم غرب أوربا بـها في ذلـك الأقـاليم الواقعـة بـين نهري اللوار والراين التي ظلت تنعـت حتـى مطلـع سـبعينيات القـرن المـاضي بكونها مهد الفيودالية.

يسمح العرض الـوجيز لمضـامين المنغرافيـات الإقليميـة التـي اخترناهـا كنماذج لرصد مظاهر تطور الفيودالية خلال المرحلة الثالثة من مسـيرتها بـالقول بـأن الفيوداليـة بلغـت فعـلا مسـتوى متطـورا مـن النضـج بعـد سـنة 1000. **يمكن إجمال تجلياته والأبعاد المترتبة عنه في العناصر الآتية:**

أولاً: تجلى ذلك النضج في تجزئة مطلقة للسلطة؛ التي أصبح يمارسـها كـل من استطاع إلى ذلـك سـبيلا مـن أفـراد الأرسـتقراطية في دوائـر ترابيـة ضـيقة لا تتجاوز حدود القرية. فتراجع دور قصور الملوك و مقرات الأقـماط. وغـدت القصـور القديمـة التـي كـان يملكهـا أفـراد الأرسـتقراطية، و القصـور التـي استحدثها نفر منهم، مراكز لاتخاذ القرارات و إصـدار الأوامـر و ممارسـة حـق الإلزام الذي تم تسليطه على عموم الفرحين. و استتبع كـل ذلـك اتسـاع نطـاق شبكة روابط الفصالة التي بلغت خلال هذه المرحلة الثالثة مستوى من الكـمال. فأخذت تبرم بمناسبة إقامتها في بعض الأقاليم عقود ومواثيق. كما حـدث مـثلاً في إقليمي قطلونيا واللانكدوك حيث حلت تلك المواثيق محل الوفاء القائم عـلى القسم في الروابط الفيودو- فصلية. وفي نفس الوقـت أصـبحت هـذه الـروابط متمحورة حول الفيف الذي لم يعد متمثلاً في قطعة أرض فقط، بل أصبح كذلك عبارة عن قصور أو حصون كان يمنحهـا الأقـماط أو كبـار الملاكـين العقـاريين لقادة المليشيات العسكرية[1].

1- أنظر في هذا الشأن بيير بوناصي :
Du Rhône à la Galice :Genèse et modalités du réglme féodale,in Structures féodales et féodalisme…, Op.Cit.p. 39 et suivantes.

ثانياً: يبدو أن هذه التحولات كانت بالغة الأهمية حسب الانطباع الذي تتركه قراءة مؤلفات المعاصرين لها[1]. ترتبت عنها نتائج عميقة وشاملة على جميع الأصعدة و المستويات. ولذلك ذهب جورج دوبي، المعروف بكونه أبرز الباحثين الفرنسيين في التاريخ الأوربي الوسيط، إلى نعتها "بالثورة الفيودالية"[2]. فيما ارتأى باحثون آخرون نعتها "بالانتقال الفيودالي"[3](*la mutation féodale*).

ثالثاً: انخرطت فيما نسميه بالمرحلة الثالثة من مسيرة الفيودالية مختلف أقاليم غرب أوربا، ولو أن انطلاقة هذه المرحلة تمت هنا وهناك في فترات متفاوتة نسبيا بين كيان سياسي وآخر؛ و أيضاً بين كيانات متجاورة داخل المجال الجغرافي الواحد. ففي غالة نجح أفراد الأرستقراطية في الانفراد بالسلطة في جميع الأقاليم منذ العقد الثاني من القرن الحادي عشر كما يتضح من منغرافيتي جورج دوبي وجون بيير بولي. أما في انجلترا فلم يحدث ذلك إلا على نطاق ضيق

1- من بينهم راوول كَلابير (Raoul Glaber) أحد أبرز إخباريي العصر الوسيط. ولد سنة 985 و توفي بعد سنة1047. نقل إلينا معطيات عن تلك التحولات في " تواريخه " التي نشرها فرانسوا كَيزو (Francoit Guizot) باللغة الفرنسية سنة 1824 تحت عنوان Chronique de Raoul Glaber: . ثم أعاد موريس برو (Maurice Prou) نشر نصها اللاتيني سنة 1886 تحت عنوان Les Cinq livres de ses histoires: وصدرت بباريس عن منشورات A. Picard.

2- استعمل جورج دوبي العبارة لأول مرة و جعلها عنوان مبحث في كتاب du: Les trois ordre ou l'imaginaire féodalisme,Paris,Gallimard, 1978,pp.182-205.

3- يتعلق الأمر بجون بيير – بولي و اريك بورنازيل اللذان جعلا عبارة " la mutation féodale" عنوانا لكتاب أصدراه سنة 1980 و قد سبق أن أحلنا عليه. و الجدير بالإشارة أن مسألة الثورة الفيودالية أو الانتقال الفيودالي ، التي لا يسمح لنا المقام بالتوقف عندها،أثارت نقاشا حادا في أوساط الباحثين خلال السنوات القليلة الماضية. يمكن الاطلاع عليه من خلال العودة إلى المقالات التي نشرتها المجلة الأنجليزية Past and Present في العدد 142 الصادر سنة 1994، و العدد 152 الصادر سنة 1996، و العدد 155 الصادر سنة 1997.كما يمكن العودة إلى كتاب دومنيك بارثلمي (Dominique Barthélémy) :

La mutation de l'an mil a-t-elle eu lieu ? Servage et chevalerie dans la France des Xe et Xie siécle, Paris, Fayard, 1997.

كما يمكن العودة إلى بحث لكريستيان لورنسون روزاز (Christian Lauranson Rozaz) تحت عنوان « Le débat sur la mutation féodale :état de la question ».: وهو نص من 14 صفحة في صيغة pdf منشور على الموقع :www.droit.u-clermont1.fr

منذ عهد وليم الفاتح (*Guillaume le Conquérant*). فقد تنامت قوة بعض البارونات. وأقاموا شبكة من علاقات التبعية. وأصبحت تحت إمرتهم مليشيات عسكرية. ولكنهم ظلوا يحترمون المؤسسة الملكية من خلال تقديم الضرائب وتلبية نداء الملوك حين يدعونهم لإبداء المشورة أو لخوض الحروب.(1)

ويبدو أن هذا المسار الخاص الذي سلكته الفيودالية في أنجلترا هو الذي حدا ببعض الباحثين إلى إنكار وجود فيودالية بها. بل إن نفرا منهم نادوا بضرورة شطب مفهوم الفيودالية من قاموس اللغة.(2)

وخلافاً لأنجلترا، ففي شبه جزيرة أيبيريا استطاعت أرستقراطية إقليم قطلونيا أن تفرض وجودها كقوة فاعلة ابتداء من سنة 1060 بعد أربعين سنة من الصراع مع سلطة الإقليم ممثلة في شخص القمط.

وقريباً جداً من قطلونيا، في مملكة قشتالة و ليون، لم يستطع أفراد الأرستقراطية الانفراد بالسلطة إلا بعد سنة 1109 تاريخ وفاة ألفونسو السادس الذي كان يحكم المملكة خلال عهده بيد من حديد.(3)

1- لمزيد من التفاصيل بخصوص هذا الموضوع نحيل القارئ إلى دراستين إحداهما قديمة باللغة الفرنسية و الأخرى باللغة الأنجليزية
صدرت منذ بضع سنوات. وهما :
Charlees Menche de Loise, France et Angleterre, étude sociale et politique, Paris, éd. E. Dentu, 1859. et Wilfred Lewis Warrem, The governance of norman and angevin England 1086-1272, California, Stanford University Press, 1987.

2- تعد الباحثة اليزابيث راش براون (Elisabeth Rash Brown) أبرز من عبر عن هذا الموقف في عدد من أبحاثها و أهمها في هذا المقام مقال :
« The tyranny of construct, feudalism and historians of medieval Europe », The American Historical Review, Vol. 79, No 04, 1974, pp. 1063-1088.

3- Marie-Claude Gerbet, La noblesse dans le royaume de Castille, Paris, les publications de la Sorbonne, 1979.

وعموماً، فقد حدثت التحولات في مختلف كيانات غرب أوربا بعد فترة مخاض صعبة امتدت بين سنتي 1020 و 1060 أو 1080. احتدمت خلالها النزاعات السياسية – العسكرية و الاضطرابات الاجتماعية. فماذا يمكن أن يقال عن ملامح فترة المخاض و ما هي مظاهر التحولات التي انبثقت عنها؟

يستفاد من الأبحاث المنغرافية التي استعرضنا مضامينها و من غيرها[1]، بأن الفترة المشار إليها شهدت فعلاً حالة احتقان وتوتر عمت مختلف أقاليم غالة كإقليم ماكوني وإقليم بواتو (*Poitou*) وإقليم بيكارديا (*la Picardie*)؛ وهي أقاليم تقع وسط و شمال غالة وقريبة من مركز السلطة. وحدث الاحتقان أيضا في إقليمي بروڤانسيا و اللانكدوك (*le Languedoc*) الواقعان في الجنوب و البعيدين نسبياً عن مركز السلطة. وحدثت نفس الحالة في إقليم اللاسيوم الايطالي البعيد عن التأثير المباشر للأحداث الجارية في غالة. وكذلك في أقاليم شبه جزيرة أيبيريا التي كان من المفترض أن تظل فيها جميع فئات المجتمع متماسكة، وأيديها في أيدي القائمين على الأمر بها، نظراً لوقوعها بمحاذاة مراكز وجود المسلمين الذين كانوا يهددونها باستمرار.

1- يمكن أن نذكر في هذا المقام المنغرافيات الآتية :

Marcel Garaud, Les châtelains de Poitou et l’avénement du régime féodal. XIe-XIIe siècles, Poitiers, éd., Société des Antiquaires de l’Ouest, 1967 ;Robert Fossier, La terre et les hommes en Picardie jusqu’à la fin du XIIIe siècle, Paris, B. Nauwelaerts, 1968, 2 Vol. ;Dominique Barthélemy, Les deux âges de la seigneurie banale. Coucy (XIe-XIIIe siècles), Paris, les publications de la Sorbonne, 1984 ; Hélène Débax, La féodalité languedocienne XIe-XIIe siècles. Serments, hommage et fiefs dans le Languedoc Trencavel, Toulouse, Presses Universitaires du Mirail, 2003.

وعموماً، فان العنف أصبح منذ مطلع القـرن الحـادي عشرسـلوك أفـراد المجتمع عامته و خاصته. وكأنهم استشعروا جميعا بأن حدثا مـا يلـوح في الأفـق كان يجب الاستعداد له. ما هو ذلـك الحـدث الـذي كـان يلـوح في الأفـق؟ أنـه باختصار النهضة الاقتصادية التي بدأت مقدماتها منـذ مطلـع القـرن التاسـع[1]، والتي ستتجلى في صورة أوضح بعد سنة 1020. وستسـتمر حتـى حـوالي سـنة 1320. فقد أحس الفلاحون الذين بذلوا جهودا مضنية في استصـلاح الأراضي و توسـيع المسـاحات الصـالحة للزراعـة، بـأن عوائـق توضـع أمـامهم لمـنعهم من الاستفادة من ثمار تلك النهضة. أمـا أفـراد الأرسـتقراطية فـأرادوا اسـتباق الأحداث للاستفادة منها. ولذلك شرعـوا في وضـع "المسـالك" و "القنـوات" التي ارتأوا أن تعبرها النهضة الآتية.

وهكذا بدأت في أوساط الفلاحين إرهاصات الحركات الاحتجاجية التي ستندلع بعنف، متخذة تـارة شـكل حركـات دينيـة كالحركـات الهرطقيـة (*les hérésies*)[2] وتارة شكل انتفاضات اجتماعية عارمة.[3] اندلع بعضها بين سـنتي

1- عن مقدمات النهضة الاقتصادية أنظر كتاب جورج دوبي :
Guerries et paysants.VIIe-XIIe siècles. Premier essor de l'économie européenne, Paris,Gallimard,1973.

2- أنظر عن هذه الحركات كتاب :
Régis Blanchet, Les hérésies médiévales face à l'inquisition, Paris, éd., du Prieuré, 1995, 2 Vol. et

و كتاب :
André Vauchez et Robert Fossier, Histoire du Moyen Age, Tome II (Xe-XIe siècles), Paris, A. Colin, 2005.

3- تناول عدد كبير من الباحثين الانتفاضات الاجتماعية التي شهدها الغرب الأوربي خلال العصر الوسيط الأوسط و العصر الوسيط الأسفل. يمكن العودة إلى المؤلفات الآتية على سبيل المثال لا الحصر :
Rodney Howard Hilton, Bond men made free, medieval peasant movements and the English rising of 1381, London, éd., Maurice Temple Smith, Ltd.,1973. ; Laurent Feller, Paysans et seigneurs au Moyen Age, VIIIe-Xve siècles, Paris, A. Colin, 2007. ; Flaran, Les luttes anti-seigneuriales dans l'Europe médiévales et moderne (Actes de journées d'études tenues à l'abaye de Flaran),Toulouse, Presses Universitaires du Mirail, 2009.

1000 و 1320، أي خلال العصر الوسيط الأوسط. بينما اندلعت سلسلة انتفاضات أخرى منذ سنة 1315 أو 1320 واستمرت طيلة العصر الوسيط الأسفل؛ متزامنة مع الكوارث الطبيعية والديمغرافية والحروب التي شهدتها أقاليم غرب أوربا خلال هذه الفترة.

أما أفراد الأرستقراطية، الذين يهمنا أمرهم في هذا المقام، فقد بدأوا يتلكئون في تقديم الولاء للأقماط كما رأينا في ما مضى. وأخذت العلاقات بينهم و بين الأقماط تميل نحو التشنج. ينطبق هذا الأمر أيضا على نفر من أفراد الأرستقراطية الذين ينتمون لأسر عريقة، والذين كانوا يشاركون في ممارسة السلطة في القرى بتفويض من الأقماط أو بتفويض مباشر من الملوك. فقد أصيبوا هم الآخرين بالعدوى. وبموازاة هذه التطورات أخذ الفساد ينخر جسم مؤسسة القمطية. وتفشت الضغائن و الدسائس بين الأقماط و مساعديهم كما حدث في إقليم قطلونيا وفي قمطية اللانكدوك مثلاً حسب الإفادات التي يقدمها لنا كل من بيير بوناصي[1] وهلين ديباكس (*Hélène Débax*)[2] في الموضوع. وسرعان ما كانت هذه المشاكل تتحول إلى صراع مكشوف.

ومن البديهي في مثل هاته الحالة أن ينضم أرستقراطيون لهذا الطرف وآخرون لذاك الطرف. ثم يحدث الاقتتال.

والراجح أن هذه الظاهرة لم تقتصر على إقليمي قطلونيا و اللانكدوك، بل حدث ما يشبهها في أقاليم و قمطيات أخرى كما يتضح من المنغرافيات الإقليمية التي سبق أن أحلنا عليها. حيث خصص مؤلفوها صفحات مطولة

1- Pierre Bonnassie , La Catalogne…, Op.Cit. Tome II, p.539 et suivantes. Voir aussi les pages 575-580.
2- Hélène débax, La féodalité languedocienne…, Op.Cit., pp. 233-268.

للحديث عن الوقائع و الحروب التي دارت رحاها بين أفراد الأرستقراطية. إما بسبب اختلاف المواقف من مؤسسات القمطية و من شخص القمط ، أو لأسباب ودواعي مختلفة. وإن أهم ما يمكن استخلاصه من وراء هذا الحديث هو أن وقائع الحروب لم تعد تجري فقط على مستويات جهوية أو إقليمية كما كان يحدث في الماضي، بل أصبحت كذلك عبارة عن وقائع شبه يومية تحتدم على المستوى المحلي. أي في حدود القمطية، وأحياناً في حدود القرية الواحدة على مشارف القصر أو الحصن.

وانطلاقاً من هذا الاعتبار ذهبت دومنيك بارثلمي (*Dominique Barthélemy*) إلى القول بأن الحروب و عمليات القرصنة و عمليات السلب والنهب (*les rapines*) وجميع أشكال العنف الأخرى غدت بعد مطلع القرن الحادي عشر إحدى ظواهر المجتمع الأوربي.[1] بينما ذهبت هلين ديباكس إلى التأكيد بأن العنف غدا أحد مكونات الفيودالية.[2]

وكان من الطبيعي في مثل هاته الأجواء أن يتصدر حملة السيف واجهة الأحداث.فعليهم أخذ يعول أفراد الأرستقراطية في خوض الوقائع الدائرة بين بعضهم؛ أو الدائرة بينهم و بين الأقماط. وعليهم كذلك أخذ يعول أفراد الأرستقراطية لإخماد انتفاضات الفلاحين. ومن ثم، تكاثرت المليشيات العسكرية التي كانت عبارة عن فرق تتشكل من فرسان (*les milites*) ومن محاربين مرابطين في الحصون (*les milites castri*). وقد قدر بيير بوناصي بأن الفرقة الواحدة من تلك المليشيات كانت تتألف أحياناً من مائة محارب.[3]

1- Dominique Barthélemy, Les deux age de la seigneurie banale…, Op.Cit., pp. 539-541.

2- Hélène Débax, La féodalité…, Op.Cit., p. 233

3- Pierre Bonnassie, « du Rône à la Galice genése et modalité du régime féodale », in Structures féodales et féodalisme…, Op.Cit. p. 32. Voir aussi du même auteur, Les milites en pays d' Oc au XIe siècle, dans son recueil d'articles intitulé : Les sociétés de l'an mil un monde entre deux ages, Bruxelles, De Bœck Université, 2001, p.453 et suivantes.

وفي نفس السياق خلص فليب دوران (*Philippe Durand*)[1] إلى القول، بعد تحريات ميدانية، بأن عدد المحاربين المرابطين في القصور المنتشرة هنا وهناك في غرب أوربا كان مختلفاً، ولكنه كان يصل عموماً إلى المائة محارب. ولكن هذا العدد كان يرتفع تبعاً للظروف والمستجدات العسكرية.[2] ومن هنا نستطيع أن نتصور بأن مجمل عدد المحاربين كان يقدر بالآلاف. بعضهم كان يحارب تحت إمرة الأقماط ،و بعضهم الآخر تحت إمرة المؤسسات الدينية، وبعضهم تحت إمرة كبار الملاكين العقاريين. وكانت تربط بين كل واحد منهم وبين سيده القمط أو المؤسسة الدينية أو الأرستقراطي روابط فيودو – فصلية. كانت تقضي بأن يقوم بخدمة سيده السنيور3 مقابل قطعة أرض (الفيف).

ومن المفيد الإشارة إلى أن خصوصيات المرحلة اقتضت في بعض القمطيات لجوء أفراد الأرستقراطية إلى الوسائل السلمية لفض النزاعات القائمة بينهم والتحالف لمجابهة التحديات المشتركة، وأهمها انتفاضات الفلاحين. لذلك نشأت في تلك القمطيات، إلى جانب الروابط الفيودو– فصلية التي تربط بين كل سنيور وأفصاله، روابط فيودو – فصلية بين بعض "السنايرة"، وخاصة بين متوسطي وكبار الملاكين العقاريين أو بين هؤلاء والبابوية كما حدث مثلاً في قمطية بروفانسيا أو في إقليم اللاسيوم. ويبدو أن هذه الروابط تجاوزت مستوى "المجموعات"ونحت نحو "المركزية" في إقليم قطلونيا. فقد استطاع قمط برشلونة ريموند برنجر الأول أن يحسم سنة 1070 الصراع الدائر بينه و بين الأرستقراطية المحلية لصالحه. فلجأ إلى"ترويض" الروابط الفيودو – فصلية القائمة بين أفراد الأرستقراطية

1- Philippe Durand, Le château fort, Paris, éd., J.P. Gisserot, 1999.
2- Ibid., p. 8.
3- كانت الخدمة العسكرية (ما يسمى بالفرنسية le servisse d'ost)تمثل أهم خدمة على الإطلاق.

والمليشيات التابعة لهم بان سخر تلك الروابط لحسابه من خلال إقامة شبكة علاقات تبعية. وضع نفسه على رأسها، فغدا بذلك " سنيور السنايرة ". وتفادياً لأية ردة من جانب أحد عناصر الشبكة اقترح إبرام عقود أو مواثيق (*convenenientiae*) بينه وبين أفراد الأرستقراطية.[1] منح بمقتضاها لهؤلاء "أفيافا" تمثلت في قطع أرض وحصون نظير الالتزام بولائهم للقمط واحترام مؤسسات القمطية. و كأنه بهذا الإجراء ألهم الملوك و الأمراء الذين حكموا الكيانات المسيحية في شبه جزيرة أيبيريا بعد القرن الثاني عشر. إذ أرسوا هم الآخرين حكمهم على العناصر الثلاث: الفصالة والفيف والمواثيق التي غدت هي العناصر الأساسية المعتمدة في الحكم وتدبير الشأن العام.

ويبدو أن هذا الإجراء كان ناجعاً ومنسجماً تماماً مع ما كان يعتمل في الواقع. بدليل أن بعض القائمين على الأمر في فرنسا " مهد الفيودالية " تبنوه هم الآخرين خلال القرن الثالث عشر و حتى أواخر القرن الموالي. فبعد هذا التاريخ بدأ الوهن يدب في أوساط الأرستقراطية من جراء المصاعب الاقتصادية – المالية التي تفاقمت منذ سنة 1317 [2]. وتداعيات حرب المائة سنة التي اندلعت منذ سنة 1337؛ بالإضافة إلى طاعون 1348-1349.

1- Pierre Bonnassie, « Les conventions féodales… », contribution déjà citée.

2- أنظر ما ذكرناه في مقدمة هذا البحث. و لمزيد من التفاصيل يمكن العودة إلى كتاب گي بوا (Guy Bois) :

Crise du féodalisme, Paris, Presses de la Fondation Nationale des Sciences Politiques, 1976. و كتاب رودني هلتون (Rodney Howard Hilton) :

Class conflict and the crisis of feudalism.Essays in medieval social history, London, The Hambledon Press, 1985.

فهيأت هذه العوامل الظرفية المواتية لتشرع "الدولـة" مجـدداً في اسـتعادة هيبتها على أسس قومية هذه المرة. فكان ذلك يعني بداية تلاشي الفيودالية رغـم أن بعض تجلياتها القانونية والمؤسساتية ظلت مستمرة في فرنسا "مهد الفيوداليـة " حتى سنة 1789. ولذلك ذهب جمهرة من الباحثين إلى نعت الثورة الفرنسـية بكونها "ثورة ضد الفيودالية " (*une révolution anti–féodale*)[1].

1- يمكن العودة بخصوص هذا الموضوع إلى الكتابين الآتيين :

L'abolition de la féodalité dans le monde occidental, (actes du colloque international tenu à Toulouse entre le 12 et le 16 novembre 1968), éd., du C.N.R.S.,Paris, 1972, 2 Vol. et John Markoff, The aboli-tion of feudalism. Peasants, Lords and Legislations in the French Revolution, Pensylvania, The Pensylvania University Press, 1996.

الفصل الخامس

الحروب والصراعات الدينية داخل أوروبا

1. **الحروب الدينية في فرنسا (1560 – 1598):**

استمرت الحروب الدينية في فرنسا زهاء أربعة عقود متتالية، خلال القرن السادس عشر. فقد اشتعلت سنة 1560 ولم تنته إلا في سنة 1598 .بدأت بمؤامرة حيث كان يقع قصر الملك الفرنسي فرانسوا الثاني.

✍ **حسب موسوعة الحروب، فإن الحروب الدينية في فرنسا أدت إلى مقتل ما بين 2 إلى 4 مليون نسمة.**

- **مؤامرة أمبواز (1560):**

حاول الكليفينيون (جماعة بروتستانتية) أن يخلعوا الملك فرانسوا الثاني (كاثوليك) لتنصيب ملكاً أخر.في 17 مارس 1560 جمع عقائدهم 500 فارس في قصره استعداداً لبدء الهجوم.ابلغ أحدهم عن الخطة ، فقام جيش ملك فرنسا بتطويقهم وقتلهم داخل قصر شاتو-رينو إلا أن مائة منهم تمكنوا من الفرار والتحصن في قصر أخر شاتو-موزاي.وعدهم الملك بالعفو إن استسلموا ولكن بعد الاستسلام قام بشنقهم جميعا[1] "أما قائد العملية الذي كان قد قُتل في المعركة فتم شنق جثته وقطع الرأسعلى جسر أمبواز.

- **الحرب الدينية الأولى 1562 -1563:**

حرب نشأت بين البروتستانت والكاثوليك، ومن أبرز أحداثها مجزرة واسي، التي حصلت في الأول من مارس 1562 حيث قتل رماة السهام التابعين لدوق دي غيز الكاثوليكي 70 بروتستانتيا وجرحوا 200 مجتمعين في إحدى

المزارع، يستمعون لوعظ أحد المبشرين البروتستانت .أبرز أحـداث عـام 1563 هي التوقيع على اتفاقية سلام، سمحت السلطات الملكية بموجبها بإقامة شـعائر البروتستانت داخـل قصـور النـبلاء فقـط، دون الانتشـار في الأحيـاء الشـعبية وأوساط الحرفيين. جاء عنها في موسوعة قصة الحضارة:طلب الفريقـان المعونـة من الخارج وحصلا عليها، الكاثوليك من أسـبانيا، والبروتسـتنت مـن إنجلـترا وألمانيا، فأرسلت اليزابث 6.000 رجل إذ أغراها وعـد البروتسـتنت بإعطائهـا كالية، واستولى 2.000 منهم على روان، ولكن جيـز انتـزع المدينـة ونهبهـا (26 أكتـوبر 1562)، ونهـب جنـده المتعطشـون للغنيمـة السـكان الكاثوليـك والبروتستنت وذبحوهم دون تحيز لأي فريق.

- **الحرب الدينية الثانية 1567 -1568:**

حرب نشأت بين البروتستانت والكاثوليك، ومن أبرز الأحداث المحاولة الفاشلة للبروتستانت للاستيلاء على مدينة باريس عـام 1567. في عـام 1568 تم الاتفاق على شروط سلام مماثلة لشروط أمـبروز ويضـاف عليهـا الاعـتراف بمدينة لاروشيل في شمال فرنسا كمدينة تابعة للمـذهب البروتسـتانتي .عُرفـت هذه الاتفاقية باتفاقية لونجومو.

- **الحرب الدينية الثالثة 1568 -1570**

حرب نشأت بين البروتستانت والكاثوليك ، ومن أبرز الأحداث هزيمـة البروتستانت في منطقة جرناك حيث قُتل أمير آل كوندي . وهزيمـة مونكونتـور البروتسـتانتية، تبعهـا اتفـاق قضـى بـاعتراف البروتسـتانتية رسـمياً في فرنسـا والاعتراف لها بالنفوذ الشرعي في أربع مدن كبرى. غير أن مجزرة سان بارتيليمي التي طالت عدداً كبيراً من البروتستانت في فرنسا بتـاريخ 24 أغسـطس 1572 عادت فأشعلت الصراع مرة ثانية.

مجزرة سان بارتيملي (موسوعة قصة الحضارة):

وإذا كان المتآمرون (كاثوليك) قد دبروا قتل نفر من الهيجونوت (بروتستانت)، فإنهم اغتنموا الآن فرصة هذا الأمر المجنون الذي نطق به الملك ليستأصلوا شافة الهيجونوت ما أمكنهم ذلك. .... الأمر أبلغ لقواد أحياء باريس بأن يسلحوا رجالهم ويستعدوا للعمل بمجرد سماعهم أجراس الكنائس تدق في الثالثة من صباح 24 أغسطس، وهو عيد القديس بارتولوميو. ... وأرسل هنري جيز (القائد) كلمة إلى ضباط المليشيا بأن على رجالهم حالما يسمعون ناقوس الخطر يقرع أن يذبحوا كل هيجونوتي يعثرون عليه؛ أما أبواب المدينة فتقفل لتمنع الهاربين من الهروب.

وبينما كان الظلام لا يزال مخيماً قاد جيز نفسه ثلاثمائة جندي إلى المبنى الذي ينام فيه كوليني (زعيم البروتستانت). وكان على مقربة منه باريه طبيبه، وميرلان سكرتيره، ونيقولا خادمه. وأيقظهم وقع أقدام جند مقبلين، ثم سمعوا طلقات وصياح- كان حرس كوليني يقتلون. واندفع صديق إلى الحجرة وهو يصيح "لقد قضي علينا! " وأجاب الأميرال: "إنني اعددت نفسي للموت منذ زمن طويل، فأنقذوا أنفسكم، لا أريد أن يلومني أحباؤكم على موتكم. أستودع روحي لرحمة الله". وهربوا واقتحم جند جيز الباب فوجدوا كوليني راكعاً يصلي، وطعنه جندي بسيفه وشق وجهه، وطعنه آخرون، ثم قذف من النافذة وهو حي بعد فسقط على الرصيف أسفلها عند قدمي جيز. وبعد أن تأكد الدوق من موت كوليني أمر رجاله بأن ينتشروا في باريس ويذيعوا هذه العبارة "اقتلوا! اقتلوا! هذا أمر الملك" وفصل رأس الأميرال عن جسده وأرسل إلى اللوفر- وقيل إلى روما، أما الجسد فسلم للجماهير التي مثلت به تمثيلاً وحشياً فقطعت الأيدي والأعضاء التناسلية لتعرضها للبيع، وعلقت بقيته من عرقوبيه.

وأرسلت الملكة خلال ذلك الأوامر لدوق جيز بوقف المذبحة لشعورها بشيء من الندم أو الخوف. وكان الجواب أن الأوان فات، أما وقد مات كوليني. فلا بد من قتل الهيجوت وإلا فهم لا محالة ثائرون. وخضعت كاترين وأمرت بقرع ناقوس الخطر. وتلت ذلك مذبحة ندر أن عرفتها المدن حتى في جنون الحرب، واغتبطت الجماهير باطلاق دوافعها المكبوتة لتضرب وتوجع وتقتل. فاقتنصت وذبحت من الهيجونوت وغيرهم عدداً يتفاوت بين الألفين وخمسة الآلاف،....... ذكر السفير الأسباني في تقريره "إنهم يقتلونهم جميعاً وأنا أكتب هذا، إنهم يعرونهم.. ولا يعفون أحداً حتى الأطفال. تبارك الله! " أما وقد أصبح القانون ذاته خارجاً على القانون، فقد انطلق السلب والنهب في غير قيد، وأبلغ الملك أن بعض حاشيته شاركوا في نهب العاصمة. والتمس منه بعض المواطنين المروعين عندما اقتربت الظهيرة أن يأمر بوقف المذبحة، وعرضت جماعة من شرطة المدينة أن تعاون على استتباب الأمن. فأصدر الأوامر بوقف المذبحة، وأمر الشرطة بأن يحبسوا البروتستنت حماية لهم؛ ثم أنقذ بعض هؤلاء، وأغرق غيرهم بأمره في السين. وهدأت المذبحة هنيهة. ولكن حدث في يوم الاثنين الخامس والعشرين من الشهر، أن شجيرات الشوك البري أزهرت في غير أوانها في مقبرة الأطفال؛ وهلل الكهنة للأمر حاسبينه معجزة، وقرعت أجراس الكنائس في باريس احتفالاً به، وظنت الجماهير أن هذا القرع دعوة إلى تجديد المذبحة، فأستؤنف القتل من جديد.

وفي يوم السادس والعشرين ذهب الملك في موكب رسمي هو وحاشيته إلى قصر العدالة مخترقاً الشوارع التي ما زالت الجثث مبعثرة فيها، وشهد لبرلمان باريس في فخر بأنه أمر بالمذبحة.

وحسب جاك دتو 800 ضحية في ليون، 1.000 ضحية في أورليان. أما الملك فقد شجع هذه الإبادة، ثم نهى عنها، ففي السادس والعشرين من الشهر أرسل تعليمات شفوية لحكام الأقاليم بأن يقتلوا كل زعماء الهيجونوت، وفي السابع والعشرين أرسل اليهم أوامر مكتوبة بأن يحموا البروتستنت المسالمين الممتثلين للقانون......... وأغلب الظن أن الاقاليم ساهمت بخمسة آلاف ضحية، وباريس بنحو ألفين، ولكن بعضهم يقدر جملة الضحايا بعدد يتفاوت من خمسة آلاف إلى ثلاثين ألفا". وأغضى الكاثوليك عموماً عن المذبحة باعتبارها انفجاراً للغيظ والثأر بعد سنين من اضطهاد الهيجونوت للكاثوليك. أما فليب الثاني فقد ضحك على غير عبوسه وجهامته المألوفة حين سمع النبأ، وحسب أنه لن يكون هناك خطر من تدخل فرنسا في الأراضي المنخفضة. أما الممثل البابوي في باريس فكتب إلى روما يقول: "أهنئ قداسة البابا من أعماق قلبي على أن يد الله جل جلاله شاء في مستهل بابويته أن يوجه شئون هذه المملكة توجيهاً غاية في التوفيق والنبل، وأن يبسط حمايته على الملك والملكة الأم حتى يستأصلا شأفة هذا الوباء بكثير من الحكمة، وفي اللحظة المناسبة حين كان كل المتمردين محبوسين في القفص. " وحين وصل النبأ إلى روما نفح كردينال اللورين حامله بألف كراون وهو يهتز طرباً. وسرعان ما أضيئت روما كلها، وأطلقت المدفعية من قلعة سانت أنجلو، وقرعت الأجراس في ابتهاج، وحضر جريجوري الثالث وكرادلته قداساً مهيباً لشكر الله عليهذا الرضى الرائع الذي أبداه للشعب المسيحي، والذي أنقذ فرنسا والكرسي البابوي المقدس من خطر عظيم. وأمر البابا بضرب مدالية خاصة تذكاراً لهزيمة الهيجونوت أو ذبحهم- وعهد إلى فازاري بأن يرسم في الصالة الملكية بالفاتيكان صورة للمذبحة تحمل هذه العبارة- "البابا يوافق على قتل كوليني.

- **الحرب الدينية الرابعة 1573 - 1574:**

حرب نشأت بين البروتستانت والكاثوليك، ومن أبرز الأحداث الحصار الذي ضربته القوات الكاثوليكية على مدينة لاروشيل ، معقل البروتستانت ، ثم الإتفاقية التي عُقدت في هذه المدينة مكررة نقاط الاتفاقيات السابقة (أمبواز ولونجومو) وقد تم رفع الحصار العسكري بعد التوقيع على الاتفاق الجديد بتاريخ 24 يونية 1573 .غير أن المعارك استمرت في جنوب البلاد ، في منطقة لانغ دوك ، وفي 29 مايو 1574 تم التوصل إلى اتفاق بعد هزيمة البروتستانت.

- **الحرب الدينية الخامسة 1576 :**

حرب نشأت بين البروتستانت والكاثوليك ، ومن أبرز الأحداث التوصل إلى اتفاقية بعد عدة معارك دامية ، كان من بنود الاتفاقية (73 بنداً).

- حرية الممارسة الدينية البروتستانتية في الريف والمدن الفرنسية.
- تسليم السلطة للبروتستانت في 8 مدن رئيسية عبر البلاد.

- **الحرب الدينية السادسة 1577 :**

حرب نشأت بين البروتستانت والكاثوليك، ومن أبرز الأحداث استيلاء أخ الملك على مركز لاشاريتي، المركز البروتستانتي العام بتاريخ 1 مايو 1577، ثم تم عقد اتفاقية بعدها عرفت باتفاقية بيرجوراك في 15 سبتمبر 1577 وتسمح هذه الاتفاقية للبروتستانت بإقامة شعائرهم الدينية في جميع أنحاء المملكة.

- **الحرب الدينية السابعة 1580 :**

حرب نشأت بين البروتستانت والكاثوليك، ومن أبرز الأحداث استيلاء هنري دو نافار على مدينة كاهور في 30 مايو 1580 ، ثم عقد اتفاقية سلام في فليكس بتاريخ 26 نوفمبر 1580.

- **الحرب الدينية الثامنة 1585 -1598 :**

حرب نشأت بين البروتستانت والكاثوليك ، ومن أبرز الأحداث انتصار البروتستانت في معركة كوتراس في 20 نوفمبر 1587. في سنة 1588 حدثت انتفاضة شعبية ضد الملك هنري الثالث، وبعد قمع الانتفاضة تحالف الملك هنري الثالث مع قائد البروتستانت هنري دو نافار وقاموا بمهاجمة وحصار باريس التي انتفضت مرة ثانية.تم اغتيال الملك هنري الثالث و رفض جنوده الكاثوليك قيادة هنري دو نافار الذي تم تتويجة ملكاً للبلاد باسم (هنري الرابع) بعد أن تحول للكاثوليكية.

الحروب الدينية لم تنته فعلا" إلا بعد توقيع اتفاقية نانت في 15 أبريل 1598 التي اعترفت بحرية المعتقد في فرنسا.

2. **<u>الحروب الدينية في ألمانيا – حرب الثلاثين عاما" – 1618–1648:</u>**

أصدر الأمبراطور الهبسبورجي الألماني رودولف الثاني عام 1609، ما يسمى بالرسالة السامية، وكانت تسمح هذه الرسالة للبروتستانت التشيكيين بتشييد المعابد وبنشر دعوة مارتن لوثر للبروتستانية بكل حرية.

- أثارت هذه الرسالة غضب الكاثوليك الذين كانوا يمسكون بزمام الأمور السياسية في الإمبراطورية الجرمانية.

- أمر مطران براغ الكاثوليكي في مارس 1618 بتدمير معبد بروتستانتي كان قد شُيد قبل سنة بموجب قانون الرسالة السامية.
- انتفض على الحادث بروتستانت بوهيميا كلها وعقدوا اجتماعات برلمانية، حضر فيها ممثلي السلطة الكاثوليكية في مايو 1618 .
- تقرر في الأجتماع رمي مندوبي الإمبراطور الكاثوليكي من نوافذ الأطباق العليا، مما تسبب بوفاتهما.
- تخلى الإمبراطور عن رسالة التسامح التي كان قد أصدرها من قبل.
- انقسم رعايا الإمبراطورية بين مناقض لرسالة التسامح و مؤيد لها.
- تابع البروتستانت تنظيم طاقاتهم في ألمانيا فبادروا إلى تنظيم دستور جديد لمملكة بوهيميا عام 1619، كما انتخبوا لأنفسهم ملكاً جديداً لهم بروتستانتياً ووهو الأمير فريدريك الخامس.
- في نفس الأثناء، تم تنصيب فرديناند الثاني، الكاثوليكي، أمبراطوراً لجرمانيا كلها والتي من ضمنها مملكة بوهيميا.
- عمد فرديناند إلى استعادة مملكته من الملك البروتستانتي ، فاستعان لهذا الغرض بالعصبة الكاثوليكية الذين كانوا يحكمون في أسبانيا.
- استعان البروتستانت بالعصبة الإنجيلية (البروتستانتية) التي كانت تضم هولندا والدانمارك وبريطانيا.
- في الثامن من نوفمبر عام 1620 انتصر الإمبراطور فرديناند الثاني بحالفه الجيش الأسباني الكاثوليكي على بروتستانت بوهيميا في معركة الجبل الأبيض، وتمت مصادرة أملاك ملكهم فردريك الخامس.

- بادر الملك كريستيان الخامس الدانمركي البروتستانتي ،عام 1625، إلى مناصرة البروتستانت الألمان فاحتلت جيوش الدانمرك المنطقة الشمالية من الإمبراطورية الجرمانية حيث كان يكثر السكان البروتستانت.
- عام 1630 و بتشجيع من فرنسا وروسيا، دخل ملك السويد غوستافادولف إلى الأراضي الألمانية لدعم البروتستانت.
- شمل جيش السويد 30 ألف جندي مشاة و 6 آلاف خيال و 100 مدفع.، ازدادت القوات حتى بلغت في نهاية الحرب عام 1647 ما يقرب من 170 ألف جندي معظمهم من البروتستانت الألمان والسويسريين.
- في 24 أكتوبر عام 1648 تم توقيع اتفاق وستفاليا للسلام، ومن ضمن بنوده الاعتراف بحرية الاعتقاد والعبادة للبروتستانت.
- نتيجة لإحراق المدن و القرى وقتل المدنيين، أدت الحرب لمقتل حوالي 40 ٪ من سكان الريف وحوالي 30 ٪ من سكان المدن.

✓ **حسب موسوعة الحروب يقدر عدد القتلى من 3 إلى 8 مليون .**

✍ **جاء في موسوعة قصة الحضارة:**

"هبطت حرب الثلاثين بسكان ألمانيا من 20.000.000 إلى 13.500.000 . وبعد عام أفاقت التربة التي روتها دماء البشر، ولكنها ظلت تنتظر مجيء الرجال. وكان هناك وفرة في النساء وندرة في الرجال. وعالج الأمراء الظافرون هذه الأزمة البيولوجية بالعودة إلى تعدد الزوجات كما ورد في العهد القديم.

ففي مؤتمر فرانكونيا المنعقد في فبراير 1650 بمدينة نورمبرج اتخذوا القرار الآتي:-

"لا يقبل في الأديار الرجال دون الستين... وعلى القساوسة ومساعديهم (إذا لم يكونوا قد رسموا)، وكهنة المؤسسات الدينية، أن يتزوجوا... ويسمح لكل ذكر بأن يتزوج زوجتين، ويذكر كل رجل تذكيراً جدياً، وينبه مراراً من منبر الكنيسة، إلى التصرف على هذا النحو في هذه المسألة".

3. **<u>إخضاع إنجلترا لايرلندا:</u>**

- عمد الملك الإنجليزي هنري الثامن إلى محاولة إخضاع أيرلندا دينياً بفرض المذهب البروتستانتي اعتباراً من 1536 إلا أن سكان الجزيرة رفضوا وبقوا متمسكين بالمذهب الكاثوليكي.
- حاول ملوك إنجلترا محاربة الكاثوليكية من خلال تنظيم عمليات استيطان إنجليزية –بروتستانتية في قلب الجزيرة وفي سنة 1559 أُنشئت أول مستوطنة إنجليزية على الجزيرة.
- استغاث الايرلنديون بالأسبان (الكاثوليك) ، فذهب الأسطول الأسباني لمساعدة الأيرلنديين في الصراع المذهبي مع إنجلترا، هاجم الأيرلنديون سكان المستوطنة وقتلوا البعض وهجروا الآخرين.
- جهز البريطانيون جيشا" وانتصر على الأيرلنديين والأسبان في معركة كينسال سنة 1601 - أسست السلطات الإنجليزية العديد من المزارع الإنجليزية على الجزيرة اعتبارا" من سنة 1607 وقامت بتوطين رعاياها البروتستانت في هذه المزارع التي صادرتها من الإيرلنديين الكاثوليك.

- بلغ عهد المستوطنين بعد 20 عاماً مائة ألف نسمة تم زرعهم داخل الجسم الأيرلندي.
- في 1641 هاجم الأيرلنديون المستوطنين الإنجليز وقتلوا عدداً كبيراً منهم، ثم أعلنوا إنشاء فيدرالية كاثوليكية مستقلة.
- سنة 1690 وبعد حرب طويلة بين الإيرلنديين (الذين استعانوا بالاسكوتلنديين) هاجم الجيش الإنجليزي القوات الايرلندية في لابوين وانتصر عليهم في 12 يوليو 1690.
- صادرت إنجلترا بعد ذلك المزيد من الأراضي لصالح مستوطنين إنجليز جدد.
- حدثت مجاعة في الجزيرة شتاء 1739-1740 خلفت 400 ألف ضحية من الأيرلنديين.
- أسس أحد المحامين جمعية الإيرلنديين المتحدة القائلة بوحدة البروتستانت والكاثوليك على أرض الجزيرة وبالاستقلال التام عن بريطانيا عام 1791. وقد انبثق الجيش الجمهوري الأيرلندي من هذه الجمعية.
- حدثت مجاعة أخرى في الجزيرة شتاء 1845- 1846 ذهب ضحيتها 700 ألف شخص. كما هاجر بسببها إلى أميركا 800 ألف شخص آخر.

4. **حرب البوسنة:**

- **الحرب الأولى 1941 - 1945:**

في الفترة من 1941 إلى 1945 وتحت مظلة الاحتلال الألماني النازي ليوغسلافيا أباد الكروات الكاثوليك 400 ألف صربي أرثوذكسي إضافة إلى 35 ألف يهودي و 25 ألف غجري، كلهم من أهل البلاد ومن سكانها الشرعيين.

تفصيل الأحداث:

بعد أن انتصرت جيوش هتلر على جيش المملكة اليوغوسلافية في أبريل 1941 أنشأت السلطات الألمانية دولة كرواتيا المستقلة على كامل الأراضي السلافونية والكرواتية والبوسنية وقسم من إقليم فويفودين. وأسندت قيادة هذه الدولة للفاشي الكرواتي "انتي بافيليتش".الذي كان زعيماً لميلشيا "الأوستاشي".كانت الدولة تضم 3 مليون كرواتي وأقل من 2 مليون صربي و700 ألف مسلم و 400 ألف من الأقليات المتفرقة.

تصور الجيش الوطني الكرواتي الكاثوليكي (على أساس نظرية أنتي ستارفيتش رئيس الدولة) هو: "أن الصرب الأرثوذكس دخلاء على الأمة، وأن المسلمين هم أقدم نبالة كرواتية أسلم أصحابها في القرن السادس عشر". وضعت الحكومة الجديدة الصرب أمام خيارات ثلاثة: إما اعتناق المذهب الكاثوليكي، وأما الهجرة الطوعية أو التهجير، وأما الإبادة الجسدية بحسب تصريح وزير الخارجية الكرواتي ميلوفان زانتيش في مايو 1941.

وحسب الوثائق المحفوظة في أرشف مدينة بانيالوكا (البوسنية حالياً) والوقائع التي أوردتها، مطلع التسعينات المؤرخة الكرواتية فيكريتا جيليتش: في 27 و 28 أبريل 1941 قُتل 148 مزارعاً صربياً رمياً بالرصاص في

قرية غودوفاك ، وفي قرية بلاغاج قُتل 250 صربياً رمياً بالرصاص أيضاً .في 11 و12 مايو قُتل 300 صربيـاً في مدينـة غلينيـا رميـاً بالرصـاص.أمـا في 2 يونيـة 1941 فقد بدأت الجازر في قلب مدينة البوسنة، ففـي قريـة ليـوبيني قُتـل 140 مزارعاً صربياً . وفي 5 يونية ذُبح 180 مزارعاً صربياً في قرية كوريتا. ثـم في 23 يونية قتل 240 رجـلاً وامـرأة وطفـلاً صربيـاً في قـرى متفرقـة.وفي 25 يونيـة، في منطقة ستولاك ، ذُبح 260 صربياً. في 30 يونية، في قرية ليوبوسكو، قُتل 90 صربياً رمياً بالرصاص.

بعدها بدات عمليات خطف لمزارعين صرب من القرى المتاخمة للشـاطئ الأدريـاتيكي فكـانوا يُقتـادون إلى قريـة كنـين حيـث كـانوا يُـذبحون تـوفيراً للرصاص.في يوليو 1941 بلغت المجازر أوجها، وأصبحت تطال في كل دفعة، آلاف الضحايا.

أنشـأت الميليشـيات الأوستاشـية، اعتبـاراً مـن صـيف 1941، مخـيمات ترانزيـت للمسـاجين الصرـب سرعـان مـا تحولـت إلى معسـكرات إبـادة في جازينوفاك وجـادوفنو وستاراغراديسـكا وجاسـتريباكو.وقـد قـدرت لجنـة كرواتية محايـدة، مطلـع التسـعينات أن بـين 500 ألـف و 600 ألـف شـخص (معظمهم من الصرب) قد قُتلوا ذبحاً في مخيم جازينزفـاك .وفي 1942، خـلال عملية مشتركة للجيشين الكرواتي والألماني، تم تطويق منطقة كوزارا في البوسنة، وقتل عشرات الآلاف من الصرب، رجالاً ونساءً وأطفـالاً.كـما تـم قتـل ثلاثـة مطارين أرثوذكس وتم إعدام ما يقرب من 300 كاهن أرثـوذكس وطـرد عـدد كبير من الذين بقوا أحياءً.

وتذكر التقارير أن 175 كنيسة أرثوذكسية أُحرقت أو دُمرت في منطقة كارلوفاك وحدها. وفي أبرشية باكراك دُمرت 53 كنيسة ، وفي أبرشية والماتيا دُمرت 18 كنيسة. وهكذا دواليك. حتى بلغت الحصيلة النهائية للكنائس الصربية المدمرة بعد 5 سنوات من الحكم مايقرب من 400 كنيسة ودير أرثوذكسي.

حولت الميلشيات هذه الكنائس إلى مستودعات، وبعضها إلى مسالخ لذبح الأبقار وبعضها إلى مراحيض عامة. كما أن الكثير من المدافن الصربية دُمر وفُلحت أراضيه في بانالوكا وكاينيتشي- وبركو وترافنيك وموستار وبوروفو وتنجا وغيرها من البلدان والمدن ذات الأغلبية السكانية الصربية الأرثوذكسية. وقد ترافقت المجازر الكرواتية التي حصلت بين 1941 و 1945، مع عمليات فرض اعتناق المذهب الكاثوليكي على الصرب بالقوة، وكان بطلها رهبان الفرانسيسكان الكروات الذين رافقوا العسكر خلال تنقلاته، مباركين الأعمال الوحشية للجنود ومساندين لهم في إجبار السجناء الصرب على تغيير المذهب وكان الموت البديل الوحيد المطروح أمامهم.

وإذا كان الصرب يرفضون اعتناق الكاثوليكية راحت تحصل أشرس المجازر، كما حصل في منطقة بانيالوكا في فبراير 1942، فيما أُجبر 240 ألف صربي على اعتناق الكاثوليكية خلال العامين 1941 و 1942، حسب المؤرخة جيليتش .

- **حرب البوسنة الثانية 1991 – 1995 :**

❀ في 25 يونية 1991 تم الإعلان عن استقلال كرواتيا وسلوفينيا بضغط من ألمانيا خاصة والمجموعة الأوربية عامة.

❀ ابتداء من 27 يونية وحتى 3 يوليو 1991 حصل تدخل للجيش اليوغسلافي (حيث الأكثرية صربية) في سلوفينيا فتم احتلالها وتسليمها إلى بعض الميلشيات الصربية المحلية. (ذهب الجيش الفيدرالي وترك السلاح في يد الميلشيات الصربية).

❀ في الأول من أكتوبر 1991 شنت بعض وحدات الجيش الفيدرالي هجوماً على شرق كرواتيا وعلى منطقة دوبرفنيك.

❀ في 18 نوفمبر 1991 تمكن الصرب من إسقاط مدينة فوكوفار التي كانت تشكل رمزا" للمقاومة الكرواتية فسقطت معها سلافونيا الشرقية والطرف الشرقي من كرواتيا بين أيدي الصرب بعد ثلاثة أشهر من الحصار و المعارك الضارية.

❀ في 4 فبراير 1992 بدأت أول المواجهات في البوسنة –الهرسك في منطقة موستار حيث الغالبية السكانية من الكروات والمسلمين.

❀ في 21 فبراير 1992 قررت الأمم المتحدة إرسال 14 ألف جندي من جنسيات مختلفة.

❀ في 29 فبراير 1992 أعلن النواب المسلمين والكروات في جمهورية البوسنة والهرسك تأييدهم لاستقلال البوسنة.

❀ بدأ الجيش الفيدرالي (التابع للصرب) عملياته الحربية ضد الكروات والمسلمين على حد سواء. فكان حصاره لمدينة سراييفو في 5 أبريل 1992 والذي بقى قائماً حتى نهاية الحرب عام 1995 .

- في 6 أبريل 1992 اعترفت مجموعة الدول الأوروبية بجمهورية البوسنة المستقلة كما اتفق الكروات والمسلمين. أما صرب البوسنة فقد أعلنوا إنشاء جمهورية صرب البوسنة.
- في 13 أغسطس 1992 دانت الأمم المتحدة، التطهير الأثني الذي يمارسه الصرب الأرثوذكس ضد المسلمين والتواء (حسب تعبير كتاب معجم الحروب- د.فريدريك) الميليشيات الكرواتية.
- في 26 و27 أغسطس أدان مؤتمر لندن الاعتداء الصربي على دولة البوسنة.
- في 25 مارس 1993 وقع المسلمون والكروات على خطة فانس اوين للسلام والتي تقضي بتقسيم البوسنة على أساس أثني. أما الطرف الصربي الذي كان يحتل 70٪ من الأراضي في البوسنة فرفض الخطة لأنها ستجعله ينسحب من حوالي 20٪ من الأراضي التي يحتلها.
- في 17 نوفمبر 1أ93 يعلن وسيط الأمم المتحدة تورقالد ستولتنبرج أن حرب البوسنة قد أوقعت 200 ألف قتيل في 19 شهراً.
- في العام 1994 و 1995 زاد تدخل قوات حلف الأطلسي ضد الصرب ودائماً كان الرد الصربي قذف المدنيين من أهل البوسنة وزيادة المذابح والاغتصاب للمدنيين .**وكمثال:**
  - ✓ في 25 مايو وبعد ضربات جوية قامت بها قوات الحلف الأطلسي قرب معقل الصرب في بالي، قصفت القوات الصربية مدينة توزلا فتوقع 76 قتيلا".

✓ وبين 11 و 25 يونية 1995 سيطرت قوات صرب البوسنة على جيب سريبرينتسا المسلم (الواقع تحت الحماية الدولية) وفتكت به وبأهله فتكا" وحشياً".

⌘ استمر الحصار واستمرت المجازر الجماعية والاغتصاب والقتل للمسلمين ولبعض الكروات الكاثوليك حتى تم توقيع اتفاق دايتون للسلام في الأول من نوفمبر عام 1995، الذي أوقف الحرب.

✍ **حسب موسوعة الحروب فإن قتلى حرب البوسنة من 1992- 1995 حوالي 278 ألف قتيل.**

5. **<u>الحرب الأهلية في أسبانيا (1936- 1939):</u>**

⌘ نشأت حرب أسبانيا من وقود الفكر الديني فلم يتمكن الأسبان من مجابهة مسائل الحريات الديموقراطية ولا من مواجهة أفكار العدالة الاجتماعية التي طرحت نفسها على باقي الأوروبيين منذ مطلع القرن السابع عشر(انتشار المذهب البروتستانتي). فقد بقيت أسبانيا معزولة عن هذا المسار العام عبر الانتماء إلى عالم الأفكار الكاثوليكية والبابوية.

⌘ بدأ الصراع المستميت بين أسبانيا الحمراء (الاشتراكية – الشيوعية) وأسبانيا السوداء (الكاثوليكية التقليدية) اعتباراً منذ 1930.

⌘ فاز الجمهوريون على الملكيين في الانتخابات البلدية في 12 أبريل 1931 وانسحب أثر ذلك الملك من الحياة السياسية.

⌘ تم إعلان جمهورية أسبانيا في 14 أبريل 1931.

⌘ في نفس العام تمت الموافقة على مادة في الدستور (مادة 26) تنص على فصل الدين عن الدولة ، وإلغاء الجمعيات الدينية.

- تم تأسيس حزب يميني انضم له غالبية الشباب الكاثوليكي والملكي عام 1933.
- حصل الحزب اليميني على الغالبية بالبرلمان.
- حدثت انتفاضة لعمال المناجم في مقاطعة استورياس عام 1934 ، قام الجيش بقمعها مخلفاً 1300 قتيل و 3000 جريح .
- تمكن اليسار مجدداً من الفوز بالانتخابات في فبراير 1936. وعاد الثوري مانول أزانيا إلى رئاسة الجمهورية.
- نظم الجنرال فرانكو انتفاضة وتشابكت الأطراف بسرعة.
- القوى الجمهورية أو الحكومية من جهة ضد القوى الوطنية أو المنتفضة من جهة أخرى.
- انقسم الجيش من طائرات (350 طائرة) و مشاة على بعضه.
- من مجموع 50 مقاطعة أسبانية انضم 20 مقاطعة للجمهوريين و 16 للوطنيين و بقيت 14 مقاطعة مختلطة.
- اشترى الجمهوريون العديد من الطائرات من فرنسا عام 1936 والدبابات من روسيا عام 1937 من مخزون الذهب المخزن منذ استعمار القارة الأمريكية.
- اشترى الجمهوريون خلال الحرب 1475 طائرة من الإتحاد السوفيتي وفرنسا.
- اشترى الوطنيون 1253 طائرة من إيطاليا وألمانيا.
- اعترفت دولة الفاتيكان رسمياً بقائد الثورة وبحكومته، الجنرال فرانكو في أغسطس 1937.

- استقدمت حكومة الجنرال فرانكو 62270 جندياً مغربياً كانوا يعملون في الجيش الوطني الأسباني وضمتهم للمعركة.
- انضم أيضاً ما يقرب من 15000 جندي وطيار ألماني للجنرال فرانكو.
- قتل خلال حرب أسبانيا 271 ألمانياً و 7000 مغربي.
- أصدر مطارنة أسبانيا الكاثوليك في الأول من تموز 1937 رسالة مفتوحة، وقع عليها 35 مطراناً من مناطق الجنرال فرانكو و 1200 مطران أخر في العالم الكاثوليكي، بإيعاز من الفاتيكان يعلنون فيها عن بدء حملة صليبية ضد الجمهوريين.
- رد الجمهوريين بذبح رجال الدين الكاثوليك فقتل في الحرب 6845 رجل دين كاثوليك ، بينهم 13 مطراناً و 4184 كاهناً و 2365 راهبا" و 283 راهبة.
- الضحايا 154 ألف من الجانب الوطني ، و 152 ألف من الطرف الجمهوري.

الضحايا حسب موسوعة الحروب 360 ألف إلى مليون قتيل.

الصراعات الدينية والحروب الدموية في أوربا

حرب الثلاثين عامًا(1618 – 1648م):

آخر الحروب الدينية النصرانية المريرة في أوروبا. وقد كان هذا الصراع في الواقع سلسلة من الحروب، بدأت كحرب أهلية بين البروتستانت والرومان الكاثوليك في الولايات الألمانية. ولكن قبل انتهاء الصراع، كانت معظم الدول الأوروبية قد تورطت فيه، وأصبحت الحرب نزاعًا عامًا من أجل الأرض والسلطة السياسية.

- **أسباب الحرب:**

كان السبب الأساسي للحرب العداء المتأصل بين الألمان البروتستانت والألمان الكاثوليك، فالمجموعتان اختلفتا في تفسيرهما لسلام أوجسبرج (1555م) الذي كان الغرض منه تسوية المسألة الدينية في ألمانيا. وقد خرقت المجموعتان الصلح.

بالإضافة إلى ذلك، فقد اعترف سلام أوجسبرج بالكاثوليكيين واللوثريين فقط وكان هناك الكثير من الكالفنيين في جنوب ألمانيا الذين طالبوا أيضًا بالاعتراف بهم.

- **الفترة البوهيمية** (1618 - 1620م):

أقام البروتستانت، في عام 1608م، الاتحاد الإنجيلي وفي عام 1609م، أسس الكاثوليك العصبة المقدسة.

وقد انطلقت الشرارة التي اشعلت الحرب عندما أمر رئيس أساقفة براغ بتحطيم كنيسة بروتستانتية. ولجأ الناس وهم غاضبون إلى الإمبراطور ماتياس

الذي تجاهل احتجاجهم. فانتفض البروتستانت ثائرين. وتعرف تلك الحادثة التي حددت البداية الفعلية لحرب الثلاثين عامًا، في التاريخ القذف من النافذة في براغ.

وكانت هي عادة قديمة لدى الناس في بوهيميا لمعاقبة الموظفين المذنبين بقذفهم من النافذة. وقد عاقب البروتستانت الثائرون اثنين من وزراء حاكمهم بهذه الطريقة. وقد بدأت الحرب الأهلية في بوهيميا وانتشرت في جميع أنحاء غربي أوروبا.

خلع البروتستانت في بوهيميا الملك الكاثوليكي، فيرديناند من العرش، واختاروا فريدريك البروتستانتي، حاكم ولاية البلاتين بدلاً عنه. لجعل الأمور أكثر سوءًا بالنسبة للبوهيميين، اختير فرديناند إمبراطورًا رومانيًا مقدسًا. وقد كان لفرديناند، الذي اتخذ لقب فرديناند الثاني، نفوذ كبير في هذا الموقع. وفي عام 1620م هزم لواؤه، يوهان تسيركلايس، كونت تيلي، البوهيميين هزيمة نكراء في معركة الجبل الأبيض.

وقد كلفت هذه الهزيمة البوهيميين استقلالهم. فأخمدت ثورة البروتستانت وأصبحت الكاثوليكية الديانة الرسمية للدولة مرة أخرى.

- **الفترة الدنماركية (1625 - 1629م):**

بعد هزيمة بوهيميا بدأت الأقطار البروتستانتية تدرك خطر الكاثوليك. اعترض ملك الدنمارك البروتستانتي، كريستيان الرابع قوات فريدريك في سكسونيا، وذلك بمساعدة عدة دول أخرى. ولكن الإمبراطور كان قد تلقى مساعدة غير متوقعة من اللواء ألبرخت، فنزل أويزيبيوس فالنشتين الشهير الذي كان يملك جيشًا عظيمًا من الجنود والمغامرين المرتزقة. وهزم جيش فالنشتين،

تساعده قوات الحلف المقدس بقيادة الجنرال تيلي، الملك الدنماركي عدة مرات. وفي النهاية وقَّع كريستيان الرابع معاهدة لوبيك (1629م) وانسحب من سكسونيا. وفي تلك الأثناء كان الإمبراطور قد أصدر مرسومًا بإعادة الأملاك وقد نصت هذه الوثيقة على أن تعاد كل ممتلكات الكنيسة التي استولى عليها البروتستانت إلى الكاثوليك. وبذلك أضاف المرسوم مصدرًا جديدًا للخلاف في ألمانيا.

- **الفترة السويدية** (1630 - 1635م):

بعد ذلك دخل الملك السويدي جستافس أدولفس الذي كان يعرف بأسد الشمال الحرب. وقد كان لديه سببان لدخول الصراع. فقد كان مخلصًا للغاية للقضية البروتستانتية، وكانت لديه طموحات لأجل السويد، وهي طموحات ستكون في خطر إذ أصبح فرديناد أقوى مما ينبغي. وهكذا لأول مرة تُقْحم مسألة سياسية في الحرب.

وفي عام 1630م، أبحر جستافس أدولفس من السويد بـ 13000 رجل ليحرر مدينة ماغديبورغ التي كان يحاصرها تيلي. وقد كان جيش ملك السويد من أفضل الجيوش تدريبًا وانضباطًا في أوروبا ولكنه وصل متأخرًا جدًا، ولم يتمكن من احتلال ماغديبورغ ونهبها وتدميرها. وفي عام 1631م، هزم الجيش السويدي تيلي في معركة بريتنفلد وفي عام 1632م انتصرت القوات السويدية في معركة مهمة أخرى وقُتل تيلي أثناء القتال. في ظل هذه الظروف، استدعى الإمبراطور فرديناند، فالنشتين الذي كان قد أبعده قبل ذلك. ثم حشد جيشًا آخر من المجندين الجدد من عدة جهات من أوروبا ووضعوا تحت قيادة

فالنشتين وعقد فرديناند تحالفًا أيضًا مع فيليب الرابع ملك أسبانيا. التقى جيش فالنشتين بالقوات السويدية في معركة لوتزن الشهيرة (1632م).

انتصر السويديون، ولكن جستافس أدولفس قُتل في المعركة. استمر السويديون في القتال حتى عام 1634م، حيث دُمِّر جيشهم في معركة نوردلينغن. شك الإمبراطور في أن فالنشتين كان يتفاوض مع البروتستانت وأمر باعتقاله. حاول فالنشتين أن يهرب، إلا أنه اغتيل.

- **الفترة السويدية الفرنسية (1635 - 1648م):**

في هذه المرحلة، كانت الحرب قد فقدت سمتها الدينية تمامًا وأصبحت سياسية محضة وقرر الكاردينال ريشيليو الذي كان الحاكم الفعلي لفرنسا أن يعوق تزايد نفوذ الهابسبيرج بالتدخل إلى جانب البروتستانت. فأصبحت الحرب صراعًا بين البوربون الفرنسيين والهابسبيرج النمساويين وفي عام 1635، أرسل ريشيليو جيشًا فرنسيًا إلى ألمانيا، فانضم إليه جيش سويدي جديد. وقد كان للبروتستانت وحلفائهم الفرنسيين قادة ممتازون، منهم الفيكونت دوتورين الفرنسي، ولويس الثاني، أمير كوندا. وقد حقق الجيشان الفرنسي والسويدي سلسلة طويلة من الانتصارات، أعطت البروتستانت الذين يعيشون في ألمانيا أملاً جديدًا.

- **صلح وستفاليا (1648م):**

عانى الشعب الألماني لعدة سنوات من البؤس والحرمان بسبب حرب الثلاثين عامًا. وفي عام 1644م، أرسلت الدول الأوروبية ممثلين لعقد مؤتمر صلح. التقى الوفدان الكاثوليكي والبروتستانتي منفردين في مدينتين مختلفتين في وستفاليا، وهو أقليم من أقاليم بروسيا. استمرت المفاوضات أربع سنوات

إلى أن وُقِّع صلح وستفاليا في عام 1648م. وحصلت فرنسا بموجب هذه المعاهدة على الألزاس واللورين وسيطرت السويد على مصبات أنهار أودر، وإلبة وفيسر ووضعت الكالفينية في منزلة متساوية مع الكاثوليكية واللوثرية.

- **نتائج الحرب:**

كانت ألمانيا في حالة يُرثى لها عندما انتهت الحرب أخيرًا. فقد قتل الكثير من الألمان. ولم ير أولئك الذين بقوا على قيد الحياة سوى الخراب في كل مكان؛ فقد اختفت مدن، وقرى ومزارع كاملة ودُمِّرت معظم الممتلكات. وتدهورت الفنون والعلوم والتجارة والصناعة، مما تطلب من ألمانيا نحو مائتي عام لتستعيد نشاطها من آثار حرب الثلاثين عامًا. فغادر آلاف الناس أوروبا، بخاصة ألمانيا، وذهبوا إلى أمريكا ليبنوا حياة جديدة.

هي سلسلة صراعات دامية مزقت أوروبا بين عامي 1618 و 1648 م ، وقعت بين البروتستان والكاثوليك والدول المتحالفة معهم، وكلفت الاوربيين الملايين من الضحايا، وخصوصاً في المانيا التي خسرت حوالي نصف سكانها، وكانت المجازر تشمل عمليات القتل والحرق والتهجير بين القرى المتجاورة، بل داخل البلدة الواحدة. وقد اشتركت في هذه الحرب الوحشية تباعاً معظم القوى الأوروبية الموجودة في ذاك العصر فيما عدا إنكلترا وروسيا .

تنقسم حرب الثلاثين عام إلى أربع مراحل رئيسية : الثورة البوهيمية. التدخل الدنماركي. التدخل السويدي. التدخل الفرنسي . بدأت اولا كمواجهة دينية اندلعت عام 1606 في مدينة دوناوفورت الحرة إحدى مدن ألمانيا التابعة للإمبراطور الروماني الكاثوليكي، حيث حاولت الأغلبية البروتستانتية منع الكاثوليك من أداء موكب ديني مسببين اضطرابات عنيفة، مما دعى تدخل

ماكسيمليان الأول حاكم (بافاريا ـ جنوب المانيا) مساندا الكاثوليك لاعادة الوضع إلى حاله. هذه السلسة من الأحداث أوجدت لدى البروتستان (الذين ظلوا أقلية في المنطقة) شعورا بوجود مؤامرة كاثوليكية لاجتثاثهم، وإزاء هذا التهديد قاموا في عام 1608 بتأسيس الإتحاد الإنجيلي بقيادة(فريدريك الرابع) ملك اسبانيا الذي كان يحكم أجزاء من المانيا ووسط اوربا. فرد الألمان الكاثوليك عام 1609 بانشاء الرابطة الكاثوليكية تحت قيادة الامير ماكسيمليان الأول. عند هذه النقطة أصبح الوضع السياسي في ألمانيا على استعداد للدخول في مواجهة الطائفية.

عام 1617 حاول (فيرديناند) حاكم بوهيميا(جيكيا الحالية) الذي كان كان كاثوليكياً متعصباً أن يفرض العقيدة الكاثوليكية على السكان الذين كانوا بغالبية بروتستانتية. تسبب منعهم لبناء عدد من الكنائس البروتستانتية في ثورة عنيفة عام 1618 بلغت ذروتها عندما تم إلقاء اثنين من ممثلي الإمبراطور من نوافذ القصر الملكي في براغ، وأشعل هذا الحدث شرارة حرب الأعوام الثلاثين.

في الجزء الثاني من فترة الحرب امتدت المعارك إلى فرنسا والأراضي المنخفضة وشمال إيطاليا وكاتالونيا . خلال سنواتها الثلاثين تغيرت تدريجيا طبيعة ودوافع الحرب : فقد اندلعت الحرب في البداية كصراع ديني بين الكاثوليك والبروتستانت وانتهت كصراع سياسي من أجل السيطرة على الدول الأخرى بين فرنسا والنمسا، بل ويعد السبب الرئيسي في نظر البعض، ففرنسا الكاثوليكية تحت حكم الكردينال ريشيليو في ذلك الوقت ساندت الجانب البروتستانتي في الحرب لإضعاف منافسيهم آل هابسبورغ لتعزيز موقف فرنسا كقوة أوروبية بارزة، فزاد هذا من حدة التناحر بينهما، مما أدى لاحقا إلى حرب مباشرة بين فرنسا وإسبانيا.

كان الأثر الرئيسي لحرب الثلاثين عاما والتـي اسـتخدمت فيهـا جيـوش مرتزقة على نطاق واسع ، تدمير مناطق بأكملها تركت جرداء من نهب الجيوش . وانتشرت خلالها المجاعات والأمراض وهـلاك العديـد مـن سـكان الولايـات الألمانية وبشكل أقل حدة الأراضي المنخفضة وإيطاليا، بينما أُفقرت العديـد مـن القوى المتورطة في الصراع . استمرت الحرب ثلاثين عاما ولكن الصراعات التي فجرتها ظلت قائمة بدون حـل لـزمن أطـول بكثـير. انتهـت الحـرب بمعاهـدة مونستر وهي جزء من صلح فستفاليا الأوسع عـام 1648 م . وخـلال الحـرب انخفض عدد سكان ألمانيا بمقـدار 30 ٪ في المتوسـط؛ و في أراضي برانـدنبورغ بلغت الخسائر النصف، في حين أنه في بعض المناطق مات مايقدر بثلثي السـكان وانخفض عدد سكان ألمانيا من الذكور بمقدار النصف تقريباً. كما انخفض عدد سـكان الأراضي التشـيكية بمقـدار الثلـث. وقـد دمـر الجـيش السـويدي (البروتستاني) لوحده اثناء تغلغله في المناطق الالمانية الكاثوليكية 2000 قلعة مع سكانها ، 18000 قريـة و 1500 مدينـة في ألمانيـا، أي ثلـث عـدد جميـع المـدن الالمانية .هبطت حرب الثلاثون عام بسكان ألمانيا من عشـرين مليونـاً إلى ثلاثـة عشر ونصف مليوناً، وبعد عام أفاقت التربة التي روتهـا دمـاء البشــر، ولكنهـا ظلت تنتظر مجيء الرجال. وكان هناك وفرة في النساء وندرة في الرجال. وعـالج الأمراء الظافرون هذه الأزمة البيولوجية بالعودة إلى تعدد الزوجات كـما ورد في العهد القديم. ففي مؤتمر فرانكونيـا المنعقـد في فبرايـر 1650 بمدينـة نـورنبيرغ اتخـذوا القـرار الآتي:- "لا يقبـل في الأديـار الرجـال دون السـتين... وعـلى القساوسة ومساعديهم (إذا لم يكونوا قد رسموا)، وكهنة المؤسسات الدينيـة، أن يتزوجوا... ويسمح لكل ذكر بأن يتـزوج زوجتـين، ويـذكر كـل رجـل تـذكيراً جدياً، وينبه مـراراً مـن منـبر الكنيسـة، إلى التصرـف عـلى هـذا النحـو في هـذه المسألة".

الفصل السادس

شعب الفايكنج

الفايكينج هم شعب شرس غير متحضر وبسبب المناخ البارد في بلادهم وجدب الأرض كانت الزراعة وتربية المواشي عملية صعبة وعسيرة، ولذا فقد اتجهوا إلى البحر طلباً للرزق وأسباب العيش. ولم يطل الوقت بالفايكينج حتى أصبحوا ملاحين ذوي براعة فائقة فهجروا أرضهم بكاملها وانتشروا في مختلف الانحاء حتى شواطئ أوروبا الشرقية.

في تلك الآونة من القرن الثامن الميلادي، أصبح الفايكينج مبعث الرعب على امتداد تلك الشواطئ إذ كانوا ينهبون ويسلبون المدن التي يهبطون فيها على البر ويشرعون في القتل وجمع الغنائم ثم يعاودون الكرة في بلد آخر.

من صفاتهم بأنهم كانوا طوال القامة ذوي شعور شقراء وكانوا يتميزون بشواربهم الطويلة.

الأسلاف والسكان:

كلمة فايكينج تأتي من الكلمة النرويجية القديمة "فايكينجر" والتي تعني "شخص قادم من المضايق"، ومن كلمة "فيك" وتعني خليج أو مضيق .

والفايكينج مصطلح يُطلق في الغالب على ملاحي السفن والتجار والمحاربين الذين نشئوا في المناطق الإسكندنافية والذين هاجموا السواحل البريطانية والفرنسية وأجزاء أخرى من أوروبا وتسمى الفترة بين793 م-1066م بحقبة الفايكينج، كما يستخدم هذا المصطلح بصورة أقل للإشارة

إلى سكان المناطق الإسكندنافية عموماً. وتشمل الدول الإسكندنافية كلا من السويد و الدنمارك و النرويج و إيسلندا. يُعرف الفايكينج أيضاً بتسميات أخرى مثل "النورديين" أو "النورمانديين" (أي الشماليين)، وإلى هذا يُنسب تسمية منطقة النورماندي الفرنسية التي أعطاها الملك شارل الثالث عام ٩١١م لأحد زعماء الفايكينج المسمى رولو.

ومن هذه المنطقة انطلق الغزو النورماندي للجزر البريطانية عام1066 م بقيادة الدوق النورماندي وِلْيَم (الملك وليم الأول لاحقاً) كان أسلاف الفايكينج من الشعوب الجرمانية التي سكنت ذات مرة في شمال غرب أوروبا و هي تحركت ابتداءً من العام 200ق. م في اتجاه ما يعرف اليوم بالدنمارك و النروج و السويد .

حيث طورت كل مجموعة حياتها الخاصة بينما تقاسمت المجموعات الثلاث الثقافة العامة عينها . تكلم الفايكينج لغة جرمانية تتكون من لهجتين رئيسيتين كان الجميع يفهمونها و استعملوا أبجدية قوامها حروف تسمى"رونيّة" يتألف الواحد منها غالباً من خطوط مستقيمة مرتبة بمفردها أو مركبة من اثنين أو أكثر وهم عاشوا في تجمعات أو قرى صغيرة يحكم كلاً منها ملك أو رئيس .

وكان الشعب ينقسم إلى ثلاث طبقات اجتماعية: النبلاء، الأحرار، العبيد: وضم النبلاء: الملوك والرؤساء وسواهم من كبار الأثرياء أو المنحدرين من أسلاف ذوي نسب رفيع . وضم الأحرار: المزارعين و التجار وغيرهم ممن أدوا خدمة للحاكم أو عملوا لحسابهم أما العبيد فكان الكثير منهم اسكندنافيين استعبد أسلافهم أو أوروبيين سقطوا في الأسر. و تألف لكل تجمع

مجلس حاكم مـن نـبلاء و أحـرار يسـن القـوانين و يقـرر مـا إذا كـان التجمـع سيمضـي إلى الحرب أو يلتئم لمحاكمة المجـرمين . و كانـت قراراتـه تعتـبر أهـم من أحكام الملك و الرئيس.

تحدث الفـايكينج باللغـة النورديـة، وهـي لغـة جرمانيـة قديمـة خاصـة بالبلـدان الإسـكندنافية. وفي الواقـع لم تنـدثر اللغـة النورديةالقديمـة تمامـاً، إذ تفرعت منها اللغة الايسـلندية، وهـي الآن اللغـة الرسـمية في ايسـلندا التـي غزاها الفايكينج بين875-850 م، وأسسـوا فيهـا عـام930 م مجلسـاً عمومياً يُسمى "أولْثِنج" الذي يُعد أول هيئة برلمانية في العالم. لم يكن الفايكينج يعرفـون الكتابة بمعناها المـألوف، لكـنهم دونـوا مـا يريـدون عـلى منقوشـات حجريـة تدعى الرونـات(جمـع رونـة) التـي هـي أسـاس الأبجديـة الجرمانيـة القديمـة جذبت الرونات اهتمام الباحثين في الماضي لحل ألغازها، مما أسفر عـن إضـاءات جديدة فيما يتعلق بالأبجدية الرونية واستخداماتها .

وكانت السنوات الخمسون الأخيرة من التنقيبات الأثرية - ولاسيما ما تم اكتشافه في بيرغن عام1956 م - مثمرة جداً، حيث بينت لعلماء الرونات مـدى أهمية النقوش الرونية في الحياة اليومية للناس وما يتخللها من معاملات.

منازل الفايكينج تتكون بمعظمها من طابق واحد بسطح منحن يسـتخدم في بناءه الخشب أو القش في حين أن الجدران تكون إما مـن الخشـب أو الحجـر، يتألف المنزل من غرفة واحدة الى ثلاث بالإضافة الى موقد يوفر النـور والـدفء ويكون مكاناً للطبخ ومما يُلاحظ على بيوتهم هو خلوها تماماً من النوافذ يستخدم الزوج أو رب الأسرة كرسياً يطلق عليه المقعـد العـالي بيـنما يجلـس سـائر أفـراد العائلـة عـلى مصـطبات أرضـية تسـتعمل للنـوم والراحـة، يُمضـى أفـراد

الأسرة أوقــات فــراغهم بصــورة خاصــة في التجــديف والتــزلج والســباحة والمصارعة ومشاهدة سباق الخيل كـما عـرف عـنهم لعـبهم الشـطرنج وغيرهـا من العاب النرد .

الحياة العائلية:

تولى الوالدان ترتيب معظم زيجات الفايكينج و اعتبر الـزوج رب الأسرة في حين تمتعت النساء بحقوق تفوق مثيلاتها لدى نساء مجتمعات أوروبية أخـرى معاصرة لها فعلى سبيل المثال كان في مقدور امرأة مـن الفـايكينج امـتلاك قطعـة أرض أو غيرها كما كان من حق الزوجة أن تقاسم زوجها ثروته كذلك أتاحـت قوانينهم للمرأة المتزوجة الحصول على الطـلاق متـى شـاءت أمـا الرجـال فقـد امتلكوا حق أن تكون لهم زوجتان أو أكثـر في آن واحـد و هـو تقليـد سـاد بـين الأثرياء فقد كان لكثـير مـن النـبلاء ثـلاث زوجـات أو أكثـر و عـائلات عـدة ســاعدت في الانتعــاش الســكاني الــذي بــات واحــداً مــن أهــم أســباب حركة الفايكينجروابط متينة بين بعضهم بعضا بينما استحالت الصــراعات بـين أفراد من الأسر المختلفة منازعات بين العائلات. اشتهرالفايكينج بعـادات دفـن تميزت بمراسم ضـخمة فكـان الكثـير مـن الرجـال والنسـاء الأغنيـاء يـدفنون في سـفن إعتقـاداً مـنهم بـأن مقـابر كهـذه تـوفر رحلـة آمنـة ومريحـة إلى بـلاد الموت. وكانت ممتلكات الأشخاص المتوفين بما فيها أسرّة ومجـوهرات وأسـلحة تودع في السفينة وفي بعـض الحـالات كانـت الكـلاب العائـدة للميـت وحتـى العبيد يدفنون أحياء في السفينة القبر.

تناول الفايكينج وجبتـين يوميـاً، واحـدة في الصـباح وأخـرى في المسـاء واستخدموا الملاعق والسكاكين و لكنهم لم يعرفواالشوك.

وكـان معظـم طعـامهم مـن لحـوم البقـر والمـاعز والبـيض واللـبن يـأتي من مزارعهم وهم تعاطوا الصيد البري والبحريلتلبية حاجـاتهم الغذائيـة فكـان الصيادون يزودون بلحوم الأيل والعلند (ظبي ضخم) والدب القطبي و عجل البحر والحـوت. أمـا صـيد الأسـماك فقـد شـمل المـورة والرنكـة و السـلمون والتروتة.

اقتصـــر لبـاس معظـم رجـال الفـايكينج عـلى بنطـال يصـل إلى الركبـة أو الكاحـل وقمـيص ذات كمـين طـويلين وتتجـاوز الخصـــر وتميـزت ثيـاب نسائهم بفساتين فضفاضة مصنوعة من الكتان أو الصوف بلغت عادة الكاحلين وانتعل الجميع أحذية جلدية.

الاعتقادات الفكرية و الدينية

عرف عن شعب الفـايكينج أنهـم مـن الـوثنيين، فلـم يعتنقـوا المسـيحية إلا في وقت متأخر نسبياً قياساً إلى بقية البلدان الأوربية.

تعتقد قبائل الفايكنج والساكسون *saxons* أن الشمس هي الفتاة والقمر هو الفتى وهما يقودان عرباتهم التي تجرهـا الخيـول بخفـة ورشـاقة عـبر السـماء في كـــل يـــوم . وتلاحـــق الـــذئاب الشـــمس والقمـــر حتـــى رانـــاروك *Ragnarok* وهـي نهايـة الأكـون، عنـدما سـتقبض الـذئاب عـلى الشـمس والقمر وينتهي العالم .

- وظن الفايكينج والساكسون أن الذئب يقضم القمر في كـل شـهر ثـم يفـر، ولذلك يخافون كسوف الشمس لأنه قد يكون نهاية العالم.
- يعتقـد الفـايكينج بـأن سـبب ملوحـة البحـر هـو أن الملـح يخـرج مـن طاحونة ملح سحرية عملاقة تدور في أعماق البحر.

- في الميثولوجيا الإسكندنافية كان "اليمير" أول كائن حي ولد من جليد ذائب ورضع حليب البقرة "أودومولا" وبعد موته أصبح جسده الأرض ودمه البحار وجمجمته السماء وعظامه الجبال وشعره الأشجار.
- بحسب موسوعة الكتاب العالمي فإن بعض صفات سانتا كلوز وخصوصا الإعتقاد بأنه يدخل من مدخنة مأخوذة من الأساطير النرويجية القديمة حيث تقول الأساطير أن أحد الألهة الوثنية القديمة للبلاد الاسكندنافية في شمال أوربا – وهو اماالإله ثور أو الإله أودن – يعيش في القطب الشمالي ، يلبس الفرو ويجلس على مزلاج تجره الغزلان..
- من شمال أوربا نفسها أخذ الأوربيين بعض أسماء أيام الاسبوع التي تمثل اسماء ألهتهم القديمة (تير، أودن ، ثور ، فرايا)
  - ✓ تيوزداي (*Tuesday*) أي يوم تير.
  - ✓ وينسداي (*wednesday*) أي يوم أودين.
  - ✓ ثرسداي (*Thursday*) أي يوم ثور.
  - ✓ فرايدي (*Friday*) أي يوم فرايا.
- بحسب الميثولوجيا الرومانية فإن كل يوم مخصص لإله وبالتالي مخصص لأحد الكواكب والنيرين: (الأحد للشمس) سول، (الاثنين للقمر) لونا، (الثلاثاء للمريخ) مارس، (الاربعاء لعطارد) مركوريوس، (الخميس للمشتري) جوبيتريوس (الجمعة للزهرة) فينوس، (السبت لزحل) ساتورنوس.
- شجرة العيد تعود أيضاً إلى البلاد الاسكندنافية ، حيث تغيب الشمس لشهور عديدة في الشتاء ، فيرسلون رجالا ليستكشفوا وصول نور الشمس الى ارضهم وبعد 53 يوماً يصعدون إلى القمم العالية ويبحثوا عن أول نور

شمس يروه ليعـودوا ويزفـوا الخـبر، وعنـدما تصـل أخبـار وصـول أشـعة الشمس يقيمون احتفالاً كبيرًا بعودة الإله "يول"، يشـعلون النـيران خلالـه ويزيّنون الأشجار بالتفاح كرمز فرحة بعودة فصلّ الصيف والربيع.

يغدراسل (شجرة الكون) :

يغدراسل هـي شـجرة دردار في وسـط الأكـوان، وهـي شـجرة الكـون للحياة والمعرفـة والمكـان والزمـان، يجلـس عقـاب عـلى أعـلى الأغصـان فيهـا وتجلس أفعى ملتوية عند جذورها في الأسفل تقرض من الشجرة، كان العقـاب والأفعى يكرهان (يمقتان) بعضهما، وكان سنجاب يتنقل بيـنهما ويـروي لكـل منهما ما يقوله الآخر عنه من كلام بذيء.

تحت جذور هـذه الشـجرة يوجـد ينبـوع ميمـير ، كنـت إذا شربـت منـه أصبحت حكيماً وفهيماً ، فكّر أودين بأهمية الحكمة وتنـازل عـن إحـدى مقلتـاه ليشرب من الينبوع ومـن حينهـا ولـه عـين واحـدة ولكنـه كـان أذكـى الآلهـة ، اخترع الأحرف الرونيّة) أي أحـرف لغـة أهـل الشـمال) ، تـدعى المنحوتـات القديمة على الحجارة باسم نماذج يغدراسل *Yggrasil* .

سغارد Asgard :

بنى أودين موطن الآلهة وهي اسغارد بعد ما قام بخلق الكون ، كان هناك قصور كثيرة في اسغارد لجميع الآلهة ، وكان لقصر أودين سقفاً فضياً يمكنه مـن رؤية الأكوان كلها ، وكان هناك جسراً ممدوداً من أسغارد إلى يغدراسل.

(شجرة الكون) (اسمه بايفروست) (جسر الوهم) .

وكان هناك قاعة في أسغارد تسمى فالهالا ، وكانت للمقاتلين الـذين لقـوا حتفهم في المعارك ، كان الفالكيريز) النساء المـدرعات اللـوات يقـدنَ جيـادهن في الأرض والبحر بسرعة ورشاقة) ويخترن ويقررن أيضاً مـن الـذي سيكسـب المعركة.

هنــاك مقطوعــة موســيقية (*Cicle of the Valkyries –Wagner*) ألّفها فاجنر *Wagner* عنوانها فارسات فالكيريز. *The ride of the Valkyries* كان أهم القصص الميثولوجية لدى الفايكينج هي المتعلقة بوحش بحر الشـمال "الكراكن "الذي كانوا يعتقدون في كون أودينأرسلته كى ينذر البشر من المعـاصى فقد صورته لوحاتهم يهاجم الفايكينج ليلا في بحر الشمال لذا فقد نحتـوا وجهـه على مقدمة سفنهم معتقدين بأنهم هكـذا يتقـون شروره كـما صـورت لوحـاتهم ضرورة التضحية بفتاة عند صـخور بحـيرة نـس باسـكتلندا مـن أجـل إرضـاء الوحش.

الكراكن Kraken:

الوصف لهذا الكائن غـير دقيـق ونـاقص ربـما لأن هـذا الكـائن أضـخم من اللازم لكي تكون عنه فكرة أو دراسة لائقة (إلا اذا أخذنا الرؤية مـن الجـو بعين الاعتبار)، أو ربما لأن البحارة البؤساء الذين تقاطعوا مع هذا الكـائن قـد مروا بتجربة غايـة بالسـوء! إلا ان بعـض الكتـب و الأقاويـل تصـفه بأشـكال مختلفة.. اما كحوت عملاق أو كائناً يشبه السلحفاة ا الا ان الغالبية أجمعـت عـلى

أنه كائن ذو مجسات هائلة، جسده يصل لطول ميل 1,6) كم (دائري الشكل .. أي بصورة أقرب لخيالنا العصري فهو يبدو كأخطبوط أو حبار مهول الحجم!

كانت بعض الفايكينج من المزارعين الـذين اسـتنبتوا الشـعير و الشـوفان والخودر) الحنطة السوداء (وأنواعـاً مـن الفواكـه و الخضـار واقتنـوا المـواشي من ماعز و خنازير و أغنام و عمل آخـرون في صـيد الأسـماك وتصـنيع المعـادن و بناء السفن والحفر في الخشب أما في التجمعات الكـبرى فقـد امـتهن كثـيرون التجارة التي أدت ببعضهم إلى السفر بعيداً فبلغوا في سـفنهم الشـــراعية معظـم أجزاء العالم المعروف حاملين معهم منتجـات زراعيـة وفـراء وجلـود وسـواها من السلع المتنوعة بينماانحصر عمل العبيد في صناعة الـذهب والحريـر والفضـة والسلاح.

عرف الخبراء وعلماء الآثار الكثير عن سفن الفايكينج الفخمـة لأن كثـيراً من زعماء شعوب الفايكينج أعدوا مراكبهم لـدفنهم فيهـا لاحقـاً. وعثـر علـماء الآثار على عدداً من هذه المقابر المتحركة. في عام1880 م أُمِيط اللثام عن سـفينة حربية بحالة جيدة تخص هذا الشعب، عُثر عليها بالقرب من جوكستاد جنـوب شرقـــي النـــرويج . يبلـــغ طـــول هـــذه الســـفينة التـــي بناهاالفـــايكينج في القرن العاشر الميلادي نحو24 م أما عرضـها فيبلـغ نحـو خمسـة أمتـار وككـل سفن الفايكينج هيكل هذه السفينةمتراكب الألـواح - أي أن الألـواح الخشـبية التي يتألف منها يركب بعضها فوق الآخر - وهـي تحمـل 16 مجـدافًا عـلى كـل جانب ، ولها شراع مربع الشكل مثبت على صارية يبلغ ارتفاعها12 م تقريباً، كما أن لها مجداف تشغيل بالقرب من المؤخرة.

سفينة جوكستاد تُعتبر صغيرة نسبياً، فأغلب سفن الفايكينج تحتوي على 20 مجدافاً على كل جانب ولبعضها الآخر 30 مجدافاً.

الرمح والدرع من الأسلحة الأساسية بالنسبة لمحاربي الفايكينج .ومعظم المحاربين يحمل سكيناً ذات أوصاف محددة - خاصة سكين من نوع سياكس وهي أحد أنواع السكاكين الألمانية ذات النصل الواحد — كبديل في بعض الأحيان أو كإضافة إلى الرمح. كذلك قد يحمل المحارب فأس أو قوس.

بَدأ الفايكينج بمُهَاجَمَة جيرانِهم الجنوبيين بجدية حوالي عام.800 هذه الهجمات والغزوات اتّخذَت أشكالاً عديدة وامتدَّت للعديد مِنْ الاتّجاهاتِ، فقد شملت الجُزُرِ البريطانيةِ والأجزاءِ الفرنسيةِ للإمبراطوريةِ الكارولنجية، وفي الإندلس (اسبانيا حالياً).

كان هناك تطور مثير جداً، تَغيّرتْ الهجماتُ بشكل تدريجي مِنْ هجمات الضرب والهروبِ إلى الغزواتِ الأكبرِ والأكثر طموحاً والتي أسست فيها فِرقَ البحّارةِ المهاجمين القواعدَ التي قضوا فيها فصل الشتاءَ، وفي النهاية، في أواسط القرن التاسعِ، نَمت الجيوش في الحجمِ وأصبحَ العديد مِنْ الرجالِ مستعمرين في الأراضي التي ظَهروا فيها أولاً كلصوص ومهاجمين ثم بَدأوا بالتَحول إلى المسيحيةِ وجَلبوا عائلاتهم من الوطن الأم أو تَزاوجوا مَع السكان المحليّين.

في مناطق مثل شمال إنجلترا، ونورماندي على الساحل الشمالي فيما يعرف الآن بفرنسا، أدى الاختلاط بالسكان والثقافاتِالذي نتج مِنْ هذه المستوطناتِ إلى مزيج جديد مِنْ المجموعات العرقيةِ، اللغات، والمؤسسات. وبسبب اهتمامِهم بالتجارةِ، شجّع الفايكينج النمو الحضاري وأسسوا العديد مِنْ المُدنِ والبلدات، مثل يورك في إنجلترا ودبلن في إيرلندا، والتي ظَهرت كمراكز تجارية بارزة.

أهم غزوات الفايكينج:

- في عام 793 م : أول غارات الفايكينج على بريطانيا
- في عام 844 م : غارة الفايكينج علي سيفيل في أسبانيا
- في عام 845 م : الفايكينج يصلون أعالي نهر السين في فرنسا
- في عام 845 م : ملك فرنسا يدفع الجزية ليمنع اقتحام الفايكينج لباريس
- في عام 860 م : الفايكينج يهاجمون القسطنطينية
- في عام 862 م : تأسيس الفايكينج بلدة نوفجورود في روسيا
- في عام 874 م : أقام الفايكينج في آيسلندا
- في عام 900 م : الفايكنج يغيرون على شواطئ البحر المتوسط
- في عام 911 م : أقام الفايكينج تحت حكم رولو في نورماندي
- في عام985 م: اكتشف الفايكنج جزيرة غرينلاند بقيادة أريك الأحمر (وفي عام 1410 م كان هنالك 100 ألف شخص من الفايكنج على شواطئ غرينلاند وكان هذا هوا التاريخ الأخير الذي سجل تواجدهم في تلك المستعمرة ومنذ ذالك الوقت لم يرى أحد منهم في جزيرة غرينلاند ولم يسمع بهم خبر. حيث دخلت النرويج و آيسلاندا مثل كامل أوروبا في متاهة حروب والأمراض الفتاكة و هنا إنقطع كل تواصل مع أهل غرينلاند البعيدين عن أوربا، وكانت آخر إتصال بين الطرفين سنة 1410برحلة سفينة من غرينلاد ألى النرويج)
- في عام 986 م: هبوط الفايكينج علي أرض كندا
- في عام 1000 م: تحويل جرينلاند وآيسلاند إلى المسيحية بواسطة الفايكينج
- في عام 1001 م : وصول (لايف إريكسون) إلى الشاطئ الأمريكي

- في عام 1050 م : تأسيس الفايكينج بلدة أوسلو في النرويج كمركز تجاري كبير

تمثل رسالة ابن فضلان أقدم وصف معروف لشاهد عيان عن حياة الفايكينج ومجتمعهم.

وتعتبر وثيقة بارزة، في وصفهلحوادث وقعت منذ ما يزيد عن ألف سنة بتفصيل مميز. ترجمت إلى عدة لغات، وقد اهتم بها المستشرقون وعلماء التاريخ وعلماء النفس الإنسانية، وكُتب عنها في الكتب وفي المجلات العلمية والأدبية وغيرها ...

فتنفيذا لأوامر الخليفة المقتدر بالله -وبعد وصول كتاب المش بن يلطوار ملك الصقالب- طالباً الدعم والمساعدة بأن يرسل إليه من يفقهه في الدين ويعرفه شرائع الإسلام، ويبني له مسجداً تم تشكيل وفد من عند الخليفة المقتدر بالله متضمنا أحمد بن فضلان، لتكون مهمته ضمن الوفد قراءة الكتاب عليه وتسليم ما أهدي إليه والإشراف على الفقهاء والمعلمين غادر الوفد المذكور، مدينة السلام بغداد يوم الخميس الحادي عشر من صفر سنة تسع وثلاثمائة هجرية الموافق حزيران 921 ميلادية، متوجهاً نحو البلغار عاصمة ملك الصقالبة، أطلق ابن فضلان اسم الروسية على السكان الذين التقى بهم في بلاد روسيا الحالية ولكن الاسم كان قد أطلق على البلاد نسبة إلي قبيلة روس الفايكينجية التي استوطنت تلك البلاد قديماً ، وهي القبيلة الاسكندنافية الأولى التي التقى بها ابن فضلان.

✍ أهم انطباعات ابن فضلان عن شعب الفايكينج:

عن رجالهم وثيابهم قال:

رأيت الروسية وقد وافوا في تجارتهم، ونزلوا علي نهر إتـل، فلـم أرى أتـم أبداناً منهم كأنهم النخل، شقر حمـر، لا يلبسـون القـراقط ولا الخفـاتين، ولكـن يلبس الرجل منهم كساء يشتمل به على أحد شـقيه، ويخـرج إحـدى يديـه منـه، ومع كل واحد منهم فأس وسيف وسكين، لا يفارقه جميع ما ذكرنـاه وسـيوفهم صفائح مشطبة إفرنجية، ومن حد ظفر الواحـد مـنهم إلى عنقـه مخضــر شـجر وصور وغير ذلك .(يقصد أنهم مزينون بالوشم).

عن نسائهم قال:

"إن نساء أهل الشمال شقراوات كرجالهم، ويعادلنهم في طول القامة ولهن عيون زرقاء وشعورهن طويلة جداً وناعمـة تتشـابك بسـهولة ... كـما لا تظهـر النساء أي مراعاة أو سـلوك للاحتشـام، فـلا يتحجـبن مطلقـاً، ويفـرجن عـن أنفسهن في الأماكن العامة كلما ألحت عليهن الحاجة، كذلك يتقدمن بجرأة نحـو أي رجل يستحوذ علي إعجابهن".

قال أيضاً: كل امرأة منهم على صدرها حقة (نوع من الأوعيـة) أو وعـاء معدني أو خشبي مشدود إما من حديد وإما من فضة أو من ذهب على قدر مـال زوجها ومقداره، وفي كل حقة حلقة فيها سكين مشـدود، وفي أعنـاقهن أطـواق من ذهب وفضة، لأن الرجل إذا ملك عشرة آلاف درهم صـاغ لامرأتـه طوقـاً، وإن ملك عشرين ألفاً صاغ لها طوقين، وكذلك كل عشــرة ألاف درهـم يـزداد طوقـاً، فـربما كـان في عنـق الواحـدة مـنهن الأطـواق الكثـيرة وأجمـلّ الحـلي عندهم الخرز الأخضـر مـن الخـزف الـذي يكـون عـلى السـفن يبـالغون فيـه، ويشترون الخرزة بدرهم، وينظمونه عقوداً لنسائهم

✍ **عن اكرام الضيف قال:**

يعير أهل الشمال أهمية كبرى لواجب المضيف، فهم يحيون كل زائر بحرارة ويحسنون وفادته ويقدمون له الكثير من الطعام والثياب، ويتبارى الأعيان والنبلاء من أجل الحصول علي هذا الشرف، وقد مثّل فريقنا أمام "بوليويف"حيث أولمت لنا وليمة عظيمة، وقد أشرف بيوليويف بنفسه عليها. تظاهر فريقنا بالاستمتاع بالطعام، تقديراً لشرف الوليمة، رغم أن الطعام كان رديئاً، وتخلل الحفل كثير من قذف الطعام والشراب، ومن الضحك والمرح.

✍ **عن مراسم الموت ودفن الميت قال:**

عندما يموت رجل جليل منهم، أو أحد رؤسائهم يقومون بوضعه في قبره ويقفلون عليه القبر لمدة عشرة أيام، حتى يفرغوا من تفصيل وحياكة الملابس اللازمة لهذه المراسم، مراسم حرق الميت، ومن ضمن هذه المراسم أن تحرق معه إحدى جواريه "من منكن يموت معه؟" فوافقت واحدة منهن طائعة راضية بمحض إرادتها، فهذا حسب معتقداتهم شرف لها، ومن لحظة موافقتها، تسهر بقية الجواري على خدمتها في كل أمور حياتها ومتطلباتها، لدرجة أنهن يغسلن رجليها بأيديهن وهم يستعدون لتفصيل وحياكة الملابس اللازمة للحرق والجارية في كل يوم تشرب وتغني فرحة مستبشرة ولما كان اليوم الذي سيحرق فيه الميت وجاريته، تقوم الاستعدادات لذلك أمام النهر الذي ترسوا فيه سفينته، التي يجري إعدادها بشكل فائق الجودة والبذخ بما فيه السرير الذي سوف يمدد عليه الرجل -الرئيس- المتوفى، وتشارك في هذه المراسم، امرأة عجوز شمطاء، تسمي عندهم ملك الموت وهي التي تتولي قتل الجارية التي وافقت على الموت مع سيدها وفي اللحظة المحددة يخرجون الميت

من قبره، ويلبسونه سراويل جديدة، وخف له أزرار مـن ذهـب ويجعلـون عـلي رأسه قلنسوة من ديباج ويضعونه في الخيمة التي عـلى السـفينة، ويجلسـونه وقـد أسندوه بالمساند، ووضـعوا أمامـه الفاكهـة والريحـان والنبيـذ والخبـز واللحـم والبصل، ثم يقطعون كلباً إلى نصـفين ويلقونـه في السـفينة، ويضـعون بجانـب المتوفى جميع أسلحته، ثم يجيئونبفرسين، يذبحونهما بعد الغرق ويقطعـون لحمهـم بالسيف ويلقونه بالسفينة، ثم يفعلـون الشيـء ذاتـه ببقـرتين وديـك ودجاجـة. وأثناء ذلك تقوم الجارية التي سوف تحرق معه بالمرور داخل الخيام المنصوبة على شاطئ النهر أمام السفينة. فينكحها كل صاحب خيمة ويقول لها "قـولي لمـولاك إنما فعلت هذا حباً لك"وبعد حركات متعددة تقوم الجارية أمام الحضـور، ومـع العجوز (ملك الموت) تصعد إلى السـفينة، فتشـرب النبيـذ، قـدحاً بعـد قـدح، وملك الموت تقتلها بخنجر عريض النصل، والرجال يضـربون بالخشـب عـلى التراس، لئلاً يسمع صوت صراخها، فتجزع بقية الجواري، فلا يوافقن بعد ذلك على الموت مع أسيادهن، ثم يتم حـرق السـفينة بكـل مـا فيهـا: الرجـل المتـوفى وجاريته المتوفاة، وكل الأشـياء والحاجـات التـي تـم جمعهـا في السـفينة، أثنـاء تلك المراسم العجائبية.

كثيراً ما تم استخدام اسم الفايكينج في كثير من الجوانب وخاصة الافلام والكارتون والالعـاب فأصـبحت حضـارة الفـايكينج وجبـة دسـمة للمـؤلفين في الابـداع في شـتى الوسـائل متخـذين مـن طريقـة عيشـهم ولبسـهم والفـترة إلي عاشوا بها وسيلة لاظهار نتاجهم الفني.

الفصل السابع

أوربا في القرن التاسع عشر

أولاً:الثورة الفرنسية:

تفجرت الثورة الفرنسية سنة 1789، نتيجة مجموعة من العوامل التي تراكمت وأدت إلى انطلاقتها في النهاية، وتعتبر هذه الثورة من أهم الثورات في العصر الحديث؛ حيث جاءت بمفاهيم جديدة للعصر الحديث؛ أثرت في المبادئ والنظم السياسية والاقتصادية وأجرت تحولات سياسية واجتماعية كبرى في التاريخ السياسي والثقافي لفرنسا وأوروبا بوجه عام. ابتدأت الثورة عام 1789 وانتهت تقريباً عام 1799. وقد عملت حكومات الثورة الفرنسية على إلغاء الملكية المطلقة، والامتيازات الإقطاعية للطبقة الارستقراطية، ونفوذ رجال الدين.

1- أسباب الثورة وتطوراتها:

أ- الاسباب غير المباشرة:

- أولاً: العامل السياسي:

ويتمثل بالنظام السياسي السيئ جدا والمتمثل بالحكم الملكي المطلق المستبد، واستغلال إرادة الملك من قبل حاشيته وزوجته وكبار النبلاء ورجال الدين وغير ذلك من أفراد القصر الملكي، بحيث أصبح الناس غير آمنين على حياتهم. فمنذ النصف الثاني من القرن السابع عشر (عصر لويس الرابع عشر)، ساد الحكم الملكي المطلق المستند للحق الإلهي أو ما عرف بنظرية الحكم الالهي للملوك في فرنسا، وكان لويس الرابع عشر يقول الدولة أنا، وامتدت هذه الفكرة إلى خلفائه فكان نظام الحكم في فرنسا قبل الثورة استبداديا مطلقاً وقد

عرف لويس السادس عشر الذي عاصر الثورة (1774-1793) بضعف الشخصية وبسيطرة الحاشية عليه ورغم ذلك كان شديد التمسك بالنفوذ المطلق رافضاً لكل أنواع التطوير السياسي .

ومن مساوئ الحكم المطلق التي عانت منها فرنسا الرسائل المختومة التي كان يصدرها لويس الـ 16 للانتقام من منتقدي حكمه وكذلك إقحام البلاد في حروب لا فائدة منها سوى إشباع رغبة الملك ، وقد بلغ عدد حاشية الملك 18 ألف يتقاضون مرتبات عالية، ويعيشون حياة البذخ في القصور في حين كان غالبية الشعب يعيشون حالة من البؤس والشقاء.

أما النظام الإداري فقد اتسم بالفساد بسبب غياب الوحدة الإدارية وارتفاع الأداءات الجمركية بين المناطق وانتشار الرشوة . كل ذلك حال دون توثيق الروابط الوطنية بين مختلف جهات فرنسا وقد اتبعه من جاء بعده حتى أطاحت الثورة بالنظام الملكي المطلق في عهد لويس السادس عشر.

- **ثانياً: العامل الاجتماعي**

كان المجتمع الفرنسيِ مقسم إلى ثلاث طبقات هي طبقة النبلاء المرتبطة بالقصر والمتمتعة بكافة الامتيازات بما فيها حق الوظائف الحكومية والاعفاء من الضرائب وكانوا يطلقون على انفسهم تسمية (أصحاب الدماء الزرقاء) تمييزاً لهم عن باقي الشعب، وطبقة رجال الدين (الاكليروس) التي تمثل السلطة الدينية المرتبطة بالملك الفرنسي والتي تمتعت بحقوق وامتيازات ورثتها هي وطبقة النبلاء من عصر الاقطاع ويعيشون حياة الترف والمجون، ونتيجة لذلك كرههم الناس حيث كان عدد قليل من الشعب ينتمون إلى الطبقتين الأولى والثانية إلا أنهم كانوا يمتلكون النصيب الأكبر من الثراء والنفوذ والامتيازات.

والطبقة الأخيرة هي طبقة العامة أو عامة الشعب المكونة من الفلاحين والبرجوازية الصغيرة وكانت اوسع طبقة في المجتمع اذ بلغ تعدادها آنذاك 25 مليون نسمة، الثلاث وكانت محرومة من كافة الامتيازات وتعاني من الحرمان ودفع الضرائب وأعمال السخرة وكان أبناؤها يستغلون في الحروب مما كان له اثره في نقمة المجتمع الفرنسي على السلطة السياسية والوضع الاجتماعي .

- **ثالثاً: العامل الاقتصادي:**

وهي من أبرز العوامل الرئيسية التي اججت الثورة ، فقد كانت خزينة الدولة تعاني من عجز كبير في الموارد منذ أيام لويس الرابع عشر بسبب حروبه المتواصلة، وكذلك بسبب تمويل فرنسا لحرب الاستقلال الأمريكية، إضافة إلى إسراف بلاط الملك وامتيازات النبلاء ، وحاول لويس السادس عشر إصلاح وضع الخزينة؛ فعين خبراء ماليين لمعالجة الأزمة ومنهم (تركوا) و(نيكر) و(كالون) إلاّ أنهم فشلوا جميعاً في مهمتهم نتيجة لمعارضة الطبقة الأرستقراطية لمشاريع الاصلاح، اضافة الى الازمة الاقتصادية وارتفاع الاسعار بشكل خيالي والتي أثرت على حياة الشعب الفرنسي الذي لم يكن بإمكانه شراء رغيف الخبز لا سيما خلال المجاعة التي اجتاحت فرنسا عام 1788 .

- **رابعاً: العامل الفكري:**

سبق الثورة نصف قرن حافل بالتطور الفكري والثقافي في فرنسا فيما عرف بعصر التنوير، وقد أثر هذا الفكر على قيام الثورة بكشفه للأوضاع المتردية التي كانت تعيشها فرنسا وكان معظم النقد موجه للكنيسة والحكومة ومساوئهما، ويُعتبر كل من فولتير ومونتسيكيو وروسو من أبرز الرواد لهذه الحركة الفكرية، فقد ايقظت أفكار فولتيير الطبقات المظلومة وتقبل الناس

بسرعة أسلوبه الساخر ونقده اللاذع ولغته الواضحة، أما مونتسيكيو 1689-1755م فقد كتب عن العدالة والدستور وضرورة فصل السلطات الثلاث (التنفيذية والتشريعية والقضائية)متأثراً بالدستور الانكليزي ، وبالنسبة لـ جان جاك روسو 1712-1778م فقد بقيت كتاباته تؤثر في الفرنسيين من جيل إلى جيل حيث عرف روسو الحكومة بأنها عقد اجتماعي يضمن للشعب حمايته ويقوم بموافقة الشعب والحاكم هنا يحكم بصفته وكيلاً عن الأمة، وعليه أن يلتزم بما تريده الأمة، وإذا انحرف عن ذلك عُزل من منصبه، ومن ثمّ فإن روسو ينكر أن يكون هناك حاكم يستمد سلطاته من مصدر غير الأمة.

ب- الأسباب المباشرة للثورة الفرنسية:

- **اجتماع مجلس طبقات الأمة:**

بعد أن ساءت الأحوال الاقتصادية، وزادت الضرائب المفروضة قرر الملك عقد مجلس طبقات الامة والذي كان يجتمع في حالة الازمات الشديدة في (5 ايار 1789م) وهو ما أرادته الطبقة الأرستقراطية لمنع محاولات الاصلاح. فقد كانت التقاليد تقضي بأن يتألف المجلس من ثلاث هيئات منتخبة تمثل إحداها "الإقليدوس" (الملك- الكنيسة)، وتمثل الثانية "النبلاء"، والثالثة تمثل "الشعب". وكان الاقتراع يتم على هيئة ثلاث وحدات منفصلة وليس طبقًا لعدد الأعضاء. وحيث كانت طبقة رجال الكنيسة خاضعة لسيطرة النبلاء الذين يتقلدون المناصب الرفيعة في الكنيسة لقاء الخدمات التي يقدمونها، فقد كانت الطبقتان الأوليان على يقين دائم من الحصول على أغلبية الأصوات، وبالتالي يقوم أبناء الطبقة الثالثة –الشعب- بتحمل عبء الضرائب المفروضة وحدهم. وقد فطن أبناء هذه الطبقة لهذا الأمر، وطالبوا بأن يكون التصويت في المجلس طبقًا لعدد الأعضاء لا طبقًا للطبقة، ثم طالبوا بأن يكون للمجلس السلطة

في تنفيذ المشاريع. ثم اعلن قـادة الطبقـة العامـة العصـيان والاعتصـام في أحـد ملاعب التنس القريبة من قصر فرسـاي لحـين تنفيـذ مطـالبهم وأطلقـوا عـلى انفسهم (الجمعية الوطنية) وقرروا وضع دستور للبلاد لا سيما بعد ان انضم لهم البعض من أبناء طبقتي النبلاء ورجال الدين.

كان لهذه التطورات وخوف لويس السادس عشر واستدعاءه بعض فـرق الجيش لحماية مقره والبذخ والاسراف الذي ظهر في حفل استقبال هذه القـوات رغم المجاعة التي كـان يعـاني منهـا الشـعب اثـره في تـأجيج الشـارع والخـوف من وجود مؤامرة ملكية ضد الجمعية الوطنية، فاندلعت ثورة شـعبية في بـاريس وفي 14 تموز 1789 هاجمت الجماهير الثائرة مخازن السلاح واستولوا على مـا بهـا ثم هاجموا سجن الباستيل الرهيب والذي كان ينظر إليه كرمـز للسـلطة الملكيـة في البلاد. وبعد عدة ساعات من القتال، ومعركة حامية أبيد فيها حراس السجن عن آخرهم، سقط السجن في يد الثـوار الـذين قـاموا بتخريبـه وإطـلاق سراح من كان به من المسجونين، وأمام هـذه الثـورة العارمـة تراجـع الملـك واعـترف بالجمعية الوطنية ووافق على رفع علم الثورة المثلث الالوان، وأصبح هذا اليـوم عيد فرنسا.

- **الجمعية الوطنية 1789-1791:**

وجهت الجمعية الوطنية في الوقت نفسه جهودها لوضع دسـتور فرنسـا ، والبحث عن الوسائل الكفيلة بوقف تيـار الفـوضى وامتصـاص نقمـة الشـارع فكان من أبرز اعمال الجمعية إعلان لائحة حقوق الانسان في 4 آب 1789 التي حاول الملك رفضها الا أنه جوبه بمقاومة عنيفة من الشـعب، وكـذلك عملـت على إلغاء الحقوق الإقطاعية، وتوزيع الضرـائب بالتسـاوي بـين أفـراد الشـعب

ودون تمييز طبقي، وتأميم اموال الكنيسة واراضيها باعتبارها ملكاً للشعب واصدرت دستوراً خاصاً برجال الدين وهو الأمر الذي ازعج لويس 16 باعتباره متديناً فهرب الى شمال البلاد، أملاً في العودة مع الجيش الملكي الموجود هناك وبالتنسيق مع النبلاء المهاجرين خارج فرنسا الا انه اكتشف أمره واعيد مع عائلته الى باريس، وفي مطلع شهر أيلول، انتهت الجمعية الوطنية من مهمة صياغة الدستور التي كرست نفسها من أجلها في أيام الثورة الأولى وهي إعطاء فرنسا دستوراً ديموقراطياً يضمن الحريات العامة ويوزع السلطات توزيعاً عادلاً.

وقد أقرت الجمعية هذا الدستور في 3 أيلول 1791 وأكد الدستور مبدأ فصل السلطات، أي فصل السلطة التنفيذية والتشريعية والقضائية وأبقى على النظام الملكي مع تحديد سلطات لويس 16 ثم أعلنت الجمعية عن حل نفسها وإجراء انتخابات جديدة.

- **الجمعية التشريعية:** 1791-1792:

عقدت الجمعية التشريعية أولى جلساتها. وكانت اولى مهماتها تنفيذ مواد الدستور وحماية نتائج الثورة وقد تكونت الجمعية من عدة قوى سياسية منها قوى اليمين وهم من النبلاء ذوي الاتجاه التحرري الذي يؤمن بالملكية الدستورية وقوى الوسط وهم الاكثرية التي تؤمن بالثورة والدستور وقوى اليسار وهم الجيروندين(نسبة لمقاطعة جيروند) واليعاقبة (نسبة لدير يعقوب) وهم يؤمنون بالنظام الجمهوري والى جانب هذه القوى كانت هناك قوى معادية للثورة خارج الجمعية تتكون من المهاجرين والنبلاء ويقف معهم اباطرة اوربا الذين وجدوا في شعارات الثورة خطرا على عروشهم فكان على الجمعية ترك

كل شئ ومواجهة الخطر الخارجي الذي ظهرت بوادره باعلان (بلنتز) الذي اصدره امبراطور النمسا وملك بروسيا وابديا فيه رغبتهما بإعادة النظام الى فرنسا والقضاء على الثورة.

في نيسان 1789م أعلنت فرنسا الحرب على النمسا ودخلت جيوشها بلجيكا، إلا ان الفرنسين هزموا أمام النمساويين ثم هددت جيوش النمسا وبروسيا العاصمة باريس فانتفض الشعب الفرنسي بكل حماس لحماية ثورته واخذ الشباب يتدفق للتطوع في الجيش حتى تمكن القوات الفرنسية بقيادة ديمورييه من تحقيق الانتصار وصد قوات النمسا وبروسيا في معركة فالمي.

- المؤتمر الوطني 1792-1795:

بعد وصول انباء أنتصارات فرنسية في فالمي أنهت الجمعية التشريعية أعمالها ، وحل محلها المؤتمر الوطني الذي كانت أعماله ألغاء الملكية وإعلان الجمهورية ثم محاكمة لويس السادس عشر وأعدامه في كانون الثاني 1793م ، ثم أعلن المؤتمر عن أستعداد فرنسا لمساعدة كل أمة تطالب بحريتها وتريد التخلص من حكامها ، وهو الامر الذي أثار الدول الاوربية التي رأت في ذلك تهديد لإنظمة الحكم فيها ،لاسيما بعد أعلنت فرنسا تبنيها نظرية الحدود الطبيعية، لذا أعلنت الدول الأوربية عن تشكيل التحالف الاوربي الأول ضد فرنسا، الذي تكون من (**بريطانيا، النمسا، بروسيا، هولندا، اسبانيا والبرتغال، وسردينا**).

وقد تمكن هذا التحالف من ألحاق الجيوش الفرنسية، وصاحب ذلك تمردات وعصيان داخلي قاده أنصار الملكية، مما تطلب من قادة الثورة أتخاذ موقف صلب لمواجهة هذة التحديات وظهر ما أطلق عليه (العهد الارهابي) ورغم ما قيل عن هذا العهد إلا إنه أنقذ فرنسا من أخطار داخلية وخارجية كان من الممكن من أن تؤدي الى انهيار الجمهورية.

كما أن المؤتمر أنجز الكثير من الاصلاحات الاجتماعية والاقتصادية فقد وضع قانون المدني الفرنسي وأنشاء المدارس وتأسيس متحف اللوفر وضع نظام جديد للمكاييل والمقاييس وهو النظام العشري، وعمل على سن الدستور وأنجز أواخر 1795م وعرف بدستور العام الثالث للجمهورية. كما جرت محاوله أنقلابية فاشلة قادها أنصار الملكية لمهاجمة مقر المؤتمر الوطني إلا أن تدخل نابليون بونابرت الذي كان ضابطا شاباً في المدفعية، وبمهارته وخبرته العسكرية أستطاع إفشال هذ المؤامرة فرقي على أثرها إلى (قائد للجيوش الداخلية).

نتائج الثورة الفرنسية:

جاءت الثورة بنتائج آنية وأخرى على المدى الطويل كما أن نتائجها لم تقتصر على فرنسا بل عبرت الحدود إلى دول اخرى استنارت بقبس الثورة الفرنسية وما حققه الشعب الفرنسي خلالها من انجازات، **وأهمها:**

أولاً: ظهور نظام جمهوري بشكل عصري حديث يختلف عن اشكال النظم الجمهورية التي سبقته وانتشر هذا الشكل بين دول العالم وانتهى معه عهد الملكية المطلقة.

ثانياً: كتابة اول دستور للبلاد اقر بفصل السلطات الثلاث التنفيذية والتشريعية والقضائية مما يحجم ويقلل من امكانية هيمنة سلطة على السلطات الاخرى رغم الانقلابات اللاحقة على الدستور الفرنسي. كما اقر الدستور بفصل الدين عن الدولة ومباديء سامية لم يسبقه لها دستور اخر من قبيل المساواة وحرية التعبير عن الراي والتفكير وعدم التمييز بين المواطنين بسبب الدين.

ثالثاً: تحررت السياسة الفرنسية من سلطة الكنيسة ورجال الدين كما الغيت امتيازات النبلاء ورجال الدين هؤلاء وهو الامر الذي استغلته البرجوازية المتوسطة للصعود خصوصا وان من نتاجات هذه الثورة هو تحرر النظام الاقتصادي للدولة ويتجه نحو الرأسمالية والاقتصاد الحر.

رابعاً: جاءت بمفاهيم جديدة وأحيت أخرى مثل الحرية الفردية والعدالة الاجتماعية والتعليم المجاني واعتماد اللغة الفرنسية كلغة رسمية للدولة بأكملها مما أوجد لاحقاً عاملاً من عوامل الوحدة.

خامساً: يحدد كثير من المختصين السياسيين تاريخ الثورة الفرنسية كتاريخ لنشوء الدول القومية الحديثة التي تمثل الانظمة فيها إرادة شعوبها ورغم التعثر الذي أصاب مسار هذه الثورة والعقبات التي اعترتها لكنها دقت ناقوس الخطر ولحظة انطلاق زلزلت عروش ملوك أوروبا المستبدين مما جعلهم يناصبون العداء لهذه الثورة ويحاولون إجهاضها وفعلاً نجحوا بأعادة الملكية لكن لمدة قصيرة فأرادات كل حكام أوروبا لم تستطع الحيلولة دون تحرر الشعب الفرنسي وقلب العروش على أصحابها لا بل أن الثورة الفرنسية امتد تأثيرها خارجا فأن لم تطح بالملوك فقد أطاحت بسلطتهم المطلقة وصلاحياتهم وأصبحوا مجرد حكام شكليين وتمكنت الشعوب من أن تحكم نفسها بنفسها.

2- حكومة الادارة وظهور نابليون بونابرت:

- **حكومة الادارة 1795م:**

بعد أن أجريت الانتخابات وفق الدستور الجديد أنفض المؤتمر الوطني لتحل محله حكومة الإدارة وتكونت هذه الحكومة من خمسة أعضاء يتم انتخابهم من المجلس النيابي ، وبدأت حكومة الإدارة عهدها بالإعلان عن برنامج شددت فيه على التزامها بالنظام الجمهوري وإنعاش الروح الوطنية والقضاء على التعصب لحزب معين، والوقوف بشدة وحزم بوجه أثارة الاضطرابات.

كان على هذه الحكومة أن تعالج الحالة الاقتصادية المتدهورة وأن تحصل على النصر النهائي في حروبها الخارجية واختارت نابليون لقيادة أحد جيوشها الثلاث، فتمكن من هزيمة الجيوش النمساوية والايطالية وحقق انتصارات باهرة عليها حتى اضطرت النمسا إلى طلب الصلح.

وخلال هذه المدة مرت فرنسا بأزمات سياسية بين حكومة الإدارة والمجلس التشريعي لاسيما بعد وصول أنصار الملكية والكاثوليكية الى هذا إلى المجلس فوجدت حكومة الإدارة أن القوة هي السبيل الوحيد لإنهاء هذه الازمة لصالحها وكان نابليون المنتصر في ايطاليا على استعداد لإمداد حكومة الإدارة بالقوة اللازمة ضد السلطة التشريعية، فأرسل أحد ضباطه على رأس قوة عسكرية الى باريس في آب 1797م وقامت بانقلاب ضمن لحكومة الادارة بموجبه السيطرة على الموقف ومنع الملكيين من القيام بأي عملية انقلابية ضد حكومة الادارة.

أدت هذه العملية لان يصبح نابليون رجل الساعة وسيد الموقف في فرنسا ثم حقق نابليون انتصاراً نهائياً على النمسا بعد أن تقدم إلى جبال الألب مهدداً فيينا في أوائل عام 1797م، وفي 17 أكتوبر من العام نفسه وقّعت فرنسا معاهدة (كومبوفورميو)، التي بموجبها توسعت أراضي فرنسا، وعاد نابليون إلى باريس فاستقبل استقبال الأبطال. بقيت بريطانيا وحدها شاهرة السلاح بوجه فرنسا فوضع نابليون مع حكومة الإدارة خطة لضرب بريطانيا في الشرق باحتلال مصر لتهديد طريق بريطانيا إلى الهند فاحتل مصر عام 1798، وقد واجه عدداً من المشاكل في مصر وسوريا، لا سيما بعد تدمير الأسطول الفرنسي من قبل نظيره البريطاني في معركة أبي قير البحرية مما ادى الى انقطاع الامدادات

عن القوات الفرنسية في مصر، وكانت الأوضاع في فرنسا نفسها قد عادت إلى التدهور من جديد في شتى المجالات الإقتصادية والسياسية والإجتماعية، وانتشرت الفوضى فقرر نابليون العودة إلى فرنسا تاركاً الجنرال كليبر محله في قيادة القوات الفرنسية في مصر.

3- امبراطورية نابليون بونابرت:

كانت الظروف التي وصل فيها نابليون إلى فرنسا من مصر شبيه بتلك التي كانت سائدة قبل تدخله لإنقاذ حكومة الإدارة بل يمكن اعتبارها امتداداً لها، إذ عادت القوى السياسية بمختلف اتجاهاتها تهدد حكومة الادارة وتتنافس للسيطرة على الدولة، بينما سئم الشعب الفرنسي حالة الفوضى السائدة في المجتمع، حيث انعدم الأمن وانتشر اللصوص والسلب في الطرقات وأصبحت المدارس بلا معلمين والمستشفيات بلا ممرضات ناهيك عن العجز المالي والتدهور الاقتصادي والخطر الخارجي المتمثل بالتحالف الأوروبي الثاني، لذلك أخذ الناس يتطلعون بعد عشر سنوات من الثورة والحرب إلى إقرار السلم وإقامة حكومة قوية.

وقد وجد بعض الساسة أن الجيش المتمثل بشخص نابليون هو الأداة التي تعيد الأمور إلى نصابها وفي مقدمة هؤلاء الاب (سييز).

أما عن نابليون فقد دخل باريس فإستقبله الشعب الفرنسي بحماسة بالغة مما جعل نابليون يدرك أن الناس والسياسيون لا يعتبرونه مسؤولاً عن الهزيمة في مصر، وإنما يقع عبئ ذلك على السلطة الحاكمة في باريس ومن هنا التقت القيادات السياسية مع نابليون ليمهدوا طريق صعوده إلى الحكم .

انقلاب بريمر:

مهّدت لهذا الانقلاب فكرة إقامة حكومة مستقرة، وكان لا بد من اعادة النظر في الدستور لتحقيق ذلك، وكان هناك رفض واضح من المجلس التشريعي وبعض أعضاء الإدارة لإجراء مثل هذا التعديل ، وقد رأى مؤيدو نابليون أن الجيش هو السبيل الوحيد لتحقيق ما يريدون فأخذوا يخططون بدقة لقلب السلطة وقاد نابليون وأعوانه السياسيون حملة إعلامية كان الهدف منها إقناع الاطراف السياسية لفكرة التعديل الدستوري، طلب أعوان نابليون من أعضاء المجلس نقِلَ إجتماعهم إلى خارج باريس مدّعين أن مؤامرة تحاك من قِبَلْ اليعاقبة لقلب السلطة ،وهناك تقدم نابليون ليعرض على النواب برنامجه وأهدافه لإصلاح البلاد والقى بهذا الشأن خطاباً إلا انه فوجئ بنداءات مضادة تحذر من ظهور دكتاتور جديد في شخص نابليون، عندها طلب رئيس المجلس لوسيان(شقيق نابليون) من الجنود الذين طوقوا مكان الاجتماع بتفريق المعارضين بالقوة ولم يبق سوى الموالين له الذين صوتوا لصالح التعديلات الجديدة، والتي قررت استلام السلطة من قبل 3 قناصل: (نابليون و سيز وديكو) بدلاً من حكومة الادارة.

قابل عموم الناس هذا التغيير الذي عرف بإنقلاب بريمر عام 1799 بهدوء تام ولم يظهر أي أسف على حكومة الإدارة الضعيفة بل أن الكثير من الفرنسيين استبشروا خيراً بالسلطة الجديدة التي يقف على رأسها نابليون معتبرين ان عهد جديدا قد بدأ في فرنسا، إلا ان هذا لا يعني أن البعض لم يجد في ذلك بداية لعهد الدكتاتورية العسكرية.

ولإعطاء الانقلاب صفة شرعية، فقد وضع في عام 1799 دستور جديد لفرنسا نص على وضع السلطة التنفيذية بيد ثلاث قناصل ينتخبهم مجلس الشيوخ لمدة عشر سنوات. وقد انتخب المجلس ثلاث قناصل، وهم (نابليون بونابرت و سييس و ديكو)، لتولي السلطة على أن يكون نابليون القنصل الأول ومنحه سلطات واسعة، حق إعلان الحرب وعقد المعاهدات وإصدار القوانين وتعيين الوزراء وكبار الموظفين ورئاسة الجيش، أما القنصلان الآخران فكانا مساعدين له وكانت الهيئة التشريعية، طبق لدستور سنة 1799 مكونة من ثلاث مجالس، مجلس الشيوخ الذين يعينون أعضائه مدى الحياة من قبل القناصل وكانت مهمته انتخاب أعضاء المجلسين الآخرين، ومجلس التربيون الذي يتكون من مائة عضو وتكون مهمته دراسة مشروعات القوانين التي يقدمها مجلس الدولة، أما المجلس الثالث هو المجلس التشريعي الذي يتكون من ثلاثمائة عضو ومهمته التصويت على مشروعات القوانين. وبهذا الشكل المعقد من السلطة التشريعية سيطر نابليون ووزرائه على السلطة.

السياسة الخارجية:

ورث نابليون عن حكومة الإدارة مشاكل خارجية تتعلق بالتحالف الاوربي الثاني المكون من (بريطانيا النمسا، روسيا، الدولة العثمانية) وقد أنسحبت روسيا من هذا التحالف بعد هزيمتها من القوات الفرنسية وكذلك أن بول الاول (إمبراطور روسيا) كان من المعجبين بنابليون وأصبح صديقا له.

ثم تمكن نابليون من هزيمة النمسا في معركة حاسمة في حزيران 1800 وهددت قواته فينيا مما دفع بالنمسا الى طلب الصلح مع نابليون فعقد صلح (لونفيل) عام 1801م والذي انسحبت فيه النمسا نهائياً من أيطاليا واعترفت

بالجمهوريات التي أقامها نابليون فيها، وبـذلك أنهـار التحـالف الاوربي الثـاني ولم يبق صامداً أمـام نـابليون سـوى بريطانيـا، وكـان نـابليون يـدرك اسـتحالة الانتصار على لبريطانيا ما دامت السيادة للأسطول البريطاني في البحـر لـذا قـرر فرض حصار بحري على بريطانيا بمساعدة حلفائه الأوربيين، فكـون في كـانون 1800 حلفاً ضم روسيا والدنمارك والسويد وبروسـيا عـرف بــ(عصبة الحيـاد المسلح) لتضـيق الخنـاق عـلى بريطانيـا والاضرار بمصـالحها التجاريـة وعزلهـا عن أوربا، الا أن هذا الحلف فشل في تحقيق أهدافـه لقـوة الاسـطول البريطـاني من جهة، واغتيال القيصر الروسي من جهة أخرى مما أدى الى أنفراط عقـد هـذا التحالف.

وعـلى الـرغم مـن مـن فشـل مشرـوع الحصـار القـاري عـلى بريطانيـا إلا أن الاوضاع الداخلية فيها أدت الى قبولها عقـد الصـلح مـع فرنسـا والـذي عـرف بصـلح (أميـان) عـام 1802م ، والـذي أعترفـت بموجبـه بريطانيـا بالتغيرات التي أجراه نابليون في أوربا وقد عد هذا الصلح نصر كبـيراً لقنصـلية نابليون لحصولها على أعتراف بريطاني بالتغيرات التي حدثت في فرنسا أثر الثورة الفرنسية.

الامبراطورية النابليونية:

ظهرت الامبراطوريـة الفرنسـية للوجـود مـع تتـويج نـابليون بونـابرت إمبراطـورا لفرنسـا في الثـاني مـن كـانون الاول 1804م وقـد مهـدت لظهـور الامبراطورية النابليونية عوامل خارجية وداخلية هي:

أولاً: العوامل الخارجية:

1. عدم التزام بريطانيا ولفرنسا بصلح أميان حيث بدأ كل طرف يتصرف وفق مصالحه الخاصة دون الاهتمام بمعاهدة الصلح.
2. أظهرت تحركات نابليون لبريطانيا عن تصميمه لتحويل موازين القوى أوربا والشرق لصالح فرنسا حيث بدا يتطلع لترسيخ أقدام فرنسا في المستعمرات وعقده معاهدات صداقة مع دول الشرق وهو الأمر الذي رات فيه بريطانيا تهديداً لمصالحها مما دفعها إلى معاداة فرنسا وأصبحت ملجا لأنصار الملكية الهاربين من فرنسا.
3. رأى الشعب الفرنسي في هذه الاحداث والموقف البريطاني المعادي للثورة والمؤيد لعودة ال بوربون للحكم تهديدا لفرنسا ، مما دفع بالشعب إلى التفكير بتعزيز مكانة نابليون من خلال اعلانه امبراطورا للبلاد .

ثانياً: العوامل الداخلية :

1- ظهور عدد من المؤامرات الداخلية المدعومة من بريطانيا للإطاحة بحكم نابليون من خلال محاولات اغتياله.

2- كشفت هذه المؤامرات للشعب الفرنسي جسامة الخطر المحدق بفرنسا لا سيما وأن عدد من القادة السياسيين والعسكريين كانوا ضالعين فيها .

3- وجد الشعب والمجلس التشريعي أن أفضل حل لقطع دابر هذه المؤامرات وتقوية النظام هو جعل الحكم وراثياً مما يفقد الملكيين كل أمل في استعادة العرش .

4- وفي اقتراح من احد اعضاء المجلس التشريعي تم ادخال المبدأ الوراثي في الحكم في عام 1804 وفي السنة نفسها منح نابليون لقب الامبراطور وجرى تتويجه في كانون الاول 1804 من قبل البابا بيوس الثاني عشر.

5- سقوط نابليون.

حروب الامبراطورية النابليونية:

لم يستمر صلح اميان بين فرنسا وبريطانيا طويلاً وأخذت العلاقة بينهما تزداد سوءاً لاسيما بعد احتلال فرنسا لبعض الموانئ ذات الاهمية التجارية لبريطانيا في هولندا وايطاليا وسواحل هانوفر، وأخذ نابليون يعد العدة لغزو الجزيرة البريطانية وكانت خطته تقوم على اساس أبعاد الاسطول البريطاني والقيام بأنزال سريع على الشواطئ البريطانية بعد ان يقوم الاسطولان الفرنسي والأسباني باستدراج الاسطول البريطاني بعيدا عن الساحل البريطانية إلا أن هذه الخطة فشلت عندما انتصر الاسطول البريطاني على الاسطولين الفرنسي والاسباني في معركة (الطرف الاغر) بالقرب من السواحل الاسبانية في تشرين الاول 1805 وكانت بريطانيا قد اقنعت النمسا وروسيا بالدخول في حلف معها ضد نابليون عرف ب(التحالف الأوربي الثالث).

وقبل محاولة غزو بريطانيا، أمر نابليون جيشه المتمركز بشمال فرنسا بالزحف سرًّا على ألمانيا، فأحاط الجيش الفرنسي بالقوات النمساوية التي كانت على وشك أن تُهاجم فرنسا، قاطعًا بذلك خطوط التواصل بينها، وهزمها هزيمة كبيرة بتاريخ 20 أكتوبر سنة 1805 في معركة" أولم".

وبعد ستة أسابيع من هذه الحادثة، وفي اليوم الذي يوافق الذكرى الأولى لتربع بونابرت على العرش، هزم الجيش الفرنسي الجيشين النمساوي والروسي في واحدة من اشهر معارك التاريخ "معركة أوسترليتز". كانت نتيجة هذا الانتصار أن انتهت حرب التحالف الثالث، فأمر نابليون عند ذلك بالبدء ببناء قوس النصر في وسط مدينة باريس لتخليد ذكرى هذا النصر، ثم توجه إلى مدينة ڤيينا عاصمة النمسا، وفرض عليها شروطًا قاسية للصلح. اضطرت النمسا

إلى أن تتنازل عن المزيد من الأراضي لصالح فرنسا، وأن توقع على معاهدة سلام پراسبورغ التي قضت نهائيًا على الإمبراطورية الرومانية المقدسة وأدّت لولادة "اتحاد الراين الذي سُمي نابليون "مرشدًا" و"حاميًا" له.

التحالف الاوربي الرابع

تشكل التحالف الرابع لمحاربة فرنسا في سنة 1806، بعد هزيمة النمسا وروسيا في معركة أوسترليتز، وضمّ كل من:(بروسيا، روسيا، بريطانيا، ساكسونيا، السويد، وصقلية) وفي ذات السنة وقع خلاف بين نابليون وبروسيا، فتقدمت الجيوش الفرنسية بسرعة خاطفة وهزمت البروسيين في "معركة يينا" واحتلت عاصمتهم برلين، فانسحب "فريدريك وليم الثالث" ملك بروسيا إلى ناحية الشرق كي ينضم لحليفته روسيا التي أرسلت جيشًا لنجدته..

فالتقى نابليون بالجيشين الروسي والبروسي معًا في معركة (فريدلاند)، وبعد هذا النصر الحاسم، أبرم نابليون معاهدة عُرفتا باسم "معاهدة تلست" ، فاقتسم بموجب إحداها السلطة في أوروبا مع القيصر الروسي "ألكسندر الأول"؛ أما الثانية التي أُبرمت مع بروسيا، فقد اقتطع جزء من اراضيها وفرض عليها تعويضات حربية باهظة وهكذا انتهى التحالف الأوربي الرابع.

أما أهم أسباب انتصار نابليون في معاركه أمام الجيوش الأوربية فيمكن إجمالها بما يلي:

1- **ضعف التحالفات الأوربية نتيجة الخلافات السياسية بين الدول الأوربية.**
2- عدم وجود قيادة موحدة عسكرية للجيوش المتحالفة.
3- إيمان الجيش الفرنسي بأنه يحمل رسالة سامية فضلاً عن تناسقه وانضباطه العالي.

4- قوة الجبهة الداخلية في فرنسا.

5- كان لذكاء نابليون وقدراته ومهارته العسكرية الفائقة وشعبيته الواسعة آثر كبير في الانتصارات الفرنسية.

الحصار القاري:

لمّا أخضع نابليون أوروبا كلها تقريباً لسيطرته وعجز عن بريطانيا، عمد إلى محاربتها اقتصادياً. فحرّم على جميع الدول الأوروبية المتاجرة معها، عن طريق إصداره لـ(مرسوم برلين)، حرم بموجبه جميع أعمال التجارة كالاستيراد والتصدير مع بريطانيا كما حرم على السفن البريطانية الرسو في الموانئ الاوربية وستصادر بضائعها واعلنت كل من روسيا وبروسيا والنمسا والسويد والدنمارك التزامها بمراسيم الحصار القاري. إلا أن هذه الحرب الاقتصادية لم يُكتب لها النجاح، إذ أن بريطانيا ردّت عليه بالمثل، فمنعت المتاجرة مع فرنسا، وضربت حصارًا على القارة الأوروبية، كذلك نشطت أعمال التهريب من وإلى بريطانيا، ولم يستطع ضبّاط الجمارك الفرنسيون أن يفعلوا شيئاً لإيقافها، كما واجهت نابليون مشكلة عدم التزام بعض الدول الاوربية بالحصار ومنها البرتغال التي قرر نابليون مهاجمتها بالاتفاق مع اسبانيا فاحتلها بسهولة ثم قرر احتلال اسبانيا ايضا فابقى جيشه فيها بحجة الحلف القائم بين الدولتين، وأجبر ملكها "كارلوس الرابع" على التنازل عن العرش، وتوّج أخاه "جوزيف" ملكًا عليها في سنة 1808 الا ان هذه المسالة كانت بداية النهاية لنابليون فقد ثار عليه الشعب الاسباني الذي حصل على مساعدة بريطانيا ومن ثم تبعه شعب البرتغال في الثورة المسلحة وتمكن الثوار من تحقيق الانتصارات على القوات الفرنسية وكانت هذه الانتفاضة بداية لانتفاضات قومية في جميع أنحاء أوربا ضد نابليون أدت إلى فشل الحصار القاري.

✍ عوامل الضعف في امبراطورية نابليون وسقوطها:

1. بدايات الضعف:

كانت معركة بايلن التي انهزم فيها الفرنسيون أمام المقاومة الاسبانية في تموز 1808 وخروجهم من العاصمة مدريد تمثل الصدع الأول في امبراطورية نابليون حيث كان لها صدى واسع في أوربا شجع الدول الاوربية على التخلص من حكم نابليون. فعندما كان نابليون منهمكاً في إخضاع الثورة الإسبانية، قامت النمسا فجأة بفض تحالفها مع فرنسا وبدعم من بريطانيا بعد أن تحالفت معها في التحالف الأوربي الخامس، وذلك في شهر أبريل من عام 1809، وهبت للانقضاض على بونابرت بتحريض من بريطانيا، فاضطر نابليون إلى أن يترك إسبانيا ويقود الجيش الفرنسي ليقهر الجيش النمساوي في "معركة وگرام". توجه نابليون بعد انتصاره إلى مدينة؟يينا، عاصمة النمسا، حيث أملى شروط الصلح ووقع مع النمساويين "معاهدة فيينا" في تشرين أول 1809، التي قضت بسلخ أجزاء مهمة أخرى من الإمبراطورية النمساوية المجرية وكانت انتصارات نابليون هذه المرة غاية في الصعوبة ولم يتمكنمن التوغل في النمسا.

كما أن تذمر الشعوب الأوربية من الضائقة الاقتصادية التي كانت تعيشها نتيجة الحصار القاري، فضلاً عن مطالبات نابليون بالأموال اللازمة لحملاته العسكرية، دفعها للتحرك من أجل التخلص من قيود ذلك الحصار.

2. حملة روسيا ومعركة الأمم:

بدأت العلاقات تتدهور بين نابليون وقيصر روسيا الكسندر الأول لأسباب منها عدم ايفاء نابليون بوعوده للقيصر الروسي بتحقيق مطامعه

بالسيطرة على الأستانة ومضائق البسفور والدردنيل للوصـول الى الميـاه الدافئـة وكذلك فإن الحصار القاري قد أضر بروسيا كثيراً باعتبارها بلدا زراعياً وبحاجة الى المواد الصناعية فاضطر القيصر الى السماح بدخول البضـائع الانكليزيـة عـام 1811 فاعتبر نابليون ذلك عملاً عدائياً وخروجاً على صلح تلسـت ثـم طالـب القيصر من نـابليون بـالتخلي عـن تنظيماتـه في ألمانيـا (اتحـاد الـراين) وأن يجلـو بجيوشه عن بروسيا فكان رد نـابليون أن هيـأ جيشـاً تعـداده 700000مقاتـل من مختلف القوميات الأوربية لغزو روسـيا عـام 1812 فانتصــر عـلى الجـيش الروسي في معركة سمولنسك وانسحب الـروس الى داخـل أراضـيهم الواسـعة وتـبعهم نـابليون حتـى دخـل موسـكو فوجـدها خاليـة مـن السـكان وأنتظـر أن يعرض عليه القيصر الصلح لكنه لم يفعل وبعد شهر انسحب الجيش الفرنسي من موسكو بعد أن بلغت نابليون أنباء مقلقة عن اضطراب الأوضـاع في فرنسـا وخوفه من فقدان سلطته.

عانى الفرنسيون معاناة كبيرة أثناء انسحابهم وذاقـوا الأمـرّين، إذ تعـاون برد الشتاء الروسي القارس حليف روسيا الصامد والمرض وهجمات الفلاحـين القوقاز عليهم على إفناء الجيش فلم يسلم منه إلا عدد قليل حيث لم يصل مـنهم الا 100000 جندي. ثم شكلت الـدول الاوربيـة تحالفـاً جديـد ضـد نـابليون عرف (بالتحـالف الاوربي الخـامس) وتكـون (مـن بريطانيـا روسـيا وبروسـيا النمسا) وقد واجه نابليون هذا التحالف بقوات قليلة الخـبرة لأن أغلبهـا كـانوا شباباً صغار السن.

وفي تشـــرين الاول 1813م ، وقعــت معركــة (لا يبــزك) أو مــا يعــرف بمعركة الأمم ودامت أربعة ايام وانتهـت بهزيمـة نـابليون وتراجعـه إلى داخـل حدود فرنسا القديمة فتواصـلت الجيـوش الأوربيـة تقـدمها واحتلـت بـاريس في آذار 1814م حيث أعلن نابليون عن تنازله عن العرش وسافر الى جزيرة البا.

ثم عقدت معاهدة باريس الاولى في أيـار 1814م والتـي تـم فيهـا أعـادة النظام الملكي إلى فرنسا بزعامة لويس الثاني عشر ولم تكن شروط هـذه المعاهـدة قاسية لأن الحلفاء لم يرغبوا بإثارة الشعب الفرنسي ضد ال بوربون .

ولم يراع لويس الثامن عشر مشاعر الشعب الفرنسي وعقائده الجديدة التي أنتجتها الثورة الفرنسية إذ وضع دستوراً أعلن نفسة بموجبه ملكـاً وفـق نظريـة الحق الإلهي ومنح النبلاء مناصب وامتيازات كبيرة وفرض الرقابة على الصحافة واعاد علم البوربون الأبيض .

أما في المجال الاقتصادي فقط تأزمت الامور وانتشـــرت البطالـة وصـار الشعب يتمنى عودة نـابليون وكانـت الـدول المنتصرـة قـد فشـلت في التوافـق في مؤتمر فينيا عام1814م ، ودب الخلاف فـيما بينهـا فشـجعت هـذه الأوضـاع نابليون على العودة إلى فرنسا فـدخل بـاريس في أذار 1815م وعـاد إلى اسـتلام إلى السلطة بعـد هـروب لـويس السـادس عشرـ الى بلجيكـا فسـارعت الـدول الاوربية إلى نسيان خلافاتها لتجهيز حملة عسكرية لإسقاط نابليون وقـد التقـت هذة القوات مع الجيش الفرنسي في معركة واترلو الفاصـلة في حزيـران 1815م والتي انتهت بهزيمة نابليون وانتهى عهده إلى الابد بنهاية المائة اليوم الأخيرة من حكمه حيث حملته إلى منفاه في جزيرة (سانت هيلانة)والتي توفي فيها 1821م .

أما الحلفاء فقد دخلوا باريس في تموز 1815 وفرضوا على فرنسا معاهدة باريس الثانية والتي نصت على أن تدفع فرنسا غرامة فرنسية واعيد جدودها إلى حدود عام 1790 وأعيد لويس الثامن عشر الى الحكم.

✍ أسباب سقوط نابليون:

1. كان نابليون شديد الاعتماد على نفسه مؤمناً بذاته ولم يكن يثق بأقرب رجاله ولاتساع إمبراطورتيه فقد كان من الصعب عليه إدارتها بأكمل وجه.
2. حمل نابيون الشعوب الخاضعة له أكثر من طاقتها حيث استنزفت حروبه الكثير من أموالها ورجالها كما أن طول فترة الحرب أدت الى تذمر الجيش الفرنسي وانعدام الحماسة لدية.
3. كان للحصار القاري وما أفرزه من نتائج من العوامل المهمة في سقوط نابليون.
4. الانتفاضات القومية للشعوب القومية .
5. عدم أهتمام نابليون في مشاعر الشعوب وتنصيب قاربه ملوكا عليه أدى الى سخط هذه الشعوب عليه وسقوطه.

ثانياً: العلاقات الدولية بين 1815-1830:

- **مؤتمر فيينا لسنة 1815م:**

أ- الظروف الممهدة لمؤتمر فيينا: في فترة 1799 – 1814م، توسعت فرنسا بقيادة نابليون بونابرت على حساب الدول الأوربية المجاورة، فتحالفت عسكريا كل من الإمبراطورية النمساوية المجرية وبريطانيا وروسيا القيصرية وبروسيا ضد فرنسا، مما ادة الى انهزام فرنسا، وتمت بذلك الإطاحة بحكم نابليون.

ب- **قرارات مؤتمر فيينا:** انعقد مؤتمر فيينا وجمع الدول المنتصرة لإعادة ترتيب أوضاع القارة الأوربية ودعم الأنظمة المحافظة بها ما بين شتنبر 1814 وإلى غاية يونيو 1815م، حيث اجتمع ملوك أوربا ومعهم عشرات الوزراء والدبلوماسيين بفيينا بهدف إحقاق السلم داخل أوربا بعد الاضطرابات التي خلفتها الثورة الفرنسية والحروب النابوليونية، وقد هيمنت القوى الكبرى (بروسيا، روسيا، النمسا، بريطانيا) على أشغال المؤتمر بقيادة المستشار النمساوي مترنيخ، **وكرست مقرراته المبادئ الآتية:**

1. **الشرعية:** إعادة الأنظمة التقليدية التي كانت سائدة قبل الثورة الفرنسية.
2. **التوازن الأوروبي:** إعادة فرنسا إلى حدودها الدولية مقابل توسع الدول المنتصرة عليها.
3. **التحالف المحافظ أو الحلف المقدس:** وتألف من أربع دول هي: روسيا – بروسيا – النمسا – فرنسا.

وقد دأبت الدول الاوربية بعد فترة الحروب النابليونية الى تكوين عصبة دولية تنظم علاقات الشعوب المختلفة واقامة السلام دائم في اوربا واقامة جهاز تحكيم لمنع اسباب الحرب ولكن هذه الجهود لم تلق الا نجاح يسير ، وقد دفع استقرار الاحوال في فرنسا وقيام انتفاضات وثورات في الدول الاوربية المتضررة من قرارات مؤتمر فيينا الى عقد سلسلة من المؤتمرات لمتابعة تطبيق قرارات مؤتمر فيينا.

- **الحلف المقدس 1815 :**

اقترح قيصر روسيا الاسكندر الاول في 26 ايلول 1815 تشكيل تحالف مقدس وفق تعاليم الدين المسيحي وان يتبادل الملوك المشورة والمعونة فيما بينهم لكن مشروع القيصر المتدين لم يلقى التاييد من باقي دول اوربا لغموض فكرة تنظيم العلاقات الدولية انذاك وقد أثارت المحالفة المقدسة دهشة رجال السياسة ورجال الدين على السواء، وعلى سبيل المثال فقد وصفها"مترنيخ" بأنها: "طبل أجوف وفيض من عواطف التقى والورع التي تجيش في صدر القيصر إسكندر"، كما وصفها "كاسلريه" وزير خارجية إنجلترا بأنها "تمثِّل خليطا.(من الصوفية والكلام الفارغ"وقد امتنعت بريطانيا عن التوقيع على وثيقة المحالفة المقدسة؛ بدعوى أن الدستور يمنع الملك أو الوصي على العرش من ذلك وبذلك قتلت الفكرة في مهدها دون ان تعمل أي فرصة لتنفيذها ، وفي المقابل فقد انضمت دول عديدة إلى المحالفة مراعاة لشعور الإسكندر، كما انضمت إليها فرنسافي محاولة للخروج من عزلتها وظهر ان قيصر روسيا قد اصدرهذا الحلف لهوى في نفسه وقدم له بمظهر ديني تصوفي مدعيا انه يريد ان يطبق المبادىء المسيحية على ما يدور في اوربا من امور سياسية بهدف خلق ضمير سياسي بين حكام القارة وان تسود روح الاخوة بينهم في اتصالاتهم ولكن وزير خارجية بريطانيا اعتبر ذلك مظهرا زائفا يكسوه لباس التصوف البراق وبذلك فشل هذا الحلف.

- **مؤتمر اكس لاشابيل ايلول 1818:**

عقدت الدول الأربع الكبرى (إنجلترا، والنمسا، وروسيا، وبروسيا) هذا المؤتمر في ايلول عام 1818 والهدف الاساس من عقد هذا المؤتمر مناقشة العقوبات التي فرضتها معاهدة باريس الثانية على فرنسا ذلك لأنها أظهرت

تقييداً لمقدرات مؤتمر فينا ورغبة واضحة في السلام وحفظ التوازن الدولي وتمسك بالنظم التقليدية الملكية كما أن لظهور أفكار ثورية مناهضة للحكم الإستبدادي القائم دفع حكام الدول الاستبدادية إلى مقاومة هذه الحركات الثورية التي تهدد استقرار الأنظمة الإستبدادية القائمة. وقد اجتمع في اكس لاشابيل (وهي أحد مدن وستفاليا في ألمانيا) أمبراطور النمسا يرافقه وزير الخارجية مترنيخ وقيصر روسيا الاسكندر الأول وفروديك وليم الثالث ملك الدولة المضيفة بروسيا وقام بتمثيل بريطانيا وزير خارجيتها كاسلريه وعن فرنسا ريشيليو رئيس وزرائها وقد وافق المندوبون عن الجلاء عن الأراضي الفرنسية قبل نهاية شهر تشرين الثاني 1818 على ان تقوم فرنسا بدفع جميع ما تبقى عليها من تعويضات وغرامات مرة واحدة .

✍ **وأهم قراراته ما يلي:**

1. حل لجنة المراقبة الدولية، وسحب جيوش الحلفاء من الأراضي الفرنسية المحتلة بعد أن دفعت فرنسا التعويضات المقررة عليها إلى الحلفاء.
2. السماح لفرنسا بالانضمام إلى الحلف الرباعي الذي تحول إلى حلف خماسي.
3. أقر المؤتمر إلغاء تجارة الرقيق و ذلك باقتراح من بريطانيا(كاسلري) لكن رغم التحالفات والمؤتمرات التي عقدت ب هدف وضع حد للتيار الحر المتصاعد بأوربا إلا أن هذه المحاولات باءت بالفشل أمام رغبة الشعوب في الحرية واندلعت نتيجة تطور الوعي عدة ثورات تستهدف القضاء على الحكم الأجنبي وعلى النظام الإستبدادي .

.4

- **مؤتمر تروباو (تشرين الثاني 1820):**

كان قيصر روسيا قد اقترح على المؤتمرين في إكس لاشابيل إنشاء تحالف أوروبي عام تُخول بمقتضاه القوى الكبرى حقَّ التدخُّل لقمع أية ثورة تندلع في مواجهة أي من العروش الأوروبية، غير أن هذا الاقتراح قوبل بالرفض من جانب القوى الأربع الأخرى ولا سيما إنجلترا؛ حيث كان "كاسلريه" يؤكِّد دوما رفض بلاده لمبدأ التدخُّل في الشئون الداخلية للدول الأخرى. ومع إندلاع الثورة في إسبانيا وقيام النظام الدستوري بها في يناير 1820 أصاب الخوف القيصر الروسي؛ حيث خشي إسكندر الأول من انتقال عدوى الثورة إلى بلاده لا سيما وأنها كانت تعيش في ظروف مماثلة لتلك التي كانت سائدة في إسبانيا عشية الثورة. ومن هنا فقد هب القيصر إسكندر الأول مطالبا بعقد مؤتمر يضم سائر ملوك أوروبا لاستنكار المستجدات التي شهدها الصعيد الإسباني، والمطالبة بالتدخُّل لإلغاء الدستور الإسباني ولو بقوة السلاح، غير أن "كاسلريه" أعلن – أيضاً هذه المرة- رفض بلاده لمبدأ التدخُّل بالقوة في الشئون الداخلية للدول الأخرى قائلاً: إنه ما من بلد ذي نظام حكم نيابي يوافق على التصرف وفقاً لذلك المبدأ، وأضاف "كاسلريه" أنه يعتبر الثورة الإسبانية مسألة داخلية لا تشكِّل خطراً على البلاد الأخرى؛ وبالتالي فانه لا يرى مبرراً لتأييد إنجلترا أية محاولة لقمع تلك الثورة بالقوة، كما أوضح "كاسلريه" لدبلوماسيي أوروبا أن إنجلترا تدين بأسرتها المالكة الحالية ودستورها لثورة داخلية، وبالتالي فإنها لا تستطيع أن تنكر على البلاد الأخرى هذا الحق نفسه في تغيير شكل حكوماتها.

أما بصدد الموقف النمساوي من مبدأ التدخُّل فإن"مترنيخ" كان في بداية الأمر يرفض هذا المبدأ، غير أنه عاد ووافق على المبدأ غداة اندلاع الثورة في نابولي في يوليو 1820، أما فرنسا فقد كانت ترفض مبدأ التدخُّل شأنها في ذلك شأن إنجلترا، وعلى ذلك فقد تعددت اجتماعات ممثلي الأوتوقراطيات الثلاث الكبرى الأخرى (النمسا – روسيا – بروسيا) حيث أسفرت هذه الاجتماعات عن عقد بروتوكول تروباو، الذي تم التوقيع عليه في 19 تشرين ثاني1820 ، وفي حين رفضت إنجلترا التوقيع على هذا البروتوكول انضمت إليه فرنسا؛ خشية العزلة وهكذا فقد أقرت القوى الأربع الموقِّعة على بروتوكول تروباو (النمسا – روسيا – بروسيا – فرنسا) مبدأ التدخُّل لقمع الثورات وحماية العروش، كما اتَّفقت هذه القوى–بمقتضى البروتوكول ذاته– على استبعاد أية دولة طرف في الحلف منه إذا ما اندلعت فيها ثورة أحدثت تغييرا في نظامها السياسي الداخلي، كما أنه يحقُّ للحلفاء التدخُّل لإعادة هذه الدولة إلى حظيرة التحالف بالوسائل الودية، فإن لم تفلح هذه الوسائل في بلوغ هدفها لجأ الحلفاء إلى القوة.

- **مؤتمر لايباخ (كانون الثاني 1821):**

كان المؤتمرون في تروباو قد اتَّفقوا على عقد مؤتمر في ليباخ؛ بغية الاتفاق على الإجراءات الكفيلة بتنفيذ مقررات تروباو فيما يتَّصل بالمسألة الإيطالية، وبالفعل فقد عقِدَ مؤتمر لا يباخ بدءا من كانون الثاني عام 1821 وحضره إمبراطور النمسا وقيصر روسيا و"مترنيخ" و"فرديناند الأول" ملك نابولي،حيث تم الاتفاق على إلغاء دستور نابولي، وأُنِيط بالنمسا مهمة تنفيذ هذا الإلغاء بالقوة العسكرية.

وهكذا فقد تحقق للنمسا ما كانت تصبو إليه؛ فتحت غطاء التكليف الأوروبي راح الجيش النمساوي يتدخَّل في نابولي – مع نهاية فبراير 1821 – حيث تمكَّن من إخماد الثورة الدستورية، وإعادة سلطة "فرديناند الأول"المطَلقة . وقبل أن يختتم المؤتمرون في ليباخ أعمال مؤتمرهم استنجد بهم ملك سردينيا ضد رعاياه الثائرين؛ فسارعت النمسا بإرسال جيشها لإخماد الثورة في بيدمونت، وإعادة النظام القديم إلى سردينيا.

يبقى أن نشير إلى أن مؤتمر ليباخ قد انفض في ايار1821 حيث أصدر بياناً ختامياً جاء فيه: "إن الهدفمن التحالف الأوروبي إنما هو تأييد المعاهدات القائمة،والمحافظة على السلام العام وتحقيق سعادة الأمم، وأن التغييرات التشريعية والإدارية داخل الدول يجب أن تأتي من جانب أولئك الذين أعطاهم الله مسئولية الحكم في هذه الدول". وهكذا يكون مؤتمر لايباخ قد أكَّد على مبدأين رئيسيين أعلن المؤتمرون تمسكهم بهما، **ويتمثَّل هذان المبدآن في:**

1. مبدأ شرعية تدخُّل الكبار لإخماد الثورات الدستورية وحماية العروش داخل كافَّة الدول الأوروبية، وهو المبدأ الذي بمقتضاه سمِحَ للنمسا بإخماد الحركات الثورية الدستورية في الأراضي الإيطالية.
2. مبدأ الحق الإلهي للعروش في تقرير مصائرالشعوب، وهو المبدأ الذي ورد بارزاً في البيان الختامي لمؤتمر ليباخ، والذي جاءفيه أن أية تغييرات تشريعية أو إدارية داخل أية دولة هي بيد ملكها، وملكها وحده.

ونظراً لارتباط المؤتمرين في ليباخ بهذين المبدأين فقد أعلنت الحكومة الإنجليزية استنكارها لمقررات المؤتمر، وعدم اعترافها به، وتنصلها من تبعاته.

- **مؤتمر فيرونا (تشرين الاول 1822):**

حضر هذا المؤتمر كلٌّ من إمبراطور النمسا، وقيصر روسيا، وملوك بروسيا وسردينيا ونابولي، فضلاً عن "مترنيخ"، ووزير خارجية فرنسا، وممثّلين لإنجلترا، ولقد انصب اهتمام المؤتمر على مناقشة المسألة الإسبانية، ففي 30 تشرين الأول 1822 قرر المؤتمر التدخُّل المسلَّح في شئون إسبانيا برغم رفض إنجلترا لهذا العمل، وتأكيد ممثِّليها رفض بلدهما لمبدأ التدخُّل في الشئون الداخلية للدول الأخرى. غير أن أعضاء المؤتمر فشلوا في أن يتدخَّلوا جماعيا لإخماد الثورة الإسبانية ،وإذا ب "فرنسا" تقرر أن تتدخَّل منفردة في إسبانيا، ويعود إقدام فرنسا على هذا الإجراء إلى اعتبارات تتعلَّق بسياستها الداخلية، ذلك بأن – الملكية الفرنسية العائدة إلى العرش كانت في حاجة إلى انتصارات عسكرية لتحل صورتها في أذهان الشعب الفرنسي محلَّ صور الانتصارات النابليونية .

على أية حال فقد كان انتصار الجيش الفرنسيفي إسبانيا أمراً ميسوراً؛ إذ سرعان ما تمت الإطاحة بالنظام الثوري، وإعادة الملك الإسباني إلى عرشه، ولم يكتفِ الفرنسيون بذلك وإنما أعلنوا عزمهم على التدخُّل لإخماد الثورات في المستعمرات الإسبانية في العالم الجديد، غير أن انجلترا وقفت ل "فرنسا" بالمرصاد، وأعلن الإنجليز تصميمهم على استخدام القوة في مواجهة الجيوش الفرنسية إن هي حاولت عبور الأطلنطي، والتدخُّل في شئون أمريكا الجنوبية والحق أن هذا الموقف الإنجليزي المتشدد من فرنسا بصدد المسألة الإسبانية إنما كان يرتد إلى سببين، أولهما أن الإنجليز كانوا يرفضون مبدأ التدخُّل في الشئون الداخلية للدول الأخرى، وهو المبدأ الذي كان وزير الخارجية الإنجليزي الجديد كاننج أشد من سلفه المنتحر "كاسلريه"تمسكا به، أما السبب

الثاني وراء الاستياء الإنجليزي من الموقف الفرنسي بصدد المسألة الإسبانية فيتمثَّل في أن مستعمرات إسبانيا في العالم الجديد كانت تربطها بإنجلترا علاقات تجارية عظيمة الشأن.

وبالإضافة إلى رفض إنجلترا فكرة تدخُّل فرنسا في المستعمرات الإسبانية كانت الولايات المتَّحدة الأمريكية قد أكَّدت – هي الأخرى- رفضها التام لتدخل أية دولة أوروبية في شئون العالم الجديد، وقد تمت صياغة هذا الموقف الأمريكي بمقتضى مبدأ "مونرو" .

- **ثورات 1815 – 1830 :**

أثارت مقررات مؤتمر فيينا ردود فعل قوية من طرف الشعوب الأوربية، حيث اندلعت عدة ثورات مستلهمة من مبادئ وشعارات وأفكار الثورة الفرنسية، هدفها إسقاط مقررات هذا المؤتمر، وقد شمل المد الثوري دولاً مختلفة، ابتداء من ألمانيا التي عرفت انتفاضة طلابية نادت بالحد من سلطة الملكية وطالبت بوضع دستور للبلاد سنة 1817م، والتي وجهت بالقمع العسكري، أما بإيطاليا فقد اندلعت انتفاضة جمعية الكاربوناري سنة 1820م ضد النظام والاحتلال النمساوي واجهها الجيش النمساوي، وفي نفس السنة عرفت إسبانيا تحركا للجيش الإسباني مطالبا بوضع دستور للبلاد فقمعت من طرف الجيش الفرنسي سنة 1829م، وعرفت اليونان ثورة قومية تحررية ضد النظام العثماني توجت بالحصول على الاستقلال، كما عاشت فرنسا سنة 1830م ثورة الأيام الثلاث (ثورة بورجوازية ليبرالية ضد الملك شارل العاشر الذي انحاز للمحافظين)، هذه الثورة أجهضت بعد تحالف البورجوازية الكبرى مع الملك لويس فليب، وعرفت بلجيكا ثورة قومية تحررية ضد هولندا انتهت باستقلال وحياد بلجيكا، وأخيراً عرفت بولونيا سنة 1831م ثورة تحررية ضد الهيمنة الروسية انتهت بقمعها على يد الجيش القيصري.

- ثورات أوربا 1848م (ربيع الشعوب):

انطلقت ثورات شعوب أوربا لسنة 1848م من باريس (فرنسا) إلى روما وفيينا، ومن هذه الأخيرة امتدت إلى شمال ايطاليا وألمانيا وإلى القوميات الخاضعة للحكم النمساوي، في فرنسا أدت الأزمة الاقتصادية ورفض الحكومة لإصلاح نظام الانتخابات إلى صراع سياسي بين الأحزاب فتم إسقاط حكم لويس فليب وإعلان الإمبراطورية سنة 1851م، وبإيطاليا أعلن النظام الجمهوري يروما وطردت القوات النمساوية من المدن التي كانت تحتلها والتي طبقت بها دساتير محلية إلا أن النمسا قمعت هذه الثورات، كما تدخلت فرنسا لإعادة البابا لروما، أما بألمانيا كانت للثورة مطالب قومية (توحيد البلاد)، لكنها فشلت بسبب رفض ملك بروسيا الانضمام إليها خوفا من الاصطدام مع النمسا وروسيا، وبالنمسا قامت الثورة كرد فعل على استبداد ميترنيخ، وحققت بعض المكاسب لكنها قمعت بشدة.

ثالثاً :الدول الأوربية في القرن التاسع عشر:

أولا: ألمانيا بين 1815 – 1870:

لقد ساعدت الثورة الفرنسية على نشر المبادئ القومية ومبادئ الحرية بين الشعوب، وعندما أراد نابليون بونابرت فيما بعد تحري تلك المشاعر القومية ثارت الشعوب الأوربية حدة، فكانت القومية أحد أسباب سقوط أمبراطوريته.

فلم يتعظ الذين انتصروا على نابليون بذلك الدرس فحاولوا قمع الحقوق للشعوب الأوربية في مؤتمر فيينا لكنهم فشلوا أيضاً.

ونُلاحظ في المانيا ظهور النزعة القومية وتعالي الاصوات إلى اتحاد المدن الالمانية ودور القادة الالمان في تحقيق الأماني القومية الالمانية ويُمكن توضيح ذلك من خلال المحاور التالية:

ظهور النزعة القومية الألمانية:

تأثرت الحركة القومية الألمانية بشكل كبير بالثورة الفرنسية وشعاراتها القومية ، ودعوتها للشعوب إلى ممارسة حقها في حكم نفسها، حيث كانت هذه الحركة تسعى لإيجاد دولة ألمانية موحدة، بدلاً من مجموعة الدويلات الألمانية التي وصلت أبان معاهدة وستفاليا إلى ما يقارب 360 دويلة، ثم انخفضت في فترة حكم نابليون إلى 38 دويلة ،وعند قيام الوحدة الألمانية كان عددها 25 دويلة ، وقد أثارت الثورة الفرنسية لدى الألمان كما الشعوب الأخرى، التفكير في الأقلية التي تتحكم في تلك الشعوب وممن تتكون، وانتهى هذا التفكير إلى فحص جنسية هذه الأقلية وما إذا كانت تنتمي إلى نفس الشعب الذي تحكمه أم أنها أجنبية عنه، وهذا السؤال يثير بطبيعته التفكير في من هو الأجنبي وما هي الأمة وقد بدأ التنظير لفكرة القومية الألمانية عن طريق المفكرين جيته وشيلر حيث بدءوا بالمناداة إلى أن لكل شعب عبقريته الخاصة في فهم الحرية والمساواة، وان للشعب الألماني بحكم ثقافته وعبقريته المختلفة أن يشكل آراءه الخاصة في ذلك .

والمدرسة الالمانية في القومية فتُعرف بالمدرسة التاريخية وهي تختلف عن المدرسة الفرنسية بسبب الظروف التاريخية التي مر بها كل من البلدين فقد اتخذت فكرة السيادة في ألمانيا شكل الامبراطورية التي لا ترتبط بالدولة ولا بالأرض وهي إضافة إلى ذلك تمتد بحدودها إلى ما وراء ألمانيا نفسها وكان هناك تعقيد واضح في النظام السياسي الألماني لا يتفق مع المفهوم الفرنسي بالأمة.

لذلك فأن التركيز في المانيا القومية كان على اللغة وليس على الأرض حيث أُعتُبِرت القومية كائن عضوي في ظاهرته الأساسية اللغة. يُضاف الى ذلك أن المانيا عاشت تجربة سياسية أخرى مضادة نوعاً ما لشكل الأمبراطورية الالمانية الكبيرة تلك هي الدولة البروسية التي تشكلت على يد آل هوهنزلون الذين دعا ملوكهم السكان من مختلف أنحاء أوربا بزراعة الاراضي المتروكة في بروسيا ثم قاموا بصهر هذه العناصر المختلفة ليظهر السكان البروس الذين أصبحوا في تشكيلهم يختلفون عن تشكيل الامة الفرنسية أو الانجليزية اللتان وُجِدتا قبل وبعد الدولة. ومع ذلك فان أي نقاش أو جدل في سبيل التغيير أو الاصلاح كان يدعوا إلى الخوف في ألمانيا من الوحدة القومية، لذلك كانت الثغرة الانفصالية سائدة في كل دولة من دول ألمانيا. ولم يكن بين هذه الدول وحدة في القوانين او المقاييس او النفوذ، إلا انه ظهر في اواخر القرن الثامن عشر نوع من وحدة المانية على أساس فكري يتركز حول طبيعة اللغة حيث انتشرت المحلات و أُصلحت الجامعات وسادت حرية الفكر والتوثيق والتوسع في الاطلاع والمعرفة وظهر الكتّاب والمفكرين الألمان فنشأ ما يُعرف بالقومية الأدبية.

الإتحاد الالماني والحقبة الوطنية

كانت ألمانيا في أواخر القرن الثامن عشر في حالة شبيهة بإقطاعيات القرون الوسطى؛ حيث كانت مقسمة إلى أكثر من (300) مقاطعة بين كبيرة وصغيرة من الدول والدويلات والمدن الحرة، وكان يعتلي سدة الحكم في بعضها رؤساء دينيون، في حين كان يحكم البعض الآخر رؤساء زمنيون، وكان بين هؤلاء الحكام من يحمل لقب ملك، ومنهم من كان أميراً، كما كان من بينهم

دوقات وجراندوقات، وكان إلى جانب ذلك كله ثمة مدن حرة عديدة تتمتَّع بسيادة تامة فيما يتَّصل بإدارة كافَّة شئونها الداخلية وعلاقاتها الخارجية على السواء، وعلى الرغم من وجود ما يسمى بالإمبراطورية المقدسة إلاَّ أن هذه الإمبراطورية كانت لا تتمتَّع بأية سلطة حقيقية، فكانت كلُّ واحدة من الوحدات السياسية الكبيرة والصغيرة مستقلَّة في شئونها استقلالاً تاماً، حيث كان لكلِّ واحدة منها حكومة خاصة وجيش خاص وقوانين خاصة، وباستثناء مملكة بروسيا كانت جميع الوحدات الألمانية –على كثرتها– شديدة الضعف من جميع الوجوه السياسية والعسكرية.

ولكن كان للثورة الفرنسية وحروب نابليون اثر كبير في المانيا حيث تم زوال مائة من الولايات الصغرى. إذ نمت بعض الولايات الثانوية مثل بافاريا وسكسونيا وتحولت الى ممالك على حساب النمسا وظهور اتحاد الراين 1806م الذي ضم ستة عشر ولاية تحت رئاسة نابليون وبذلك زالت الامبراطورية الرومانية المقدسة عن عالم الوجود نتيجة لتقسيم ألمانيا إلى ثلاث وحدات هي: النمسا وبروسيا واتحاد الراين وبذلك يُعتبر نابليون البادئ بعملية توحيد ألمانيا، هذا الى جانب ان سياسته التعسفية وكبريائه قد ساعد على اثارة الروح القومية في الشعوب الالمانية، ولقد كان لاكتساح نابليون للأراضي الألمانية أبلغ الأثر في نفوس الألمان؛ إذ باتوا يدركون تمام الإدراك أن فقدان الوحدة القومية هو السبب في ما أصاب بلادهم، ونظرا لذلك فقد امتلأ جو القرن التاسع عشر في ألمانيا على وجه الخصوص بفلسفة القومية والعصبية العنصرية، وسيادة الجنس الألماني، ورسالته السامية التي تقع على عاتقه نحو البشرية بأسرها.

ولقد سرى هذا التيار القومي في نفوس الألمان بسرعة كبيرة واستثار – بوجه خاص– همم رجال الفكر والسياسة ودفعهم إلى العمل عملاً متواصلاً في سبيل تخليص البلاد من ربقة فرنسا، وقد تمثَّل مركز هذه المساعي والحركات في بروسيا التي اجتمع فيها كبار رجال الفكر والأدب والسياسة من جميع أنحاء ألمانيا وتضافروا على خلق روح جديدة في البلاد.

وفي مؤتمر فيينا 1815 ظهرت رغبة مترنيخ في الاحتفاظ بألمانيا ضعيفة حتى تستطيع النمسا ان تفرض سيطرتها الكاملة على ألمانيا، لذلك فضلت النمسا ايجاد اتحاد ضعيف من أعضاء مستقلين نفوذه هي وتتلاعب به. فكانت لها ما ارادت. وتكون اتحاد جميع الأمراء لا الشعوب ودخله كل من له في أرض ألمانيا حصة أو نصيب، فاشترك فيه ملكا بروسيا والنمسا لأن بعض أراضيها كانت داخلة في الامبراطورية الرومانية المقدسة ودخله ملك الدانمارك لأنه كان يحكم هولشتاين. كما دخله ملك الاراضي المنخفضة بصفته دوقاً على لكسمبرك. وهكذا نجد أن بعض الملوك الاجانب اشتركوا في هذا الاتحاد مع أن بعض الاراضي الألمانية بقيت خارجة عنه.

الملك وليم والمستشار بسمارك وتحقيق الوحدة الالمانية:

تعتبر بروسيا أهم الإمارات الألمانية جميعا قوة ومساحة وسكانا ، وقد كانت ولاية صغيرة ثم أصبحت مملكة عام 1701م وبرز فيها ملوك مصلحون أمثال "فريدريك ولـيم الأول"و"الثاني" واشتركت في محاربة نابليون عام 1813م ، واهتمت بالإصلاح الإداري و الاقتصادي والعسكري وتزعمت بروسيا حركة الوحدة الألمانية وسعت بكل قوة الى حمل الولايات الالمانية على الدخول في اتحاد يجمع فيما بينها.

✍ **وقد مرت عملية توحيد ألمانيا بعدة مراحل أبرزها:**

1. الاتحاد الكمركي (الزولفرين):

كان إنشاء نظام الزولفرين الجمركي أولى المراحل التي قطعتها ألمانيا في سبيل الوحدة من خلال "توحيد الجمارك " بين مختلف أقاليم البلاد الألمانية، وذلك لما حدث الانقلاب الصناعي في أوروبا أدرك رجال الفكر والمال في مختلف أقسام ألمانيا أن بلادهم لا يمكن أن تساير هذه التطورات مادامت منقسمة إلى دويلات ينفصل بعضها عن بعض بسلسلة من الحواجز الجمركية فأخذ العديد من المفكرين يدعون إلى توحيد الجمارك بين البلاد الألمانية. **فصدر عام 1819م نظام الزولفرين الجمركي ونص على ما يلي:**

1- إلغاء المناطق الجمركية في بروسيا كلها واعتبارها منطقة جمركية واحدة

2- إعفاء المواد الأولية المستوردة إليها من الرسوم الجمركية لتشجيع الصناعة المحلية .

3- وضع تعريفة جمركية منخفضة على المصنوعات، وتعريفة جمركية عالية على ا لمواد الكمالية المستوردة كالشاي والبن والسكر.

وقد أدى نجاح هذا النظام الجمركي إلى إسراع الولايات الألمانية لإنخراط فيه وكان ذلك خطوة هامة في تحقيق الوحدة السياسية فيما بينها وكسبت بروسيا من وراء ذلك الزعامة الاقتصادية والسياسية والتفوق العسكري في ألمانيا كلها ثم في أوربا بعد الوحدة.

2. سياسة الملك وليم الاول ومستشاره الحديدي بسمارك :

أما المرحلة الخرى المهمة في توحيد الماني فهي سياسة الملك وليم الأول ومستشاره الحديدي بسمارك، فعلى أثر ثورة 1848 م تم انتخاب فريدريك وليم الرابع ملك بروسيا إمبراطوراً على ألمانيا ، إلا أنه رفض التاج خوفاً من رد فعل النمسا وبعض الأمراء المعارضين ، وعندما خلفه وليام الأول، وكان ساخطاً على النمسا، استعان بمستشاره بسمارك الذي قاد ألمانيا إلى وحدتها القومية، **واتبع في سبيل ذلك الخطوات التالية:**

1- إقامة اتحاد ألمانيا كلها بزعامة بروسيا .

2- إبعاد النمسا عن التدخل في شؤون ألمانيا وإجبارها على التخلي عن معاداتها لوحدتها .

3- القضاء على التدخل ا؟جنبي في شؤون ألمانيا الداخلية خاصة فرنسا.

4- الإهتمام بالجيش وتطويره في التدريب والتسليح باعتباره ا؟داة ا؟ساسية لتحقيق الوحدة .

3. حروب الوحدة :

خاض بسمارك ثلاث حروب ضد ثلاث دول من أجل تحقيق وحدة ألمانيا:

1- **الحرب ضد الدنمارك 1864م:** كان السبب في إثارتها دوقيتي: شلزفيك، وهولشتاين الألمانيين اللتين كان يحكمها ملوك الدنمارك منذ 1815م ، وقد أرغمت الدنمارك في نهاية هذه الحرب على التخلي عنهما فسيطرت بروسيا على شلزفيك والنمسا على هولتشاين .

2- **الحرب ضد النمسا عام 1866 م:** كان من أهداف بسمارك عزل النمسا دولياً، والقضاء على نفوذها بألمانيا وقبول وحدتها. فاستمال إليه

نابليون وبيدمونت وروسيا ثم دخل معها في حرب، وانتصر عليها في معركة "سادوا" يوم 1866م وأرغمها على توقيع صلح براغ 1866م **التزمت فيه بما يلي:**

- ✓ ضم عدة مقاطعات ألمانية إلى بروسيا منها هانوفر،هس، مدينة فرانكفورت.
- ✓ الاعتراف بإنشاء اتحاد ألماني يضم كل الولايات الواقعة شمال نهر (مين) بزعامة بروسيا.
- ✓ التنازل لايطاليا عن البندقية .

وكان من نتيجة هذا الصلح اتساع مساحة بروسيا وتحول ميزان القوى إليها في وسط أوروبا خاصة بعد أن وافقت الولايات الجنوبية على الانضمام إلى "اتحاد الزولفرين".

3 – **الحرب ضد فرنسا عام 1870م :** بعد التغلب على الدنمارك والنمسا لم تبق عقبة في وجه وحدة ألمانيا سوى فرنسا التي تحتل الالزاس واللو رين ورأت فرنسا وجوب استعمال كل الوسائل لمنع إتحاد ألمانيا، ومن أجل ذلك صمم بسمارك على محاربتها، وجاءت أزمة خلو العرش الاسباني لتشعل نيران الحرب التي أعلنتها فرنسا دون الاستعداد لها في تموز 1870م ، وهو ما كان ينتظره بسمارك . ونظراً للتباين الموجو د بين الجيشين فقد إنهزم الجيش الفرنسي في معركة (سيدان) *sedan* يوم 1870-09-2م واستسلم الامبراطور "نابليون" ، **وأرغمت فرنسا على توقيع الصلح في فرانكوفورت يوم 10 ماي 1871م نص على:**

- ✓ أن تستولي ألمانيا على مبتز وستراسبورغ و الالزاس و اللورين.
- ✓ أن تدفع فرنسا غرامة ماليةلألمانيا مقدارها 5000 مليون فرنك.
- ✓ أن تحتل جيوش بروسيا بعض أراضي فرنسا حتى تدفع تلك الغرامة .

إتمام الوحدة:

بعد هذه الانتصارات الساحقة على فرنسا، فاوض بسمارك و؟يات الجنوب الألمانية في أمر الوحدة، وتم إنشاء الاتحاد الألماني، و توج الملك وليم إمبراطوراً لألمانيا بقصر فرساي عام 1871 م وعُرِفَ بلقب القيصر الالماني ، وأعلن دستور جديد نظم شؤون الحكم في ألمانيا وسرى مفعول دستور الامبراطورية الالمانية اعتباراً من 16نيسان 1871م وأُطلقت تسمية الرايخ الثاني على الامبراطورية التي دامت حتى دحر المانيا فيالحرب العالمية الأولى في تشرين الثاني 1918.

1-ثانياً: بريطانيا بين 1815 – 1870:

قيام الثورة الصناعية :

الثورة الصناعية هي مُصطلح يُشير إلى التغيُّر الجذري الذي حدث في حياة الناس خصوصاً في أوربا وفي مقدمتها بريطانيا، خلال القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر الميلاديين حيث تحولت المجتمعات الزراعية إلى مجتمعات صناعية فنشأت مدن صناعية جديدة و توسعت مدن أخرى بفعل الإختراعات ونظام المعمل، وظهرت طبقات إجتماعية وقيم وتقاليد لم تكن موجودة من قبل.

بدأت الثورة الصناعية في بريطانيا خلال القرن الثامن عشر الميلادي، وانتقلت إلى أجزاء من أوروبا وأمريكا الشمالية في بداية القرن التاسع عشر الميلادي. وبحلول منتصف القرن التاسع عشر الميلادي، انتشر التصنيع في أوروبا الغربية وشمال شرقي الولايات المتحدة الأمريكية.

وقد أدت الثورة الصناعية إلى زيادة عظيمة في الإنتاج. كما أخرجت التصنيع من نطاق المنزل والورشة الصغيرة، وأحلَّت الآلات ذوات المحركات محل العمل اليدوي، وطُورت المصانع لتصبح أفضل وسيلة للجمع بين الآلات والعمال لتشغيلها. ومع ان الثورة الصناعية تقترن بالقرن التاسع عشر إلا انها استمرت في عطاءها وتطورها حتى عصرنا هذا، فهي اذن ليست مجرد ثورة وقتية انما هي ثورة دائمة من خلال التطور الذي طرأ على المخترعات والصناعات والمجتمعات في عصرنا الحالي، والذي تعود جذوره الى عصر الثورة الصناعية. ولا يمكن تشبيه تلك الثورة بالتحولات التدريجية او المفاجئة التي عرفتها القرون السابقة منذ العصور الحديثة بل وحتى الوسيطة والقديمة منها، ويعود ذلك الى طابعها الاكثر تعقيداً وشمولية فقد ادت الثورة الصناعية إلى الاستعاضة عن الجهود البشرية بالآلة على نطاق واسع، وفرضت المصنع الكبير على حساب المعمل الحرفي الصغير، وبذلك غيرت العلاقات الانتاجية بشكل جذري، وتميزت في زيادة هائلة في الانتاج وتمكنت من ايجاد وسائل نقل ومبادلات سريعة لم يعرفها الانسان من قبل.

كما تطلبت الثورة الصناعية اعادت النظر بشكل شامل في العوائد النقدية والقروض وعموم الحالة الاقتصادية ان الأوصاف والتعريفات التي أعطيت الثورة الصناعية من قبل الذين كتبوا عنها بعد ان شعروا بها تظهر، أن الثورة

الصناعية كانت حركة عميقة قلبت الأوضاع الإجتماعية والإقتصادية والسياسية في بريطانيا وبقية الدول العربية بل والعالم. وبقدر تعلق الامر بتاريخ محدد للثورة الصناعية كظاهرة اقتصادية إجتماعية ذات آثار تدريجية فإنه من الصعب تحديد بدايتها ونهايتها ومع ذلك فان بعض الباحثين يعود بها الى حوالي القرن السادس عشر أي أنهم يربطوها بالاستكشافات الجغرافية والثورة التجارية وعصر النهضة. إلا أن المؤلفات والبحوث الاساسية تتفق على حصر حدودها بين 1766 _ 1830م لكننا نتفق مع الباحثين الذين يعتبرون أن الثورة الصناعية لا نهاية لها وأن التطور الذي يعيشه عالمنا المعاصر هو امتداد طبيعي لها.

عوامل قيام النهضة في بريطانيا:

كانت بريطانيا أول الدول الاوربية التي ظهرت فيها الاختراعات وقد تنبهت الدول البريطانية والبرجوازية العقارية والتجارية الى الفوائد المرتقبة من هذه الاختراعات مما أدى إلى توفير رؤوس الأموال والعناية بها إلا أن الثورة الصناعية في بريطانيا لم تلعب دوراً حاسماً في الحياة اليومية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر بالتحديد في حدود سنة 1780 ولكن التحولات التقنية الكثيرة المرتبطة ببعضها ارتباطاً وثيقاً كانت خلال هذا التاريخ جارية وبدأت بريطانيا تقدم للعالم الدليل على أن نوعاً جديد من النمو الاقتصادي المحول ذاتياً والمتسارع ذاتياً قد أصبح منذ الآن في متناول بعض الامم المتطورة بداوات الصناعات النسيجية وبخاصة معامل صناعة القطن تشهد ثورة في التطور وتحسين نوعية النتاج وحجمه.

ويمكن ان نحدد الاسباب التي أدت إلى سبق بريطانيا غيرها من دول أوربا في الثورة الصناعية:

✓ **أولاً: أسباب طبيعية:**

1- رطوبة الجو في بعض جهات إنجلترا، مما شجع على قيام صناعة غزل القطن في منطقة لانكشير وخاصة في ليفربول ومانشستر.

2- وجود بعض الأنهار سريعة الجريان، فاستخدمت مساقط المياه بها لإدارة آلات المصانع.

3- مجاورة مناطق الفحم لمناطق الحديد، وفي مناطق بها موانئ صالحة للملاحة.

✓ **ثانياً: أسباب سياسية:**

1. أدت ثورات وحركات القرن السابع عشر في بريطانيا وخصوصاً الثورة الجليلة سنة 1688 الى استقرار الملكية والبرلمان والكنيسة مما أدى إلى ابتعاد بريطانيا عن التقلبات والتغييرات السياسية .

2. فتحت التطورات الدستورية في بريطانيا خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر الباب واسعاً لحكم طموحات البرجوازية والبريطانية في تسيير شؤون السلطة خصوصاً بعد توحيد الجزر البريطانية الذي هو في الواقع لا يمثل مجرد توحيد سياسي بل أيضاً توحيد للسوق الاقتصادية البريطانية.

3. عدم تعرض إنجلترا للغزو الخارجي مثل باقي دول أوروبا (لم يستطع نابوليون بونابرت غزوها)، فتوفر لها الاطمئنان مما ساعد على تقدمها الاقتصادي والصناعي كما ساعد الموقع الجغرافي للجزر البريطانية

في الابتعاد عن ويلات الحرب التي عاشتها أوربا خلال القرن السابع عشر حتى قيام الثورة الفرنسية من ظهور نابليون فلم تجر على الأرض البريطانية أية حروب أو معارك كالتي شهدتها أوربا. وهكذا استقرت الاحوال في الجزر البريطانية مما ساعد البريطانيين على الاهتمام بالجوانب الاقتصادية والصناعية بينما كانت أوربا تعاني من ويلات الحروب.

4. قوة أسطولها واتساع مستعمراتها حيث راجت مصنوعاتها وتوفرت لها الاسواق ومصادر المواد الأولية ذات الأهمية الكبرى في تطور الصناعة.

✓ ثالثاً: اسباب اقتصادية:

1. **الحركة التجارية ونمو الرأسمالية البريطانية:** انعكس استقرار الحالة السياسية في بريطانيا على الحركة التجارية فيها بشكل ايجابي ومؤثر نقصد بهذه الحركة (التجارة الخارجية) التي أولتها الحكومة البريطانية عناية فائقة منذ بدايات القرن السادس عشر؛ لأنها تدر ثروات كبيرة من المعادن الثمينة كالذهب والفضة مما أدى الى تراكم رأس المال الهام في قيام الصناعة، ولذلك قامت ببناء الأساطيل البحرية والتجارية وأصدرت مجموعة من القوانين التي نظمت عمليات التبادل التجاري لصالح بريطانيا.

2. **توفر اليد العاملة الرخيص:** لقد ادى انتقال المخترعات في بريطانيا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر من مجال البحث الى حيز الانتاج الاقتصادي الى نشوء العمل وظهور الحاجة لليد العاملة التي كانت ترتبط بالزراعة والريف وقد كانت بريطانيا من الدول التي شهدت زيادة في السكان زيادة والتي نتج عنها استهلاك متزايد للسلع الغذائية والمواد الأولية مما ساعد على تقدم كبير في التقنيات الزراعية وقد حدث هذا بشكل خاص في بريطانيا.

3. **تطور صناعة النسيج:** ارتبطت صناعة النسيج التي هي أقدم الصناعات في بريطانيا بالنشاط الزراعي وبالمناخ البريطاني الذي تتلائم رطوبته مع هذه الصناعة وصناعة الغزل والنسيج كانت من أولى الصناعات التي تطورت عن كونها صناعات حرفية واسعة إلى صناعات مصنعية كبيرة.

4. **وفرة مصادر الطاقة وتطورها:** أن تطور عمليات استخراج الفحم الحجري في بريطانيا والذي كان يمثل مصدر الطاقة الاساسي قد ساعد على توفير الطاقة المستعملة في التعدين وانتاج الحديد دون حاجة الاستيراد والتي كانت بريطانيا تعتمدها من روسيا والسويد مقابل تصدير الحديد المهم في الصناعة سابقاً.

✓ رابعاً: أسباب اجتماعية:

1. إتجاه إنجلترا على العناية بالعلوم الطبيعية.
2. لم يترفع نبلاء إنجلترا عن كسب المال عن طريق المصانع والمناجم (بعكس نبلاء فرنسا). فظهر من بينهم العلماء والمخترعون أمثال (جيمس وات).
3. قيام حركة الاختراعات: المقصود بها ابتكار مجموعة من الآلات ووسائل الانتاج لكي تحل الأدوات والوسائل القديمة وكانت أول الدول التي شهدت هذه الظاهرة هي بريطانيا فأصدرت قانون براءة الاختراع الذي يحفظ للمخترع حق استعمال اختراعه.

نتائج الثورة الصناعية:

1. بروز الطبقة العاملة الكادحة: والتي كانت تستغل بشكل كبير حيثادى تطور المصانع الى الحاجة الى المزيد من العمال، مما زاد في تركز السكان بالمدن وتخليهم عن أملاكهم وأراضيهم الفلاحية مقابل مبالغ لا تعبر عن قيمها الحقيقية.

2. ظهور الطبقة البرجوازية: وهي الطبقة المالكـة لـرؤوس الأمـوال التـي تدعم المصانع والشركات، ومنه فقد احتلت هذه الطبقة مكانة اجتماعية واقتصادية مرموقة و أصبحت تملك النفوذ و السلطة.
3. زيادة كمية الإنتاج بنسب كبيرة و تنوع المنتجات و الابتكارات.
4. ارتفاع مستوى المعيشة و ظهور ضروريات جديـدة كالحاجـة للكهربـاء والنقل بالوسائل المبتكرة آنذاك.
5. ظهور النقابات العمالية المطالبة بحقوق العمال.
6. نمو التجارة الخارجية و امتدادها لأقطار عديدة من العالم.

لائحة الاصلاح الدستوري لسنة 1832م:

لقد لعبت الثورة الصناعية دوراً كبيراً في تطور نظـام الحكـم في بريطانيـا، ويعود ذلـك للتطـورات الاجتماعيـة والاقتصـادية التـي طـرأت عـلى المجتمـع الانكليزي، حيث نمت الطبقة الوسطى، والتـي تركـت أثـراً واضـحاً في تغيـير الواقع الإجتماعي والإقتصادي في المدن والأرياف، وحدث تغيير في حجم المدن واضمحلال بعضها وظهور أخرى وتراجع دور الريف، مما أدى إلى تغيير حجم التمثيل البرلماني لمجلس العمـوم، وسـاهمت تلـك المتغـيرات في إصـدار لائحـة الإصـلاح (*Bill Reform*) لسـنة 1832، وقـد عالجـت اللائحـة مشـكلة الانتخابات التي كانت تجرى في إطار ضيق ، وضمنت للطبقـة الوسـطى بعـض الحقوق إذ توسع حجم الانتخابـات ، لكنهـا في الوقـت نفسـه أهملـت حقـوق الطبقة العاملة.

✍ **وأبرز ما يميز لائحة الاصلاح من أهمية هي ما يلي:**

1. ازدياد عدد الناخبين في انجلترا بعد توسيع حقوق الانتخابات .

2. ازدياد الأهمية السياسية للطبقة الوسطى وأصبحت المحور الذي تتقرب إليه جميع الأحزاب السياسية وبذلك استطاعت الطبقة الوسطى أن تشارك في حكم البلاد دون استثناء ديني أو مذهبي.

انقسم المجتمع الانكليزي على نفسه بين مؤيد ومعارض ومتردد حول لائحة سنة 1832، وقد عارض الراديكاليون (*Radical*) ، الذين يمثلون الطبقة الكادحة اللائحة على اعتبارها لا تحقق مبتغاهم وأهدافهم ، فعمدوا إلى تأسيس الجمعيات والنقابات، وقادوا حركات عديدة للوصول إلى حقوقهم، وكانت أهمها الحركة الجارتية (*Chairitism*)، أي التعاهدية، واعتبرت السلطة متعهدة في تنفيذ رغبات الشعب ومصالحه ، وقد قدمت الحركة لائحة لإصلاح الأحوال السياسية والاجتماعية في البلاد إلى الملكة فكتوريا ، **جاء فيها:**

1. شمول جميع الذكور الراشدين في عملية الانتخاب.
2. أن يكون التصويت بشكل سري لضمان عدم تعرض المصوتين للضغط أو الخوف ولضمان إعطاء صوته بحرية وعدم تعرضه للأذى من قبل السلطة أو المتنفذين.
3. أن تكون الدورة البرلمانية لسنة واحدة .
4. منح النواب الرواتب والمخصصات بهدف انصرافهم إلى خدمة البلاد بإخلاص.
5. إلغاء الشرط القاضي بامتلاك الناخب لملك خاص.
6. تقسيم المملكة إلى مناطق انتخابية وتمثيلها حسب السكان وبشكل عادل .

لم تلق اللائحة قبولاً، ليس من قبل حزب المحافظين فحسب، بل حتى من قبل حزب الأحرار، فماتت الحركة في مهدها.

لم ينته دور الراديكاليين بنهاية الحركة الجارتية ، بل ظهرت عدة حركات أخرى بين الحين والآخر ، أعطت دفعة قوية للديمقراطية بشكل خاص وحقوق الإنسان بشكل عام في بريطانيا ، وكانت تلك الحركات تبني أهدافها على أفكار عدد من المفكرين الذين ظهروا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر.

وقد صدرت نتيجة لتلك الأفكار والحركات عدة لوائح قانونية في السنوات 1867 و1884 و1885 ، وقد أكدت تلك اللوائح على توسيع المشاركة في التصويت ، وأصبح مجلس العموم بموجبها أكثر فاعلية في الساحة السياسية البريطانية وعلى أساسها بدأت المؤسسات الحكومية تتبلور على أساس ديمقراطي مع بداية قرن العشرين .

الملكة فكتوريا وسياستها الداخلية والخارجية:

كانت أعظم من اشتهر في تاريخ إنجلترا. ولدت فيكتوريا في قصر كنسينغتون في لندن في 24 ماي عام 1819، وعندما تُوفي عم فكتوريا، الملك وليام الرابع، ولم يكن له وريث، خلفته فكتوريا على العرش، وتُوجت ملكة في كنيسة وستمنستر في عام 1838، كان اللورد ملبورن أول رئيس للوزراء في عهدها وقام بتعليمها شؤون السياسة والحكم.

تزوجت الملكة فكتوريا عام 1840 من ابن خالها ألبرت، أمير ساكس وأنجبت منه أربعة أبناء وخمس بنات، كان الأمير عالماً ورجل أعمال محباً للخير وكان الشعب يُكن له حباً واحتراماً كبيرين. ساعد الأمير ألبرت زوجته بهمة ونشاط في القيام بتصريف واجباتها الملكية، وشاءت الأقدار أن تُوفي الأمير

ألبرت عام 1861، فلم تستطع الملكة التخلص من أحزانها على فقدانه، إذ اعتزلت الحياة العامة وأنشطتها ولبست ثياب الحداد السوداء لسنين عديدة.

شغلت حياتها القرن التاسع عشر كله تقريباً، وشهدت انتقال انجلترا من ظلمة العصور الوسطى إلى الحضارة الحديثة، فلا غرابة إذا عد عصرها أجل عصر عرفته المملكة البريطانية، إذ عرفت فترة حكمها كثيراً من الأحداث المهمة، حيث خاضت بريطانيا حرب الأفيون في الفترة الممتدة بين 1839و1842 ضد الصين واحتلت جزيرة هونغ كونغ، كما شنت بريطانيا الحرب المعروفة باسم حرب القرم ضد روسيا في الفترة الممتدة من عام 1853 وحتى عام 1856، وشهدت سنوات حكمها الأخيرة اندلاع حرب البوير (1899-1902) لحماية مصالح بريطانيا في جنوب إفريقيا.

نقلت الملكة فيكتوريا السلطة على الهند في عام 1858 من شركة الهند الشرقية وهي شركة تجارية إلى الحكومة البريطانية ونُصِّبت فيكتوريا إمبراطورة على الهند، كما احكمت بريطانيا في عهدها قبضتها على مصر ومناطق أخرى كثيرة ووحّدت مستعمراتها في أستراليا وكندا.

أدى التوسع الكبير في رقعة الإمبراطورية إلى جعل بريطانيا أغنى دولة في العالم، بعد أن أنهت بريطانيا فرض القيود على التجارة الخارجية وأصبحت مستعمراتها مصدراً للمواد الخام وأسواقا لمنتجاتها في الوقت نفسه، وشملت الإمبراطورية البريطانية ربع مساحة العالم وربع سكانه.

كانت الملكة فيكتوريا متزنة التفكير تتمتع بقدرات جيدة، ورغم ذلك فإن قوة بريطانيا ترجع أساساً إلى رؤساء وزرائها القادرين، وهم: اللورد ملبورن والسير روبرت بيل والفيكونت بالمرستون وبنجامين ديزرائيلي ووليم

غلادستون وماركيز سالزبري، إذ أدركت الملكة فيكتوريا تدريجياً أنه من أجل بقاء الملكية في بريطانيا يتحتم عليها أن تتنازل عن بعض صلاحيتها وتنقلها إلى وزرائها ليقوموا بتصريفها من داخل المجلس التشريعي، فقبلت فيكتوريا أن تتحوّل من حاكم سياسي وتنفيذي إلى حاكم رمزي وهذا هو السبب الرئيسي في بقاء الملكية في بريطانيا.

ورغم ذلك حافظت الإمبراطورة فيكتوريا على دور فعال في الحياة السياسية، فشاركت رؤساء الوزارة في اتخاذ القرارات، بينما لم يكن لها موقف معلن إزاء الأحزاب والقوى السياسية في البلاد، فكانت تحاول دائماً الظهور كطرف محايد. حكمت هذه الملكة بريطانيا العظمى مدّة أربعة وستّين عاماً وتوفّيت عام 1901م .

ثالثاً: روسيا بين عامي [1815ـ1856]:

على الرغم من أن الإمبراطورية الروسية لعبت دوراً قيادياً هاماً في سياسة القرن التاسع عشر، بفعل هزيمة الإمبراطورية الفرنسية والقضاء على نابليون راسم الخريطة الجغرافية والسياسية الأوروبية، إلا أن الإبقاء على نظام الاستعباد حال دون أي تقدم اقتصادي ملحوظ.

وفي الفترة التي أخذت دول أوروبا الغربية تحقق خلالها نمواً اقتصادياً مطرداً بفعل الثورة الصناعية، التي كانت قد بدأت في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، أخذت روسيا تظهر تخلفاً وتراجعاً أكثر من أي وقت مضى، الأمر الذي خلق لها مشاكل جديدة، وهدد مركزها كقوة عظمى، نتيجة عدم كفاءة حكومتها، وعزلتها عن الشعب، وتخلفها الاقتصادي.

إلا أنه رغم ذلك فقد جرت محاولات للإصلاح في عهد الكسندر الأول، واقتربت روسيا اقتراباً كبيراً من المدينة الاوربية خلال القرن التاسع عشر وحاولت رغم تأخرها ان تتحين الفرص لإجراء الاصلاح وتفتح ذراعها لتلقي التطور، ثم صارت هي بدورها تقوم بقسط وافر من الإنتاج في حقول الأدب والموسيقى والاجتماع.

الكسندر الأول وسياسة روسيا الداخلية والخارجية:

تولى الكسندر الأول مقاليد الحكم بعد يوم واحد من اغتيال والده في سنة 1801 م وكان حاكماً محبوباً وله جماهيرية وحضور في أوساط الشعب بسبب أفكاره الليبرالية التحررية واهتمامه بطبقة الفلاحين كما أنه أسس نظاماً تعليمياً شاملاً وناهض القنانة (عبودية الأرض) لكنه لم يكن قادراً على إلغائها وكانت أغلبية الفلاحين لاتزال مستعبدة جاهلة لا تفرق حالتها عن حالت الفلاح الانكليزي أو الفرنسي.

وفي عهد الكسندر الأول ترافقت محاولات تحديث الدولة الروسية مع تضخم الجهاز الإداري للدولة وإحلال النظام البوليسي في البلاد. وفي عام 1822 أصدر مرسوماً بمنع نشاط المحافل الماسونية بعد أن أصبحت منظمة شبه حكومية في البلاد بفضل دعمه الشخصي لها، كما نص المرسوم على حظر نشاط الجمعيات السرية الأخرى، ولم يتسن له طيلة حكمه تذليل مشاكل البلاد عن طريق إجراء الإصلاحات فقد بقيت معظم القضايا السياسية والاجتماعية في روسيا بدون حل.

وفي عهده ايضا تمّ السماح باستيراد الكتب من أوروبا وإنشاء مطابع خاصة، كما أُسّس مجلس الشيوخ الذي كان بمثابة هيئة رقابية وقضائية في منظومة إدارة الدولة، كما تم تكليف أحد كبار المسؤولين (نيكولاي نوفوسيلتسيف) بإعداد مسودة الدستور الروسي. ولكن بعد الانتهاء من إعداد هذا الدستور تقرر تأجيل إصداره.

كان الاسكندر الأول يعين الوزراء ويطردهم متى يشاء ويأمر بالقاء القبض او السجن أو ينفي أو يعدم من يريد دون أن يستشير أحد وكانت له السلطة الشخصية حتى على الكنيسة الروسية القديمة نفسها وكان يؤمن بالافكار الحرة في شبابه ولكنه بعد أن عاد من مؤتمر فينا أخذ يطرد الأمراء من مستشاريه ويكره كل شيء جديد ويسمح لموظفيه بفعل كل ما يرونه لازماً للقضاء على الآراء الحرة التي ناصرها شاباً وحاربها كهلاً، فشدد الرقابة على الصحف حتى خنق الجرائد الحرة، وطرد اساتذة العلوم الحديثة من الجامعات .

أما سياسته الخارجية فقد كانت معتدلة وحاول إقامات علاقة صداقة مع فرنسا وبريطانيا لكنه أعلن الحرب على نابليون سنة 1804 م ودفع الغزو الفرنسي لروسيا عام 1812 م المعارضة إلى الالتحاق بالقوات الثورية.

في النهاية عمل ألكسندر مع حلفاءه على هزيمة نابليون وهذا ما تم له في مؤتمر فيينا عام 1815 م. إذ رجع القيصر اسكندر الأول من مؤتمر فينا إلى عاصمته بطرسبورغ وهو يتباهى بكبرياء وعظمة فقد اشترك في إسقاط نابليون ونجح في تكوين اتحاد مقدس بين ملوك أوربا وصار يحكم نصف القارة الاوربية بنفسه، أما العناصر الداخلية في إمبراطوريته هذه فكانت مختلفة متباينة في لغاتها وآدابها وتقاليدها، فمنهم الفنلنديون والألمان والبولنديون واليهود التتر والأرمن والمغول وغيرهم.

إن العنصر الروسي نفسه امتد حتى استولى على سهول روسيا الأوربية والجنوبية وانتشر نحو الشمال الشرقي حتى وصل سيبيريا وكون كتلة كبيرة من سكان الإمبراطورية الواسعة فكانت اللغة الروسية تدرس في المدارس وتستعمل في دوائر الحكومة، وكان أهل دوقية فنلندا العظمى يكرهون الخضوع لسيدتهم روسيا، كما كان البولونيون ينظرون إلى اليوم الذي يتخلصون فيه من الاستعمار الروسي ويكونون دولة مستقلة لها دستورها ولغتها، توفي بعدها بعشر سنين وخلفه شقيقه القيصر نيكولاي الأول.

نيقولا الأول (1825 - 1855):

خطفت يد الموت اسكندر الأول بغتة في ديسمبر 1825 فاغتنمت الجمعيات الثورية هذه الفرصة وأولعت نار الثورة المعروفة باسم (مؤامرة ديسمبر) ولكن الحركة لم تكن منظمة فقضت عليها بضع طلقات وأركعتها على ركبتيها ثم تم شنق بعض زعمائها. أعلن نيقولاي نفسه إمبراطوراً في كانون الأول عام 1825، وقد استهلّ عمله بالقضاء على الثورة، وإعدام خمسة من قادتها، ونفي الآخرين إلى سيبريا، أو إيداعهم السجن.

لم ينس نيقولا الأول الذي خلف اسكندر الأول الثورة التي كانت فاتحة عهده بالملك لذلك عمل على أن لا يترك مجالاً للحرية وأن يحكم بكل شدة وطغيان فكان من أظلم الملوك الذين ورد ذكرهم في تاريخ روسيا .

✓ اصلاحاته الداخلية:

نمّى نيقولا الأوّل الجيش حتى استهلك نحو 40٪ من الموازنة، وحاول إدارة روسيا كما لو كانت وحدة عسكرية. وعلى الرغم من أنّ حرية الفكر كانت منتشرة بشكل واسعٍ، فقد عمل منذ عام 1826م على تأسيس «الفرع الثالث»

الخاص بمكتب القيصر من أجل القضاء على الحركة الثورية، والمعارضة الجماهيرية، وملاحقة الأفكار التقدمية المتزايدة للمثقفين. وأنشأ شرطة سريّة لمنع أي نشاط معادٍ للحكومة. وعزّز الجهاز العسكري البيروقراطي، وركّز السلطات في يده، ووضع الصحف تحت الرقابة، واضطهد الكتّاب الروس، وسيطر على الجامعات، وطالب الجميع بالولاء للقيصر والكنيسة الأرثوذوكسية الشرقية والأمة الروسية. فعرف بحكمه القاسي، وتميّز عهده بالتنكيل الدموي للحركات المطالبة بالحرية، وحركات الاستقلال في المناطق البعيدة، ومطاردة اليهود، فكانت ضحايا حكمه الاستبدادي كثيرة، وحَكَمَ على كثير منهم بالنفي والأعمال الشاقة. وفي عهده تفاقمت أزمة نظام الرق الإقطاعي؛ لكنه بالمقابل أدخل العديد من الإصلاحات والتنظيمات الاجتماعية والاقتصادية. ففي عهده صدرت أوّل مجموعة قانونية روسية حديثة عام 1835م، وتمّت الموافقة على تحسين مستوى حياة الفلاحين العاملين في أراضي الدولة، مع الإشارة إلى واجباتهم، وعمل على إصلاح إدارة الدولة، ومع أنه كان حريصاً على عدم مسِّ مصالح طبقة النبلاء (الأشراف) بأذى، لا بل كان الاتجاه الأساسي في إدارة الحكم هو حرصه على ترسيخ دولة النبلاء الإقطاعيين، فإن تطور النظام الرأسمالي وضغط البرجوازية الناشئة، دفعته إلى التساهل والنزول عن كثير لمصلحة طبقة الصنّاع والتجّار (البرجوازية)، ففي سنة 1828م أنشأ مجلس مصانع النسيج، وافتتح معهداً تقنياً لتجهيز فنيين مختصين، نظموا فيما بعد معارض صناعية، ووافق على بناء سكة حديد روسيا.

✓ سياسته الخارجية:

ركزت سياسة روسيا الخارجية في عهده على ثلاثة محاور: محاربة الدولة العثمانية، وقمع الحركات الثورية في أوربا، وتوسيع الإمبراطورية الروسية. حاول نيقولا زيادة قوة روسيا في آسيا وجنوب شرقي أوروبا وخاضت روسيا في عهده عدة حروب ضد الدولة العثمانية، أوّلها: بين عامي 1828- 1829م حيث تمكنت الامبراطورية الروسية في عهد نيقولا الأول من إضعاف مواقع الدولة العثمانية في الحرب الروسية التركية 1828-1829 التي أسفرت عن الزام السلطان العثماني بالاعتراف باستقلال اليونان وبمنح الحكم الذاتي لصربيا. وأعلنت روسيا نفسها راعية لرعايا السلطان المسيحيين ، وثانيتها: حرب القرم بين عامي 1853- 1856م. وفي كلتا الحربين تدخلت الدول الغربية وخاصة بريطانيا وفرنسا إلى جانب الأتراك لمنع روسيا من القضاء على الدولة العثمانية، وعدم السماح لها بالوصول إلى البحر المتوسط وتهديد مصالحهم. وفوق هذا كانت روسيا تدعم وتساند حركات التحرر الوطني في البلقان ضد السلطنة العثمانية.

اتسم نيقولاي الأول بمقاومته لروح التغيرات في أوروبا، لذا فإنه قمع الثورتين البولندية عام 1831 والمجرية عام 1848 بكل شدة وكانت بولندا عندئذ جزءاً من الإمبراطورية الروسية الواسعة، وألغى الحكم الذاتي البولندي وتقسيم البلاد الى محافظات. واستعد نيقولاي في مطلع الخمسينات من القرن التاسع عشر لتوجيه ضربة قاسية اخيرة الى الدولة العثمانية. وبدأت الحرب معها بالنصر اللامع للاسطول الروسي في خليج سينوب التركي والذي حققه الاميرال بافل ناخيموف.

وأثارت نجاحات روسيا العسكرية الاستياء لدى الغرب الذي لم يرغب في زيادة نفوذ روسيا في الشرق على حساب الدولة العثمانية المنهارة، مما شكل أساسا لتشكيل التحالف بين بريطانيا وفرنسا. وأدت سياسة وزير الخارجية الروسي نيسيلرودي الى عزلة روسيا على الصعيد الدولي. ودخلت بريطانيا وفرنسا عام 1854 في الحرب ضد روسيا الى جانب الدولة العثمانية وقامتا بالانزال البحري في شبه جزيرة القرم وحاصرتا مدينة سواستوبول.

حرب القرم (1853 – 1856):

ترجع الأسباب العامة لهذه الحرب، التي قامت بين روسيا من ناحية والدولة العثمانية وبريطانيا وفرنسا وبيدمونت من ناحية أخرى، إلى المسألة الشرقية التي ظلت دون حل وكانت ذريعتها المباشرة النزاع بين روسيا وفرنسا حول الإشراف على الأماكن المقدسة بفلسطين، إذ تحدت فرنسا ادعاء روسيا حق الوصاية على تلك الأماكن. فحصلت 1852 من السلطان عبد المجيد على بعض الامتيازات للكنائس اللاتينية. ورفضت الدولة العثمانية 1853 المطالب المماثلة التي تقدمت بها روسيا وذلك بتأثير السفير الإنجليزي سترتفورد دي رادكليف. وفي حزيران 1853 ردت روسيا على ذلك الرفض باحتلال البغدان والأفلاق.

كما حاولت روسيا السيطرة على الأقاليم التابعة للدولة العثمانية مستغلة ضعف الدولة العثمانية، وفعرضت مشروعها التقسيمي على الدول الأوربية، متخذة من الدين ذريعة لإعلان الحرب على الدولة العثمانية إلا أن هذه الدول رفضت ذلك. كما كانت مصالح روسيا الجغرافية و المادية و الاستراتيجية تقتضي

منها ضرورة سيطرتها على المضايق وتحديدا مضيقي البوسفور و الدردنيل – اللذان يمثلان المنفذ الوحيد لروسيا والممر الوحيد لسفنها نحو المياه الدافئة– إما عن طريق القضاء على الدولة العثمانية المالكة لهذه المضائق، أو التغلغل في أوصالها لتحريك سياساتها، أو على الأقل ضمان حرية المرور لسفنها التجارية والحربية في كل الأوقات بهذه الممرات، وإغلاقها أمام السفن المعادية لروسيا.

بدات روسيا الحرب باحتلال إقليمي: الافلاق، و البغدان (رومانيا الحالية) التابعتين للدولة العثمانية عام 1853 م، وتقدمت جيوشه جنوباً أمام ضعف الجيش الإنكشاري الأمر الذي دفع بريطانيا وفرنسا إلى التدخل لحماية ممتلكات الدولة العثمانية ومن خلالها حماية مصالحهما، فأرسلتا أسطولاً مشتركاً إلى المياه العثمانية، ليقف إلى جانب الدولة العثمانية ضد التحدي الروسي. فتشجع الباب العالي و أعلن الحرب على روسيا في 4 نوفمبر 1853 م و لكن أسطوله انهزم في ميناء "سينوب" على البحر الأسود في 30 نوفمبر 1853 م على يد الأسطول الروسي، و عندئذ اقتحم أسطول الحلفاء البحر الأسود لمحاصرة القوات الروسية، وقامت فرنسا وانجلترا بإعلان الحرب على روسيا، و هاجمت القوات الروسية في "الأفلاق و البغدان " وأرغمتها على الانسحاب، ووضع الإقليمين تحت إدارة النمسا مؤقتا، و حاولت روسيا أن تستدرج قوات الحلفاء إلى داخل روسيا للقضاء عليها، و لكن الحلفاء تفطنوا للمكيدة و نقلوا الحرب إلى "شبه جزيرة القرم" اتجاه ميناء سيباستوبول ،حيث كان يرابط جزء من الجيش الروسي، فأرغموه على الانسحاب منها بعد هزيمته في معركة " ألما" في سبتمبر 1854 م ، ثم فرضوا حصارا على ميناء سيباستيول، وانضمت مملكة بيدمونت إلى فرنسا وبريطانيا ضد روسيا لكسب عطف الدولتين إزاء تطلعاتها

الوحدوية. وفي ايلول 1855 تمكنت قوات الحلفاء من احتلال ميناء سيباستيول فاضطرت روسيا الى القبول بالصلح واجبرت على توقيع معاهدة باريس.

معاهدة باريس 1856 :

بعد سقوط ميناء سباستيول بفترة قصيرة توفي نيقولا الأول وخلفه الكسندر الثاني وكان أكثر اهتماماً بأمور روسيا الداخلية ولذا قرر الموافقة على الدعوة الى مؤتمر سلام عقد في مدينة باريس وانتهى بمعاهدة الصلح التي تعرف بمعاهدة باريس عام 1856، وشاركت فيها فرنسا، بريطانيا، الدولة العثمانية، بيدمونت، النمسا و روسيا، **ومن أهم نصوصها النقاط الآتية:**

1. منع روسيا من استخدام البحر الأسود لأغراض عسكرية و عدم السماح لسفنها الحربية بعبورمضيق البوسفور و الدردنيل.
2. تنازل روسيا عن جنوب بسارابيا لرومانيا.
3. منح الاستقلال الذاتي للولايات العثمانية صربيا و رومانيا.
4. تعهد فرنسا و بريطانيا بضمان و حماية استقلال الدولة العثمانية ووحدتها.
5. حرية الملاحة في نهر الدانوب لجميع الدول الأوربية.

نتائج حرب القدم:

لا شك ان المطابع والمخاوف والنزعات القومية تعتبر من ضمن العوامل التي دفعت بالدول الى حرب القرم وقد كان من أبرز النتائج التي ترتبت عن هذه الحرب أنها حطمت التحالف الروسي النمساوي الذي كان بمثابة الضمان للأنظمة التقليدية في أوربا فبعد سنة 1860 وجدت كل من ايطاليا وألمانيا أوضاعاً أكثر ملائمة لتحقيق الوحدتين الايطالية والألمانية.

ومن ناحية أخرى أصبحت روسيا بعد الحرب أكثر اهتماماً بشؤونها الداخلية وأهملت لفترة من الزمن شؤون القارة الاوربية إضافة الى ذلك فإن البيان الذي صدر عن معاهدة باريس في سنة 1856 قد وضع الأسس والقواعد الدولية للحصار البحري وشروط حماية الدول المحايدة، ومن نتائج هذه الحرب من الناحية الطبية ظهور منظمة الصليب الاحمر التي تأسست رسميا بموجب اتفاقية جنيف.

رابعاً: فرنسا بين [1815 ــ 1848]:

أعيد لويس الثامن عشر الى عرش أجداده في فرنسا على أسنة حراب جيوش الحلفاء التي احتلت فرنسا فكانت بعيدة عن المجد والعز اللذين تتعطش إليهم الأمة الفرنسية إلا أن عودة الملكية إلى فرنسا لم يؤد إلى إعادة عجلة التاريخ الى الوراء خصوصاً بعد درس حكم المائة يوم الذي أقنع لويس الثامن عشر وأوربا أنه لابد من إتباع سياسة الموازنة بين الواقع ومتطلبات السياسة الجديدة وذلك لأن التحول الذي أوجدته الثورة الفرنسية ونابليون كان عميق الجذور في المجتمع الفرنسي مما يصعب إعادة الأمور إلى ما كانت عليه من قبل سنة 1789 لهذا بقيت قوانين المساواة والحرية الشخصية سارية المفعول.

شارل العاشر وقيام ثورة تموز 1830 :

أقدم شارل العاشر على حل البرلمان الفرنسي لرفضه فرض مزيد من الرقابة على أقدم الصحف وفي الانتخابات التي جرت سنة 1828 فاز تحالف الملكيين الدستوريين وبعض الأحرار والجمهوريين المعتدلين بالأغلبية ومع ذلك استمر شارل العاشر ينتهج سياسة متطرفة فعين كوليناك المعروف بعدائه للتحرر رئيساً للوزراء فحكم البلاد بلا برلمان لمدة سبعة شهور متحدياً

المعارضة العنيفة للغاية التي وقفت ضده وقد بدأت بوادر الثورة في الجلسة الأولى لمجلس النواب التي عقدها في 30 آذار 1830 حينما طالب المجلس المشاركة في الحكم ونزع الثقة عن الحكومة فغضب الملك وحل البرلمان لكن الانتخابات الجديدة اعطت نصراً قوياً للأحرار وزاد عدد نوابهم في مجلس النواب ومع ذلك لم يكف شارل العاشر محاولاته في إعادة السلطة المطلقة لعرش ال يوريون وقد توزقع أن نجاح الغزو الفرنسي الاستعماري للجزائر سنة 1830 واقيلاء الخزينة الفرنسية الفارغة بحوالي خمسين مليون فرينك ذهبي سلبت من أموال الشعب العربي في الجزائر سيمكنه من تنفيذ أحلامه فتحدى المعارضة باصدار أربعة مراسيم في 25 تموز 1839 مضت بحل المجلس الجديد وتقيد حرية الصحافة وتعديل الانتخابات لصالح الفئات المساندة له وكان من الواضح أن شارل العاشر وبوليناك لم يبغيا من تعديل القانون رفض المطلب الخاص بتوسيع دائرة الناخبين وهو المطلب الذي كانت تتصاعد ويزداد شدة خلال تلك السنة بل انهما قصدا مؤتمر تمزيق الدستور ذاته.

أدركت المعارضة نوايا التوجه الجديد لشارل العاشر فكان الرد اندلعت الثورة في باريس يوم 27 تموز 1830 أي بعد يومين من صدور المراسم ودار قتال في شوارع باريس حتى 29 تموز احتلت الجماهير في نهاية قصر الملك شارل العاشر وسيطرت على العاصمة كلها وقد حاول الملك استرضاء الجماهير بالتراجع عن مدارسه الأربعة، لكن ذلك لم ينفع ما اضطر شارل العاشر إلى الحرب الى خارج البلاد وقضي بذلك على حكم ال بوريون في فرنسا إلى الأبد.

حكم لويس فيليب (1830ـ 1848)

لقد قررت باريس مصير فرنسا واختفى العلم الملكي الأبيض قبل أن يستفيق أنصار شارل العاشر في الأقاليم من غفوتهم فدعى دوق دورليان ليصبح ملكاً باسم فيليب كان دورليان زعيماً لعائلة اورليان العريقة وابن الدوق فيليب الذي ناصر الثورة الفرنسية منذ أيامها الأولى رغم قرابته للويس السادس عشر بل أنه صوت في حينها إلى جانب إعدامه قبل أن يفصل رأسه عن المفصلة في عهد الإرهاب ومع ذلك بقي ابنه دوليان بعيداً عن أوساط المهاجرين فلم يتأمر معهم ولم يعاد الشعب أو حكم الإمبراطور وبقيت علاقته ممتازة بالأوساط التحررية بعد سقوط نابليون لقد كانت ثورة تموز 1830 ضربة خطيرة لمقررات أوربا في مؤتمر فينا، ففيها انهار جزء أساسي من النظام الاوربي وهم سلالة الـ بوربون، أن حكم لويس فيليب في سنواته الأولى كان ناجحاً في جلب الاستقرار إلى فرنسا ووضع حد للشهوات الفرنسية في الثورة أو المغامرة في حرب خارجية، ويعود هذا النجاح إلى قدرة لويس فيليب في إدارة دفة الحكم ووجود ساسة أذكياء تعاونوا معه في خدمة الدول مثل جيزو والذي اشتهر بايجاد نظام تعليم الدولة.

إلا أنه مع تقدم السنين ظهرت عوامل أضعفت حكم لويس فيليب منها أن نظام الحكم لم يكن جمهورياً ولا ملكياً، ولم تكن تحيط به تلك الأبهة التي رآها الشعب الفرنسي عند أصحاب ايتجان. كما أن النظام كان باهتاً لا يمتلك الصرامة وذلك الصبت الحذلي المجيد الذي تميز به نابليون بل عن العكس كانت سياسته الخارجية تمتاز بالتساهل والتسوية مع بريطانيا ورغبته في تجنب أية مخاطرات أو مجازفات براقة من جانب أخر أغضب سياسة التعليم التي اعتمدت على مبادئ غير مذهبية ومما زاد في غضب الكنيسة أن حكومة فيليب لم تحفل بأمر رجال الدين تماماً وفي مجال الحرية والانتخابات رفضت الحكومة أية مطالبة بتطوير وإصلاح الأنظمة الانتخابية.

وسط هذا التوتر السياسي العام واضطراب الأوضاع الاقتصادية والإجتماعية بدأت بوادر ثورة 1848 بباريس منذ صيف 1847 أخفق الاحرار في اجبار الحكومة على إعطاء بعض المنح فدعى زعيمهم بارد إلى حملة جماهيرية في طول البلاد وعرضها للمطالبة بإصلاح وتوسيع دائرة حق الانتخابات لم تستجب الحكومة للمطالب ومنعت عقد مأدبة كان من المقرر إقامتها في 22 فبراير شباط 1848 ومنعت الاجتماعات السياسية مما ادى إلى اصطدام القوات الحكومية مع الشعب ليلة 22ــ 23 شباط بباريس وتسقط عدد من الضحايا فتطور الأمراء إلى عصيان، وانتصب المتاريس في شوارع باريس وارتفع علم الثورة صبيحة يوم 23 شباط واستمر القتال الى اليوم التالي وتحصن الثوار المثقفين والعمال خلف المتاربس واستبدل الهتاف بالإصلاح إلى الهتاف بالحياة الجمهورية.

خامساً: إيطاليا [1815 ـ 1870]:

كانت ثورات وانتفاضات 1830 و1843 طريقاً للوصول الى الوحدة القومية والحرية في الدول الأوربية غير الموحدة والتي كانت تتمثل فيها مقومات الامة في اللغة الواحدة والأرض الواحدة والتاريخ المشترك والعادات والتقاليد والشعور بالمصير الواحد. وكلما نجحت الدول الاخرى في تحقيق حريتها أو الاصلاحات الدستورية نجحت الامتان الايطالية والألمانية في تحقيق وحدتها وحريتها وكان لكل منهما طريقه الخاص الذي اظهر الى الوجود وإلى أول مرة في تاريخ أوربا الدولة القومية الحديثة التي تقوم على أساس الوحدة بعد التجزئة.

الدويلات الإيطالية:

كانت ايطاليا في عام 1789 وقبل اشتعال الثورة الفرنسية الكبرى مقسمة الى عدة إمارات مثل:

1. ممالك: مملكة نابولي، مملكة بيدمونت.

2. دوقيات مثل: ميلان، ووسكانية، بارما، فيورنتينا، لوكا.

3. جمهوريات مثل، البندقية، جنوى، دومانكو، سان مارينو.

4. الولايات البابوية: منطقة المارشى، واميريا، ورومانا.

وهكذا كانت ايطاليا حتى ذلك العهد مقطعة الأوصال يقف دون تحقيق وحدتها عدة عوامل منها وجود أسرة نمساوية في الشمال وملوك الـ بوربون الأسبان في الجنوب ورغبة البابا كرئيس ديني للحفاظ على سلطاته الدنيوية وتفكك الإيطاليين السياسي والمنافسة القديمة بين الإيطاليين .

وما كادت الثورة الفرنسية تشتعل وتنشر أفكارها عن الحرية والمساواة والإخاء حتى أثر ذلك في ايطاليا بل خطا بها الخطوة الأولى في سبيل وحدتها القومية لاسيما في عهد نابليون حيث قضى على الولايات العديدة التي كانت قائمة بها **وأوجد ثلاث ممالك هي**:

1. **مملكة ايطاليا 1805**؛ وكانت تشتمل لمبارديا والبندقية والجزء الشمالي من ساحل الادرياتيك كان هو ملكاً عليها ثم جعل يوحنا بوهاتية ابن زوجته نائباً عنه.

2. **مملكة نابولي**1806: وشملت الجزء الجنوبي من شبه الجزيرة وحكمها جوزيف بونابرت ثم مورا صهر نابليون.

3. مملكة بيرمنت: شملت جزءاً كبيراً من الساحل الغربي لشبه الجزيرة وضمت الى فرنسا في المدة 1802ــ 1809.

ويعتبر نابليون أحد الذين انشأوا ايطاليا الحديثة، حيث نبه الإيطاليين إلى أهمية الحكومة الصالحة بطرد الحكام القدامى وإقامته نظام اداري صالح ساوى فيه بين المجتمع مما آثار في نفوس الايطاليين الرغبة القومية في تأليف أمة قوية موحدة بحيث يمكن القول أن نظم قواعد الحياة القومية في ايطاليا قد وجدت اثناء الاحتلال الفرنسي كذلك كان من آثار نابليون الحسنة على ايطاليا أن يقضي على بقايا الاقطاع وحد من سلطة الكنيسة وجعل البابا رئيساً دينياً فقط، وليس سياسياً وأصلح قوانين النظم إلا إن الدول المجتمعة في فيينا في 1815 لم تراع هذه التطورات، وأعادت النظام القديم في كل الولايات والإمارات، حيث أعاد مؤتمر فيينا تقسيم ايطاليا إلى عشرة أقسام لا يوجد من بينها قسم قوي يستطيع السيطرة على بقية الأقسام الأخرى، ويوحد ايطاليا وارتبطت معظم هذه الاقسام بالنمسا التي أصبحت صاحبة النفوذ الأكبر في ايطاليا.

الجمعيات الايطالية:

- ثورات الكاربوناري:

كان الشعب الأيطالي بعد أن هزت مشاعره مبادئ الثورة الفرنسية، أحس بمزايا الوحدة، لم يقبل للخضوع لحالة التمزق، وفي مواجهة بطش الحكومات المتحالفة معاً النمسا، لجأ الشعب الأيطالي إلي تكوين الجمعيات السرية التي تسعى إلي تحقيق أهدافه القومية، من أشهر هذه الجمعيات جمعية الكاربوناري أي حارقو الفحم وهي جمعية سرية تشبه في مراسمها وتشكيلاتها تشكيلات الماسونية ، وظهرت في نابولي و في سنة 1820 تمكن الكاريوناري من إشعال

الثورة في نابولي وارغمت الملك على إنشاء دستور جديد وسرعان ما انتقلت إلي بيدمونت وجعلت الملك يتانزل عن حكمه لولي عهده ولكن تحركة جيوش النمسا وسرعان ما استعادت زمام الأمور وأخمدت نيران الثورة في كل مكان. وعلى اثر قيام ثورة سنة 1830 في فرنسا تجددت ثورات الكاربوناري، وتركزت في الولايات البابوية ودوقيات الوسط، وتمكن الثوار من السيطرة على بعض هذه الدوقيات لكن سرعان ما أن تحرك الجيش النمساوي وقضى على تجمعاتهم، ولم تقدم فرنسا بعد نجاح الثورة فيها على المساعدة التي كان ينتظرونها الأيطاليين لكن ساعدت في قمع الثورة بعد تجددها في الولايات البابوية في عام 1832.

وكان سبب فشل ثورات الكاربوناري ترجع اخفاقها بسبب عدم انتشارها بين صفوف الشعب وطبقاته المختلفه، وأيضاًعدم وضو أفكارها.

- **جمعية إيطاليا الفتاة :**

ومن بين أعضاء الكاربوناري السابقين برزت شخصية جوزيف ماتزيني (1805-1782) الذي كرس حياته لتحقيق الوحدة الأيطالية، وتعرض في سبيل ذالك إلي السجن والنفي و صدر عليه حكم غيابي بالأعدام و أسس ماتزيني 1831 وهو في المنفى في مارسيليا جمعية ايطاليا الفتاة، واشعل في قلوب مواطنيهنار الوطنية وزودهم بقوة الأمل بأن ((أيطاليا ملكة العالم، وأرض دانتي، مركز البابوية، مهد النهضة، ومبعث النور والحرية لن تموت، بل ستبعث و تعيد سيرتها الأولى) وقال ذالك لن يحدث إلى إذا قدم الأيطاليون أرواحهم فداء للوطن وعانوا من النفي والسجن بسبب المعتدي الغاصب النمسا وحدد ماتزيني الهدف الذي يسعى إليه وهو إقامة الجمهورية في ايطاليا الموحدة.

وهكذا لم تكن إيطاليا الفتاة مجرد حزب أو جمعية إنما كانت روح سرت في إيطاليا بعثت فيها الحيوية والأقدام و لهذا اطلق على ماتزيني (روح الثورة الايطالية ونبي الوحدة الايطالية).

إلي جانب إيطالية الفتاة ظهرت بعض الأحزاب الأخرى التي سعت أيضاً إلي توحيد إيطاليا و النهوض بأبنائها، وأن اختلفت في ايطاليا الفتاة عن عدم إيمانها بالاتجاه الجمهوري ومن أهم هذه الاحزاب:
الحزب الباباوي الاتحادي: الذي تزعمه البابا بيوس التاسع الذي قام بإطلاق سراح المعتقلين السياسين، ووافق على انشاء مجلس استشاري من العلمانيين، وجيش أهلي يحل محل المرتزقه، وأنشأ مجلساً بلدياً لمدينة روما، وساوى القساوسة بالأهالي في دفع الضرائب وقد ازعجت هذه الأصلاحات طاغيت النمسا مترنيخ وصرح قائلاً: لقد كنا نتوقع كل شيء ماعدا ظهور بابا حر، والآن قد ظهر فلا حد لما سنراه في المستقبل.

الحزب الملكي: الذي تزعمه المللك شارل ألبرت بيدمونت منذ 1831 وهو الذي اخذ يتجاوب مع الحركات الحرة ووافق على مراجعة القانون الجنائي وتخفيض الرقابة على المطبوعات، وتعديل قانون الأجتماعات العامة، وأعلن استعداده لخوض حرب ضد النمسا لتحرير إيطاليا.

- **ثورة 1848 والحرب مع النمسا:**

اندلعت ثورات عام 1848 في أماكن عديدة من إيطاليا وكذلك في أجزاء أخرى كثيرة من أوروبا. نتيجة لذلك اضطر تشارلز ألبرت ملك بيدمونت وليوبولدو الثاني دوق توسكانا الأكبر لتقديم تنازلات للديموقراطيين. شملت الثورات فيينا نفسها، وميلانو (خمسة أيام من ميلان) والبندقية (جمهورية سان

ماركو، التي أعاد النمساويون السيطرة عليها في 1849) المدينتان الرئيسيتان في مملكة لومبارديا فينيشيا التابعة حينها للحكم النمساوي. طردت الثورة في صقلية (عدا ميسينا) جيوش البوربون. كما اضطر تشارلز الثاني من البوربون أيضاً لمغادرة دوقية بارما.

قررت مملكة سردينيا استغلال ما يبدو لحظة مواتية وأعلنت الحرب على النمسا في تحالف مع الولايات البابوية ومملكة الصقليتين وهاجموا ممتلكات النمسا الضعيفة في إيطاليا.

نجم عن الحرب فشل سردينيا في هزيمة النمسا بمفردها. دفع هذا سردينيا إلى التماس حلفاء ضد النمسا، و وجدت مبتغاها في فرنسا (1859) وبروسيا في (1866) حيث تمكنت في النهاية من طرد النمساويين من شمال إيطاليا.

مملكة سردينيا وتحقيق الوحدة الإيطالية:

ظلت مملكة سردينيا او بيدمونت معقد الآمال في تحقيق الغاية العظمى للإيطاليين وهي الوحدة القومية ، وقد توفرت لهذه المملكة عدة عوامل جعلتها في مركز أفضل من سائر الولايات الإيطالية لتحمل هذه المسؤولية:

1. فعلى الرغم من هزيمتها كانت تملك جيشاً حسن التنظيم والقيادة .
2. كان لها دستور يقوم على المبادئ الحرة .
3. ظهرت فيها شخصية سياسية فذة هي شخصية (كافور) الذي استطاع أن يوفر لها الخطط والأسباب التي جمعت إيطاليا في النهاية في وحدتها المنشودة، **واتبع في سياسته الخطوات التالية:**

- ✓ اعتنى كافور بالناحية الإقتصادية للإمـارة، فطـور الصـناعة والزراعـة، وفرض الضرائب عليممتلكات الكنيسة، ودعم الحياة النيابيـة، وحـرر القوانين من التقاليد الدينية، ووضع ميزانية، واهتم بإصلاح الطـرق ومـد السكك الحديدية، وأبرم سلسلة من المعاهدات التجارية مع بعض البلدان.
- ✓ إعتنى بالناحية العسكرية، فدرب الجيش وسلحه ونظمه وطور أسـاليبه الحربية وفقاً للتطورات الجديدة .
- ✓ اهتم بإيجاد حلفاء له يقفون إلى جانبه عندما يحين الوقت لمحاربة النمسا، فاشترك بجيوشه في حرب القـرم(1854 م- 1856 م) ضـد روسـيا، وضمن بذلك صداقة فرنسا وانجلترا.
- ✓ استمال إليـه نـابليون بعـد وقوفـه إلى جانـب فرنسـا في مـؤتمر الصـلح 1856م، واتفق معه في بلومبير1858 قرب الحدود الفرنسـية أن تقـف إلى جانبه فرنسا ضد النمسا **وفق الشروط التالية بعد الإنتصار**:
  - ✓ تضم لمبارديا والبندقية إلى بيدمونت، وتكون منها مملكة إيطالية.
  - ✓ تبقى الولايات الوسطى والجنوبية وأملاك البابا مستقلة.
  - ✓ يكون إتحاد إيطالي من كل الولايات تحت زعامة البابا.
  - ✓ ضم سافوا و نيس إلى فرنسا.

حروب الوحدة :

1. الحرب ضد النمسا:

أخذ كـافور يقـوي الجـيش ويمـده بالأسـلحة، ويقـوم بمنـاورات عـلى الحدود، فأثار ذلك النمسـا ضـده ،وأرسـلت إليـه إنـذار بتجريـد الجـيش مـن السلاح، فرفض كافور، وأعلنت النمسا الحرب عليه في 1859م فوقفت فرنسـا إلى جانب بيدمونت، وتوالت هزائم النمسا ، وفجأة توقف نابليون عن مواصـلة

الحرب، **وعقدت هدنة مؤقتة ثم أبرم صلح بين الفريقين المتحاربين في (زيوريخ) بدون رضا كافور نص على ما يلي:**

- ✓ تنازل النمسا لبيدمونت عن مقاطعة لمبارديا فقط على أن تحتفظ بالبندقية.
- ✓ يتنازل نابليون عن نصيبه في سافوي ونيس.
- ✓ اضطر ملك بيدمونت إلى الرضوخ للأمر الواقع، واعتبر ذلك إهانة له، فاستقال من منصبه، غيرأنه سرعان ما عاد إليه بعد أن تبينت له حكمة الملك (ايما نويل الثاني)، ورأى أن المعاهدة لا تحول دون الوصول إلى هدفه خاصة بعد إجماع السكان على الانضمام إلى بيدمونت.

2. حركة غاريبالدي وانضمام الجنوب :

كانت الخطوة التالية إلى الوحدة الإيطالية هي ضم (نابولي) وقد قام بذلك غاريبالدي الذي استماله كافور وأمده بالمال والسلاح فكون لنفسه جيشاً عرف (بذوي القمصان الحمر)، اتجه إلى مساندة الثورة التي قامت في (بالرمو) عاصمة صقلية سنة 1860 م وهزم ملك نابلي وصقلية و سيطر على الجزيرة، ثم قطع مضيق مسينا إلى نابلي نفسها واستولى على عاصمتها بسهولة، وهناك وافاه ملك بيدمونت (ايمانويل الثاني) بجيشه وقرر شعب الإمارة بالإجماع الانضمام إلى بيدمونت ثم نصب ايمانويل الثاني نفسه ملكا إيطاليا الموحدة.

قيام الوحدة :

لم يبق من الولايات الإيطالية خارجاً عن نطاق الوحدة إلا البندقية وروما.وكلاهما تمثل مشكلة وتتطلب جهداً وعناءً، ويتوقف ضمهما على التغيرات التي تطرأ على التوازن الدولي في أوروبا. وعندما قامت الحرب بين النمسا وبروسيا عام 1866 م. إستغلت إيطاليا الفرصة وضمت البندقية إليها، وعند قيام الحرب بين بروسيا وفرنسا 1870 م. إستغلت إيطاليا الفرصة وضمت روما، وحولت إلى عاصمة إيطاليا استجابة لرغبة الشعب.

الفصل الثامن

الانفجار التجاري الإسلامي في القرون الوسطى المسيحية

• شارلمان:

الأمبراطور (شارلمان) ملك الفرنجة وفاتح سكسونيا ومؤسس الأمبراطورية الرومانية المقدسة وأحد الحكام الأوائل في تاريخ أوروبا. ولد عام 742 قرب مدينة اخن الالمانية التي أصبحت عاصمته فيما بعد ، وكان والده يدعى (بيبن القصير) وكان جده (شارل مارتيل) زعيم الفرنجة العظيم الذي أنتصر على العرب عام 732 في معركة بواتيه أو (بلاط الشهداء).

وقد أسس والده (بيبن) أسرة مالكة جديدة سميت بأسم (العائلة الكارولنجية)، بعد أن توفي (بيبن) عام 768 قسمت مملكتة الفرنجية بين (شارل) وأخيه (كارلومان) ولحسن حظ (شارل) فأن أخيه توفي فجأة عام 771 وبذلك أصبح وهو في التاسة والعشرين الحاكم المطلق لمملكة الفرنجة جميعها التي كانت أقوى مملكة في أوروبا الغربية. عند أعتلاء (شارلمان) العرش كانت مملكة الفرنجة تتألف مما يدعى الآن فرنسا وبلجيكا وسويسرا وبعض مناطق هولندا وألمانيا.

حاول (شارلمان) توسيع رقعتة مملكته، وقد كانت زوجة أخيه المتوفي (كارلومان) قد ألتجأت الى مملكة اللومبارد ، فطلق (شارلمان) زوجته اللومباردية وقاد جيشه الى لومبارديا وشمال أيطاليا وفي عام 774 كان اللومبارد قد هزموا جميعاً، وضم شمالي أيطاليا الى أملاكه وقد وقعت زوجة أخيه وأطفالها أسرى بين يديه ولم يرهم أحد بعد ذلك!

من أهم وأصعب الأعمال التي قام بها (شارلمان) هو هزيمة السكسون في شمال ألمانيا وقد أحتاج فتح تلك البلاد الى 18 حملة عسكرية وكانت العوامل الدينية تلعب دورها في هذه الحرب، فقد كان السكسون وثنيين أما (شارلمان) فأراد أن يدخل الكاثوليكية الى بلاد السكسون وكان يقتل كل وثني يرفض الدخول في المسيحية.

حارب (شارلمان) أيضاً في جنوب ألمانيا وجنوب غرب فرنسا للسيطرة على تلك المناطق ، وأخر المناطق التي فتحها كانت منطقة افار) وكانوا شعبا أسيويا قريبين من (الهون) يشغلون أرضاً كبيرة فيما ندعوه اليوم هنغاريا وصربيا وأستطاع قهرهم والقضاء على جيشهم .

حاول (شارلمان) غزوا أسبانيا حيث كان يحكم قسماً كبيراً منها العرب لكنه فشل ونتيجة لحروبه الكثيرة فقد حاول أن يوحد أوروبا الغربية، وقد حارب في 54 حملة خلال الخمس والأربعين سنة التي حكمها.

كانت بينه وبين (هارون الرشيد) في بغداد مراسلات، وقد أرسل (الرشيد) هدايا (لشارلمان) منها ساعة مائية كلما مرت ساعة تخرج جنوداً بعدد الساعة المطلوبة وتدق وقد كان لهذه الساعة وقع على الحضور من حاشية (شارلمان) ووزرائه لدرجة أنهم هربوا وأعتبروا أن ذلك من عمل الجن. توفي (شارلمان) عام 814 بعد أن أكمل الثانية والسبعين من العمر.

تعد أطروحة العالم البلجيكي هنري بيرين «محمد وشارلمان»، واحدة من أهم الأطروحات الاستشراقية التي زعزعت عالم المتخصصين في القرون الوسطى المسيحية، ولا سيما فيما يتعلق بالكشف عن ظهور مجتمع جديد في القرن الثامن الميلادي داخل أوروبا قائم على الاكتفاء الذاتي، وهو مجتمع سوف يعبر عن نفسه لاحقاً من خلال أشكال موهنة من الإقطاعية.

وبرأي بيرين فإن ظهور هـذا النظـام الإقطـاعي الـذي سـاهم في تراجـع أوروبا، لم يكن نتيجة عوامل داخلية فحسب، بل يعود في أساسه إلى ظهـور قـوة غريبة – الدولة الإسلامية– على الشواطئ الشرقية للمتوسط، مـا أدى إلى قطـع الطرق القديمة للتبادل التجاري التقليدي بين الدول الأوروبيـة وآسـيا، وتـرك أوروبا الغربية من دون أسواق لتصريف البضـائع، الأمـر الـذي سـبب تراجـع اقتصادها ليصبح نظاماً اقطاعياً يتميـز بمقايضـة السـلع، وهـو مـا كـان سـائداً في القرون الوسطى (في الغرب). وهذا ما أخذ يمهـد لمجموعـة مـن الأحـداث السياسـية والاجتماعيـة والاقتصـادية التـي أدت إلى تغيـير شـكل العلاقـة بين الكنيسة والدولة تغييراً جذرياً من خلال تتويج شـارلمان إمبراطـوراً مقدسـاً عام 800. وقدعبر بيرين عن ذلك بقوله «إنه من غـير محمـد ﷺ لم يكـن مـن الممكن تصور شارلمان».

في هذا السياق، يرى جين هيك استاذ التاريخ في جامعة ميرلاند في كتابـه «شارلمان ومحمد، والجـذور العربيـة للرأسـمالية» الـذي تـرجم للعربيـة بعنـوان «الجذور العربية للرأسمالية الأوروبية»، أن أطروحـة بـيرين السـابقة تبقـى غـير متماسكة نظرياً، ذلك أن الوجود الإسلامي على شواطئ المتوسط، لم يكـن يعـبر عن عداء صريح لأوروبا، بل على العكس من ذلك، فقد ساهم هذا الوجود بعد ثلاثة أو أربعة قرون في توفير مناخ اقتصادي جديد. فنتيجـة احتكـاكهم المبـاشر مع المدن الإيطالية، نقلوا الكثير من تكنولوجيـاتهم العلميـة المبتكـرة والمتطـورة إلى البندقية وأمالفي ومرسيليا، وهي المدن ذاتها التي قال الكثـير مـن المـؤرخين الاقتصاديين الحديثين أن الرأسمالية الغربية نشأت فيها.

• جذور الركود في أوروبا المسيحية:

من جانب آخر، يرى هيك أن بداية العصور المظلمة في أوروبا المسيحية لم تكن أبداً نتيجة عوامل خارجية، بل نابعة من تطورات اجتماعية اقتصادية داخلية، حيث نجد أن علامات ضعف البنية التحتية للإمبرطورية الرومانية ظهرت منذ القرن الثالث الميلادي، أي قبل أربعمئة سنة من بدء التاجر الشاب محمد ﷺ مهمته الدينية.

فعلى الصعيد الاجتماعي الاقتصادي بدأت أوروبا تشهد فترة جديدة رثاها معظم المؤرخين الغربيين عبر تسميتها بـ"محنة القرن الثالث"، حيث أخذ الوهن والطاعون والحرب الأهلية والتعديات البربرية تضعف من البنى الإجتماعية والإقتصادية في كل مقاطعات الإمبراطورية تقريباً، إلا أن اقتصاد الإمبراطورية الرومانية تلقى الضربة القاضية عندما قرر قسطنطين الأول في أواسط القرن الرابع الميلادي إنشاء عاصمة جديدة في القسطنطينية، الأمر الذي قسم الإمبراطورية السابقة إلى قسمين، عندها أصبح سقوط روما مسألة وقت لا أكثر.

أما التطور الآخر الذي سرع النهاية التدريجية لاقتصاد بلاد الغال فهو التدخل المتزايد للكنيسة في الشؤون الدينية، الذي بدأ مع حدث مفصلي تعرضت له أوروبا، وهو معركة تورز (سنة 732) ذائعة الصيت في تاريخ الغرب المسيحي. ففي هذه المعركة أنقذ تشارلز مارتيل (عمدة باريس) أوروبا من الخطر الكاسح للإخضاع الإسلامي السياسي، وقد كان مارتيل مقرباً من الأسقف بونفيس وسان ويلفرد اللذين استفادا من موقعه الجديد، فقاما بجلب العديد من الرهبان للقيام بحركة إصلاحية كبرى من خلال الدعوة لتعاليم الكنيسة الأرذثوذكسية بما فيها العودة إلى عقائدها الاقتصادية الأساسية المتعلقة بالفقر المدقع.

فعلى سبيل المثال كان ثمة تحذير إنجيلي من لعنة الغني «ولكن ويل لكم أيها الأغنياء لأنكم نلتم عزاءكم، فمرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غني إلى ملكوت الله»، ووصلوا إلى حد التأكيد أن التجارة بالكاد تستطيع أن ترضي الله. وبالتالي نجد – بحسب هيك- أن الكنيسة منعت دافع الربح والقدرة على أخذ فائدة على رأسمال والسعي الفطري وراء الربح المادي الذي يميز الاقتصادي في نظام السوق الحرة، فكان من ذلك أنها أدت إلى دمار روح العمل الحر في بلاد الغال، لتتحول بذلك أوروبا إلى قربان على مذبح الفقر. ومع ذلك، فان الآباء المؤسسين المبكرين أكدوا أن اليهود وحدهم هم الذين يحق لهم الانخراط في عمليات تتضمن الفائدة، وذلك بسبب شرط في سفر التثنية للعهد القديم ينص «للأجنبي تقرض بربا، ولكن لأخيك لا تقرض بربا»، ومن هنا يمكن تفسير كيف أن اليهود أصبحوا الوسطاء الأساسيين في تجارة أوروبا المسيحية خلال القرون الوسطى.

في الطرف المقابل، يرى هيك أن نشوء المستوطنات المدينية خلال الفتوحات الإسلامية الأولى كان عاملاً رئيسياً ساهم في تجديد الشرق الأدنى اقتصاديا خلال القرون الثلاثة الأولى من الهيمنة الإسلامية. فقد تأسست هذه المدن في البداية كمواقع عسكرية بهدف ترسيخ الفتوحات الإسلامية، كالبصرة والكوفة في العراق والفسطاط في مصر التي تأسست جميعها بين عامي 14 و20 الهجري، وكانت هذه البلدات بحد ذاتها محفزات قوية للنمو الاقتصادي، فلم تسرّع فقط البناء على نطاق واسع، بل سرّعت أيضاً تطور وسائل نقل واسعة الانتشار من أجل الربط في ما بينها عبر شبكة عسكرية، بالإضافة لوجود جيش يضم عدداً كبيراً من المحاربين المتفرغين للفتوحات والذين يتلقون دخولهم

من الغنائم الوفيرة التي غنمها المسلمون، وخلِق نظام خدمات عرف باسم العطاء مؤلف من رواتب نقدية أساسية تدفع إلى المسلمين كلهم بمبالغ متفاوتة، مما أدى إلى تطور شعب مديني استهلاكي ضخم، واستقرار اقتصادي نتيجة لطلب المستهلك.

كما تزامن هذا التراكم للرأسمال السائل داخل الأراضي التي تم فتحها، مع سياسة عدم تدخل كانت تتبع جدياً داخل أسواق الدولة الإسلامية، كما تؤكد أدلة في مصادر موثقة أن دافع الربح كان القوة الفعلية الأولى خلف النجاح المنقطع النظير للهجوم التجاري الإسلامي العالمي. وفقاً للمؤرخ هيك، فإن هذه الرؤية الاقتصادية داخل دار الإسلام، كانت تعود بالأساس إلى ذكاء العديد من العلماء فائقي الموهبة، كأبي الفضل الدمشقي مؤلف كتاب: «الإشارة إلى محاسن التجارة»، والشيباني «الإقتصاد في الرزق المستطاب»، إضافة لمجموعة من الأعمال المالية والإدارية التي ساهمت مساهمة كبرى في صياغة الصفة التجارية للدولة الإسلامية.

ويقول العالم الفقيه الشهير الذي عاش في القرن الخامس الهجري أبو الفضل الدمشقي في كتابه "الإشارة إلى محاسن التجارة": «التجارة إذا ميزت من جميع المعايش كلها وجدتها أفضل واسعد للناس في الدنيا». وبالتالي تثبت المصادر أن البحث عن الربح عبر التجارة كان في طليعة الطموحات الاقتصادية للمسلمين الأتقياء، وبلغت مثل هذه المحاولات المبكرة في تأويل السوق الحرة ذروتها في الأبحاث البارزة للمؤرخ الاقتصادي ابن خلدون خلال القرنين الثامن والتاسع الهجري.

إلا أن تساؤلات جوهرية حول الفائدة تطلبت على وجه الخصوص نقاشاً وجدالاً مطولين، فقد كان النبي محمد ﷺ مهتماً للغاية بضمان تحقيق الإنصاف داخل سوق المستهلك مما أجبر الفقهاء المسلمين على البحث عن حلول بارعة لتحريم الدين بالربا، من خلال ظهور أعمال تأويلية خلاقة تحت اسم «كتب الحيل والمخارج» التي نشرتها المدرسة الفقهية الحنفية المنتشرة آنذاك في جميع أنحاء البلاد، حيث تحوي هذه الكتب على ممارسات خاصة لبعض الأعمال التي يبدو أنها تخالف في ظاهرها التحريم الديني، وكمثال على ذلك كان يمكن استبدال قنطار تفاح بقنطارين من البرتقال إنما ليس بقنطارين من التفاح. كما تركز على وجوب تحقيق ربح أكبر في معاملات الدين «يباع شيء بالقرض مقابل مبلغ أكبر من بيعه مقابل مبلغ نقدي».

- **الإسلام والانتعاش المسيحي:**

وأمام هذه التطورات في الضفة المتوسطية الإسلامية، يرى هيك أن هذه الأحداث الاقتصادية لم تتطور في حالة من الخواء الثقافي، بل على العكس من ذلك، كانت مرتبطة بشبكة معقدة من التجارة الدولية، فقد استفاد اقتصاد أوروبا من التوسع السريع لدار الإسلام في القرن الثالث والرابع الهجري والتي استخدمت مواردها المعدنية الثمينة لشراء الأخشاب والأسلحة الحديدية، والمعادن الأولية وغيرها من المنتجات الأساسية الأوروبية الأصل التي احتاجت إليها للدفاع عن نفسها، وهو ما أدى لاحقا إلى بروز طبقة جديدة من التجار والحرفيين الذين يسعون إلى الاستفادة من فرص السوق الجديدة مشكلين بذلك طبقة برجوازية ذات ثروة سائلة لم تكن نتيجة الأرض بل من التجارة الخارجية، الأمر الذي قوض من تفوق الكنيسة والنبالة الإقطاعية المالكة للأراضي.

وقد رافق هذا التشكل البرجوازي، ابتداع بعض الأساليب التجارية ونقل بعض التقنيات الاقتصادية كعقد المضاربة وعقد البيع المزدوج الإسلامي الذي أعطاه تجار أوروبا اسماً لاتينياً (موهاترا) المشتق من المصطلح العربي (مخاطرة)، بالإضافة إلى اشتقاق بعض أدوات التسليف التي تحتال على قضية الربا والتي ابتكرها الفقهاء المسلمين. وبرأي هيك، لم يكن هذا التشابه محض صدفة، لكون ذلك العصر قد شهد اختماراً فكرياً اقتصادياً إسلامياً عظيماً. فقد بدا بعض الفقهاء المسلمين على غرار محمد بن حسن الشيباني في كتابه «الاقتصاد في الرزق المستطاب» وأبو الفضل الدمشقي في «الإشارة إلى محاسن التجارة» بصياغة مبادئ اقتصادية شديدة الحداثة والعمق للسوق الحرة، لتتجذر في تربة خصبة وضمن اقتصاد قوي في تأثيره على عقائد التجارة وإدارة الاعمال في المناطق التجارية القريبة والبعيدة، والتي أجمع المؤرخون على أنها تطورت لاحقا لتصبح المبادئ والممارسات التجارية الخاصة في المدن الإيطالية، التي انطلق منها الانبعاث الرأسمالي الاوروبي.

• تَوْسِيْعُ المَمْلَكة الفَرَنْجيَّة وتَطْوِيْرُ نُظُمِها:

بعد أن اسْتَأْثَر بيبين الثالث بالحُكْم في بلاد الفَرَنْجَة، مُنْهِيًا حُكْمَ الأُسْرة الميروفنجية، ومؤسِساً الأُسْرة الكارولنجية الحاكمة فيها، وَطَّد وَلَدُه شارلمان – ومعناها شارل الأَكْبر – دَعائِمَ هذه المَمْلَكة، ووَسَّعَ دائرتَها بضَمِّ العديد من البلاد إليها، وصَيَّرها إمبراطورية ضَخْمة، شَمَلَت مساحات شاسعة من غرب أوروبا، ووَسَطها، وشَمالها، لا تَقِلُّ عن المساحات التي كانت تُسَيْطِرُ عليها الإمبراطورية الرُّوْمانِيَّة الغَرْبِيَّة، فصار أَقْوَى مُلوك أوروبا النَّصارى في عَصْره، بل هو أَعْظَم مُلُوْكِهم فيما يُسَمَّى بالعُصُور الوُسْطى؛ نَظَرًا لما قام به من إصْلاحات كثيرة في مَجالات شَتَّى، كالقَوانِيْن الإدارية، والقَضاء، والنُّظُم الكَنَسِيَّة، والتَّعْلِيْم، وغير ذلك.

✓ جُهُودُه في نشْر النَّصْرانيَّة في أوروبا:

كان لشارلمان دَوْرٌ كبير في نَشْر النَّصْرانِيَّة بين العديد من أُمَم أوروبا الواقعة تحت سُلْطانه، كالآفار، والبافار، والفريز، والسكسون، واستخدم في ذلك شَتَّى الوسائل بما فيها الإكراه والقَسْر، ونَكَّل بالقبائل الوَثَنِيَّة التي أَبَت اعْتناق النَّصْرانِيَّة أَشَدَّ التَنْكِيْل، وأَجْبَرَهم على التَّنَصُّر بوَحْشِيَّة فَظِيْعة، تَمامًا كما فَعَل جَدُّه شارل مارتل، وكان شارلمان يَصْطَحِب معه في جُيوشه القُسُسَ والرُّهْبان دائمًا لنَشْر التَنْصِيْر بين القَبائل الوَثَنِيَّة، وقد كان هذا دَأْبُ أَبِيْه بيبين من قَبْل.

✓ مُناصَرَتُه للكَنِيْسة الكاثولِيْكِيَّة الرُّوْمانِيَّة:

نَاصَرَ شارلمان الكَنِيْسة الكاثولِيْكِيَّة الرُّوْمانِيَّة ضد أَعدائها من اللومبارديين، وآزَرَ بابا روما ليون الثالث في صِراعه مع نُبَلاء روما، ذلك الصِراعُ الذي آلَ به إلى الفِرار من مَقَرِّ البابَوِيَّة، فتَوَجَّه شارلمان إلى روما بمُجَرَّد سَماع الخَبَر، وبَرَّأَ البابا، ونَفَى أَعْداءَه.

✓ تَتوِيْجُه كإمبراطور رُوْماني مُقَدَّس وبَدْء عَصْر جديد من التَّحالُف الإمبراطوري الكَنَسِي:

وقد دَفَعَت جُهُود شارلمان في نُصْرَة البابَوِيَّة، ونَشْر النَّصْرانِيَّة، وتَوْسِيْع دائرة المَمْلَكة الفَرَنْجِيَّة بابا رُوْما إلى تَتوِيْجه إمبرطورًا رُوْمانِيًّا مُقَدَّسًا على حَدِّ وَصْفِهم، مُفْتَتِحًا بذلك عَصْرًا جديدًا على القارَّة الأوروبِيَّة، تَعاضَدَت فيه سُلْطَتا الكَنِيْسة الكاثولِيْكِيَّة، والإمبراطورية الرُّوْمانِيَّة المُسَمَّاة بالمُقَدَّسَة، وصارت الأُولى تُضْفِي على الثانية الهَيْبة والقَداسة، وتَسْتَمِدُّ منها القُوَّةَ والسُّلْطان في نفس الوقت، وظَلَّت القارَّة الأوروبِيَّة تُعانِي من هذا الحِلْف الكَنَسِي ـ المَلَكِي، حتى مَجِيء ما يُسَمَّى بعَصْر التَّنْوِيْر.

وقد كان شارلمان يَحْمِلُ أَلْقابًا كثيرة، كرئيس الدَّوْلـة والكَنِيْسـة، ورَئِـيْس الأَساقِفة والكونتيات.

✓ نجاح شارلمان في انتِزاع بعض أراضِي المسلمين بالأندَلُس:

واصَل شارلمان سياسةَ والِده وجَدِّه في قتـال مُسْـلِمي الأَنْـدَلُس، وسَـعَى لإخْراجهم منها بعـد أن نَجَـح جَـدُّه في إيْقـاف الزَّحْـف الإسْـلامي المُتَصـاعِد في فرنسا، ونَجَح والدُه في القَضاء عـلى الوجـود الإسـلامي في جَنُـوب فرنسـا، وواصَلَ شارلمان ما بَدَأ في عَصْر والِدِه من دَعْم أُمَـراء شَـمال الأَنْـدَلُس الثَّـائِرِيْن على أُمَراء الأَنْدَلُس من بَنِي أُمَيَّة.

وقد فَشَل شارلمان في حَمَلاته الضَّخْمة التي قادَها على الأَنْدَلُس غـير مَـرَّة، إلى أن اسْتطاع انْتِهاز فُرْصة الصِّراع الدَّائر على الإمارة في الأَنْـدَلُس عَقِـب وَفـاة هشام بن عبد الرحمن الدَّاخل، وتَمَكَّن من السَّيْطرة على بعض مَناطق في الشَّرِـيْط الضَّيِّق بشَمال الأَنْدَلُس، مثل إقليم كاتالونيا، وكانت قاعِدَتُها مدينة برشلونة التي اسْتَسْلَمَت بعد حِصار طَوِيل شاق، وإقليم جاسكونيا الذي كان يَشْمَل أَراغون، ونافار، كما حاول شارلمان اقْتِحام مدينة سَرَقُسْطة، ولكنه أَقْلَع عنها بعـد حِصـار طويل.

لكن أَغْلَـب المنـاطق الحُدُوْدِيَّـة ظَلَّـت مَنـاطق مُلْتَهِبـة، يَسُـوْدُها القَلَـق، والتَّرَقُّب، ولم يَحْدُث حَسْمٌ عَسْكَرِيٌّ فيهـا لصـالح أَيٍّ مـن الفَـرِيْقَيْن، وتَتابَعَـت غَزَواتُ المسلمين إلى جَنُوب فرنسا بعد سُقُوط قَواعِدِهم فيها فَـتْرة مـن الـزمن، حتى أن جَيْشًا إسلاميًّا أَرْسَلَه هشام بـن عبـد الـرحمن الـدَّاخل قـد عَـبَر جبـال البرانس، واجْتاح العديد من المدن الجَنوبِيَّة الفَرَنْسِيَّة، وهَـزَم جُيـوشَ الفَرَنْجـة، وواصَلَ تَوَغُّلَه في أَراضِيْهم، حتى بَلَـغ إقلـيمَ برطانيـة [بريتـاني] بشَـمال غَـرْب

فرنسا، وعاد مُثْقَلًا بغَنائم وَفِيْرة، كما وَصَلتها فيما بعدُ غَـزواتُ المَنْصُـور ابـن أبي عامر رحمه الله تعالى في النِّصْف الثاني مـن القَـرْن الرَّابـع الهِجْـري، بَيْـدَ أن تلـك الغَزَوات لم يَنْتُج عنها شيءٌ من عَوْدة الجَنُوب الفَرَنْسِي إلى حَوْزة المسلمين، وإنـما كانت للنِّكايَة، وقَطْع الإمْدادت عن نَصارى الشَّمال، وحِيازَة الغَنائم الوَفِيْرة.

كما سَـعَت بعـضُ الجُـزُر النَّصْرـانِيَّة بـالبحر المتوسـط مثـل كورسـيكا، وسَرْدانِيَة، وجُزُر البليار الواقعة شرق الأَنْدَلُس إلى الدُّخُول في طاعة الإمبراطور الفَرَنْجِي شارلمان؛ لِحمايَتها من الغَزْو الإسلامي، ووَقَعَت وَقائِعُ بَحْرِيَّةٌ كثيرة بين المسلمين والفَرَنْجَة في نِطاق تلك الجُزُر.

✓ دَوْرُه في دَعْم الكاثُوْلِيْك في الأراضِي المُقَدَّسَة:

مارَسَ الإمبراطورُ شارلمان دَوْرَ الحـامِي للنَّصـارى الكاثُوْلِيْـك في أَراضِي بَيْت المَقْدِس، وكان يُرْسِلُ الأَمْوالَ الضَّخْمة للحِفاظ على كَنائِسِـهم، وأَدْيـرَتِهم، والأَماكن التي يُقَدِّسُونها، وشَيَّد العديدَ من الأَبْنِيَـة لرِعايَـة الحُجَّـاج النَّصـارى القادِمِيْن من مَمْلَكتَه إلى تلك الأَراضِي، وأَسَّسَ كَنِيْسة قُرْب مستشفى جريجـوري الأول المُلَقَّب بـالعَظِيْم، ورَدَّ المستشـفى إلى الحُجَّـاج اللَّاتِـيْن، وعَهِـد لمجموعـة من الرُّهْبان بخِدْمة المستشـفى والكنيسـة، وتُعَـدُّ تلـك الكنيسـة في نَظَـر بعـض المؤرِّخِيْن النَّواة الأُولى لهَيْئة الفُرْسان الاسـبتارية، أَقْـدَم الهَيْئـات الصَّـلِيْبِيَّة التـي جَمَعت بين الرَّهْبَنة، والفُرُوْسِيَّة.

كان هذا الصنيع من بابا روما على غير اتفاق مع شارلمان، وجاء عـلى غـير رغبة منه؛ فقد كان لا يريد أن يكون هذا التتويج منحة من البابوية، وكـان يـرى نفسه أهلًا للحصول عليه بمحض جهوده، ومقدراتـه، كـما كـان التتـويج بهـذه الصورة مسـتفزًا للإمبراطـور البيزنطـي في القسـطنطينية، والـذي يعتـبر نفسـه الوريث الشرعي الوحيد للإمبراطورية الرومانية، مما قد يؤذن بشقاق، وشرخ في العلاقات بين الإمبراطوريتين.

الفصل التاسع

التأثير العربي الإسلامي على الغرب الأوربي

• الأندلس وصقلية:

طريق الأندلس:

وصل المسلمون الى الأندلس سنة 92هـ/ 710م، وفي سنة 96هـ/ 714م استطاعوا السيطرة على المدن الرئيسية فيها فأصبحت إقليماً تابعاً للدولة العربية الإسلامية يديرها والي أفريقية (تونس)، وسادها السلام مدة طويلة[6]، وفي عام 138هـ/ 755م عبر الأمير عبد الرحمن الداخل[7] الى الأندلس هارباً من بني العباس فابتدأ عهد الدولة الأندلسية المستقلة، وبدأ عهد قرطبة عاصمة لها، اذ وصلت الى أوج ازدهارها في عهد الخليفة عبد الرحمن الثالث[8] (300 ـ 350هـ/ 912م ـ 961م) الذي مد نفوذه الى كل شبه الجزيرة الايبرية، واستمر الازدهار في عهد ابنه وحفيده إلا أن الأخير سمح بانتقال السلطة الى يد الحاجب المنصور[9]، وبعد وفاة ابن المنصور عام 399هـ/ 1008م لم يتول الحكم رجل قادر على الاحتفاظ بوحدة الأندلس؛ لذا تفككت الدولة الأموية وبدأت مرحلة دويلات الطوائف[10] ومع ذلك فان الازدهار الفني والأدبي كان مستمرا رغم مشاكل السياسة وتنافس الحكام[11].

إن الازدهار الثقافي العربي السريع في الأندلس قد ساعدت عليه عوامل عدة، منها: الاستقلال السياسي المبكر الذي نالته الأندلس بعد أربعين سنة من الفتح العربي فكانت أسبق من أقطار الدول الإسلامية في الإحساس بشعور قومي نتيجة لذلك الاستقلال السياسي، وقد أتيح للأندلس أمراء كانوا

من عباقرة السياسة وتدبير الملك تعاقبوا على الحكم طوال ثلاثة قرون، وهي مدة طويلة لم يتح لها مثيل من الاستقرار والدوام لأي قطر إسلامي، فاذا أضفنا الى لذلك تنوع العناصر الاجتماعية التي تألف منها الشعب الأندلسي أمكننا ان نلمح طرفاً من أسباب النضج السريع الذي قدر للشعب الأندلسي، فضلاً عن ان بعد الأندلس عن مراكز الثقافة العربية في الشرق أرهف فيهم الحساسية الثقافية والفكرية فجعلهم أكثر تطلعا للأخذ بأسباب الثقافة كل هذه العوامل تفسر كيف بلغ الشعب الأندلس ي درجة من الرقي والنضج السريع وكيف كان للثقافة الأندلسية في الإطار العام للحضارة كثيراً من مظاهر الأصالة والتميز[12].

ومن جانب آخر فان موقع الأندلس وانفصالها عن العالم الإسلامي معظم عصر الأمويين وملوك الطوائف واتصالها بالشعوب المسيحية جعل مجال النقل الحضاري بينهما واسعا... وكانت المحالفات والمصاهرات والسفارات تتم جنباً الى جنب، فتقوى الوشائج وتدوم المودة ويعم السلام، وحتى في أوقات الحرب لم يكن هناك ما يمنع من الاتصال بين الشعبين بسبب التجاور والملاصقة والعيش على ارض واحدة، وبسبب التداخل السياسي والعسكري والبشري في شبه الجزيرة في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي بالذات[13].

ففي عام 478هـ/ 1085م سقطت طليطلة بأيدي الأسبان، فالتجأ أهل الأندلس الى المرابطين حكام المغرب[14] فأمدوهم بجيش استطاع الانتصار على الأسبان[15] وحكم المرابطون الأندلس حتى سنة 539هـ/ 1145م، ثم أعقبهم الموحدون حتى سنة 620هـ/ 1223م، ونتيجة للصراعات السياسية استطاعت الدويلات الشمالية الأسبانية السيطرة على قرطبة سنة 633هـ/

1236م، ثـم عـلى اشـبيلية سـنة 646هــ/ 1248م، وبعـد أن اسـتتب الأمـر للأسبان ما يقرب من عشرين سنة لم يبق مـن دويـلات الأنـدلس سـوى مملكـة غرناطة يحكمها بنو نصر الذين فقدوا اسـتقلالهم عـام 897هــ/ 1491م حـين ضمت الى مملكة أراغون وقشتالة المتحدة(16).

بيد أن التبادل الحضاري والثقافي لا يخضع بالضرورة للموقـف السـياسي أو العسـكري، فقـد كـان للأنـدلس الإسـلامية حتـى في عصـور ضـعفها واضمحلالها نفوذ هائل على اسبانيا المسيحية ولم يمنع تغير ميزان القوى لصالح الممالك النصـرانية في اسـبانيا والبرتغـال اسـتمرارها مـن الاسـتفادة مـن ثقافـة المسلمين الأندلسيين والاضطلاع بدور حمل عناصرهـا ونقلهـا الى مختلـف بـلاد أوربا(17)، فالأسبان الذين استولوا بالتدريج على النصـف الشـمالي مـن الأنـدلس عندما اخلد العرب الى أرض الـترف والبـذخ وانحسـروا في النصـف الجنـوبي لم يبقوا جامدين لاشعور لهم بثقافة جيرانهم التي أخذوا يقتبسونها، وكان السياح والمسافرون من النصارى الـذين يـزورون مـدن العـرب يعـودون إلى أوطـانهم فيقصون من أخبـار العـرب وعلـومهم وحضـارتهم الجميلـة مـا يهـز النفـوس ويشّوقها(18).

كانت الأندلس تثير بحضارتها وعلومها وفنونها اهـتمام الأمـم الأوربيـة، وكانت جامعاتها المزدهرة مقصد طلاب العلم من كل مكـان، وكانـت مـدارس الترجمة الأندلسية وبخاصة مدرسة طليطلـة تقـوم بعملهـا المـنظم في نقـل ثـمار العلوم الإسلامية الى اللغة اللاتينية، التي كانت لغة العلم في سائر أنحـاء أوربـا، والتي ظلت لغة التخاطب عند الأغلبية الساحقة مـن أهـالي اسـبانيا وان كانـت العربية هي لغة العلم وإدارة، وبدأت منذ ذلك الحين مساهمة الحضـارة العربيـة في تكوين حضارة أوربا وقد امتدت هذه المساهمة نحـو ثلاثـة قـرون وكـان لهـا أثرها الواضح العميق(19).

طريق صقلية[20]:

كانت صقلية الجسر الثاني الذي اجتازته الحضارة العربية في طريقها إلى أوربا، وكان العرب قد خلصوها من الحكم البيزنطي عام 290هـ/ 902م[21]، ثم هاجمها النورمانديون عام 453هـ/ 1060م، وبسطوا كامل نفوذهم عليها عام 484هـ/ 1091م[22]، وبسبب سياسة اللين التي اتبعها النورمانديون في صقلية، شهد القرن الثاني عشر الميلادي ظهور حضارة مسيحية إسلامية في صقلية، إذ اخذ النورمانديون عن العرب أصول احتفالات البلاط، واخذوا عنهم آدابهم وعلومهم واستخدمت اللغة العربية لغة رسمية الى جانب اللاتينية واليونانية وضربت النقود على النمط العربي[23].

بقيت صقلية المركز الخصيب لانتشار العلوم العربية، وكانت اللغات التي يتخاطب بها سكانها بلهجاتها الدارجة اليونانية، والعربية، واللاتينية ولكن بعض مثقفيها كانوا يتقنون الفصيح منها، وكان ملوكها من روجر الأول حتى فريدريك الثاني، وما نفرد، وشارل الأول يستقدمون العلماء الى بالرمو مهما كان دينهم ولسانهم فشرع جمهرة من العلماء في بالرمو كما في طليطلة ينقلون من العربية واليونانية الى اللاتينية[24]. وكان فريدريك الثاني وابنه مانفرد يعرفان العربية قراءة وكتابة، وقد ألفا الكتب بالعربية، وترجمت مؤلفاتها الى اللاتينية، وانشأ فريدريك جامعة نابولي عام 621هـ/ 1224م وأهداها مجموعة من الكتب العربية، وكان للفلاسفة العرب مكانتهم في بلاطه كما قامت علاقات ودية سياسية بينه وبين السلطان الكامل محمد (615هـ ـ 636هـ/ 1218 ـ 1238م) ابن اخي صلاح الدين، وقد تراسلا في أمور فلسفية ورياضية مما جعل المجمع المسكوني للكنيسة في ليون عام 643هـ/ 1245م يتهمهُ باعتناق الإسلام سراً[25].

لقد هيأ وجود الثقافة الإسلامية في صقلية ورعاية ملوك النورمان للعلم وأهله نوعا من الدعم الدولي لرقي المعرفة، وأدى وجود اللغتين العربية واللاتينية جنبا الى جنب وقيام صلات ودية بين المسلمين والمسيحيين الى ذيوع المعرفة على نطاق واسع [26].

- **مجالات التأثير الإسلامي في الأندلس وصقلية على الغرب الأوربي:**

الترجمة:

إن منجزات الحضارة الإسلامية التي انتقلت الى الغرب عبر وسائل الاتصال والترجمة، كانت أساساً للنهضة الأوربية في مختلف مجالات العلوم والأدب.

لقد حفظ العرب مؤلفات اليونان، وفي قرنين من الزمان نقل الى العربية كل ما خلفه الإغريق من التراث العلمي تقريباً، وأخذت المعرفة بهذه الثقافة الإغريقية العربية تتسرب الى أوربا الغربية في أواخر القرنين الخامس والسادس الهجريين/ الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين، وقد جاء تسربها عن طريق صقلية الى ايطاليا، ومن الأندلس الإسلامي الى اسبانيا المسيحية ثم الى فرنسا وغيرها من البلدان الأوربية، فكان العرب رابطة بين عصرين وبذا يثبت فضلهم على الغرب الذين حاول بعضهم خفض فضائل العرب الواضحة كالشمس في رابعة النهار[27].

غدت الأندلس منطلقا لترجمات في الفلسفة والعلوم العربية على نطاق واسع وذلك في مدينة طليطلة، وصقلية، فقد وقعت بحوزة المسيحيين كنوز المكتبات العربية وشرعوا ينقلونها الى اللغات التي يفهمونها فأثيرت حركة

واسعة في ترجمة العلوم العربية في أقطار أوربا، ومما يلفت النظر هو اندفاع المتعلمين الشديد الى دراسة مترجمات الكتب العربية التي انتشرت مخطوطاتها فيما بينهم، وتبني أفكارها برغبة وتصميم فكثرت لغات الترجمة وصيغها وطبعت كتبها بتكرار في العديد من المدن الأوربية وترجم الكتاب الواحد أكثر من مترجم واحد والى أكثر من لغة أوربية واحدة [28].

كانت أولى الكتب العربية التي ترجمت الى اللاتينية هي الكتب الطبية والعلمية وكان المترجم قسطنطين الإغريقي[29] قد بدأ عمله كمترجم منذ سنة 463هـ/ 1070م واستمر فيه حتى وفاته سنة 480هـ / 1087م[30]، وقد ترجم عن العربية كتباً كثيرة ولا سيما الكتب الطبية فأثر ذلك في مدرسة سالرنو[31] تأثيراً كبيراً، وتعرف الأوربيون اذ ذاك على وجوه الطب العربي[32].

وعلى الرغم من ان الترجمات اللاتينية كانت غارقة في الفوضى والأغلاط إلا إنها أصبحت بداية لنشاط واسع دام عدة قرون في ميدان الترجمة[33].

كانت طليطلة وبالرمو اكبر مركزين للترجمة في القرنين السادس والسابع الهجريين/ الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، فأما الأولى فهي المركز الأول الذي جمعت فيه الكثير من المصادر العربية، وتوافر لها بعض كبار المترجمين، فنظمت فيها جماعات للترجمة فينقل أولاً من العربية الى العبرية او القشتالية ثم منها الى اللاتينية، وقد مرّ بطليطلة اغلب المشتغلين بالترجمة ومنهم من استقر فأقام فيها، ومنهم جيرارد الكريموني (508 ـ 583هـ/ 1114م ـ 1187م)[34] ذلك الايطالي الذي اجتذبته الترجمة، فقصد طليطلة والى جانبه المطران دومنيك الذي عني بالناحية الفلسفية واليه يرجع الفضل في إدخال عدد من فلاسفة الإسلام الى العالم اللاتيني[35].

لقد ترجم الكريموني عن العربية كتبا لابقراط، وجالينوس كما ترجم كتابين أصيلين في العربية هما: (القانون في الطب) لابن سينا، والتصريف للزهراوي الذي يعد القسم الأخير منه اشهر بحث في الجراحة، وهذان الكتابان لهما أهمية خاصة في تاريخ الطب(36)، وكان للمستشرقين الانجليز دور في الترجمة ومنهم اديلارد من باث الذي طاف بلادا كثيرة في طلب العلم، ووصل الأندلس وصقلية وسورية في زمن الصليبيين ، وترجم فهارس المجريطي في الفلك والرياضيات في سنة 520هـ/ 1126م، وكان لكتبه تأثير كبير في روجر بيكون الذي أسس الطريقة التجريبية المنسوبة إليه(37).

أما بالرمو عاصمة صقلية فقد نشطت فيها حركة الترجمة في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي تحت رعاية الإمبراطور فريد ريك الثاني الذي شاء أن ينشر الحكمة اليونانية والعلوم الإسلامية، واستطاع أن يجمع ثروة طائلة من المؤلفات العربية ودعا إليه كبار المترجمين وفي مقدمتهم سكوت (عام 633هـ/ 1235م)، تلك الشخصية التي كانت مملؤة نشاطاً وحركة والتي عُزي إليها عدد غير قليل من الترجمات، فكان يوزع العمل على عدد من التلاميذ والأعوان ثم يتابع نشاطهم ويراجع إعمالهم، وبذلك استطاعت بالرمو أن تترجم أحسن مؤلفات العرب، وقد حرص الإمبراطور أن يوزع ترجماته على الجامعات الأوربية رغبة منه في نشر العلم، وبدافع منافسة البابا في الغالب(38).

الأثر العربي والإسلامي في نشوء الجامعات الأوربية:

هناك أدلة واضحة تشير الى مؤسسة الجامعة وهي من المبتكرات الخالصة للحضارة العربية(39) وقد أنشأت المدارس على هذا الشكل بعد القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، وأشهر مدارس بغداد، المدرسة النظامية، والمدرسة

المستنصرية التي شيدها المستنصر بالله في النصف الأول من القرن السابع الهجري (622هـ/ 1226م)، وكانت جامعة بمعنى الكلمة، إذ حوت اربع كليات أو مدارس مستقلة، اختصت كل واحدة منها بتدريس مذهب من المذاهب الفقهية الأربعة(40).

إن وجود الشبه بين الجامعات الاسلامية والجامعات الاوربية لم يكن وليد صدفة، إذ تدل الحقائق على أن القرون الوسطى الاسلامية مهدت لنشوء الجامعات في أوربا الوسطى(41).

لقد اشتهرت مدارس الأندلس بكثير من أساتذتها الاختصاصيين الذين كانت لهم شهرة عالمية، ولم تكن خاصة بالمسلمين بل كان يؤمها الطلاب من جميع الأجناس والأديان، ومنهم الباب سيلفستر الثاني الذي أقام في أشبيليه ثلاث سنوات يغترف من علوم مدارسها،(42) فكانت الحركة العلمية في الأندلس الملهم الحقيقي لحركة المدارس والجامعات التي قامت في أوربا، ولم تكن حرية الفكر فيها وحدها التي تغذي حب العلم والولع بل كان يثيره إجلال العلماء فيها أيضاً(43).

ولم يكن بلد يحوي خزائن الكتب العجيبة والمدارس والكليات العامرة وجمعا عظيما من خيرة الكتاب البلغاء وذوقا عاما في المباحث العقلية مثل ما كان في الأندلس، وما الحلقات والدوائر الصغيرة من الرجال والنساء المهذبين في ايطاليا الذين كانوا يبحثون في الفنون والآداب في بدء النهضة الا تقليداً ضئيلاً للعرب(44). ولا شك أن ذلك التفوق العلمي الاسلامي كان حافزاً لعدد من البعثات الاوربية التي باتت تترى على الأندلس بأعداد متزايدة سنة بعد أخرى حتى بلغت سنة 312هـ/ 924م زهاء سبعمائة طالب وطالبة، وكانت

إحدى هذه البعثات من فرنسا برئاسة الاميرة اليزابث ابنة خال الملك لويس السادس ملك فرنسا، وبعث فيليب ملك بافاريا الى هشام الثاني (ت403هـ/ 1012م) بكتاب يطلب اليه ان يأذن له بارسال بعثة من بلاده إلى الأندلس؛ للاطلاع على مظاهر التقدم الحضاري فيها والاستفادة منها، فوافق هشام الثاني، وجاءت بعثة هذا الملك برئاسة وزيره ويل مبين[45].

وسار ملوك اخرون من أوربا على هذا النهج، فأوفد ملك ويلز بعثة برئاسة ابنة اخيه كانت تضم ثماني عشرة فتاة من بنات الاشراف والأعيان، وقد وصلت هذه البعثة مدينة اشبيلية برفقة رئيس موظفي القصر في ويلز، وقد استقبل حاكم الأندلس البعثة أحسن استقبال، ورد على رسالة ملك ويلز، وحظيت هذه البعثة بإهتمام رجال الدولة الذين قرروا أن يتم الانفاق على هذه البعثة من بيت مال المسلمين[46].

لقد انشأ عدد من الوافدين على الأندلس وصقلية المدارس والجامعات في أوربا بتأثير المدارس والجامعات العربية، وكان أول ما أسسوه من المدارس لاحياء العلوم: كلية سالرنو الشهيرة في ايطاليا، وكلية مونبيليه في جنوب فرنسا، وبعد ذلك أسست كليتي باريس واكسفورد وغيرها من الكليات والجامعات مثل تارانت، وباري، ونابولي في ايطاليا، كما شاد الباب سلفستر الثاني بعد عودته الى دياره مدرستين للعلم احداهما في ايطاليا والأخرى في ريمز[47]، وكان فريد ريك الثاني ملك صقلية مُنشئ جامعة نابولي عام 621هـ/ 1224م قد أهداها مجموعة كبيرة من الكتب العربية[48]، كما بقيت الترجمات العربية المصدر الوحيد تقريبا للتدريسيين في جامعات أوربا خمسة او ستة قرون[49].

ومن الجدير ذكره أن الاوربيين قد التفتوا إلى الأندلس ينتدبون أساتذتها للتدريس في جامعاتهم والقيام بأعباء الناحية التعليمية، من ذلك كلية الطب التي أنشأت في مرسيليا في جنوب فرنسا في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، فقد دعي إليها أساتذة من عرب الأندلس [50].

وإلى جانب ذلك فقد تأثرت الجامعات الأوربية ببعض تقاليد الجامعات العربية لا سيما تلك التي كانت موجودة بالأندلس، فقد قلدتها في لبس الأردية الخاصة بالاساتذة، وقلدتها في تخصيص أروقة للطلاب حسب جنسياتهم تسهيلاً لاستيعابهم في الجامعة، وقلدتها في منح الإجازات (إجازة التدريس) وقد أكد بعض علماء أوربا أن كلمة بكالوريوس اللاتينية ليست إلا تحريفاً للعبارة العربية: (بحق الرواية) والتي تعني الحق في التعليم بإذن من الاستاذ، ولا تزال جامعة كمبرج تحتفظ باجازة جامعية عربية مبكرة تعود الى عام 542هـ/ 1147م فيها عبارة: بحق الرواية، بينما لم تظهر كلمة بكالوريوس في الاجازات الاوربية قبل عام 618هـ/ 1221م [51].

ويبدو للباحث أن هذا التأثر الأوربي بالجامعات العربية لا يعود إلى عامل التقليد وحده بناءً على مشاهدات البعثات، أو الطلاب الأوربيين الذين زاروا بلاد الأندلس، وانما قد يكون بتأثير علماء الأندلس الذين استقدمهم بعض ملوك أوربا لتأسيس المدارس، ونشر ألوية العلم والعمران، ففي القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي وما بعده وقّعت حكومات هولنده وسكسونيا وانكلترا على عقود مع حوالي تسعين من الأساتذة العرب في الأندلس بمختلف العلوم، وقد أختير هؤلاء من بين أشهر العلماء الذين كانوا يحسنون اللغتين الأسبانية واللاتينية الى جانب اللغة العربية [52]، فمن الطبيعي أن ينقل هؤلاء المؤسسون تقاليدهم الجامعية العربية إلى تلك البلدان الاوربية.

الأثر الاسلامي في الطب الاوربي:

اقتبس العرب عن الإغريق النظريات الطبية التي لا تشكل قاعدة ثابتة ومرضية لعلاج المرضى، إلا انهم ركزوا على الأمور العملية بدلاً من النظرية في العلاج الطبي، وقام العرب بكثير من الاستكشافات الطبية[53]، واحرزوا تقدماً في فن الاستطباب، ومن أشهر الجراحين: أبو القاسم القرطبي خلف بن العباس الزهراوي (ت404هـ/ 1013م) الذي جعله كتاب (التصريف لمن عجز عن التأليف) من أكبر جراحي العرب وأستاذ علم الجراحة في أوربا، في العصور الوسطى وعصر النهضة الأوربية حتى القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي[54].

واشتهر ابن البيطار (ت646هـ/ 1248م) بكتاب (المغني في الادوية المفردة) الذي صنّفه بناءً على الاختبارات التي أجراها على النباتات التي جمعها من اسبانيا وبلاد الشام،[55] وهذا دليل على مزية المؤلف الشخصية في البحث؛ ولهذا اشتهر ابن البيطار وما يزال يعرف في أوربا بلقب (أبو علم النبات)[56].

كانت لدى الاطباء العرب موهبة نظرية وعملية في تصنيف علوم الطب وتقديم نتائجها في كتب علمية واضحة للطلاب والأطباء معاً، وأشهر الكتب الطبية كتاب (القانون في الطب) لابن سينا (370 ـ 429هـ/ 980 ـ 1037م)، وقد درس في أوربا بعد ترجمته الى اللاتينية، وأخذ العرب بنظام البيمارستانات (المستشفيات) فعني البابوات وملوك الغرب باقامة المستشفيات على النظام العربي[57].

الأثر الاسلامي في الفلسفة:

شهد القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي ازدهارا للفلسفة الأرسطية في الأندلس فقد ظهر في هذا القرن ثلاثة فلاسفة عظام تركوا أثراً في تاريخ الفكر الانساني، وهم: ابن باجه (533هـ/ 1138م)، وابن طفيل (ت581هـ/ 1185م)، وابن رشد (ت594هـ/ 1198م)[58]، والأخير عده الاوربيون أكبر ممثل لحرية الفكر في العصور الوسطى، واعجبوا بشروحه لفلسفة أرسطو وفي ذلك يقول الفيلسوف الفرنسي رينان: (ألقى ارسطو على كتاب الكون نظرة صائبة ففسره وشرح غامضه ثم جاء ابن رشد فألقى على فلسفة أرسطو نظرة خارقة وشرح غامضها)[59].

وقد خالفت شروح ابن رشد آراء الكنيسة في كثير من اتجاهاتها؛ مما أثار نقمة رجال الدين في أوربا على أرسطو وابن رشد، وصدرت عدة قرارات كنسية في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي بتحريم آراء الرجلين في الجامعات الناشئة. وممن تأثر بفلسفة ابن رشد تأثرا واضحاً القديس توما الاكويني 622هـ ـ 673هـ/ 1225 ـ 1274م[60].

وقد عرفت كتب الغزالي (ت 505هـ/ 1111م) في المنطق والفيزياء والميتافيزيقيا نتيجة لجهود مترجمي طليطلة في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، كما كانت كتب الكندي، والفارابي (ت339هـ/ 950م)، وابن سينا (ت429هـ/ 1037م) مألوفة وقد تركت اثاراً بعيدة في الغرب[61].

وفي الأندلس كان ميلاد أبرز أعلام الفلسفة الصوفية عند المسلمين وهو ابن عربي، الذي ولد في مرسية في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي وانتهى الى القول بوحدة الأديان؛ مما جعل آراءه محببة إلى فلاسفة الغرب فنقلوا

كثيرا من آرائه وأفكاره وخاصة فيما يتعلق بصلة الروح بالله وتجلي الخالق في مخلوقاته[62]، وقد لخص الفرنسي سيديو الأثر الفلسفي العربي بقوله: (إن جميع الدروس بمدارس أوربا في القرون المتوسطة مستمدة من تآليف العرب الفلسفية)[63].

الأثر الاسلامي في الجغرافيا:

حافظ العرب والمسلمون في العصور الوسطى على أروع مافي التراث القديم، وأضافوا إليه خلال سبعة قرون من الازدهار الحضاري ما تجمع لديهم من المعرفة الجغرافية، عن طريق الرحلات الواسعة التي سجلوا مشاهداتهم فيها بدقة ووضوح، وعن طريق الاجهزة العلمية التي ابتكروها وحسنوا فيها، وعن طريق التفكير الحر الذي لم تقيده اغلال كتلك التي فرضت على التفكير المسيحي طوال القرون الوسطى، واستمرت جهودهم في تطوير الفكر الجغرافي دون انقطاع حتى عصر النهضة والكشوف الجغرافية[64].

وقد عرف القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي أعظم عمل جغرافي عربي منظم في الجغرافية وهو كتاب (نزهة المشتاق في اختراق الافاق)، لابي عبد الله محمد الادريسي (ت562هـ/ 1166م) الذي عمل في بلاط الملك المسيحي روجر الثاني ملك صقلية في بالرمو، ويضم الكتاب أعمال الجغرافيين السابقين، والمعلومات التي رواها الرحالة، ويشير الى افتراض ان الأرض كروية[65].

وعندما طلب روجر الثاني من الإدريسي وضع صورة جامعة للارض، أجاب الإدريسي بان الارض كروية، فصنع له الملك كرة كبيرة من الفضة رسم عليها الإدريسي معالم الارض، ومن المعروف أن الرسم على سطح الكرة يختلف

في قواعده عن الرسم على سطح منبسط، لذا فإن علماء المسلمين هم باعتراف الغرب أول من وضع أصول الرسم على سطح كروي، مما كان له آثره جغرافيا في تحديد معالم الكرة الارضية تحديداً واقعياً سليماً[66].

وقد أكثر الادريسي في كتابه (نزهة المشتاق) من الخرائط التي زادت عن أربعين خريطة، وبلغ من إعجاب الأوربيين به أنهم ترجموه الى اللاتينية في وقت مبكر، كما كان من أوائل الكتب التي طبعت[67].

وما كان للعرب أن يقوموا بالأعمال الضخمة التي حفظتها الكتب في ميدان الجغرافية، لولا وجود أجهزة دقيقة اخترعوها او نقلوها عن غيرهم ثم عدلوا وحسنوا فيها وفي مقدمتها الأبرة المغناطيسية أو البوصلة والاسطرلاب، وهو من مخترعات الأغريق حسنها الجغرافي الاسكندراني بطليموس ووصل بها المسلمون حد الكمال، وكان استعماله في الشرق لتعيين وقت الصلاة والقبلة وأغراض أخرى[68].

وعن المسلمين عرف الاوربيون البوصلة واستخدامها، وما زالت البوصلة تحتفظ باسمها العربي في كثير من اللغات الاوربية، فهي بالفرنسية: (*Boussole*) وبالايطالية: (*Bossala*)[69].

وفيما يتصل بفضل العرب على الأمم الأروبية في علم الفلك، يكفي للتدليل على ذلك أن الأسماء العربية باقية بلفظها في المعجمات الفلكية الأوربية سواء في أسماء الكواكب والنجوم أو أسماء المدارات والمصطلحات، ومن مئات هذه المفردات نكتفي بالقليل للدلالة على الكثير[70]:

كـالطرف: *Altaref*، وكـرسي الجـوزاء: *Cursa*، والكـف: *Caph*، والارنب: *Arnab*، والعرقوب: *Arkab*، والسمت: *Azimuth*، وادحى النعـام: *Azna*، والبطين: *Botein*، وزباني العقرب: *Zaben hakrabi*، والوزن: *Wezn*، والنسر الواقع: *Wega*، والساهور: *Saros*، والسيف: *Saif*، وصدر الدجاجـة: *Sadr*، وسـعد السـعود: *Sad Alsud*، ورجـل الجبـار: *Rigel*، والـزورق: *Zaurek*، وقرن الثور: *Tauri*، وأمثال هذه الأسماء المحفوظة بألفاظها كثير غـير ما ترجموه بالمعاني دون الألفاظ.

الأثر الإسلامي في الأدب:

كان للأندلس الدور الأكبر في تعريف أوربا بالقصص العربي ونشره عـلى أوسع نطاق، فالتراث القصصي القديم الإغريقي واللاتيني اندثر أثناء العصـور الوسطى وكان أكثر ما عرف منه في أوربا إنما كان عن طريق ترجماته العربية التي عبرت القارة الأوربية خلال الأنـدلس، وممـن يتمثـل فـيهم مـا اسـتفاده الفـن القصصي الوليد في أوربا من التراث العربي الإسلامي شخصيتين أولهما: الكاتب دانتي الليجيري (664 ـ 721هـ/ 1265 ـ 1321م) الذي يعد من أكبر مفاخر عصر النهضة، وقد اضطلع المستشرق الأسباني ميجيل بلاثيوس بنشـر دراسـة (قصة الاسراء والمعراج الاسلامية وآثرهـا في الكوميـديا الإلهيـة)، وخلاصـتها أن دانتي استقى فكرة الكوميديا الإلهية من مصادر إسلامية[71].

أما الشخصية الثانية فهو جومـاني بوكاتشـو (713 ـ 777هــ/ 1313 ـ 1375م) الذي يمثل في النثر الأدبي الايطالي ما يمثله دانتي في الشعر، وقد تـرك مجموعة (الليالي العشر) والذي يتأملها لا يسعه إلا ملاحظة التشابه الكبـير بينـه وبين مجموعات القصص العربية في الشكل العام والتفاصيل مثل قصـة الـوزراء السبعة في الف ليلة وليلة وهي قصة ذاعت في الأندلس[72].

الروح الأندلسية تبدو واضحة في قصة (امادس دي جـولا) التـي كتبـت في القـرن التاسـع الهجـري/ الخـامس عشـر المـيلادي، كـما تبـدو في غيرهـا من القصص الأوربي الذي أُلِّف في القرنين التاسع والعاشر الهجريين/ الخـامس عشر والسادس عشر الميلاديين، وتعـد هـذه القصـص صـدىً للثقافـة العربيـة والاسلامية في الفكر الأوربي الذي كان نـذيراً بـانقلاب مهـم في تـاريخ الأدب الغربي الحديث لأنه أدى إلى مولد القصة الحديثة(73).

وفيما عدا الإقبال العظيم الذي لقيته قصص ألف ليلة وليلة من الجمهـور الأوربي، منذ أن ترجمت سنة 1116هـ/ 1704م، حتى ظهر لها في القرن الثامن عشر وحده أكثر من ثلاثين طبعه ونشرت منذ ذلك الوقت أكثر من ثلثمائـة مـرة بمختلـف اللغـات الغربيـة، وإلى هـذه القصـص يرجـع الفضـل في أثـارة روح المغامرة عند الاوربيين، تلك الروح التـي لا بـد منهـا لكـل أدب شـعبي، حتـى اعترف المستشرق جب بأنه لو لا قصص ألف ليلـة وليلـة لمـا عـرف الأوربيـون قصة ربنسون كروزو، أو قصة رحلات جلفر، ويعتقد أن قصة روبنسون كروزو مأخوذة عن قصة (حي بن يقظان) التي كتبها فيلسـوف الأنـدلس ابـن طفيـل، والتـي ترجمـت الى اللاتينيـة سـنة 1082هــ/ 1671م، والى الانجليزيـة سـنة 1120هـ/ 1708م(74).

أما الشعر فيقول دانتي: (إنَّ الشعر الايطالي ولد في صقلية، وشاع نظمـه باللغة العامية في إقليم بروفـانس جنـوب فرنسـا حيـث تلتقـي الأمـم اللاتينيـة في الجنوب، فانتشر من ذلك الأقليم أولئك الشعراء الجوالون الذين عرفوا باسم التروبادور التي قيل أنها مأخوذة من كلمة طرب أو طروب)(75).

وقد رجح كثير من المستشرقين والباحثين أن شعر التروبادور مأخوذ عن مسلمي الأندلس ، أو أن هناك صلة بينهما على الأقل، ذلك أن هناك تشابهاً في موضوعات هذا الشعر وشعر الزجل الأندلسي، كما أن بعض أوزان هذا الشعر الإفرنجي قشتالي يساوي أوزان الموشحات والأزجال الأندلسية، فضلاً عن التماثل في ترتيب الأبيات وتعاقب القوافي، مما يدل على التأثر الذي لا شك فيه بين هذين النوعين من الشعر(76).

وقد وجدت في أشعار الاوربيين في شمال الأندلس كلمات عربية وإشارات إلى عادات لا توجد بين قوم غير المسلمين، وهي: تخميس الغنائم، واختصاص الأمير بالخمس منها(77).

التأثير الإسلامي في ميادان الحياة الاقتصادية:

1. الزراعة:

إن الأندلس بطبيعتها بلداً يمكن أن يحقق الاكتفاء الذاتي لسكانه(78)؛ بسبب تنوع موارده وتباين أقاليمه المناخية واختلاف مواسم سقوط المطر في شرق الأندلس عن غربه، لذلك تنوعت المحاصيل الزراعية واستمر ظهور الفاكهة على مدار العام، وكثرت محاصيله وفاكهته حتى صدرت إلى ممالك اسبانيا النصرانية وغيرها من دول العالم الأخرى، وقد عمل حكام الأندلس اقصى مافي وسعهم لاستغلال ثروات البلاد، فاستصلحوا الأراضي وأقاموا المصانع وتبادلوا التجارة مع بلاد أوربا ودول حوض البحر المتوسط الأخرى(79).

قد قام العرب في القرون الوسطى بإصدار الدراسات المهمة في موضوع الزراعة بأنواعها، ودراسات حول إدارة الاراضي الزراعية، وفي الأندلس ظهر عدد كبير من الكتب التي تعنى بالزراعة وقد ترجم منها الكثير إلى اللغات

الاخرى، وظهر عدد من المهندسين الزراعيين في الأندلس كانت تحت تصرفهم حدائق يجرون فيها التجارب على النباتات المحلية والاجنبية ويحاولون تطعيم النباتات او تنمية أنواع جديدة من الفواكه والأزهار، وكانت أول حديقة لدراسة النباتات في طليطلة في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، ثم تبعتها عدة حدائق مماثلة في اشبيلية بينما لم تذكر أية حديقة لدراسة النبات في أوربا حتى عام 952هـ/ 1545م حيث أقيمت حديقة في بادوفا في ايطاليا(80).

وقد ادخل العرب الى الأندلس زراعة الأرز والقطن وقصب السكر والتوت والنخيل، وأنواع الزهور التي انتشرت زراعتها في شمال اسبانيا النصرانية، بل في أوربا كلها(81)، وزرعوا الفستق والموز ودوحة الكاملياء الحمراء والبيضاء، وازهاراً وبقولا نقلت بعد الى جميع البلاد الغربية(82).

2. الصناعة:

اشتهرت الأندلس بصناعة المنسوجات الكتانية البديعة الغالية، التي لا يفرق بينها وبين الكاغد (الورق) الجيد الصقيل في الرقة والبياض، وتعد الأندلس من أهم البلاد التي ازدهرت فيها صناعة الحرير بأنواعه المختلفة(83)، وكان حرير مدينة ألبيرة أجودها يصدر الى داخل الأندلس وخارجها، واشتهرت اشبيلية بالحلل الموشية، وقد حظيت المنسوجات الأندلسية بشهرة واسعة في الأوساط الأوربية الراقية، ونجد ذلك واضحاً في سير الملوك والبابوات والقادة الذين حرصوا على اقتناء هذه الملابس الثمينة(84).

وفي مجال صناعة الخزف فإن روعة الصناعة الإسلامية أدت إلى تقليدها في أوربا، وخصوصاً في ايطاليا بعد أن غزا المسيحيون الأندلس للمرة الثانية وازدهرت هناك الصناعة التي تحمل طابع الفكرة الأوربية الى جانب التقنية الاسلامية ويدعى هذا الفن بالخزف الأسباني المغربي(85).

كان الخزف المزخرف في عصر الخلافة قد ازدهر ازدهاراً كبيراً، بحيث تجاوز في قيمته الفن المسيحي الاوربي بما في ذلك الفن البيزنطي وقد ادى ذلك الى نشاط تجارة الصادرات من هذا النوع من الصناعات الفنية إلى شمال اسبانيا والى دول حوض البحر المتوسط، كما ادى الى ظهور مصانع للخزف في اسبانيا النصرانية في ترويل *Teruel* وقطلونية *Paterna* وبروفانس جنوب فرنسا(86).

اشتهر الفولاذ الأندلسي بجودته في أنحاء العالم ومن أهم مراكز صناعته طليطلة وغرناطة، واشبيلية حيث كانت تصنع السيوف والدروع والالات الحربية(87)، وقد توصل مسلمو الأندلس الى اكتشاف خاصية النفط كونها مادة مهمة متفجرة، إذا خلطت بملح البارود وحصى الحديد في درجة عالية، وأدى هذا الاكتشاف الى ظهور المدافع والأسلحة النارية التي اخذها الاوربيون عن العرب(88).

ولا شك أن صناعة الورق وسعت آفاق الثقافة عند العرب، وتوسعت صناعة الكتب وعملية بيعها، وقد انتشرت صناعة الورق بين المسلمين في الأندلس منذ القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، وكان ذلك حدثاً حضاريا كبيراً سبقوا به أوربا عدة قرون، وغدت شاطبة وبلنسية وقسطيلة من أهم مراكز صناعة الورق في الأندلس ومنها ومن صقيلة انتقلت هذه الصناعة الى أوربا، إلا أن أقدم المصانع التي أنشأت لصناعة الورق في فرنسا

وايطاليا وألمانيا ترجع الى أواخر القرن الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين، ويبدو من المخطوطات المحفوظة في المكتبات الأسبانية أن ورقها مصنوع من القطن والكتان، وكان ورق الكتب العربية المكتوبة بخط اليد يفوق ورق الغرب لطافةً ولمعاناً، كما فاقه بما كانت العرب تختاره من تزويقها بأبهج الألوان والأحبار والأزهار، ويعد كتاب: (غريب الحديث) لابن سلام أقدم مخطوط عربي كتب على الورق، وما يزال محفوظاً في جامعة ليدن ويعود الى سنة 252هـ/ 866م، بينما يعود أول مخطوط أوربي الى عام 483هـ/ 1090م ومصدره صقلية(89).

3. التجارة:

كانت علاقات العرب والمسلمين بأوربا قديمة بدأت بشكل علاقات تجارية، كان لها الاثر في احتكاك الاوربيين المتخلفين بالحضارة العربية وكانت هناك ثلاثة طرق للاتصال هي: طريق جبال البرانس، وطريق البحر المتوسط، وطريق الفولغا المؤدي الى شمال أوربا باجتياز بلاد الروس وكان الطريقان الأولان يسلكهما عرب الأندلس، أما الطريق الثالث فكان يسلكه عرب المشرق، وفيما يتعلق بالبحر المتوسط فقد كان خاضعا للسيادة العربية يرسل العرب من خلاله إلى جميع الموانئ الأوربية منتجاتهم الصناعية والزراعية، وتدل النقود المكتشفة في أوربا على مسالك الطرق التجارية العربية في أوربا، وان التجارة قد بدأت في وقت مبكر منذ القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، وآخر تاريخ لتلك النقود هو سنة 432هـ/ 1040م، إذ ورد فيها ذكر حكام بني العباس(90).

كان التجار الايطاليون هم الوسطاء بين الشرق والغرب، ففي كبريات المدن الساحلية مثل أمالفي وبيزا وجنوا والبندقية أنشأ الأفراد المغامرون شركات تجارية وجهت مراكبها شطر الاسكندرية، ويافا، وعكا والقسطنطينية لتعود محملة بضروب الحرير والجواهر والعقود الذهبية والعاج المنقوش... والحق أن الايطاليين الحاذقين أفادوا في السياق البعيد من كل طريق بري أو بحري فانتشروا بقوافلهم في أوربا ليعرضوا بضائع الشرق على الاهالي الأجلاف الذين كانوا يفغرون أفواههم دهشةً واعجاباً في وجه العجائب المنثورة أمام أعينهم فيقدموا نقودهم الذهبية والفضية وخامات الشمال من الكتان والصوف والجلد والفراء التي يحملها الايطاليون بعد تهذيبها على ظهر المراكب العائدة الى المشرق لاستكمال دورة التبادل الاقتصادي[91].

ومما يلفت النظر أن التجارة بين الأوربيين والمسلمين قد ولّدت في القرون الوسطى حالات شاذة حتى أن تجارة الاسلحة ظلت قائمة بين الطرفين خلال الحروب التي نشبت بينهما على الرغم من جهود الحكومات الأوربية لإيقاف ذلك، وقد منحت الامتيازات للتجار المسيحيين من قبل الحكام المسلمين لضمان وجود الأسلحة حتى أثناء الحروب الصليبية[92]، ومن الأدلة الدامغة على تأثر الأوربيين بالعرب من طريق التجارة، والالتقاء بهم: شيوع ألفاظ عربية كثيرة باللغة الفرنسية والانجليزية وبعض اللغات الأوربية الاخرى مثل[93]: القطن: *Cotton*، الحرير الموصلي:*Muslin*، والحرير الغزي: *Cause* والحرير الدمشقي: *Damas*، والجلد القرطبي: *Cordevan*، والجلد المراكشي: *Morocco*، والجبة: *Jupe*، والمسك: *Musk*، والعطر: *Attard*، والزعفران: *Saffran*، والأرز: *Rice*، والسكر: *Sugar* والليمون: *Lemon*.

يتبين لنا مما تقدم أثر الفكر والحضارة العربية والاسلامية في أوربا لا سيما عبر الأندلس وصقلية، فأوربا مدينة بانطلاقها الفكري والعلمي الذي بدأ في أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر الميلادي إلى العرب والمسلمين، الذين كان لهم الريادة وقصب السبق في ميادين الثقافة والحضارة، فما كان من الأوربيين إلا أن (تناولوا مشعل العلم من ايدي العرب فاستضاؤا به بعد ظلمة وبلغوا به بعد ذلك ما بلغوه من هذا الضياء العميم الذي انكشفت به احدث العلوم، ولو لم يحمل العرب ذلك المشعل شرقاً وغرباً لكان من أعسر الأمور أن يقدح الأوربيون نوره من جديد، وإذا أفلحوا في قدحه فقصاراه في ثلاثة قرون أن يقف دون الشأو الذي انتهى إليه جهد الانسان في عشرات القرون))(94).

- **الخاتمة:**

بعد التطرق الى موضوع البحث استطاع الباحث التوصل الى بعض الاستنتاجات ومنها:

❋ أن الثقافة الاندلسية بلغت درجة عالية من الرقي وتميزت بمظاهر الأصالة والإبداع، وكانت الأندلس الاسلامية تثير بحضارتها وعلومها اهتمام الأمم الأوربية، لتغدوا مقصداً لطلبة العلم، إذ كانت مدارسها تنقل ثمار العلوم الإسلامية الى اللغة اللاتينية، اللغة السائدة في أوربا آنذاك.

❋ هيأ وجود الثقافة الإسلامية في صقلية، وتشجيع حكامها النورمانديون للعلم وأهله، نوعاً من الدعم لتقدم ورقي المعرفة.

❋ كانت الأندلس منطلقاً لترجمة الكتب المتنوعة في مدنها المهمة مثل طليطلة، صقلية، وكانت طليطلة بخاصة تمثل المركز الأول الذي جمعت

فيه الكثير من المصادر العربية، فقام بترجمتها كبار المترجمين إلى اللاتينية، وفي بالرمو عاصمة صقلية ترجمت أفضل مؤلفات العرب، ثم وزعت الكتب المترجمة على الجامعات الأوربية.

* أُسست العديد من المدارس والكليات في أوربا بتأثير المدارس والجامعات العربية التي شاهدها أو درس فيها عدد من الوافدين على الأندلس وصقلية، وبتأثير عدد من الأساتذة العرب الذين أستقدمهم بعض ملوك أوربا لتأسيس المدارس فيها، فنقلوا تقاليدهم الجامعية العربية إلى تلك البلدان الأوربية.

* أحرز العرب تقدماً في العلوم الطبية فتُرجمت مصنفاتهم ودُرّست في أوربا، ونقل الأوربيون الكثير من آراء وأفكار الفلاسفة العرب فكانت دروس الأوربيين مستمدة من مؤلفات العرب في هذا المجال، وقد أُعجب الأوربيون بمؤلفات العرب الجغرافية فترجموها، وأفادوا من الآلات الجغرافية التي طورها العرب، ويدل على ذلك الكثير من المفردات والمصطلحات التي بقيت بلفظها العربي في المعاجم الأوربية.

* كان للعرب أثرهم على أوربا في ميادين الحياة الاقتصادية مثل الزراعة، إذ تُرجمت الكتب التي تعنى بالزراعة، واقتبس الأوربيون منهم هندسة الحدائق، ونقلت إلى البلاد الأوربية أنواع مختلفة من النباتات، ناهيك عن التأثير العربي في ميداني الصناعة والتجارة، كما كان للعرب الريادة في ميادين الثقافة والحضارة التي أساساً للنهضة الأوربية في مختلف مجالات العلم والمعرفة.

الهوامش والتعليقات:

1. القلماوي ومكي، في الادب ـ ضمن كتاب اثر العرب والإسلام في النهضة الأوربية، ص41 ـ 42.
2. هونكه، شمس العرب، ص305 ـ 306.
3. سيديو، خلاصة تاريخ العرب، ص268 ـ 269.
4. الأدهمي، تاريخ أوربا، ص15.
5. سليمان، تاريخ الحضارة، ص33 ـ 34.
6. ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، 2/ 85 ـ 92، 118 ـ 119.
7. هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك، ولد سنة 113هـ/ 731م في بلاد الشام، وكانت أمه سبية بربرية من قبيلة نفزة تدعى راح، أما أبوه معاوية فقد توفي سنة 118هـ/ 736م، فكفله جده هشام، اضطرته ظروف أسرته بعد سقوط الدولة الأموية الى الهرب الى فلسطين، ثم إلى إفريقية، وتنقل في شمالها قرابة خمس سنوات ثم عبر إلى الأندلس، واستطاع أن يتسلم زمام السلطة فيها بعد جملة متاعب، فقامت الدولة الأموية في الأندلس سنة 138هـ/ 756م وبقي في السلطة حتى وفاته سنة 172هـ/ 788م، للمزيد ينظر: مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص54ـ56، ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس ، ص21ـ25، ابن عذارى، البيان المغرب، 2/ 62ـ63.
8. هو عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله، أحاطه جده الأمير عبد الله بالرعاية والاهتمام بعد وفاة والده، تفوق على أقرانه من الأمراء في العلوم والآداب والفروسية والسياسة التي تدرب عليها في بلاط جده، تولى الحكم وتمت له البيعة في اليوم نفسه الذي توفي فيه جده الأمير عبد الله سنة 300هـ/

912م، حكم الأندلس بكفاءة عالية واتخذ لقب الخليفة سنة 316هـ/ 929م وتسمى بأمير المؤمنين الناصر لدين الله، وبدأت الدعوة منذ ذلك التاريخ لبني أمية بألقاب الخلافة في الأندلس والمغرب الأقصى، للمزيد ينظر: ابن عذارى، البيان المغرب، 2/ 157، 198، عنان، دولة الإسلام، 2/ 430.

9. هو محمد بن أبي عامر، كان ناظر الخاص أيام الحكم المستنصر، كان ومن الذين حافظوا على وصية المستنصر بتنصيب ولده هشام المؤيد على السلطة في الأندلس ، وأصبح الرجل الأول في الدولة لا سيما وان هشام كان ما يزال صغيرا، فتخلص من مناوئيه واتخذ لقب المنصور، ودعي له على المنابر، كان آية في الدهاء والمكر، استطاع ان يسيطر على الدولة وأن يحجر على هشام المؤيد بعد ان أشاع ان السلطان فوض إليه أمر الملك وتخلى عنه لعبادة ربه، وظل متنفذاً حتى وفاته سنة 392هـ/ 1001م، ابن عذارى، البيان المغرب، 2/ 260ـ263، 278ـ279، 301.

10. ينظر: عنان، دول الطوائف.

11. فكري، قرطبة، ص36ـ85.

12. القلماوي ومكي، في الأدب، ص34ـ35.

13. عبد الحليم، العلاقات بين الأندلس الإسلامية واسبانيا النصرانية، ص409ـ410.

14. ينظر: رسالة المعتمد بن عباد الى يوسف بن تاشفين يستصرخه ضد الفونش السادس، ابن الخطيب، الحلل الموشية، ص28ـ29.

15. ابن بلقين، مذكرات، ص122.

16. ابن الابار، الحلة السيراء، 2/ 318ـ319، ابن الخطيب، اعمال الاعلام، ص275ـ277،الحجي، التاريخ الأندلس ي، ص22ـ36.

17. القلماوي ومكي، في الادب،ص31ـ32.

18. كيب، مدنية العرب، ص31.

19. الصياد، في الجغرافية ـ ضمن كتاب اثر العرب والاسلام في النهضة الاوربية، ص315.

20. صقلية: من جزائر بحر المغرب مقابل افريقية (تونس)، وهي جزيرة خصيبة كثيرة البلدان والقرى والأمصار، وبها عيون غزيرة وانهار جارية ونزه عجيبة، ياقوت، معجم البلدان، 3/ 416 ـ 419.

21. المالكي، رياض النفوس، 1/ 186–187.

22. يونغ، العرب واوربا، ص120.

23. المرجع نفسه، ص120ـ121.

24. ارنولد، تراث الإسلام، ص498.

25. يونغ، العرب وأوربا، ص121.

26. الصياد، في الجغرافية، ص315.

27. العقاد، أثر العرب في الحضارة الأوربية، ص45؛ سيديو، خلاصة تاريخ العرب، ص261.وينظر: ملخص الاستكشافات العظيمة التي جاء بها العرب في علم الفلك والعلوم الرياضية، وعلم الجغرافية الذي قدمه سيديو معلقا بنص له دلالة عميقة في هذا المجال، اذ يقول: ((...وإن الاصطلاحات العلمية التي جرت عليها المشارقة كان سائرها ألفاظاً عربية ... منذ تولى بنو العباس منصب الخلافة وظهر تحكم التمدن العربي المتسع به نطاق لسان العرب الذي أدخله مترجمو الكتب اليونانية

في الاصطلاحات فسهل انطباقها على المعلومات التصورية التي عزا الفرنج اختراع أكثر استكشافاتها إلى علماء منهم كانوا بالقرن الخامس عشر والسادس عشر مع أن اختراع أكثرها ما كان إلا للعرب الذين اجتهدوا في تقدم العلوم...)) خلاصة تاريخ العرب، ص332ـ333.

28. يونغ، العرب وأوربا، ص119.

29. من مترجمي مدرسة سالرنو، ولد في قرطاجة سنة 411هـ/ 1020م، وساح في الشرق كثيراً وكان يعرف اللغة العربية واليونانية واللاتينية، ترجم عن العربية كتباً كثيرة لا سيما الكتب الطبية، وتوفي سنة 480هـ/ 1087م، الخطيب، تاريخ الحضارة، ص301.

30. يونغ، العرب واوربا، ص119.

31. نسبة الى مدنية سالرنو الواقعة في جنوبي ايطاليا على خليج سالرنو، ومدرسة سالرنو هي مدرسة للطب، سميت في اللاتينية بمدرسة ابقراط، وتدين هذه المدرسة للعرب من حيث التأسيس، والتدريس وقد اتضح ذلك منذ القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي.الخطيب، تاريخ الحضارة، ص300ـ301.

32. المرجع نفسه، ص301.

33. يونغ، العرب واوربا، ص11ـ12.

34. من أشهر المترجمين، ترجم عن العربية أكثر آثار الفلاسفة اليونان، وقسماً من المؤلفات العربية، وكان يحسن اختيار الكتب المفيدة ويشتغل بالترجمة في طليطلة، وربما كان رأس حركة كبيرة في الترجمة ترفدها الدولة بالمعونة انذاك. الخطيب، تاريخ الحضارة، ص299.

35. مدكور، في الفلسفة ـ ضمن كتاب أثر العرب والاسلام، ص166ــ167، وينظر: عبد الحليم، العلاقات بين الأندلس الاسلامية واسبانيا النصرانية، ص453ـ454.

36. يونغ، العرب وأوربا، ص112.

37. المرجع نفسه، ص112، الخطيب، تاريخ الحضارة، ص300.

38. مدكور، في الفلسفة، ص167، وينظر: الفلاحي، مآثر العرب، ص267.

39. يونغ، العرب واوربا، ص130ـ131.

40. ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص58ـ61، الخطيب، تاريخ الحضارة، ص237.

41. يونغ، العرب واوربا، ص130ـ131.

42. الخطيب، تاريخ الحضارة، ص237.

43. كيب، مدنية العرب، ص48.

44. المرجع نفسه، ص41.

45. السامرائي، تاريخ العرب، ص376، كانت بعثة ملك بافاريا تتألف من 215 طالباً وطالبة، وزعوا على جميع معاهد الأندلس لينهلوا من مواردها الثقافية، وقد بقي ثمانية من أفراد هذه البعثة اعتنقوا الدين الاسلامي ومكثوا في الأندلس ، ورفضوا العودة الى بلادهم ومن هؤلاء الثمانية ثلاث فتيات تزوجن بمشاهير من رجال الأندلس في ذلك الوقت وانجبن عددا من العلماء كان منهم عباس بن مرداس الفلكي، التكريتي، أوربا ترسل بعثاتها الى الأندلس ، ص90ـ91، السامرائي، تاريخ العرب، ص476.

46. زود ملك ويلز هذه البعثة برسالة يدل مضمونها على ما وصلت إليه الأندلس في ذلك الوقت من رقي حضاري، جعلها محط أنظار الغرب الأوربي الذي وجد في حضارة العرب أملا للتخلص من غمرة الجهل والتخلف وللتدليل على ذلك نورد بعض ما ورد في هذه الرسالة: ((فقد سمعنا عن الرقي العظيم الذي تتمتع بفيضه الصافي معاهد العلم والصناعات في بلادكم العامرة فأردنا لابنائنا اقتباس نماذج هذه الفضائل لتكون بداية حسنة في اقتفاء أثركم لنشر أنوار العلم في بلادنا التي يسودها الجهل من أربعة أركان...))، التكريتي، أوربا ترسل بعثاتها الى الأندلس، ص90، السامرائي، تاريخ العرب، ص476.
47. الفلاحي، مآثر العرب، ص266، ص273.
48. سيديو، خلاصة تاريخ العرب، ص234ـ235، يونغ، العرب واوربا، ص121.
49. الادهمي، تاريخ أوربا، ص16.
50. الخطيب، تاريخ الحضارة، ص237.
51. يونغ، العرب وأوربا، ص131ـ132، السامرائي، تاريخ العرب، ص484.
52. السامرائي، تاريخ العرب، ص477.
53. ينظر عن إبداعات بعض أطباء مدرسة الأندلس في مجال الجراحة والادوية: سيديو، خلاصة تاريخ العرب، ص239.
54. كامل، في الطب والاقربازين، ص54ـ55، الخطيب، تاريخ الحضارة، ص226.
55. كامل، في الطب والاقربازين، ص54.

56. الخطيب، تاريخ الحضارة ، ص235.
57. كامل، في الطب والاقربازين، ص54ـ55.
58. يونغ، العرب واوربا، ص96.
59. الخطيب، تاريخ الحضارة، ص204.
60. عاشور، الحياة الفكرية، ص96.
61. يونغ، العرب واوربا، ص123.
62. عاشور، الحياة الفكرية، ص102.
63. خلاصة تاريخ العرب، ص240.
64. الصياد، في الجغرافية، ص327.
65. يونغ، العرب واوربا، ص102ـ103.
66. الخطيب، تاريخ الحضارة، ص180.
67. المرجع نفسه، ص179.
68. كيب، مدنية العرب، ص53، ارنولد، تراث الاسلام، ص177.
69. الخطيب، تاريخ الحضارة، ص181.
70. العقاد، اثر العرب في الحضارة الأوربية، ص60ـ61.
71. القلماوي ومكي، في الأدب، ص114، وينظر رأي بدوي في ان دانتي قد استمد مادة غزيرة لكتابه (الكوميديا الألهية) من التصورات الأخروية الاسلامية ولا سيما ماورد منها عند ابن عربي، بينما يرى الفلاحي أن دانتي اخذ فكرة الكوميديا الألهية من (رسالة الغفران) للشاعر العربي أبي العلاء المعري الذي سبق دانتي بحوالي 271 عاما، بدوي، دور العرب، ص49ـ50، الفلاحي، مآثر العرب، ص176ـ177.
72. القلماوي ومكي، في الادب، ص114ـ119.

73. الخطيب، تاريخ الحضارة، ص306.

74. المرجع نفسه، ص306ـ307.

75. العقاد، أثر العرب في الحضارة الأوربية، ص70ـ71.

76. عبد الحليم، العلاقات بين الأندلس الإسلامية واسبانيا النصرانية، ص458.

77. العقاد، أثر العرب في الحضارة الأوربية، ص/ 71.

78. أشار الى ذلك الخليفة المنصور العباسي عندما قال عن عبد الرحمن الداخل: ((ماذا يقال في رجل يركب من إنتاجه، ويلبس من ديباجه، وينفق من خراجه))، ابن الخطيب، إعمال الإعلام، 2/ 5، المقري، نفح الطيب، 1/ 65ـ66.

79. عبد الحليم، العلاقات بين الأندلس الإسلامية واسبانيا النصرانية، ص466.

80. يونغ، العرب وأوربا، ص64، سليمان، تاريخ الحضارة، ص30.

81. عبد الحليم، العلاقات بين الأندلس الإسلامية واسبانيا النصرانية، ص467.

82. سيديو، خلاصة تاريخ العرب، ص165.

83. كان يوجد في المرية 800 نول لصناعة الملابس الحريرية، و(1.000) نول لصناعة الحلل النفيسة والديباج الفاخر، وألف نول للاسقلاطون، والف نول للثياب الجرجانية، ومثلها للثياب الاصفهانية والعنابي والستور المكللة وقامت صناعة النسيج في قرطبة حيث كان بها ثلاثة عشرـ ألف حائك، لمزيد ينظر: الادريسي، صفة المغرب، ص192ـــ193، ص197، المقري، نفح الطيب، 1/ 78،74، المطوي، الحروب الصليبية، ص174.

84. العبادي، الحياة الاقتصادية، ص334ـ337.
85. يونغ، العرب واوربا، ص134.
86. مورينو، الفن الاسلامي في اسبانيا، 369؛ عبد الحليم، العلاقات بين الأندلس الاسلامية واسبانيا النصرانية، ص465.
87. ينظر: المقري، نفح الطيب، 1/ 163، العبادي، نظم الحكم، ص180.
88. عاشور، الحياة الفكرية، ص119، سيديو، خلاصة تاريخ العرب، ص268.
89. ينظر: العبادي، الحياة الاقتصادية، ص247ــ 248، الفلاحي، مآثر العرب، ص248ـ249، يونغ، العرب وأوربا، ص70، سيديو، خلاصة تاريخ العرب، ص268.
90. يونغ، العرب وأوربا، ص15ـ16.
91. شيفل، الحضارة الأوربية، ص47ـ48.
92. يونغ، العرب وأوربا، ص162.
93. العقاد، أثر العرب في الحضارة الأوربية، ص109ـ110.
94. المرجع نفسه، ص47.

الفصل العاشر

مقدمة في تطور الفكر الغربي والحداثة

• مواجهة أوروبا للإسلام:

أما الإسلام فإنه لما كان الرومان عامة يعدون كل ما عداهم من الشعوب برابرة، ولما كان البابوات ورجال الكنيسة يعدون الإسلام وثنية فقد اتفق الموردان في النظرة القاتمة إلى العالم الإسلامي، وامتزجت العنصرية القديمة بالحقد الديني الجديد.

مقارنة بين الحضارتين الأوروبية والإسلامية :

مع أننا لو انتقلنا إلى واقع الحياة الإسلامية حينئذ وعقدنا مقارنة بين الدينين والحضارتين لوجدنا البون شاسعاً والفرق بعيداً:

1. لم يكن لدى أوروبا مركز حضاري يمكن أن يسمى "مدينة"بالمفهوم السائد عن المدن فيما بعد، وأكبر ما كانت تعرفه هو بيزنطة وروما اللتان لم تكونا سوى قريتين متأخرتين؛ إذا قورنتا بالمدن العالمية آنذاك بغداد، دمشق، القاهرة، قرطبة... إلخ[1].
2. لم يؤلف في أوروبا خلال تلك الحقبة الطويلة كتاب علمي على الإطلاق، في حين نجد الواحد من علماء المسلمين يكتب العشرات وربما المئات من المصنفات في فنون المعرفة جميعها.

1- لا يزال التعصب والعنصرية يجريان في عروق المفكرين الغربيين، حتى أن بول كيندي عندما عدد المدن العالمية في العصور السابقة؛ ذكر بعض مدن الحضارتين الإغريقية والرومانية ولم يذكر مدينة إسلامية واحدة (مستقبل القرن الحادي والعشرين) من الأصل الإنجليزي!

وإذا كانت أوروبا تعد ظهور ترجمة كتب أرسطو بداية الخروج من عصر الظلمات، فإن الفضل عليها في ذلك يرجع إلى رجل ليس أوروبياً ولا نصرانياً، بل هو ابن رشد المتوفى سنة (1198م).

ومن هذا المنطلق العنصري وبتلك الرواسب الجاهلية انتقلت أوروبا ببطء -في مرحلة مفعمة بالمفاجئات والانكسارات الحادة- من عصر الظلمات البربري إلى عصر الظلمات الصناعي، وصولاً إلى المرحلة المعاصرة من الظلمات المتراكمة المسماة "عصر ما بعد الحداثة".

واستمر القدر الإلهي ألا تعتنق أوروبا الإسلام، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [سورة يونس: الآية 100] هذا مع أن أساس نهضتها كان إسلامياً، وأن العربية كانت لغة العلم فيها إلى القرن الثامن عشر، وأن جامعاتها إنما قامت محاكاة للجامعات الإسلامية.

وليت الأمر وقف عند هذا الحد غير أن ما فعلته أوروبا كان أفظع من مجرد التعصب لوثنيتها وترك الاهتداء بهدى الله؛ فقد تعدى ذلك إلى العدوان العسكري المتواصل أبداً على الإسلام وأهله، والوقوف الدائم مع كل عدو لهم وإن كان عابد حجر أو بقر!!

لقد كان إجحافاً أن تنظر أوروبا للمسلمين النظرة إلى البرابرة، والقوط، والنورمانديين، والفايكنج، بلا أدنى اختلاف، لكن أنكى منه أن تتداعى القارة طولاً وعرضاً شرقاً وغرباً، وتهب هبة رجل واحد لتحرير الأراضي المقدسة من البرابرة الجدد زعمت!!

الصدمة الحضارية الأوروبية:

وهكذا كانت الحملات الصليبية، وكانت الصدمة الحضارية التي لم تنسها أوروبا لحظة واحدة من عمرها:

أوروبا التي لا تعرف التمدن تحاصر مدناً -هي صغرى في محيط الحضارة الإسلامية- لكن بعضها يبلغ عشرة أضعاف روما عاصمة المتحضرين المقدسة!!

أوروبا التي لم تعرف العلم قروناً، بل لم تعرف كتاباً إلا الإنجيل ولا قارئاً إلا القسيس، تذهل للمكتبات الهائلة التي تختزنها هذه المدن الصغرى من عامة وخاصة، وفي كل فنون المعرفة من الفلك إلى النقد الأدبي!!

أوروبا التي لا تستطيع أن تستغفر ربها أو تصلي له أو تقدم له قرباناً إلا بتوسط البابا وكهنته، ولا تستطيع أن تقرأ كتابها المقدس ولا تفسره أو تترجمه إلى لغة حية، تجد كتاب الله الأخير -القرآن- في الشرق الإسلامي المتحضر تتلوه الملايين في المساجد والبيوت، والكل يعبد رب العالمين بلا واسطة مخلوق!!

أوروبا التي يعيش (٩٩٪) من أهلها عبيداً ورقيق أرضٍ وفلاحين لا يستطيع أحدهم أن يتنفس الهواء خارج إقطاعيته، وإن حاول ذلك كان عقابه الكي بمياسم عريضة تطبع العبودية على جبينه مدى الحياة، تجد الناس في الشرق الإسلامي يعيشون ويتنقلون أحراراً في أرض الله الواسعة من المحيط الهادي إلى المحيط الأطلسي، ويتاجرون مع جنوب إفريقيا والدول الإسكندنافية وربما مع جزر الكاريبي!!

أوروبا التي كان أفضل نموذج لوحداتها الإدارية هو حكومات "الكوميون" في إيطاليا، تجد الشرق المسلم يعيش أرقى النظم الإدارية في ممالك تبلغ مساحتها مساحة القمر!!

أوروبا التي يحكمها الأباطرة حكماً استبدادياً مطلقاً، ويعتقد الرعايا أن القيصر من نسل الآلهة، وأن الله هو الذي أعطاه هذا الحق قدراً وشرعاً وأورثه لسلالته المقدسة، تفاجأ بالمسلمين وسلاطينهم من الترك تارة، ومن الكرد أخرى، ومن المماليك ثالثة، والكل بشر في نظر سائر البشر[1].

أوروبا الغارقة في الهمجية والوحشية التي تحرق المخالفين وهم أحياء، وتتفنن في تعذيب المنشقين وإذلال المقهورين، ولا تعرف عهداً ولا ميثاقاً، تبهرها الأخلاق الإسلامية في الحرب والسلم سواء[2].

أوروبا التي ما كانت تحسب العالم إلا أوروبا، والتي تسمي الوصول إلى شيء من أطراف الشرق اكتشافاً[3]، وظلت هكذا إلى القرن التاسع عشر، ففوجئت بالمسلمين يجوبون الدنيا شرقاً وغرباً تجاراً ورحالة ودعاة، بكل تواضع وهدوء، لقد وصلوا إلى أجزاء من شمال أوروبا قبل أن تعرفها أوروبا نفسها، هذا عدا العالم الشرقي الهائل السعة بالنسبة لها براً وبحراً[4]. وما المساجد التي

1- ظهر في العالم الإسلامي من يدعي دعوى أباطرة أوروبا وبابواتها كالعبيديين المتلقبين "الفاطميين" وأشباههم، ولكنهم كانوا منبوذين من عامة الأمة؛ لأن نور الكتاب والسنة جعل العامة من المسلمين أرقى فكراً من كثير من فلاسفة أوروبا الذين يؤمنون بهذه الأساطير مثل ما كان يعتقد هيجل في طواغيت بروسيا**!!**

2- حسب أي منصف أن يرى كيف يعيش النصارى في مصر والشام وغيرها حتى يومنا هذا، مع أنهم منذ الفتح الإسلامي في القرن الأول حتى الآن ليسوا سوى أقلية ضئيلة في محيط إسلامي كبير، ويقارن ذلك بالإبادة المستأصلة التي نزلت بمسلمي الأندلس على يد أوروبا النصرانية في العصر المسمى عصر النهوض**!!**

3- انظر مثلاً كتاب: اكتشاف جزيرة العرب، وقد أقر المحقق التسمية لا بلسان الحال فقط، بل بلسان المقال وهذا حال من تقمص عدوه وذاب في حضارته**!!**

4- هذه الفوارق -وغيرها كثير- مع أن المسلمين كانوا عند قيام الصليبيين بحركاتهم الاستكشافية مقصرين في العمل بأحكام الإسلام والتمسك بحقيقته، وفي اعتقادي أن أوروبا لو رأت أخلاق النبوة المتمثلة في الجيل الأول الذي شهدته مستعمرات الإمبراطورية البيزنطية لأسلمت نفسها لله كما فعل أولئك، ولآمن كثير من الصليبيين ولو قطعهم البابا إرباً إرباً، ولكنها حكمة الله في عقوبة هؤلاء وإضلال أولئك.

اكتشفت في جزر الكاريبي وصرخ كولومبس حين رآها قائلاً: "يا إلهي!! حتى اليابان فيها مساجد؟!!" إلا أحد الشواهد الثابتة على هذا.

أوروبا التي كانت تتداوى بمركبات من الروث والبول وأشلاء الحشرات الميتة، تفاجأ بالعالم الإسلامي زاخراً بالمستشفيات والمعامل القائمة على منهج التجربة والاستقراء؛ مع الخبرة والحدس في التشريح والتشخيص والجراحة وتركيب الدواء، وكل ذلك مدون في موسوعات ضخمة ظلت المصدر الأول لنهضة الطب الحديث ولا تزال رافداً متجدداً له[1].

وإجمالاً: ولدت أوروبا ولادة جديدة، ووجد لديها لأول مرة في تاريخها الشعور بأنها أمة واحدة تواجه عدواً أبدياً هو الإسلام، وكانت طفولتها في ذلك العصر الذي سمي "عصر النهضة" أو الانبعاث الذي تعمّدت ألا تجعله يبدأ تاريخياً بمعرفة الدين الرباني واكتشاف حضارته العظمى، بل بلحظة الإبحار العكسي إلى الجاهلية الإغريقية واكتشاف أرسطو.

التناقضات الصارخة في الفكر الأوروبي:

إن ولادة أوروبا في ظل الحروب الصليبية وشعورها بذاتها من خلالها هو الذي يفسر تلك التناقضات الصارخة التي يعيشها الفكر الغربي متمثلة في هذه المعادلات الصعبة:-

✵ تعصب صليبي على الإسلام من بطرس الناسك إلى كلاوس[2]. يوازيه داخلياً تمرد كامل على دين الصليب.

1- عندما سقطت الأندلس في يد فرديناند ديزابيلا أصدر أمراً بهدم كل الحمامات، وسنت الكنيسة قانوناً يعتبر الاغتسال عادة إسلامية؛ وقرينة لمحاكم التفتيش على أن فاعله لم يتنصر على الحقيقة، وفي ظل هذا الحكم الكاثوليكي ازدهرت تجارة البول البشري للتداوي به ، فقد كان الغرب مبهوراً بالحضارة الأندلسية لدرجة أن أبوال الناس في الأندلس هي أفضل أنواع الدواء!!(كل هذا فصله أحد المستشرقين الأسبان المعاصرين، ولعل الله يهئ لإخراج مادة عن هذا الموضوع الصارخ الدلالة).

2- الأمين العام لحلف الناتو الذي قال بكل وضوح:"إن العدو الذي يعمل الحلف لمواجهته بعد سقوط الاتحاد السوفيتي هو الإسلام.

❋ ازدراء مطلق للعصور الوسطى باعتبارها عصور إيمان، يوازيه تحيز فاضح لها إذا قورنت بنظيرها التاريخي في الإسلام!!

❋ الحكم بالسذاجة والبدائية على الفكر الإغريقي باعتباره نقطة البداية في مسيرة الحضارة الغربية، يوازيه الحكم عليه بالعظمة والإبداع بالنسبة للحضارة الإسلامية.

ولقد صدق أحد المفكرين الغربيين حين قال في وصف هذه الحالة من التناقض: "كانت أوروبا تعبد أرسطو وتلعنه في آنٍ واحدٍ" وهو التناقض الذي يدفع المسلمون ثمنه للحضارة الغربية إلى الآن.

ولئن كانت كتب أرسطو بمنزلة الكوة الصغيرة التي نفذت منها أوروبا في انفلاتها من سجن الكنيسة المظلم فإنها لم توصلها إلى بر الأمان، بل إلى نفق الجاهلية الإغريقية التي لم تخرج منه إلا إلى صحراء القلق والضياع التي يصطلي الإنسان الغربي المعاصر بلهيبها.

• دعائم النهضة الأوروبية:

ومع أننا لا ننسى إطلاقاً مسئولية الأمة الإسلامية في كل ما حدث ويحدث، فإننا سنتجاوز هذا لننظر نظرة مجردة كيف أصبح الوليد عملاقاً مارداً، أي: كيف تشكلت أوروبا الحديثة؟ **وللإجابة الإجمالية على هذا نقول:**

إن هناك اتفاقاً عاماً لدى مؤرخي الفكر الأوروبيين على أن النهضة الأوروبية قامت على دعائم -أو حركات- ثلاث:

1. النزعة الإنسانية (*Humanism*) وإحياء الآداب القديمة أي: الانتكاس للجاهلية الإغريقية.
2. حركة الإصلاح الديني.
3. النظرة التجريبية.

وفي كل هذه الحركات نجد الأثر الإسلامي ظاهراً يوازي إن لم يـزد عـلى الثورة العقلية الذاتيـة عـلى خرافـات الكنيسـة، والرغبـة الفطريـة في التحريـر من ظلمها واستبدادها، ومع هـذا التـوازي في الـدوافع والأسـباب اسـتطاعت أوروبا بدهاء شيطاني أن تحتفظ بأسبابها الذاتيـة وتمـدها إلى نهايـات بعيـدة، أمـا الخط الآخر فأسدلت عليه حجباً كثيفة من الإهمال والتناسي.

تأثير الحضارة الإسلامية في النزعة الإنسانية:

فالنزعة الإنسانية مدينة كليـاً للحضـارة الإسـلامية، ولا ينحصـر ذلـك في الأثر الأدبي -اقتباس أبرز ممثليها وهو دانتي من أبي العلاء وابن طفيـل- بـل يشمل العصر كله، حتى أن الامبراطور فردريك الثاني وهو أكبر أباطرة القـرون الوسطى بإطلاق، ويعتبر لدى بعض المفكرين أول المحدثين ورائد النهضـة،كان يتكلم العربية وكان بلاطه عربي العلم واللسـان، حتـى أنـه حيـنما قابـل الملـك الكامل الأيوبي للصـلح لم يحـتج إلى مـترجم، ولهـذا اتهمتـه الكنيسـة بالإسـلام وسمته الزنديق الأعظم!![1].

تأثر حركة الإصلاح الديني بالتعاليم الإسلامية:

أما حركة الإصلاح الديني فلم تولد مع "لوثر" و"كالفن"، بل لها جذور عميقـة الصـلة بالإسـلام لا يسـتطيع أي باحـث أوروبي أن يغفلهـا مهـما قلـل من شأنها، ومنها (حركة تحطيم الصور والتماثيل) التي اجتاحـت الامبراطوريـة البيزنطية في أوائـل القـرن الثـامن المـيلادي -أي بعـد قـرن تقريبـاً مـن ظهـور الإسلام- وممن آمن بذلك وأصدر مرسوماً عاماً به الامبراطور "ليو الثالث"[2].

1- انظر كتاب جاديس (الزنديق الأعظم) معرّباً.

2- واستمرت الحركة إلى عهد الإمبراطورة إيريني التي كانت معاصرة لهارون الرشيد -رحمه الله- حيث انتصرت الدعوة إلى الوثنية وأقر مجمع "نيقيه" الثاني سنة 787م التماثيل والتصوير، وهكذا أغرقت أوروبا في الوثنية ولا تزال.

صحيح أن التوراة حرمت ذلك[1]، ولكن الكنيسة أحلته فيما حرفت من شريعة الله ووصاياه، وكل ما فعلته تحويل الناس من تصوير العظماء الدنيويين إلى تصوير المسيح وأمه والقديسين عندها.

سبق المسلمين في المنهج التجريبي:

أما التجريب الذي تعزى إليه نهضة أوروبا العلمية عامة، فإن باعثه الظاهري هو التساؤل العقلي الذي افترقت عليه الفلسفة القديمة وهو: أيهما أصدق الفكر المجرد أم التجربة الحسية؟.

ولم يكن صعود "جاليليو" إلى البرج وإسقاط جسمين متماثلين في الوزن إلا تدليلاً على بطلان قول أرسطو في ذلك[2].

ومن هنا فإن الفكر الإسلامي -السني خاصة- الذي رفض فكر أرسطو رفضاً مطلقاً، ودعا -وفقاً لصريح القرآن- إلى نبذ تقليد السالفين، والتأمل في ملكوت السماوات والأرض، والنظر في آيات الله الآفاقية والنفسية هو أصل تقدم الإنسانية الحالي كلها، وما فعله " جاليليو" بالنسبة لحركة الأجرام السماوية ما هو إلا جزء من الأثر السني الذي شمل العالم، وصرع المنطق الصوري الإغريقي في الشرق قبل أن تتخلص أوروبا منه بعدة قرون[3].

3- في سفر اللاَّويين الإصحاح التاسع عشر:(أنا الرب إلهكم، لا تلتفتوا إلى الأوثان، وآلهة مسبوكة لا تصنعوا لأنفسكم)، وفي الإصحاح السادس والعشرين:(لا تصنعوا لكم أوثاناً، ولا تقيموا لكم تمثالاً منحوتاً أو نصباً، ولا تجعلوا في أرضكم حجراً مصوراً لتسجدوا له)، ونحوه في سفر الملوك الأول الإصحاح الرابع عشر ومواضع كثيرة من أسفار الأنبياء.

1- يرى أرسطو حسب النظر العقلي المجرد أن أثقل الجسمين هو الذي يقع على الأرض أولاً، في حين أثبت جاليليو بالتجربة وصولهما معاً؛ وبذلك تبين أن عوامل غير الكثافة (فراغ الوسط أو تخلخله) هي المؤثرة في سرعة السقو.

2- رغم الثورة العنيفة في الفكر الأوروبي على منطق أرسطو لم يستطع أي فيلسوف أوروبي ولا هيجل أو جون مل أن يكتب في "نقض المنطق" مثلما كتب شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- وأنى لهم ذلك!

• الأدب في أوروبا:

وعلى أية حال انطلقت أوروبا في نهضتها بعيداً عن الدين، وسوف نتتبع خط سيرها مقتصرين على الجانب المقصود بالذات وهو: (الأدب والفن) الذي تنعكس على صفحات محيطه المتماوج الأوجه المتعاورة لأوروبا في مراحلها التاريخية المتتالية.

جمود الأدب في أوروبا:

كان جمود الآداب جزءاً من الجمود المطلق في ظل الكنيسة، حيث كان العلم -وبالأصح معرفة القراءة والكتابة- منحصراً في رجال الدين، وأسوأ من ذلك أنه كان بلغة ميتة "اللاتينية"، وهي لغة معقدة الأسلوب والقواعد في حين كانت أوروبا تتكلم لهجات كثيرة متباينة.

أما المعايير الفنية للأدب والبلاغة والشعر والمسرح فكلها مصفَّدة بآراء أرسطو ونظرياته، وغاية العبقرية والإبداع والتجديد أن يستنبط الأديب أو الناقد من كلام أرسطو شيئاً أو يفرع عليه آخر، أما الخروج عليه فهو المحال.

فالملحمة -وهي التي ينعى الأوروبيون على أدبنا العربي خلوّه منها- ظلت خلال القرون الوسطى والعصر الحديث محكومة بتلك القواعد المتزمتة والتقاليد الثابتة، ومنها ضرورة الاستهلال بالتضرع إلى أرباب الشعر مثل: كليوبي، فالشاعر الإغريقي هوميروس يتضرع إليها في ملحمته، وكذا تضرع صنوه هزيود، وعلى إثرهما نجد "دانتي" المسيحي يتضرع إلى أبولو (إله الشعر) في الكوميديا، وكذلك تضرع ميلتون إلى أورانيا (ربة علم الفلك) في ملحمته الفردوس المفقود!! تعالى الله عما يشركون.

وفي الشعر نجد التقيد المطلق بما ورثه القدماء في المضمون والشكل، ومن ذلك الالتزام بالمقاطع وعدد الأبيات في كل مقطع وعدد التفعيلات -أيضاً- أما النقد فكان ما قرره أرسطو هو المعيار الدقيق، وكانت المحاكمات الأدبية تتخذ كلامه دستوراً. وهكذا لم تكن الكلاسيكية إلا تعبيراً واضحاً عن اعتقاد أوروبا الكمال المطلق لعمالقة الفكر الإغريقي، وعلى رأسهم أرسطو.

ظهور الحركة الأدبية ضد الكنيسة:

والمهم أن أوروبا النصرانية قدست اللاتينية تقديسها للنص الديني نفسه، وقدست معايير أرسطو الفنية تقديسها لعلم الكلام الكنسي المنقول عن الفكر الإغريقي. ومن هنا كانت الحركة الأدبية المتحررة موسومة منذ البداية بالإلحاد والزندقة، وكان لابد لدعاتها من التسلح بقدر كبير من المغامرة والجرأة. إنه ليس تحرراً من القيود الأدبية ولكنه تحرر من القبضة الكنسية الجائرة. وكانت الزحزحة الأولى **حيث ظهر حدثان أدبيان كبيران:-**

أولهما: الكوميديا الإلهية للشاعر الإيطالي دانتي (1321م) أبرز رواد عصر النهضة -معه مثل: بتراك، دافينشي، تشوسر، مايكل أنجلو-؛ وبذلك سجلت أوروبا كما يقول برتراند رسل: "وثيقة التحرر الأولى!!".

أما وثيقة التحرر الأخرى: وهي أعظم من الأولى فكانت على يد المصلح الكنسي " مارتن لوثر"، ذلك المتدين الثائر الذي هاله ما رأى من فظائع البابوية، فكتب وثيقة الاحتجاج المشهورة سنة (1517م) وجعلها خمسة وتسعين بنداً وعلقها على مدخل كنيسة ويتنبرج، وليست هذه هي وثيقة التحرر التي نريد هنا ولكنها انبثقت منها[1].

1- فقد ترجم لوثر الإنجيل إلى اللغة -اللهجة- الألمانية الدارجة، وكانت أوروبا قد عرفت المطبعة لأول مرة على يد جوتنبرج الألماني، فكانت طباعة الإنجيل مترجماً بلغة غير اللاتينية هي الوثيقة الأدبية الأم، وإن شئت فقل هي:(البيان الحداثي الأول).هذا الرأي الذي نقوله يبدو مخالفاً للسائد في تاريخ الحداثة عند كثيرين، لكن لا جرم أن البدايات الفكرية دائماً موضع اختلاف، على أن من تأمل ملياً ظهرت له وجهة نظرنا، انظر مثلاً: حكمة الغرب: برتراند رسل، ترجمة فؤاد زكريا، 1983م الكويت، ص 17-42.

إلا أن أحداً من الناس حينئذ لم يطلق على هذا اسم الحداثـة (موديرنـــزم) بمصطلحها الأدبي، ذلك أن الخلاف بين لوثر والكنيسـة أكـبر مـن أن يكـون في الأدب أو اللغة.

وظهر بعد اللوثرية مذاهب وألوان دينية جديدة لاسيما في القـرن السـابع عشر، وكان من أهم أسباب ظهورها انتشار الإنجيل بلغات حية كثيرة، فـدخل الجميع من الباب الذي فتحه لـوثر ومنهـا (الكالفينيـة = كـالفن) (الجزويـت = أجناثيوس) (الكويكرز = جورج فوكس) (الويزلية = جون ويـزلي)، ومـع أنهـا اتجهت كلها تقريباً لمحاربة الكنيسة الكاثوليكية أو مخالفتها، فقد برزت في المقابل محاولات لإعادة الوحدة الدينية لأوروبا.

• الثورات والتحولات العلمية والأدبية الكبرى في أوروبا:

ولكن حدث في المرحلة التالية من الدواهي مـا أذهـل الكنـائس جميعهـا، وأنساها شيئاً من الخلافات فيما بينها، وإن شئت فقل غمرها إلى حين.

ونعني بذلك التحولات الكبرى في الحيـاة الأوروبيـة التـي يسـمونها جميعاً ثورات وأهمها:

1- الثورة العلمية.

2- الثورة الفرنسية.

3- الثورة الصناعية.

✍ **ويهمنا -الآن- الحديث عن الأولى منها:**

الثورة العلمية ضد الكنيسة:

لقد كان العلم -وبالدقة العلم- موقف الكنيسة الأحمق من العلماء- يمثل الثورة الكبرى التي نسفت خرافات الكنيسة، وأطاحت بعرشها وقوضت وجودها الطاغي إلى الأبد، كما نسفت في الوقت نفسه مكانة أرسطو ونظرياته في العلم والفن والحياة.

✍ **وقد صدرت بيانات هذه الثورة تباعاً:**

1- نظرية كوبرنيج عن الأجرام السماوية عام (1540م).
2- تطوير النظرية على يد تيكو براهي عام (1575م).
3- نظرية جاليليو في الحركة وصنع المرقب عام (1597م).
4- قوانين كبلر الثلاثة عام (1620م).
5- نظرية الجاذبية وقوانين الحركة لنيوتن عام (1687م).
6- أول نظرية كونية وضعها لابلاس عام (1780م).
7- وصاحب ذلك متأثراً به نظريات سياسية واقتصادية واجتماعية قدمت بيانات مساندة للثورة:
8- المكيافيللية في السياسة: مكيافيللي يؤلف الأمير سنة (1513م).
9- ظهور الفلسفة الحديثة على يد ديكارت سنة (1650م).
10- النظرية الطبيعية للدولة والمجتمع " التنين" هوبز سنة (1679م).
11- سبينوزا عام (1677م) يؤسس مدرسة النقد التاريخي للكتب النصرانية المقدسة[1]. ويجاهر بنبذ النصرانية في السياسة والأخلاق، والاعتقاد بوحدة الوجود.

1- لم يبق لدى الباحثين المعاصرين شك في أن سبينوزا - وهو يهودي أندلسي فر من الاضطهاد الكاثوليكي بعد سقوط الدويلات الإسلامية بالأندلس قد بنى نظريته على الأساس المنهجي الذي وضعه ابن حزم في الفصل.

12- تطوير نظرية هوبز وفلسفة ديكارت على يد لوك عام (1704م).
13- فيكو 1744م ينادي بإحلال الوضع الإنساني محل الوحي الإلهي.
14- آراء جديدة في المنطق: باركلي عام (1753م).
15- رفض النصرانية والإيمان بالشك المطلق: هيوم عام (1776م).
16- ولادة النظرية الرأسمالية في كتاب "ثروة الأمم" آدم سميث عام (1776م).
17- نظرية العقد الاجتماعي وتقديس العاطفة لا العقل: روسو عام (1778م).
18- فولتير (1784م) يجاهر بالكفر بالأديان ويطالب بمجتمع علماني.
19- ديدرو (1784م)، والموسوعيون الفرنسيون يضعون دائرة المعارف لتكون بديلاً عن الكتاب المقدس (كتبت بين عامي (1751م-1777م).

التحول الأدبي من الكلاسيكية إلى الرومانسية بعد الثورة الفرنسية:

وهكذا نكون قد اقتربنا من الثورة الثانية التي هي نتيجة لهذه الأولى، ففي سنة (1789م) حدثت الثورة الفرنسية فأضحت معلماً فاصلاً لا في تاريخ الفكر والأدب فحسب بل في التاريخ عامة.

ومنذ عصر النهضة حتى ظهور الثورة الفرنسية كانت الكلاسيكية هي السائدة على الأدب الأوروبي. وقيمة الأدب الكلاسيكي تتمثل في مضمونه الأخلاقي والتزامه المدرسي وحديثه الدائم عما ينبغي أن تكون عليه الحياة.

فالنهايات الكلاسيكية -في المسرحية والملحمة سواء- تأتي دائماً انتصاراً للحق والفضيلة، إنه دعوة إلى الحكمة العملية لكنها لا تخاطب الناس باسم الدين ضرورة، كما أنه كان في جوانب منه لا يهدف إلى أكثر من إعطاء أكبر قدر من المتعة للقارئ، ولو كانت متعة لغوية تقوم على أنواع المحسنات اللفظية وإثبات القدرة على الفذلكة، وكان المسرح من احتكار الطبقة الأرستقراطية -الملوك والنبلاء- تفوح منه روائح العهر والفحش والإباحية وغمزات دائمة للدين ورجاله.

ونتيجة التغييرات الطارئة، وجرياً على سنة التذبذب في التاريخ الأوروبي،تحول الأدب الأوروبي من الكلاسيكية إلى نقيضتها الرومانسية.

والرومانسية هي ارتداد صوفي، ولكن موضوعه ليس الرب كما في رهبانية النصارى بل الطبيعة، وهي لا تهدف إلى التوجيه العقلي للناس عن طريق حكمة القدماء، بل إلى الإشباع العاطفي الذي يجعل الذات محور العالم، إنها مزيج من اليأس الرهباني، والهروب من الواقع الذي كلما تقدمت المعرفة العقلية أظهرت أنه أكثر قتامة وكآبة.

وهكذا كان محورها الدائم هو البؤس -البؤس الديني- كما في الفردوس المفقود[1]. أو البؤس العاطفي والنفسي الذي عبر عنه " روسو"!!

فلئن كان الأوروبيون قبل اعتناق النصرانية يعبدون الحجارة والأشجار والحيوان والكواكب، فإن الرومانسية الهاربة من النصرانية قد جمعت هذه الأوثان جميعاً في صنم واحد سمته "الطبيعة"، وجعلت محل التراتيل الكنسية تلك الأشعار الوجدانية التي تتعشق المعبود الجديد، كما فعل رمزها الكبير روسو في "راهب سافوي".

حقاً وجد الفكر الأوروبي في الرومانسية راحة من الكد المنطقي الذي أرهق مفكري عصر النهضة وما بعدها نتيجة البحث العقيم في الكليات والماهيات والعلاقة بين العقل والمادة والتطلع اليائس إلى معرفة كنه الأشياء منطقياً، واستطلاع الميتافيزيقيا أو ما وراء الطبيعة!!

كما وجدوا فيها مهرباً من الالتزام بالمعايير الخلقية عامة، واستطاعوا إحلال المعايير الجمالية المجردة محلها.

2- مللتون أو البؤس الأخلاقي كما في البؤساء لفيكتور هوجو.

كما كانت الرومانسية ملاذاً لأولئك النفر الذين أزعجتهم الحروب القومية والدينية التي لم تهدأ قط[1]. حيث فتحت لهم مجال تعويض الذات القانطة المغتربة في صراع ليس له ما يبرره عندها، كما فعل "همنغواي" في "وداعاً أيها السلاح" بعد حوالي قرنين.

التغيرات الكبرى بعد الثورة الصناعية:

ثم كان القرن التاسع عشر وهو قرن التغيرات الكبرى في كل مجالات الحياة الأوروبية:-

- الثورة الصناعية تعم أرجاء القارة، حاملة الكوارث الاجتماعية مع التقدم المادي الكبير.
- الرأسمالية بوجهها الكالح تسيطر على أوروبا وتحفز الأوروبيين للتنافس الضاري على خيرات العالم كلها، حيث كان العصر الذهبي للتوسع الاستعماري والاحتكار التجاري.
- الثورات السياسية تجتاح القارة مزلزلة بقايا الإقطاع والأنظمة الملكية.
- الفلسفة المثالية تسود القارة وخاصة ألمانيا، والمذهب النفعي يسيطر على إنجلترا.
- خارطة أوروبا تشهد تغييرات مفاجئة متلاحقة، فمثلاً: امبراطوريات تسقط وولايات تصبح امبراطوريات، دول تنكمش وأخرى تختفي!![2].

3- الحرب هي شأن الحضارة الغربية الدائم، ومن أبرز الأمثلة عليها حرب المائة عام، وهي في الواقع أكثر من (1337-1453م) بين فرنسا وبريطانيا، أما الأسباب فكانت من التفاهة بحيث تثير الاشمئزاز مثل: تتويج طفل رضيع ليكون ملكاً، أو زواج أحد الملوك بملكة دولة أخرى فينتج عنه الاختلاف على ولاية العهد، ناهيك بما إذا اعتنق أحد الملكين مذهباً يخالف الآخر!!، وهكذا فإن الشعارات الجوفاء التي لا يمل الغرب من تكرارها عن السلام والاستقرار ما هي إلا تعبير عن الشعور بالذنب من تاريخ طويل لا يعرف الهدوء ولا الأمن.

1- وهذا شأن أوروبا إلى اليوم، فخريطتها السياسية تتعرض لتحديث مستمر لا نظير له في أي مكان من العالم، وفي ذلك الدلالة الكافية على أنها أمم لا تعرف الطمأنينة والاستقرار لا على المستوى النفسي ولا على المستوى الاجتماعي.

✵ التعصب القومي يبلغ ذروته (جذور الفاشية، جذور النازية، والحركة الصهيونية).

✂ **ظهور الحركات المتطرفة كالماركسية، العدمية، الفوضوية.**

ولعل أكبر الأحداث الفكرية في أول القرن هو ظهور الفلسفة الوضعية التي نادى بها كونت عام (1857م) ديناً جديداً للإنسانية.

ثم تلاها البركان الذي تجاوبت أصداؤه في أنحاء القارة كلها، وأحدث انقلاباً عاماً في الأفكار والآراء والمعتقدات التي توارثتها أوروبا -بل الإنسانية- قروناً طويلة، وهو البركان الذي فجره "داروين" في كتابه: "أصل الأنواع" المشتمل على نظرية التطور العضوي والانتقاء الطبيعي.

وقد وصلت سيول الحمم التي قذفها البركان إلى أرجاء المعمورة كافة نتيجة جهود عظيمة قام بها أناس متعددو الاتجاهات، لكنهم متفقو الدوافع - على ما يبدو- ومن أبرزهم اليهود الثلاثة " ماركس، فرويد، دوركايم،[1] وتبعهم بالطبع جموع هائلة من المغررين أو المسيرين! في كل مكان.

هذا الحدث المذهل أثار حفيظة دعاة القديم، وبالأخص رجال الكنيسة فاستجمعوا قواهم واستنجدوا بكل حميم، وخاضوا معركة كان فيها حتفهم، وانقشع الغبار عن سقوط آخر قلاع الكنيسة وخروجها كلياً عن ميدان الصراع الفكري العام، واندحار الدعاة الأخلاقيين ودعاة الالتزام عامة، ولم يبق لهم إلا شراذم في (حزام الإنجيل)[2] وشبهه.

2- ورابعهم المتفلسف المعتوه "نيتشه" الذي استبطن عقيدة (الشعب المختار)، فنادى بنظرية الإنسان الأعلى سوبرمان واستظهر ب الداروينية ليقول:(ابن الرب قد مات -تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً- وإنما كان الميت هو رب الكنيسة الذي لا وجود له إلا في أذهان عبدة الصليب) ولم يقبل عقل نيتشه -إن كان بقي لديه عقل- أن يدعو نفسه وقومه إلى دين الإسلام وهدي محمد -صلى الله عليه وسلم- بل دعا إلى المجوسية وألف هكذا تكلم زرادشت" وصدق الله تعالى حين قال عنهم: **!!**

3- الولايات المتعصبة في الجنوب الأمريكي، وهي لا تزال حتى اليوم ترفض نظرية داروين، وليس هذا هو المشكل في ذاته؛ ولكنها تقر أن الله خلق الكون كله حوالي سنة 4000 قبل الميلاد-حسب تقاويم التوراة المختلفة**!!**، وأشهر من دخل معهم في صراع حول تدريس هذه النظرية الرئيس الأمريكي كلينتون حين كان حاكماً لإحدى الولايات المذكورة (انظر التفصيل في كتاب: بيل كلنتون) ومع هذا فالعلمانيون العرب لا يجدون مثالاً للتعصب الفكري والجمود العقلي؛ إلا بعض الخطباء أو العلماء الذين يعترضون على الروايات التي تفيض بالزندقة والإلحاد سباً وشتماً لا فكراً وبحثاً**!!**

وهكذا كان الغرور الهائل الذي أوحت به النظرية، والثقة في التقدم المطلق في كل المجالات التي أسهمت فيها الاكتشافات العلمية المذهلة حينئذٍ، وكانت نهاية المطاف ظهور النظرية النسبية في أوائل القرن العشرين عام (1905م).

ونتج عن ذلك تنكر مخيف للماضي بكل ما فيه، وقطع متعمد للأواصر الرابطة به، وثورة شاملة على الأخلاق والتقاليد، لم يسبق لها نظير من قبل.

استقرار الأدب على المذهب الواقعي:

في هذا الجو المحموم تأرجح الأدب واستقر في اتجاه مضاد هو "الواقعية".

والواقعية تعني: السقوط من خيال الرومانسية إلى أرض الواقع، فالمحور ليس الشاعر بل العامل والفلاح والموظف الصغير، والنزول من برج اللغة المعقدة المتأنقة إلى احتضان اللهجات المبتذلة، والصراحة في عرض ما يدور في النفس الإنسانية بلا مواربة، فالحبيبة -هنا- ليست ملاكاً تحوم حوله الأشواق المثالية بل هي جسد تظمأ له رغبات الجوارح، والقضايا الكلية ليست ما يتعلق بحقيقة الوجود وغاية الإنسان فيه، وإنما هي الهدف اليومي للفرد العادي.

• وضع القارة الأوروبية في مطلع القرن العشرين:

وعلى المستوى العام بقيت في أوروبا إلى مطلع القرن العشرين بقايا من الأوضاع الاجتماعية الموروثة وشيء من القيم الشاحبة (الأسرة، الرابطة القومية، احترام ظاهري للعهود والمواثيق، نوع من الالتزام بالمبادئ الأخلاقية)، وهذه البقايا عصفت بها الرياح الهوجاء التي حملت دخان الحرب العالمية الأولى إلى أرجاء القارة، ومنها إلى أطراف العالم الأخرى.

انهيار حلم اليتوبيا مع الحرب العالمية الأولى:

وأسفرت تلك الحرب -مما أسفرت عنه- عن انكسار حاد في نظرة الإنسانية إلى مصيرها وانقلبت الثقة والتفاؤل خيبة وتشاؤماً، وأفاق الإنسان الأوروبي المخدر بنشوة التقدم المطلق؛ على المدافع وهي تدمر مع القلاع والمدن أحلامه بيوتوبيا[1]. علمية إنسانية، لقد كان فصلاً جديداً من مسرحية التاريخ الأوروبي حيث اختفى مشهد " بروميثوس" وظهر مشهد " سيزيف "[2].

التحولات المأساوية النفسية والفلسفية والأدبية خلال وبعد الحربين العالميتين:

في هذا الوضع الخانق تنادت الأصوات للعودة إلى شيء من المسلمات الثابتة والالتزامات الإنسانية، وظهرت نقاط "ويلسون" الأربع عشرة، ثم الالتفات حول شبح عصبة الأمم.

وكانت فترة مابين الحربين من أعظم الأحقاب في التاريخ الأوروبي هيجاناً وصراعاً، ولاسيما في الميدان الفكري حيث تضاربت الدعاوى والاتجاهات وظهرت مذاهب جديدة في كل فن، ومعايير جديدة في كل علم، ومجموعات اجتماعية غريبة. وفي ظل هذا الهيجان نمت ظاهرة الشعر الإنجليزي الحر وتألق "إليوت"[3]. أبرز شعراء الحداثة، أما الشعر الفرنسي الحر فقد ظهر قبل ذلك بكثير.

1- اليوتوبيا = مصطلح فلسفي يقابل "المدنية الفاضلة" عند المتفلسفة الإسلاميين، وهي تعبير عن أحلام وخيالات الفلاسفة المثاليين القانطين من صلاح البشرية والرافضين لهدى الله وشريعته، كما أن متفلسفة رجال الدين مثل أوغسطين حلموا بمدنية تجسد خيالاتهم.

2- بروميثوس الرمز الأسطوري للإنسان الذي سرق النار من الآلهة!(وهو ينطبق على أوروبا في مرحلة النشوة بالانتصار على الكنيسة بواسطة العلم)، وسيزيف أسطورة إغريقية أخرى مضمونها أن الأرباب حكمت على سيزيف بأن يحمل صخرة إلى قمة الجبل، وكلما وصل القمة تدحرجت، ثم عاد ليحملها إليها مرة أخرى فتتدحرج من جديد وهكذا دواليك، وقد جعلها ألبير كامو رمزاً لفلسفته العبثية.

3- وقد ارتد إليوت إلى الكاثوليكية وأصبح يكتب كأشد القساوسة تعصباً، ولكن الداخلين في جحر الضب من الحداثيين العرب يتغافلون عن هذا، ونظيره في ذلك الكاتب "جراهام جرين" الذي ارتد عن الاشتراكية إلى الكاثوليكية، وهكذا نجد العودة إلى الدين الباطل غير مستنكرة في الغرب، أما العودة إلى دين الله فهي في نظر المتعلمنين ظلامية ونكوص وتخلف.

وفي الجانب الآخر قفز العلم التجريبي قفزات هائلة، كان من أعظمها ما سمي اكتشاف الذرة سنة (1938م).

وتدور السنون ولم يدرك أكثر الناس مغزى هذا الاكتشاف حتى انفجرت أعنف حروب التاريخ وأشدها هولاً -الحرب العالمية الثانية- هناك ذهلت أوروبا بجحافل هتلر وهي تدك باريس، وقذائفه وهي تغطي سماء لندن، وكتائبه وهي تسحق لينينجراد، ولكن الذهول الأكبر كان ساعة الانتصار حيث سقطت القنبلة الذرية على هيروشيما[1]. كان إعلان انتصار الحلفاء، وفي الوقت نفسه إعلان وقوف الإنسانية على حافة الهاوية الكبرى.

وفي هذه الأجواء الخانقة والمشاهد الفظيعة ظهرت ألوان من الآراء والمذاهب أكثر قتامة وعبوساً، وأكثر شعوراً بتفاهة الحياة وعبثها. لقد انهارت الآمال الكبرى في التقدم والثقة في عقل الإنسان!!

أما الآلة التي أراحت الإنسان من عناء العمل اليدوي المرهق، فقد أصبحت صنماً يسحق إنسانية الإنسان، بل معبوداً جباراً ينتقم من الجنس الإنساني بوحشية لا نظير لها في التاريخ كله!!

لم تعد المأساة تتمثل في "أرضٍ يباب" فحسب، بل أصبحت "طاعوناً"[2]. واتسعت دائرة البلاء بواسطة وسائل الاتصال المتقدمة والتدفق المسيطر للمعلومات ليصبح الإنسان في جزر الهند السحيقة وحوض الأمازون وأحراش أفريقية يعيش مأساة الوجود الحائر والمستقبل المعتم، ويرى هذا الشبح الرهيب معلقاً فوق رأسه.

1- حيث ألقت أمريكا -التي لا تفتأ تتهم المسلمين بالإرهاب وتتشدق بحظر أسلحة الدمار الشامل- تلك القنبلة الجهنمية على المستشفى العام في المدينة، فتبخر مثل نقطة ماء على صفيح ملتهب وتفحم ما حوله من المدينة، حيث لم يكن أي قاعدة عسكرية، ولم يكن من بين مئات من الضحايا عسكريون إلا من كان موجوداً اتفاقاً أو في إجازة!!

2- "اليباب" قصيدة إليوت المشهورة فيما بين الحربين، و"الطاعون" رواية كامو عن الحرب الثانية.

أما داخل أوروبا نفسها فقد أصبح الفرد العادي يحمل الهموم الكبرى التي ما كان يكابدها في عصور خلت إلا قلة من الفلاسفة التشاؤميين أمثال شبنجلر وأرويل ويعيش الأزمة الخانقة التي ذهبت بعقل نيتشه، ودمرت نفسية شوبنهاور، وألجأت تولستوي إلى المنفى، حتى المسرح الذي كان وسيلة الناس للهروب من الواقع الكالح إلى ميادين من المتعة واللهو وإشغال الوقت تحول -ومعه السينما- إلى مسرح عبث ووجودية وفوضوية وعدمية. إلخ.

لم يعد أحد يتحدث عن "طرطوف"؛ بل عن "دماء الخنازير" وأمثالها[1]. إنها بأصرح عبارة مأساة أمة لم تسلم وجهها إلى الله، ولم تعرف الله بأسمائه الحسنى وصفاته العلى.

إن الذنوب والمعاصي تدمر الأمة، وتنزل بها من موجبات العقوبة ما لا يعلمه إلا الله، فكيف بالإلحاد الصريح المتدفق موجات أثر موجات في ذلك المحيط الهائج المضطرب؟!

ومع اتساع الهوة بين الواقع المعاصر -بيأسه وقنوطه ومعضلاته المستعصية- وبين النظريات الوضعية -الشمولي منها والنسبي- ظهر جلياً عقم الفلسفة، وارتدت في كرة خاسرة يصدق عليها قول أحد كبارها: (إنها ثرثرة تهدف إلى التخلص من الثرثرة)، وتسرب فراغ المضمون هذا إلى الملجأ الهش الذي هرب إليه فلاسفة اللامعقول وهو "الأدب"، وكان الدخول من باب "النقد" الذي باسمه تحولت اللغة إلى موضوع رئيس لجدل فلسفي عقيم، وكان استدراج فروع الأدب كافة إلى هذا المستنقع متلاحقاً وسريعاً، ولعل أوضح الأدلة على ذلك انسياق الماركسية له رغم شموليتها المغالية واعتسافها المطلق للأدب في إطار"الواقعية الاشتراكية"، التي لا تزيد عن كونها نموذجاً مدرسياً معاصراً -كما عبر جارودي -.

1- طرطوف: ملهاة لموليير، ودماء الخنازير مسرحية عبثية كان لها دوي كبير في الستينيات وأمثالها -الآن- كثير.

وهكذا تحول الاهتمام -وبخاصة في فرنسا- عن موضوع "الأنا والعالم، والوجود، والمادة، والعقل. إلخ"، إلى "النص، الشكل، التركيب، البنية، الرمز، الأسطورة. " إلخ كما تحولت الأفكار من المعارك التقليدية بين الفلسفات المنهجية كالحال بين الماركسية والوجودية؛ إلى ضروب جديدة متنافرة من التقلبات الفكرية والجدل غير ذي الموضوع، وهو ما شهده العقد السادس الميلادي الذي يمكن أن يوصف بأنه "عقد البنيوية "!!

- **ظهور البنيوية في الستينات الميلادية في أوروبا وتطورها:**

ففي الستينيات برزت البنيوية، منافساً للوجودية من جهة، وتطويراً للمادية الجدلية من جهة أخرى، وتغلغلت في كثير من العلوم حتى ظهر منافسها " التفكيكية" في السبعينيات.

واختلفت آراء البنيويين في البنيوية وذهب بها كل منهم مذهبه، وحدثت نتيجة لذلك فوضى فكرية لا تزال تغمر الفكر الغربي، وقد جلبها اليسار العربي ومؤسساته، وبعض الاتجاهات الوجودية الملفقة إلى العالم العربي، حتى اكتظت بها الملاحق الأدبية في الجرائد اليومية، فضلاً عما عداها، هذا في حين أن الزمن قد عفى عليها في بلادها.

ونظراً لما حظيت به النظرية -ولا تزال- في عالمنا العربي، ولكونها تمثل المعلم الفاصل بين مرحلتي الحداثة وما بعد الحداثة، فسوف ينحصر جل اهتمامنا هنا بها مع شيء من التفصيل عن مدارسها وحلقاتها وتطبيقاتها في فروع المعرفة.

✓ مدرسة جنيف:

في القرن التاسع عشر نادى الباحث الاجتماعي اليهودي دوركايم بالنظرية المسماة "العقل الجمعي"، ودعا إلى دراسة الظواهر الاجتماعية باعتبارها "أشياء مستقلة"، وتبعاً لذلك ظهر الباحث اللغوي السويسري "فرديناد دي

سوسيور" بنظريته في "ظاهرة اللغة"، حيث جرد اللغة من دلالاتها الإشارية المألوفة وعدها نظاماً من الرموز يقوم على علاقات ثنائية، ومن هنا ظهرت فكرة "البنية".

ومن أبرز ما قرره سوسيور بقوة مبدأ "اعتباطية الرمز اللغوي"[1]. وهو ما يعني أن أشكال التواصل الإنساني ما هي إلا أنظمة تتكون من مجموعة من العلاقات التعسفية أي: العلاقات التي لا ترتبط ارتباطاً طبيعياً أو منطقياً أو وظيفياً بمدلولات العالم الطبيعي"[2]. وأن "كل نظام لغوي يعتمد على مبدأ لا معقول من اعتباطية الرمز وتعسفه" أي: تماماً كما يعتبط العقل الجمعي عند "دوركايم" ويتعسف فيفرض على الناس ما هو خارج عن ذواتهم، ومن هنا انبعثت فكرة "السيمولوجيا" أي علم الدلالة، أو العلامة والإيحاء، وتطورت فيما بعد.

✓ المدرسة الشكلية الروسية:

ويرجع أصلها إلى "حلقة موسكو اللغوية" وهي نوع من الإلحاد غير الماركسي في روسيا وقد أدمجها استالين قسراً ضمن الواقعية الاشتراكية، لكن نفراً من روادها هاجروا إلى الغرب وهناك طوروا الفكرة، ومنهم معلمها الشهير "جاكوبسون"، ومن أهم آرائها "تحرير الكلمة الشعرية من الاتجاهات الفلسفية والدينية[3]. والانطلاق من "دراسة العمل الأدبي في ذاته"، فهي تؤكد "أن العمل الأدبي يتجاوز نفسية مبدعه، ويكتسب خلال عملية الموضعة الفنية وجوده الخاص المستقل"[4].

1- انظر البنائية، د. صلاح فضل:(ص:39) ومن هنا ينكر الحداثيون المجاز، وقد خدعوا بذلك بعض طلبة العلم إذ تمسحوا بموافقة شيخ الإسلام وابن القيم رحمهما الله، وإنما شيخهم سوسيور!! وكلام شيخ الإسلام في اللغة أجل من هذه النظريات وأعمق، وهو جدير بأن تفرد له رسائل علمية من المتخصصين في هذا الميدان.

2- انظر مجلة الفصول م:5، ع:4، ص:144.

3- البنائية (ص:6، 55، 61).

1- البنائية (ص:6، 55، 61).

وتؤكد أن "العمل الفني لا يتطابق بشكل كامل مع الهيكل العقلي للمؤلف ولا المتلقي"، أو كما يقول: " موخارو فسكي: "فإن الأنا الشاعر لا ينطبق على أية شخصية فعلية ملموسة، ولا حتى شخصية المؤلف نفسه، إنه محور تركيب القصيدة الموضوع"[1].

هذا هو الأساس الذي بالاعتماد عليه يحمل البنيويون النصوص فلسفات وأفكاراً ورؤى لم تخطر لقائلها ببال، بل لم تظهر في عصره -إن كان قديماً- وعليه نادى " رولان بارت" أكبر ناقد في أوروبا كما وصفه الدكتور الغذامي بنظرية "موت المؤلف"!! "وهكذا ابتدأت الشكلية الروسية من دعوتها إلى استقلال الكلمة الشعرية كشيء قائمٍ بذاته، وانتهت إلى استقلال العمل الأدبي عن نفسية مؤلفه من ناحية، وعن الموضوع الاجتماعي الذي يشير إليه بأدواته وإجراءاته الخاصة من ناحية أخرى".

وأكدت هذه المدرسة ضمن استقلالية العمل الأدبي أن لهذا العمل زمنه الخاص، وعارضت "الأفكار الأكاديمية التقليدية" عن تطور الأدب ومساره التقدمي المطرد، وأنكرت فكرة التوالي الطبيعي للمذاهب الأدبية أو توالدها فيما بينها، وحرصت على إبراز حقيقة عدم الاستقرار في الأشكال الأدبية[2].

وغايرت المدرسة الشكلية الاتجاهات النقدية الأخرى التي تهتم بالمضمون حيث صرفت الاهتمام الأكبر إلى الشكل، جاعلة إياه وسيلة للوعي وتجديد الرؤية، فوظيفة الفن عندها ليس إعطاء رؤية ولا تصوير الواقع أو التعبير عن العالم الطبيعي الموضوعي، وإنما هي " استخدام اللغة بطريقة جديدة بحيث يثير لدينا وعياً باللغة من حيث هي لغة، ومن خلال هذا الوعي

2- البنائية (ص:6، 55، 61).
3- البنائية:(ص:101).

يتجدد الوعي بدلالات اللغة، هذا الوعي الذي تطمسه العادة والرتابة على حد تعبير "جورج لوكاش"(1). وهكذا نصل إلى الفكرة نفسها "موت المؤلف" كما نادى بها "رولات بارت"(2).

✓ حلقات "براغ، كوبنهاجن، نيويورك" اللغوية:

✍ **ويهمنا منها أمور نوجزها ما أمكن:**

أ- إن أصلها جميعاً هو الشكلية الروسية نفسها:

وخصوصاً " جاكوبسون" المحرك الأساسي لحركة براغ؛ حيث كان يعمل ملحقاً ثقافياً روسيا بها(3).ثم أسست على منوالها مدرسة " كوبنهاجن"(4). ثم حلقة "نيويورك" التي أسست بعد هجرة "جاكوبسون" إليها، حيث التقى بـ"كلود ليفي شتراوس"(5). وهناك نبت من علاقتهما الفكرية الكثير من عناصر البنيوية الحديثة وأركانها، ثم ما لبث شتراوس أن أصبح زعيم البنيوية الفرنسية، كما سيأتي.

ونبغ من هذه الحلقة "نعوم شومسكي" أبرز ممثلي البنيوية الأمريكية!! وهنا لابد أن يستوقفنا دور "جاكوبسون" الكبير في تأسيس وتطوير البنيوية، حتى أن بعض الباحثين يلخص تاريخ نشأة البنائية وتشكلاتها المختلفة في شخصيته ومغامراته العلمية ابتداءً من مطلع شبابه في موسكو حتى تخرج على يديه أجيال من الباحثين في أوروبا وأمريكا، وأصبح الحجة الأولى والمرجع الأخير في علم اللغة الحديث(6).

1- انظر مجلة الفصول م:5، ع:4، ص:144.
2- واحتذاها عبد الله الغذامي ثم تلميذه السريحي صاحب الكتابة خارج الأقواس، حيث دعا إلى تفجير اللغة، ومضى على اعتبار الشاعر مفعولاً به واللغة هي الفاعل.
3- انظر البنائية (ص:109) ومجلة الفصول العدد السابق (ص:145).
4- البنائية (ص:123).
5- البنائية (ص:14).
6- البنائية (ص:110).

فهل الأمر مصادفة، أم عبقرية فردية، أم أن هذه الحركة والشهرة الواسعة وراءها ما وراءها؟!

لعل الإجابة تأتينا من معرفة أن كلاً من زعيمي المدرستين الأمريكية والفرنسية جومسكي وشتراوس يهوديان، بل إن شومسكي تربى في الأرض المحتلة[1].

ومع أنني لم أجد من خلال بحثي المحدود ما يدل على دين "جاكوبسون"، لكن ما علمناه عن دوره وما نعلمه عن دور المؤسسات المريبة في احتضان الأفكار الشاذة وتوجيهها، وما هو واضح من صلته بالماركسية[2]. التي هي فكرة يهودية يجعلنا على الأقل نستريب في انتمائه، ونتساءل أليس من السذاجة أن نغض الطرف عن كون رجال هذا المذهب يهوداً ورموزه توراتية، ونحمل المصادفة وحدها عبء ذلك؟!

ونزيد: أليست النفسية اليهودية منذ حلول غضب الله عليها مسؤولة عن كثير من المفاسد والشرور في الفكر والواقع من غير اشتراط دافع للإفساد عمداً بالضرورة، فليس من شرط الأفاعي -هكذا كما ساهم المسيح- لكي تكون شريرة أن تضع بروتوكولات للإيقاع بالحمام!!

ب- إن المدرسة الأمريكية " نيويورك":

"هي التي لقيت أكبر قدر من الذيوع في العالم العربي" كما يقول الدكتور صلاح فضل[3].

1- تكونت آراءه كما يقول الدكتور عبده الراجحي وسط ما يشير إليه هو باسم الجماعة اليهودية الراديكالية في نيويورك، وبعض أبحاثه في العبرية الحديثة، على أن له موقفاً من الصهيونية والدولة اليهودية في الأرض المحتلة.

2- كما في تقديمه لكتاب الماركسية وفلسفة اللغة تأليف ميخائيل باختين وترجمة محمد البكري ويمنى لعيد.

4- انظر البنائية:(ص:140).

ولعل الأصح أن يقال في المشرق العربي وهي التي تربى في أحضانها الكاتب النصراني " كمال أبو ديب"[1]. الذي سار على خطاه الدكتور عبد الله الغذامي وتلميذه السريحي عندنا[2].

ج- **الاتجاهات التطويرية للبنيوية**[3].

انبثق من البنيوية اتجاهات قامت بتطوير الفلسفات المعروفة وفق منهج بنيوي -أي: بصياغة جديدة للفلسفات والنظريات المشهورة- ومن رواد تلك الاتجاهات إضافة إلى شتراوس وتطويره للدراسات الانتربولوجية:-

1- **" لوى التوسير"**: أعاد صياغة الماركسية بحيث تقرأ من منظور بنيوي لا منظور هيجلي!! وقريب منه "هنري لوفيفر" الزعيم الماركسي- الحركي.

2- **"جاك لاكان"**: أعاد صياغة الفرويدية، بل إن كتاباته تعد في مجملها صدى لتلك النظرية، خاصة رسالته "وراء مبدأ الواقع" التي كان عنوانها محاكاة لعنوان كتاب فرويد "وراء مبدأ اللذة".

3- **"ميشل فوكو"**: الذي صاغ نظرية جديدة في اللغة وأصلها وتراكيبها ووظيفتها، من خلال مصدره الخاص لاستكناه الحقيقة الإنسانية وهو "الجنون" معلناً أن المجنون يمكن أن يؤدي دور النبي عند المؤمنين بالأديان!![4].

5- انظر مقدمة كتابه الضخم "الرؤى المقنعة نحو منهج بنيوي في دراسة الشعر الجاهلي".

6- انظر "الخطيئة والتكفير" و"الكتابة خارج الأقواس"!

7- انظر "عصر البنيوية من ليفي شتراوس إلى فوكو آديت كريزويل ترجمة جابر عصفور، والمذاهب الفلسفية المعاصرة: سماح رافع، فصل البنائية، والبنائية:(ص:210-266) والبنوية: جان بياجيه، ترجمة عارف وبشير، والنقد البنيوي للحكاية: رولات بارت، ترجمة أنطون أبو زيد.

1- الجامع المشترك بين كل هذه الفلسفات هو الثورة على المعايير العقلية والحسية، لكن كلاً منها سلك سبيله الخاص (فرويد: العقل الباطن والأحلام، كاميو وسارتر: الأساطير، شتراوس: السحرة والكهان، برجسون: الحدس، فوكو: الجنون) والحمد لله على نعمة الإسلام.

4- **"رولات بارت"**: صاغ نظرية بنيوية لتغير الأزياء (الموضة)، هي في جزء منها تطوير لآراء "دوركايم" كما أحدث أثراً بالغاً في النقد الأدبي خاصة بعد أن أصبح عضواً في مجلة *TELQUE* صوت الاتجاه الذي يسمى ما بعد البنيوية أو (التفكيكيين) الذين ينتمي إليهم الغذامي في كتابه السالف ذكره.

✓ المدرسة الفرنسية:

وهي المدرسة الرائجة في القارة الأوروبية والمغرب العربي، **وانتشرت في المشرق العربي تبعاً لانتشار الحداثة، ولن نفصل القول فيها وإنما نوجز أهم اتجاهاتها:**

1- **البنيوية الانتربولوجية**: أي التي تبحث في الإنسان وتطور حياته وعاداته الاجتماعية- وزعيمها هو اليهودي " كلود ليفي شتراوس" السالف الذكر، وقد طور اتجاهات دوركايم وفريزر عن الأساطير والعادات الاجتماعية للبدائيين وفق منظوره البنيوي، وهو كثيراً ما يعلن عن ولائه الماركسي- واعتناقه لمبادئ المادية الجدلية، كما أنه يميل إلى البرنامج الاشتراكي سياسياً واقتصادياً، ويرى أن مستقبل الغرب والعالم كله مرهون بانتصار الاشتراكية[1].

2- **الاتجاه الماركسي**: ويمثله رواد الروس المهاجرين إلى فرنسا أو الفرنسيين الماركسيين، ومن أشهرهم " لوسيان جولدمان" و" لوكاش" وهما مهاجران، وتسمى بنيويتهما " البنيوية التكوينية أو التوليدية" في حين تسمى بنيوية شومسكي " التحويلية"! وقد استمدا النظرية من " جان بياجيه" مؤسسها الأصلي ولكنهما حولاها إلى ماركسية[2].

2- انظر البنائية:(ص:28).

(1) انظر "البنيوية التكوينية": الفصلان الأول والأخير، ترجمة محمد سبيلا، المغرب.

البنيوية فلسفة أم منهج:

زعم الدكتور كمال أبو ديب أن البنيوية ليست فلسفة لكنها طريقة في الرؤية ومنهج في معاينة الوجود، وعلى هذا الأساس اعتمد الحداثيون في الدفاع عنها كالغذامي والسريحي، وتصريحهما في أكثر من مناسبة بانتهاج هذا المنهج يجعلنا نبين حقيقة هذا الادعاء[1].

جاء في "مجلة فصول" ذات الاتجاه الحداثي المعروف "يتفق السيد زكريا إبراهيم مع السيد ياسين وغيره -في النظر إلى- البنيوية على أنها تنطوي على موقف عقائدي أو تمثل منظوراً خاصاً"[2].

هذا والدكتور زكريا إبراهيم نصراني من أكبر المتخصصين في هذا المجال، وله كتابه المتعمق " مشكلة البنية" وقد تحدث فيه عن "انزلاق البنيوية من مجال المنهجية العلمية إلى مجال الأيدلوجيا، وآية ذلك أن المنظور الفكري الذي انطوت عليه هذه البنيوية الجديدة قد جاء مؤكداً للدعوى القائلة: بأن في تضاعيف هذا الاتجاه الفلسفي الجديد إنكاراً لقدرة البشر على صنع تاريخهم الخاص، ورفضاً لكل نزعة إنسانية، ومن ثم فقد صار البعض يؤكد أن النداء الخاص الذي اتحدت عنده كلمة البنيوية هو إعلان موت الإنسان"[3].

هذا مع أننا نسأل أبا ديب هذا: ماهي الفلسفة إن لم تكن طريقة في الرؤية، ومنهجاً في معاينة الوجود؟!

(1)أما "الواقعيون" عندنا فهم نسخة من اليساريين المنتمين في أي مكان، ولهذا فلا كلام لنا معهم.
(2)مجلة الفصول، م:5، ع:4، ص:145.
(3)مجلة الفصول العدد نفسه.

ويقول "جان ماري بنو" في كتابه الثورة البنيوية: "إذا كان الوجوديون قد تخلصوا من "الله"، فقد نجح سوسيور في التخلص من الإنسان. وقال: كان الإنسان خالق المعنى ومصدره الحي، ولكنه اختفى تماماً في ظل العلم الجديد الذي جعل المعنى حصيلة مجموعة من العلاقات اللغوية البنيوية والسيميوليجية التي تفرز العلاقات وتحدد المعاني، وفي ظل هذا التصور أصبح الإنسان إفرازاً لغوياً بدلاً منه صانعاً للغة". إنها جبرية من نوع غريب لم تعرف البشرية له نظيراً من قبل!!

وفي مقال فصول: "وربما كان أكبر دليل على أن البنيوية قد اكتسبت طابع المنظور الفكري أو الموقف العقائدي، وهو هجوم بعض البنيويين وعلى رأسهم "ليفي شتراوس" على "سارتر" والوجوديين، ودحض آرائهم في التقدم والمبادئ التاريخية، ويتجلى هذا الطابع العقائدي -أيضاً- في محاولة بعضهم وعلى رأسهم "التوسير" إعطاء تفسير جديد للماركسية، بحيث حولها من منهج عمل ثوري يرتكز على الإنسان إلى نظرية رجعية تؤكد حتمية سيادة نظام لا سلطان للإنسان عليه. إلخ".

كما أن الدكتور صلاح فضل عقد مبحثاً بعنوان: "محاولة عقد زواج بين البنائية والماركسية".

وهنا نشير إلى ما تنضح به كتابات السريحي والغذامي ومن لف لفهم من إضفاء القوة المطلقة للغة وسلب لإرادة الإنسان -خاصة الشاعر- حتى من نسبة وضع لفظة مكان أخرى!![1]. فأي ربوبية قهرية يريد هؤلاء أن يجعلوها للغة!!

1- وهذا ما ظهر جلياً في أطروحة السريحي لدرجة الماجستير، وكذلك رسالة الدكتوراه التي رفضها مجلس الجامعة، وكلفه بصياغة جديدة لها يحد من غلوه في فاعلية اللغة وقهرها!!

على أن مما يؤكد أن البنيوية فلسفة ذات تطبيقات ثورية واقعية؛ ارتباطها ببعض الأحداث السياسية مما كان سبباً في ظهور نقيضها "التفكيكية"، ذلك أن" التفكيكية هي رد فعل لانهيار البنيوية في فرنسا بعد أحداث عام (1968م)، فهي إفراز طبيعي لحالة الإحباط والكفر بالنظريات الشاملة المتماسكة، ومنها الماركسية التي اجتاحت فرنسا في تلك الآونة.

لقد قامت البنيوية على فكرة سيادة منطق البنية المتماسكة فوق الإنسان والمتغيرات، وكانت صدمتها شديدة حيث جعلتها أحداث الثورة الطلابية في أوروبا بصفة عامة في أواخر السبعينيات، وفي فرنسا بصفة خاصة في عام (1968م) تدرك الدلالات الحزينة لنظريتها التي أثبتت الأيام صحتها -أي: حين أثبتت البنية السياسية في فرنسا قوتها أمام أي معارضة- وأصبحت فكرة البنية عدواً لدوداً للمفكرين، وارتد الكثيرون عن البنيوية كما فعل الناقد رولات بارت في كتاباته الأخيرة، واتجه الكثيرون إلى الهجوم على جميع الأنظمة والنظريات العقائدية التي تخنق الفرد".

وهذا النص الصريح يذكرنا بما حصل من انهيار فكرة القومية العربية بعد هزيمة عام (1967م)، والسؤال هو مالذي ينهار بتأثير الأحداث السياسية، أهي المناهج المجردة أم الفلسفات التي قامت عليها تلك السياسات؟!

فإن أصر القوم على تسميتها مناهج لا فلسفات فلن نجادل في مجرد الألفاظ، فالمنهج الذي تقوم عليه أنظمة شمولية تارة وتسقط تارة هو "عقيدة". والسلام.

ومن هنا كان السؤال الذي جعله الدكتور صلاح فضل عنواناً لمبحث خاص: "هل البنائية تعبير عن فشل اليسار؟".

• انتقال البنيوية من أوروبا إلى البلاد العربية وتطويرها إلى الحداثة:

خطورة البنيوية على اللغة والدين:

ومع كل ماسبق من نشأة البنيوية وما تطور عنها في سياق تاريخي معرفي مغاير ومناقض لما تنتمي إليه هذه الأمة، فلا بأس أن نتنزل في الجدل ونفرض أن البنيوية ليست سوى منهج مجرد في الدراسات اللغوية والأدبية ونسأل:

أليست البنيوية منهجاً مطرداً بقوانين وتحليلات شمولية قاطعة لا تستثني قائلاً ولا نصاً ولا لغة؟ ثم أليس "الموقف الألسني يجرد كل قاعدة من قدسيتها؛ بل لا يرى قاعدة إلا فيما هو متداول وممارس من طرف المجموعات البشرية، وفي بعض الأحيان يرى تكسير القاعدة قاعدة[1].

إن كل من يشك في الإجابة على هذا السؤال بالإيجاب هو في نظر البنيويين عدو لدود ورجعي تقليدي؛ ذلك أن قوة النظرية تستمد من شموليتها واطراد قانونها بخلاف سائر المناهج والاتجاهات المنطقية -كما يزعمون- وعليه فليس لدى البنيويين نص مقدس لا يخضع لنظريتهم، وتبعاً لذلك جرت دراسة التوراة والإنجيل بنيوياً مثلها مثل سائر النصوص، ومن هنا ندرك مدى خطورة الدعوة إلى البنيوية وتطبيقاتها على اللغة العربية التي أسمى ما فيها وذروة نصوصها باتفاق كل ناطق بها أو دارس لها هو "النص الموحى" -أي: كلام الله ورسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[2].

1- المصدر السابق.

2- زعم بعض الحداثيين في عكاظ عدد:7336 ذو القعدة 1406هـ أن جناح الذل في قوله تعالى:((وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ))[الإسراء:24]^ -الذي استشهد به أبو تمام قديماً على جنوحه إلى الإعراب- زعم الكاتب أنه نفس التركيب الحداثي "السفينة الصخر" مثلاً!!

كيف يمكن أن تطبق على القرآن الكريم نظرية موت المؤلف، واستقلال النص وقيامه كوناً مستقلاً بذاته يفهمه كل قارئ كما يشاء، حيث أنه لا مانع لدى البنيوية من أن يكون له تفسيرات بعدد القراء بل أكثر من ذلك.

فانظر إلى ما يقوله الدكتور الغذامي -بعد أن أطال في تقرير هذا الأمر، وجعله من أعظم ميزات المنهج وأسمى خصائصه:

الكاتب صاغ النص حسب معجمه الألسني، وكل كلمة من هذا المعجم تحمل معها تاريخاً مديداً ومتنوعاً وعى الكاتب بعضه وغاب عنه بعضه الآخر، ولكن هذا الغائب إنما غاب عن ذهن الكاتب ولم يغب عن الكلمة التي تظل حبلى بكل تاريخياتها، والقارئ حينما يستقبل النص فإنه يتلقاه حسب معجمه، وقد يمده هذا المعجم بتواريخ للكلمات مختلفة عن تلك التي وعاها الكاتب حينما أبدع نصه، ومن هنا تتنوع الدلالة وتتضاعف، ويتمكن النص من اكتشاف قيم جديدة على يد القارئ، وتختلف هذه القيم وتتنوع من قارئ وآخر؛ بل عند قارئ واحد في أزمنة متفاوتة، وكل هذه التنوعات هي دلالات للنص حتى وإن تناقضت مع بعضها البعض.

✓ **أيقبل مسلم تطبيق هذا الكلام على القرآن؟**

إن إقرار تطبيقه على شعر العرب ولغتهم وهدم قواعدهم النحوية والبلاغية جملة لابد أن يؤدي إلى ذلك حتماً.

إن موقف طه حسين ومن وراءه أخف من هذا الموقف ولو من بعض الوجوه؛ ذلك أنه -وشيوخه المستشرقين- حين أرادوا هدم البيان القرآني -توصلاً إلى هدم الإسلام- اتخذوا ذريعة لذلك إنكار الشعر الجاهلي في ذات

نصوصه، أما هذا المنهج البنيوي فهو يتنكر للقواعد والأصول والمعايير النحوية واللغوية؛ بل للفطرة العربية من أساسها، إنه يستبقي النصوص -أشباحاً وهلاماً- فقط!!

فالأولون ساروا على منهج كفار قريش في الزعم بأن النص القرآني ليس منزلاً من عند الله، والبنيويون حاكوا الباطنية في تفسيره -كما يشاءون- بلا ضابط من عقل أو نقل.

وإنه لو قدر للحداثة العربية أن تسير على الدرب نفسه الذي سلكته نظيرتها التركية لكان معنى ذلك المسخ الكامل لا للغة فحسب بل لوجه الإسلام كله.

أسباب رواج الحداثة العربية:

والحداثة العربية في جميع صورها إنما راجت لسببين أساسين هما:-

1- جنوح الناس إلى الخروج عن المألوف ولهاثهم خلف "العصرنة"!!

2- الخلط بين الحداثة -وإن شئت فقل بين الهدم- والتجديد.

وهما يرجعان في الحقيقة إلى أمر واحد عاشته أوروبا وتعيشه كل الأمم، لأنه خطأ إنساني مشترك يمكن أن يقع فيه كل من لا يملك المعيار الرباني الثابت، وهو خطأ الاعتقاد في التقدم المطلق، واعتبار الزمن وحده معياراً للحكم على الأشياء.

مصادقة الحداثة لنظرية التطور الحضاري والمعرفي:

في حين أن نظرة عقلية عجلى تؤكد أن الحداثة هي نفسها مفهوم نسبي بما أن حاضرنا هو ماضي الغد!!

فكما رأينا -في أوروبا- كان لوثر أكبر الحداثيين في عصره، وهو الآن نموذج للبروتستانتي الكلاسيكي، ودانتي كان حداثياً كبيراً في زمانه، وهو الآن مثال الكلاسيكية الإنسانية.

وكان ديكارت حداثي زمانه بالنسبة للفلسفة العقلية، ثم كان الرومانسيون في القرن الثامن عشر نموذج الحداثة الثائرة على العقلانية الجامدة!

وفي أواخر القرن التاسع عشر كانت الرمزية ثورة حداثية على الاتجاهات جميعها، ولما ظهرت مدارس (اللامعقول) المتنوعة (السوريالية، العبثية، العدمية، الوجودية) كتب النقاد عنها باعتبارها أكبر انقلاب معرفي حداثي، وأسمى سارتر مجلته العصور الحديثة!!

وفي الستينيات -كما أسلفنا- زعمت البنيوية أنها الثورة الحداثية التي لم يشهد التاريخ لها من نظير، ولكن نقيضها التفكيكية سرعان ما ظهرت في أواخر العقد نفسه مدعيةً الدعوى نفسها!!

وفي أمريكا كانت موجة (الهيبيز) آخر صرعة في نظر مفكري ذلك العقد والآن تلاشت، وارتد كثيرون للأصولية الإنجيلية!!

وهذا كله غير حداثة ماركس التي حقرت كل ما قبلها، وعندما جاء لينين صاغها بشكل تقدمي (حداثي) أكثر عصرية، ثم جاء عصر استالين وتبنى اتحاد الكتاب السوفيت آراءه الأكثر حداثة، وهكذا.

إنه العقل البشري المحدود الضعيف الذي يتخيل كل مرحلة من مراحله أنها نهاية التاريخ، والدهر أعظم من ذلك وأطول لو كانوا يفقهون.

ولا نستطيع أن نجرد الحداثيين العرب عن فهم هذه الحقيقة، لكنهم بذكائهم اللماح لم ينسوا أن اطراد "الجدلية" إلى نهاية التاريخ تساوي نهاية اللغة، يمكنه حل المأزق بافتراض أن اختفاء عنصر- النقيض في المرحلة الأخيرة من الصراع الأبدي يؤدي إلى نهاية لا محدودة!! ولذلك تعجل هؤلاء الخطى وطالبوا -من الآن- بالوصول بالمعرفة إلى تلاشيها المطلق، وباللغة إلى تجريدها المطلق!!

وبتعبير الحداثيين: (إن الوصول بالمعرفة السائدة والنمطية إلى تلاشيها المطلق ينفي احتمال ظهور أي وضع معرفي استاتيكي (ثابت)، وسيظل الانفجار المعرفي الحداثي هو السائد والوحيد إلى ما لا نهاية)!!

وحسبك بهذه النتيجة من باطل لا تنكره بداءة العقول فحسب، بل يرفضه الواقع الحي في كل البلاد ولاسيما في الأدب العربي، إنه ليس من سنة الله كما أن الجمود المطلق ليس من سنته.

احتواء الأدب العربي على العناصر الحركية المستمرة (الشعر مثلاً):

فالنشاط الأدبي العربي هو جزء من النشاط الحيوي العام الذي يخضع للمبدأ الكلي المطلق في التصور الإسلامي وهو الحركة حول محور ثابت، فالتراث الأدبي في جملته يحوي عناصر حركية مستمرة -ديناميكية- ولكنها تنطلق في حركتها من أصول ثابتة وتلتزم بمعايير ثابتة، وهكذا يتجلى المنهج الفريد الجامع بين الاستقرار والمرونة، لا التصور الجدلي الأدبي العقيم.

إن من دلالات الإبداع والعبقرية أن يأتي الأديب بتلك النماذج الفائقة التي لا يستطيع سائر الناس الإتيان بمثلها مع التزامه بنفس المعايير أو الأساليب التي يعرفون!

يظهر هذا المنهج الفذ في الشعر العربي الـذي تـوهم كثـير مـن الـداخلين في جحر الضب أن معاييره تضيق عن الإبداع وتستلزم الجمود!!

كـلا، إن الإبـداع تسـابق ومـا مـن سـباق إلا ولـه مسـارات وحـواجز وضوابط، وإلا كـان كـل مـاشٍ في الشـارع متسـابقاً، ولنأخـذ مثـالاً: الالتـزام بالبحور الشعرية المعروفة، أيّ ضيق أو جمود فيها؟

إنها سعة لا نظـير لهـا مطلقـاً في شـعر أي أمـة مـن الأمـم، مـع الالتـزام في الوقت نفسه بمعايير جماليـة لا نظـير لهـا كـذلك، فـالعروض العـربي يتـألف مـن سـتة عشرـ بحـراً، والبحـر الواحـد -غالبـاً- يكـون منـه التـام والمجـزوء والمشطور، وهذا ما يمكن تصنيفه -حسب المعايير الأوروبية- بحـوراً جديـدة، هذا غير ما يلحق التفعيلة نفسها من تغييرات معروفـة لأهـل الفـن ولا يسـتفيد غيرهم من ذكرها هنا، إنها سعة تسمح للموهبة أن تبدع كما تشاء فيها تشـاء مـع ضبط لا يسمح بتسرب الطفيليات وولوج من لا يملك المفتاح.

إصرار الحداثيين على التخبط:

أما حسب المفهوم الحداثي، فالطفل الصغير الذي يلغو بكلـمات وتمـتمات هائمـة لا رابـط بينهـا، والشـاعر الـذي يخـبط في العـروض والقـوافي، ويلفـق التراكيب الهشة، ويضع كلمة سطراً وجملة سطراً آخـر وثـلاث جمـل سـطراً ثـم يرجع من جديد حتى يسود مساحة كبيرة من الورق بغثيان لا معنى له، والنـائم الذي يحلم ويهمهم بألفاظ لا نسق يجمعها، والحشاش. و. كل أولئـك حـداثيون تنطبق عليهم معايير القوم (100٪) وبعبارة أوضح مادام لدى الإنسـان مسـكة من عقل؛ فلا يمكن أن تصل معرفته إلى التلاشي المطلق، فهذا شأن من يتعـاطى أخطر ما أبدعته العبقرية الغربية من عقاقير الهلوسة!!

ولو أن المقام يتسع لعرضنا نماذج ممن تاب الله عليهم وثابوا إلى رشـدهم؛ ليعرضوا كيف كانوا يفكرون ويكتبون وينظمون في الماضي الحداثي الحالك كـما حدثوني بذلك شخصياً أو كتبوه لي.

على أنني لو عذرت أحداً مـن أقطـاب الحداثـة لعـذرت أولئـك الـدعاة الصليبيين التوراتيين، الذين أرادوا أن تكـون الثقافـة العربيـة كلهـا سـائرة عـلى النمط التوراتي مضموناً وأسلوباً. إنهم أذكياء استخدموا عقولهم لبعث أسـاطير دينهم وإحياء أساليب كتبهم المقدسة، وليسوا كبني جلـدتنا الـداخلين وراءهـم في جحر الضب بلهاء ساروا في طريق يهدم حقائق الدين الرباني والكتاب الإلهي المحفوظ مع دعوى إيمانهم به.

وإن تعجـب فاعجـب لأمـة تهزهـا أزمـات سياسـية واجتماعيـة كـبرى، كالأزمة التي داهمت الأمة في حرب الخليج الثانية، ويخـرج أدباؤهـا ومبـدعوها ليسودوا الصفحات بأن سبب الأزمة هو (إشكالية النص)!!

أما سائر البشر الذين جعلوا لها أسباباً أخرى فهم نمطيون سطحيون!![1].

أما والحال كذلك وللمبررات الموضوعية التي تجعل القضية حية متدفقـة وإن تلونت أو كمنت، ولضرـورة إقامـة الحجـة وإبانـة سـبيل المجـرمين فلابـد من تجدد الإسهام من أهل الخبرة وفرسان الميدان في هذا المجـال، وإنـما سـطرت هذه المقدمة تذكيراً وإعذاراً، والله ولي التوفيق.

1- لقد كنا نحسب -كما العقلاء في هذه الأمـة جميعهم- أن هذه الأزمـة سوف تجتـاح الحداثـة فيما تجتـاح من فقاعات سني الغفلة والترف.

الفصل الحادي عشر

أثر الإسلام في الحضارة الأوروبية

الحضارة الإسلامية وأبرز الطرق

التي انتقلت من خلالها للغرب

• تعريف الحضارة الإسلامية:

يمكن أن نصف الحضارة الإسلامية بأنها هي نتاج ما قدمه المجتمع الإسلامي للمجتمع البشري في الجوانب الروحية والأخلاقية، فضلاً عما قدمه من منجزات واكتشافات واختراعات في الجوانب الحياتية المختلفة.

• أوضاع الحضارة الإسلامية والحضارة الأوروبية قديماً:

في الوقت الذي كانت البلاد الإسلامية المشعل الفكري الوضاء الذي ينشر النور فيما حوله و يملأ الدنيا علماً ومعرفة ، كانت أوروبا تعيش في حالة من الجهل والتخلف والضياع والتمزق ، و لما أرادت أن ترفع عن كاهلها عبء ذلك الوضع المهين التفتت إلى الحضارة الإسلامية لتنهل منها رحيق المعرفة والفكر.

ونور الحضارة الإسلامية هذا بدأ يشع على أوروبا في نهاية القرن الأول الهجري حيث كان يصل إليها عن طريق الأندلس وصقلية والحروب الصليبية، ولكن جميعها تتفاوت بالتأثير حيث أن الأندلس كانت الأسبق بالتأثير ثم تلتها صقلية وأخيراً الحروب الصليبية.

• الأنـدلس المنـارة الأولى للحضارة الإسلامية في أوروبـا:

انتقال العرب المسلمين الى الاندلس :

لقد عبر المسلمون الى الاندلس في العقد الأخير من القرن الهجـري الأول وواصلو فتوحاتهم في أوروبا وجنوب فرنسا واستولوا على مناطق واسـعة منهـا مثل شبه جزيرة ايبيريا وجنوب فرنسا كـما سـبق وذكرنـا بالإضـافة الى جنـوب إيطاليا وغيرها من المسـاحات الجغرافيـة بحيـث نشـــر المسـلمون في كـل بقعـة دخلوها من أوروبا لواء الامن و نور المعرفة وأقاموا فيهـا حكـم عـادل يسـاوي بين الجميع ويعمل للصالح العام ونبذ الانانية وبذا كانت الاندلس هي الأساس والمركز الذي انطلق منها المسـلمون الى ربـوع أوروبـا ونشـــروا فيهـا الحضـارة فكانت أساس النهضة في العصور الحديثة.

أثرهم في محيط الزراعة والصناعة:

ما انتقل العرب الى الأندلس حتى أخذت الزراعة تنتشـر بســرعة كبـيرة حيث غرس العرب الكروم وأدخلوا اليها الكثير مـن النباتـات والفواكـه التـي لم تكن موجودة هناك بعد كالأرز والقمح وقصب السـكر وغيرهـا كـما حفـروا القنوات ونظموا وسائل الري.

أما في ميدان الصناعة: فقد ازدهرت صناعة النسيج والزجـاج والنحـاس والخزن كما استخرجوا الذهب والفضة والرصاص والحديد وغيره من المعادن.

أثرهم في محيط العلم والثقافة وإيصال التطور إليها:

بنى العرب جامعة قرطبة التي وفد الطلاب إليها من جميع أنحاء الأندلس وافريقيا واوروبا وقد استدعي بعض الأساتذة المشهورين كي يحاضروا فيها، كما كان الحكم في الأندلس مولعاً باقتناء الكتب حيث كان يكلـف رجالـه بالبحـث

عن المخطوطات في حوانيت الإسكندرية ودمشق وبغداد وشرائها ونسخها بهذه الطريقة تمكن من جمع أربعمائة ألف مجلد وأكبر دليل وجود أكثر من سبعين دار للكتب هناك، و بالإضافة إلى ذلك قام العديد من طلاب العلم الأندلسيين بالرحلة إلى العراق للتزود بالعلوم من منابعها و قد أمضى بعضهم سنوات طويلة تجاوزت العشرين عاماً من أجل هذه المهمة ، إن هذا الإيفاد لدليل على تقدم الفكر العربي و فضله على أوروبا فيما بعد.

• صقلية المنارة الثانية للحضارة الإسلامية في أوروبا:

كيفية انتقال المسلمين إلى صقلية:

حيث قام المسلمون بفتحها سنة 313 هـ حيث لقيوا صعوبات كثيرة فلم يتمكنوا من الاستيلاء عليها جميعها حتى عام 364 هـ على يد إبراهيم الثاني الاغلبي إلى أن سقطت هذه الدولة على أيدي الفاطميين عام 396 هـ وخلال فترة حكمهم عين الخليفة المنصور (ثالث الخلفاء الفاطميين) والحسن بن علي بن الكبلي عين والياً على صقلية فوضع أساس حكومة شبة مستقلة توارثها أبناؤه من بعده وفي عهد هذه الاسرة بذرت بذور القافة العربية.

أثرهم في محيط الزراعة والصناعة والتجارة.

أخذت الزراعة تنمو وتزدهر على مر الأيام فقد اهتم العرب هناك بالزراعة فأدخلوا فيها زراعات جديدة كزراعة الكتان والزيتون بالإضافة إلى الكثير من النباتات والفواكه مستغلين خصوبة تربة هذه الجزيرة.

كما اهتموا بالصناعة فأنشأوا مصانع للورق والنسيج كما استخرجوا الفضة والحديد وغيرها الكثير.[1]

1- كتاب تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، للكاتب خليل إبراهيم السامرائي (الصفحة 322).

أثرهم في المحيط الثقافي والعلمي

كون صقلية على علاقة وثيقة بالدولة الإسلامية فقد تنورت بكافة أنواع العلوم كما بنى فيها العرب أول مدرسة للطب في أوروبا وعن طريقها انتشر الطب إلى إيطاليا وعام أرجاء القارة حيث كانت صقلية مركز اشعاع للحضارة الإنسانية استفادت منه أوروبا أعظم فائدة.

- **الحروب الصليبية المنارة الثالثة للحضارة الإسلامية في أوروبا:**

أسباب الحروب الصليبية:

في أواخر القرن الخامس الهجري خرجت مجموعة من المسيحيين الأوروبيين لغزو الشرق الإسلامي متذرعين بأسباب غير واضحة تختلف باختلاف الطوائف التي اشتركت فيها.

فقد تكون رغبة القبائل القيوتونية في الهجرة وجهة للمخاطرة بالإضافة الى هدم الخليفة الفاطمي (الحاكم بأمر الله) لكنيسة القيامة كما أنهم دعوا بأن الحجاج المسيحيين كانوا يلقون مصاعب في أثناء اجتيازهم آسيا الصغرى الإسلامية وهم في طريقهم لبيت المقدس أو بأنهم كانوا يتعرضون للمضايقات من قبل المسلمين اثناء حجهم لكن الادعاء باطل لان تعاليم الإسلام كفلت لأهل الأديان الأخرى الحرية التامة في مزاولة شعائرهم ونهت عن التعرض لهم بسوء ما دامو مسالمين بالإضافة لسبب اخر وغير مباشر الا وهو رغبة في نفس البابا "اربان الثاني" بطريرك الكنيسة الغربية في ضم الكنيسة الشرقية لها.

أبرز نتائج الحروب الصليبية:

أثناء حروب الصليبيين نجحو في تكوين أربع امارات لهم في المشرق: وهي إمارة الرها وإمارة أنطاكيا وإمارة طرابلس وإمارة بيت المقدس ولكن الاعتداء الصليبي على الشرق كان سبباً في ظهور قوى إسلامية فيه فقد تحمس الابطال المسلمون لاسترداد بلادهم المغتصبة فقد تمكنوا من استرداد إمارة الرها أول امارة انشاءها الصليبيون في الشرق وأهم إماراتهم وقد تم ذلك سنة 539 هـ على يد عماد الدين الزنكي ثم جاء من بعده ابنه السلطان نور الدين محمود (541- 569هـ) فوحد بلاد الشام تحت حكمه كما ضم مصر ثم جاء بعده صلاح الدين الأيوبي فانتزع بيت المقدس من أيدي الصليبيين سنة 583 هـ وهكذا اخذ السلاطين من بعدهم ينزعون هذه المدن الإسلامية من ايدي هؤلاء المغتصبين مدينة تلو الأخرى وكان أخرها مدينة عكا أخر معقل لهم في الشرق.

أثر المسلمين على الأوروبيين في مجال العلوم

لقد كان الأثر الحضاري لهذه الحروب فنياً وصناعياً وتجارياً أكثر منه علمياً أو أدبياً فلقد كانت استفادتهم علمياً محدودة ممثلة بعدة أمور منها نقل الكتاب الطبي المشهور "كامل الصناعة الطبية" كما كان من أثر الحروب الصليبية العلمي اهتمام الأوروبيين بتعلم اللغة العربية لأنهم قد فشلو في نشر الديانة المسيحية بحد السيف فقرروا أن تعلم اللغة العربية يمكنهم من التخاطب مع الشرقيين ونشر المسيحية يتم باللين كما أن إنشاء المستشفيات ومعالجة المرضى فيها لم يعرف في أوروبا قبل الحروب الصليبية كما يرجح أن هذا النظام المنقول عن الشرق الإسلامي بعد أن شاهد الأوروبيون المستشفيات فيه أثناء الحروب الصليبية.

أثر المسلمين في فنون الحروب لدى الأوروبيين :

أثرت الحروب الصليبية في تطور فن الحرب عند الغربيين ولا سيما فيما يتعلق ببناء القلاع ذات الحوائط المزدوجة هذا بالإضافة الى ما أدت اليه الحروب من تقدم حركات الحصار واستعمال المجانيق واستخدام الدروع للفرسان وخيولهم والمراسلة الحربية عن طريق الحمام الزاجل.

أثر المسلمين في مجالات الحياة المختلفة:

بالنظر الى المؤثرات الإسلامية في الحياة الأوروبية نتيجة للتبادل التجاري الذي اثارته الحروب الصليبية نلاحظ انتقال نباتات واشجار جديدة من شرق البحر المتوسط الى غربه مثل : الثوم و البطيخ الأرز و الليمون كما انتشرت في الغرب العقاقير و الاصباغ و التوابل الشرقية كما كثر استعمال و صناعة الاقمشة التي نسبت الى بلدان الشرق مثل الموسلين نسبة الى الموصل والدامسكو نسبة الى دمشق و كذلك الناعورة نقلها الصليبيون من حماه الى بلادهم فعندما شاهدوها ترفع مياه العاصي اعجبوا بها فاتفقوا بان نقلو نماذج منها الى المانيا

الأثر العلمي والثقافي للحضارة الإسلامية على أوروبا

✓ الطب والصيدلة:

استطاع العرب والمسلمون ان يضيفوا الى علم الطب الكثير باكتشافهم للعديد من الامراض التي لم يتوصل احد من قبلهم اليها كالجدري وامراض العيون كما اضافوا الكثير الى علم الطب في الأغذية و التوليد واكتشاف الدورة الدموية بالإضافة الى اكتشاف صنوف الادوية ولم يقتصر دورهم كعلماء في الكشوف الطبية فقط بل أيضا بالجانب الإنساني في الطب حيث قاموا بعلاج المرضى في المستشفيات بالمجان ومنحهم المال والثياب بعد الشفاء متقيدين

بدينهم دين التسامح والعطف كما كانوا اول رواد الحجر الصحي وهم في ذلك بذلك يقتدون بالطبيب الأول عليه الصلاة و السلام حيث يوجههم الى الحجر الصحي بقوله(اذا سمعتم بالطاعون بارض فلا تخلونها واذا وقع بارض وانتم بها فلا تخرجوا منها)، كما يرجع الفضل لهم باكتشاف الدورة الدموية على يد ابن النفيس وكل هذا قد انتقل الى الغرب فانتفع الأوروبيون ، كما سبقوا غيرهم الى فرض امتحان يجتازه من يصبح طبيبا او جراحا و منحه ترخيصا لمزاولة المهنة كم فرضو نظام الحسبة الذي يفرض الرقابة منعا للغش وتفاديا للكسب الحرام فهذه هي اخلاق الإسلام.

✓ الكيمياء:

من اسهامات العرب و المسلمين في هذا المجال اكتشافاتهم لكثير من المركبات الكيماوية التي بنيت عليها الكيمياء الحديثة كالكحل و الفضة وماء الذهب وزيت الزاج و الزرنيخ وملح البارود و غيرها الكثير بذلك كان للعرب المسلمين في هذا الميدان الفضل الأكبر في تنبيه العقول والاذهان الى اهمية التربية العلمية لمعرفة اسرار الكيمياء الطبية ومن اشهر العلماء الذين برعوا في هذا المجال جابر بن حيان الذي يعتبر المؤسس لهذا العلم و كانت ابحاثه و ما توصل اليه من معلومات في هذا الشأن هي المرجع الأول في أوروبا حتى القرن الثامن فلقد ترجمت الكثير من مؤلفاته الى اللغتين اللاتينية و الفرنسية .

✓ الرياضيات:

تدين الرياضيات بشطر كبير من تقدمها للعرب والمسلمين بل ان بعض فروعها اختراع عربي كعلم الجبر الذي مازالت أوروبا حتى يومنا هذا تطلق عليه هذا الاسم كما ان اسهامات العرب في الرياضيات تهذيبهم للأرقام الهندية

وابتكارهم طرق الحسابية المستعملة في الحياة اليومية التي نقلتها أوروبا واستفادت بها. كما يحسب للعرب والمسلمين انهم اول من عرف الصفر (الذي يدل على اللاشيء) ويعد هذا الاسهام العلمي من أخطر الابتكارات اهتدى بها العقل البشري.

- ✓ **الرحلات والجغرافية**

اشتهر العرب والمسلمون بحبهم الشديد للسياحة والرحلات فطافوا البلاد من الصين شرقا الى مجاهل افريقيا غربا كما أقاموا علاقات تجارية واسعة مع بلاد لم يسمع بها الأوروبيون بعد وقد كان لهذه الرحلات أثرها البالغ في المساهمة في الكشف عم طريق راس الرجاء الصالح والوصول الى جزر الهند الشرقية ولولا مساعدة العرب عن طريق اكتشاف البوصلة وخطوط العرض والطول لعجز الأوروبيون عن اكتشاف القارة الامريكية وغيرها

وقد اهتم العرب المسلمون بعلم الجغرافية وكتبوا فيه العديد من المؤلفات كان الدافع وراءها فريضة الحج التي تفتقر إلى معرفة الطرق والمنازل وأيضاً طلب العلم الذي يتطلب الرحلة الى سائر البلاد الإسلامية فبلغ العرب من السيادة في الجغرافية ما لم تبلغه امة من قبل وقد اعتمد الأوروبيون كثيراً على الخرائط التي رسمها العرب وعلى مراجعهم العربية منها السجلات التجارية ومدونات الرحلات وما كتبه التجار والحجاج.

- ✓ **العمارة:**

حقق العرب والمسلمون في مجال العمران إنجازات متميزة حيث اعتنوا بشق الطرق والجسور وإقامة الأسواق والأمن من أجل ازدهار التجارة وتحقق التنمية وفي مجال الزراعة وجهوا اهتمامهم الى الري وشق الأنهار والخلجان.

ومن أبرز ما حققه المسلمون في نواحي العمران المنشآت والمباني العظيمة من مدن ومساجد ومدارس ومستشفيات لا يزال الكثير منها باقياً إلى يومنا هذا كالجامع الاموي والجامع الازهر.

وقد تأثر الأوروبيون بالعرب في فن العمارة والفنون والصناعات المنزلية دليل ذلك أن الأوروبيين قد أنشأوا منازل لهم على التراث العربي مساحة ورخاما ونافورة وجزيرة ومياه جارية. ومثلها أي بيوت العرب كانت الزخرفة والأثاث الداخلي ويؤكد ذلك قول ((سيديو)): أن العرب هم اساتذتنا في كل شيء اذ انهم زودونا بمواد جليلة القيمة في تاريخ العصور الوسطى وبأسفار مجيدة في التراجم وتركوا لنا صناعة لا مثيل لها وفناً معمارياً آية في الروعة والجمال واكتشافات هامة في الفنون والصناعات.

أثر الإسلام في الثقافة المسيحية:

تطلق الحضارة الإسلامية على التراث الفكري الذي خلفته الحضارة الإسلامية في جميع جوانبه الديني والفلسفي واللغوي والأدبي والفني وعندما جاء الإسلام أراد أن يعطي المسلم تصورا شاملا عن الحياة وطبيعتها والوجود ومكانة الانسان فيه ونوعية النظام الذي يجب ان يحكم المجتمع البشري والغاية من ذلك إيجاد امة ذات طابع خاص يتميز به عن جميع أمم الأرض.

وقد استطاعت هذه الثقافة ان تستفيد من التراث الحضاري الذي خلقته الأمم الأخرى حيث ترجمت كتب الاغريق والفرس في عصر العباسيين ثم أضاف العلماء المسلمون الجدد من فكرهم وانتاجهم الى هذا التراث الحضاري فصححوا الكثير من النظريات ومن اهم مظاهر الحضارة الإسلامية انها استطاعت ان تؤثر تأثيرا كبيرا في جميع الشعوب التي خضعت للدولة.

الإسـلامية بـل أن الثقافـة الإسـلامية قـد طغـت عـلى الثقافـة الاصـلية للشعوب ومن أعجب العجائب أن ما عجزت عنه الأغارقة والفرس استطاعت أن تفعله الثقافة والحضارة الإسلامية ولذلك أجـبرت الشـعوب المختلفـة ذات الحضارات المتباينة أن تتخلى عن ثقافتهـا الاصـلية وعقائـدها السـابقة وتـدخل في الإسلام فتكون عقيدته دينا لها وتكون تعاليمه شريعة لهـا وبحكـم أن لغـات بعض الشعوب التي اعتنقت الإسلام هي لغات غير عربية فقـد تـرجم القـرآن إلى نوعين من الترجمة وهي الترجمة الحرفية والترجمة التفسيرية.

الفصل الثاني عشر
الإمبراطورية البيزنطية

الإمبراطورية البيزنطية والتي يشار إلي أحياناً باسم الإمبراطورية الرومانية الشرقية، حيث استمرت الإمبراطورية الرومانية في الشرق خلال العصور القديمة المتأخرة والعصور الوسطى، وكانت عاصمتها القسطنطينية "اسطنبول الحديثة، التي تأسست في الأصل علي يد البيزنطيين". حيث نجت من التشرذم وسقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية في القرن 5 الميلادي واستمرت في الوجود لألف سنة إضافية حتى سقطت في أيدي الأتراك العثمانيين في عام 1453م.

- **إضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها:**

وخلال فترة وجودها، كانت تعد الإمبراطورية الأقوى من الناحيه الاقتصادية، والثقافية، والقوة العسكرية الكبري في أوروبا، وعلى حد سواء "الإمبراطورية البيزنطية" أو "الإمبراطورية الرومانية الشرقية" منذ كتابة التاريخ عند إنشاؤها؛ استمر مواطنيها للإشارة إلى إمبراطوريتهم باسم الإمبراطورية الرومانية. وتظهر العديد من الفعاليات من القرن 4 إلى القرن 6، علامات تميز خلالها الفترة الانتقالية للإمبراطورية الرومانية اليونانية، الشرق والغرب اللاتيني المقسمة.

قام قسطنطين الأول خلال الفتره 324-337 بإعادة تنظيم الإمبراطورية، وجعل القسطنطينية هي العاصمة الجديدة، والمسيحية مصدق بها، تحت قيادة ثيودوسيوس الأول خلال الفتره 379-395، وأصبحت المسيحية دين الدولة الرسمي للإمبراطورية، مع الممارسات الدينية الأخرى.

وأخيراً، في عهد هرقل خلال الفترة 610-641 ، تم إعادة هيكلة الجيش وإدارة الإمبراطورية واعتمدت اليونانية للاستعمال الرسمي بدلاً من اللاتينية، وهكذا، على الرغم من أن الدولة الرومانية استمرت وقامت بالمحافظة على تقاليد الدولة الرومانية، إلا أن المؤرخين المعاصرين ميزوا بيزنطة عن روما القديمة بقدر ما كانت مركزه على القسطنطينية، وموجهة نحو الثقافة اليونانية بدلا من اللاتينية، والتي تتميز بالمسيحية الأرثوذكسية.

وتطورت حدود الإمبراطورية بشكل كبير خلال وجودها، كما أنتقلت خلال عدة دورات من التراجع إلي الانتعاش، في عهد جستنيان الأول خلال الفتره 527-565 ، حيث وصلت الإمبراطورية إلي أقصى حد لها بعد إعادة احتلال جزء كبير من ساحل البحر الأبيض المتوسط الغربي الروماني تاريخياً، بما في ذلك شمال أفريقيا وإيطاليا وروما نفسها، التي عقدت لعدة قرون.

وفي عهد موريس خلال 582-602، تم توسيع حدود الإمبراطورية الشرقية إلي الشمال واستقرت، ومع ذلك، تسبب اغتياله في قيام الحرب البيزنطية الساسانية من 602-628، حيث استنفدت موارد الإمبراطورية، وأسهمت في الخسارة الإقليمية الكبرى خلال الفتوحات الإسلامية في القرن السابع الميلادي، وفي غضون سنوات ضياع الإمبراطورية كانت أغنى محافظاتها مصر وسوريا.

وخلال السلالة المقدونية في القرن 10 – 11 قرناً توسعت الإمبراطورية مرة أخرى وشهدت مقدونيا نهضة كبيره في القرن الثاني عشر، حيث وصلت إلى نهايتها عند فقدان جزء كبير من آسيا الصغرى للأتراك السلاجقة بعد معركة ملاذكرد التي قامت في عام 1071، وهذه المعركة فتحت الطريق للأتراك لكي يستقروا في الأناضول كوطنا لهم.

واستعادت الإمبراطورية مرة أخرى أثناء استعادة *Komnenian* ، لقوتها بحلول القرن الـ 12م حيث كانت القسطنطينية أكبر وأغنى مدينة أوروبية، ومع ذلك، تم تسليمها بعد الضربة القاضية التي انتابتها خلال الحملة الصليبية الرابعة ، وبعدها أقيل من منصبه في عام 1204. وتم تقسيم الأراضي التي كانت تحكمها الإمبراطورية سابقاً على المنافسين العوالم اليونانية واللاتينية والبيزنطية، وعلى الرغم من الانتعاش الذي وصلت إليه القسطنطينية في نهاية المطاف في عام 1261، ظلت الإمبراطورية البيزنطية واحده فقط من العديد من الدول المتنافسة صغيرة في المنطقة لعدد من القرون الأخيرة من وجودها، حيث ضمت الأراضي المتبقية تدريجياً إلي العثمانيين خلال القرن ال15، بعد سقوط القسطنطينية في قبضة الإمبراطورية العثمانية عام 1453 م، وانتهت أخيراً الإمبراطورية البيزنطية.

• معلومات عن الإمبراطورية البيزنطية:

كانت أصول الحضارة العظيمة المعروفة باسم الإمبراطورية البيزنطية، تعزى إلى 330 ميلادية، عندما خصص الإمبراطور الروماني قسطنطين الأول "روما الجديدة" على موقع المستعمرة اليونانية القديمة من بيزنطة، وعلى الرغم من أن النصف الغربي من الإمبراطورية الرومانية انهار وسقط في عام 476 م،

ولكن نجا النصف الشرقي وظل لمدة 1000 سنة أخرى، ووضع تقاليد عريقة في الفن والأدب والتعلم والقيام بدور المنطقة العسكرية العازلة بين دول أوروبا وخطر الغزو من آسيا، ولكن وقعت الإمبراطورية البيزنطية أخيراً في عام 1453، بعد أن اقتحم الجيش العثماني القسطنطينية في عهد قسطنطين الحادي عشر.

- **روما الجديدة:**

المصطلح "البيزنطي" مستمد من البيزنطية، وهي مستعمرة يونانية قديمة أسسها رجل يدعى بيزاس، وتقع على الجانب الأوروبي من مضيق البوسفور "المضيق الذي يربط بين البحر الأسود بالبحر المتوسط"، حيث كانت بيزنطة تقع من الناحية المثالية لتكون بمثابة نقطة العبور والتجارة بين أوروبا وآسيا الصغرى، وفي عام 330 ميلادياً، اختار الإمبراطور الروماني قسطنطين الأول بيزنطة كموقع للعاصمة الرومانية الجديدة، القسطنطينية، قبل خمس سنوات، في مجمع نيقية وقد أتخذ قسطنطين المسيحية الدين الرسمي في روما، وأصبح المواطنين في القسطنطينية وبقية الإمبراطورية الرومانية الشرقية التي تم تحديدها بقوة مثل الرومان والمسيحيين، رغم أن العديد منهم تحدثوا باليونانيه وليس اللاتينية.

وعلى الرغم من أن قسنطين حكم الإمبراطورية الرومانية الموحدة، ولكن أثبتت أن هذه الوحدة وهمية بعد وفاته في عام 337 م، وفي عام 364 م، قسم الامبراطور فالنتينيان الأول مرة أخرى الإمبراطورية إلى قسمين غربي وشرقي، ووضع نفسه علي السلطة في الغرب وشقيقه فالنس في الشرق، وتباينت مصير المنطقتين بشكل كبير على مدى العدة قرون القادمة. وقامت الهجمات المستمرة

علي الغرب من الغزاة الألمان مثل القوط الغربيين واندلعت الإمبراطورية تكافح من أسفل قطعة حتى أصبحت إيطاليا الأراضي الوحيدة المتبقية تحت السيطرة الرومانية.

وفي عام 476 م ، أطاح أودواكر البربري بالإمبراطور الروماني الماضي، رومولوس أغسطس، وسقطت روما.

- **بقاء الإمبراطورية البيزنطية:**

كان النصف الشرقي من الإمبراطورية الرومانية أقل عرضة للهجوم الخارجي، ويرجع الفضل في ذلك إلى موقعها الجغرافي، حيث تقع القسطنطينية على مضيق، وكان من الصعب للغاية اختراق دفاعات العاصمة، بالإضافة إلى ذلك، كانت الإمبراطورية الشرقية على الحدود المشتركة بالكثير مع دول أوروبا، كما استفادة كثيراً من مركزها الإداري القوى والاستقرار السياسي الداخلي، فضلاً عن ثروتها الكبيرة مقارنة مع الدول الأخرى من الفترة المبكرة من القرون الوسطى، وكانت قادرة على بذل المزيد من الجهد للسيطرة على موارد الإمبراطورية الاقتصادية لتكون أكثر فعالية علي حشد القوى البشرية الكافية لمكافحة غزو الأباطرة الشرقيين.

ونتيجة لهذه المزايا، مرت الإمبراطورية الرومانية الشرقية، بأشكال مختلفة والمعروفة باسم الإمبراطورية البيزنطية أو بيزنطية، وكانت قادره على البقاء على قيد الحياة لعدة قرون بعد سقوط روما، على الرغم من بيزنطة كان يحكمها القانون الروماني والمؤسسات السياسية الرومانية، ولغتها الرسمية اللاتينية، واليونانية أيضا تحدثوا بها على نطاق واسع، وحصل طلاب التعليم علي التاريخ اليوناني والأدب والثقافة، ومن حيث الدين، وأنشأ مجمع خلقيدونية سنة 451

رسمياً لتقسيم العالم المسيحي إلى خمسة بطريركيات، يحكمها البطريرك كل من: روما "حيث البطريرك سيدعو نفسه في وقت لاحق البابا"، والقسطنطينية، والإسكندرية، وأنطاكية والقدس.

وكان الإمبراطور البيزنطي بطريرك القسطنطينية، ورئيس كل من الكنيسة والدولة بعد أن استوعبت الإمبراطورية الإسلامية الإسكندرية، وأنطاكية والقدس في القرن السابع الميلادي، والإمبراطور البيزنطي أصبح الزعيم الروحي لمعظم المسيحيين الشرقيين.

• الإمبراطورية البيزنطية جستنيان:

تولى السلطة جستنيان الأول الحكم ، في عام 527 وظل يحكم حتى وفاته في عام 565، وهو أول حاكم عظيم في الإمبراطورية البيزنطية، وخلال سنوات حكمه، شملت الإمبراطورية معظم الأراضي المحيطة بالبحر الأبيض المتوسط، كما احتلت جيوش جستنيان جزءاً من الإمبراطورية الرومانية الغربية السابقة، بما في ذلك شمال أفريقيا، وأنشأ العديد من الآثار العظيمة للإمبراطورية تحت قيادة جستنيان، بما في ذلك كنيسة القبة من الحكمة المقدسة، أو آيا صوفيا 37 _ 532 ميلادية، بجانب إصلاحات جستنيان وتقنين القانون الروماني، ودون القانون البيزنطي الذي من شأنه أن يدوم لعدة قرون، والذي يساعد في تشكيل المفهوم الحديث للدولة وعند وفاة جستنيان، ملك الإمبراطورية البيزنطية العليا بوصفها أكبر وأقوى دولة في أوروبا. تراكمت الديون عليها خلال الحرب حيث جعلت الإمبراطورية في ضائقة مالية وخيمة، ومع ذلك، اضطر خلفائه فرض الضريبة وجلبها بشدة من المواطنين البيزنطيين من أجل الحفاظ على الإمبراطورية واقفه على قدميها، وبالإضافة إلى ذلك، تم امداد

الجيش الامبراطوري من أجل النضال للحفاظ على الأراضي التي احتلت أثناء حكم جستنيان خلال القرنين السابع والثامن ولكن دون جدوى، وتلقت هجمات من قبل الفرس والسلاف، جنباً إلى جنب مع عدم الاستقرار السياسي الداخلي والانحدار الاقتصادي، الذي هدد الإمبراطورية.

وجاءت التهديدات الجديدة والأكثر خطورة في شكل الإسلام الذي أسسه النبي محمد ﷺ في مكة المكرمة في عام 622 م، وفي عام 634 م، بدأت جيوش المسلمين هجومها على الإمبراطورية البيزنطية لاقتحام سوريا، وبحلول نهاية هذا القرن، فقدت بيزنطة سوريا، والأراضي المقدسة ومصر وشمال أفريقيا وبعض الأقاليم الأخرى التي انضمت إلى القوى الإسلامية.

- **بيزنطة والحروب الصليبية:**

وفي نهاية القرن ال11 شهدت بداية الحروب الصليبية ، سلسلة من الحروب المقدسة التي شنها المسيحيون الغربيين ضد المسلمين في الشرق الأدنى من عام 1095 إلى 1291.

بجانب أتراك آسيا الوسطى للسيطره على القسطنطينية، وتحول الإمبراطور ألكسيوس الأول إلي الغرب للحصول على المساعدة، مما أدى إلى إعلان "الجهاد" من قبل البابا أوربان الثاني في كليرمونت "بفرنسا" حيث بدأت الحملة الصليبية الأولى، كما تدفقت الجيوش من فرنسا وألمانيا وإيطاليا إلى بيزنطة، وحاول ألكسيوس إجبار قادتهم على قسم يمين الولاء لهم من أجل ضمان استعادة الأرض من الأتراك لتعود إلى إمبراطوريتهم، وبعد استعادت القوات الغربية والبيزنطية نيقية في آسيا الصغرى من الأتراك، تراجع ألكسيوس وجيشه، بسبب اتهامهم بالخيانة من الصليبيين.

وأثناء الحروب الصليبية اللاحقة، واصل العداء بين بيزنطة والغرب، وبلغت ذروتها في غزو ونهب القسطنطينية خلال الحملة الصليبية الرابعة في عام 1204 م، حيث أنشأ النظام اللاتيني في القسطنطينية على أرضية مهزوزة بسبب العداء السافر من سكان المدينة و افتقارها إلى المال. وفر العديد من اللاجئين من القسطنطينية إلى نيقية، الموقعة من الحكومة في المنفى البيزنطي والتي من شأنها استعادة السيطرة على العاصمة والاطاحة بالحكم اللاتيني في 1261.

- **سقوط الإمبراطورية البيزنطية وأرثها**

خلال فترة حكم الأباطرة، بدءاً مايكل الثامن في عام 1261، حيث كان قد أصيب اقتصاد الدولة البيزنطية القوية بالشلل، وبدأ في استعادة مكانته السابقة.

وفي عام 1369، سعى الإمبراطور جون الخامس دون جدوى بالمساعدات المالية من الغرب لمواجهة التهديدات التركية المتنامي، ولكن تم القبض على المدين المعسر في البندقية، وبعد أربع سنوات، قال أنه اضطر للتنازل عنها مثل الأمراء الصربيين وحاكم بلغاريا لتصبح تابعة للأتراك الأقوياء، وكدولة تابعة، أصبحت بيزنطة تدفع الجزية للسلطان وتقدم له الدعم العسكري.

وفي عهد خلفاء جون، اكتسبت الإمبراطورية الإغاثة المتفرقة من الاضطهاد العثماني، ولكن صعود مراد الثاني كسلطان عام 1421 شهد نهاية المهلة النهائية، بعد إلغاء مراد جميع الامتيازات الممنوحة للبيزنطيين وحاصر القسطنطينية، وخلفه، محمد الثاني، الذي شن الهجوم النهائي على المدينة، في 29 مايو 1453، وبعد ان اقتحم الجيش العثماني القسطنطينية، تحت قيادة محمد الفاتح دخل منتصراً آيا صوفيا، التي أصبحت مسجد قيادي في المدينة، وتوفي

الإمبراطور قسطنطين الحادي عشر في المعركة في ذلك اليوم، وجاء انحطاط وسقوط الإمبراطورية البيزنطية كاملة.

وفي القرون التي سبقت الفتح العثماني النهائي عام 1453، ازدهرت الثقافة البيزنطية، بما في ذلك الأدب والفن واللاهوت مرة أخرى، حتى تعثرت الإمبراطورية نفسها، وكانت الثقافة البيزنطية تمارس تأثيراً كبيراً على التراث الفكري الغربي، حيث سعى علماء عصر النهضة الإيطالية لمساعدة العلماء البيزنطيين في الترجمة الوثنية واليونانية والكتابات المسيحية.

وهذه العملية استمرت بعد 1453، عندما فر العديد من هؤلاء العلماء إلى إيطاليا من القسطنطينية، وبعد فترة طويلة وفي "النهاية"، استمرت الثقافة البيزنطية والحضارة لممارسة تأثيرها على الدول التي تمارس الديانة الأرثوذكسية، بما في ذلك روسيا، ورومانيا، وبلغاريا وصربيا واليونان وغيرها.

- **العهد الروماني اكبر امبراطورية في التاريخ**:

تركزت الإمبراطورية الرومانية القديمة، فى مدينة روما، التي تأسست في عام 27 قبل الميلاد بعد زوال الجمهورية الرومانية والاستمرار في اضمحلال إمبراطورية الغرب في القرن 5 م، حيث أنها كانت تتبع علاج وجيز من الإمبراطورية الرومانية، لتلقي العلاج الكامل.

- **معلومات عن العهد الروماني**

تأسست الإمبراطورية الرومانية في فترة الجمهورية بعد الحضارة الرومانية القديمة ، حيث تميزت الحكومة برئاسة الأباطرة وحيازات الأراضي الكبيرة في جميع أنحاء البحر الأبيض المتوسط في أوروبا وأفريقيا وآسيا.

كانت مدينة روما هي أكبر مدينة في العالم منذ 100 سنه قبل الميلاد، مع القسطنطينية "روما الجديدة" لتصبح أكبر بحوالي 500 م، حيث نما جماهير الإمبراطورية إلى ما يقدر من 50 حتي 90000000 نسمة أي "نحو 20٪ من سكان العالم في ذلك الوقت". وكان عمر الجمهورية نحو 500 عام ، حيث سبقتها عدم الاستقرار الشديد لتعرضها لسلسلة من الحروب الأهلية والصراع السياسي، والتي تم خلالها تعيين يوليوس قيصر كديكتاتور دائم ثم اغتيل في عام 44 قبل الميلاد. واستمرت الحروب الأهلية، وبلغت ذروتها في انتصار أوكتافيوس، ابن قيصر بالتبني، على مارك أنتوني وكليوباترا في معركة أكتيوم البحريه في عام 31 قبل الميلاد وضمها إلي مصر، وكانت سلطة أوكتافيان في ذلك الحين لا يمكن تعويضها، وفي عام 27 قبل الميلاد منح مجلس الشيوخ الروماني رسمياً له السلطة وأصبح لقبه الجديد هو أوغسطس، الذي يمثل بشكل فعلي نهاية الجمهورية الرومانية.

وجاءت خليفة الإمبراطورية في الجمهورية التي استمرت إلي ما يقرب من 1400 سنة، ومر أول قرنين من وجود الإمبراطورية بفترة من الاستقرار السياسي الغير مسبوق والازدهار المعروف باسم باكس رومانا ، أو "السلام الروماني"، وبعد فوز أوكتافيان، تم زيادة حجم الإمبراطورية بشكل كبير، وبعد اغتيال كاليجولا في عام 41 ، نظر مجلس الشيوخ لفترة وجيزة لاستعادة الجمهورية، بينما أعلن الحرس الإمبراطوري كلوديوس قيصر بدلاً من ذلك. وتحت قيادة كلوديوس، غزت الإمبراطورية بريطانيا، وكان أول توسع له منذ أغسطس.

وبعـد خليفـة كلوديـوس، نـيرو، الـذي انتحـر في عـام 68، تعرضـت الإمبراطورية لفترة وجيزة من الحروب الاهلية، فضلاً عن التمرد الكبير المتزامن في يهودا، حيـث تـم خلالهـا إعـلان أربعـة ضـباط مـن الفيلـق للامبراطوريـة، وظهرت فيسباسيان المظفـرة في عـام 69، وإقامـة فلافيـان، قبـل أن يخلفـه ابنـه تيتوس، الذي افتتح الكولوسيوم بعد ثوران بركان جبل فيزوف، وأعقـب فـترة حكمه القصيرة التي كتبها في عهد طويـل مـن شـقيقه دوميتيـان، الـذي اغتيـل في نهاية المطاف، وعين مجلس الشيوخ أول خمسـة مـن الأبـاطرة الجيـدة، حيـث بلغت الإمبراطورية أقصى حد لها تحت قيادة تراجان ، والثاني في هذا الخط.

وهناك فترة من زيادة المتاعب والتراجع بدأت مع عهد كومودوس، وبعد اغتيـال كومـودوس في عـام 192 حـدث في هـذه السـنة انتصـار سـيبتيموس سيفيروس من الأباطرة الخمسة، ولكن أدى اغتيال الكسندر سيفيروس في عـام 235 إلي أزمة القرن الثالث حيث تم الإعلان عن 26 رجلاً للإمبراطور من قبل مجلس الشيوخ الروماني على مدى خمسين عاماً، ولم تشهد الإمبراطورية اسـتقرار كامل حتى في عهد دقلديانوس، وإن كانت مع مقدمة من الولاية الربعيـة، التـي شهدت أربعة أباطرة لحكم الإمبراطورية في وقت واحد، وكان هذا الترتيب غير ناجح في النهاية، مما أدى إلى انتهاء الحرب الأهلية التـي انتهـت أخـيراً عـلي يـد قسطنطين الأول، والذي هزم منافسيه وأصبح الحـاكم الوحيـد للإمبراطوريـة ، وبعـد ذلـك حـول قسـطنطين العاصـمة لبيزنطـة، التـي تـم تغيـير اسـمها إلى "القسطنطينية" تكريماً له، وظلت عاصمة الشرق حتى زواله.

كما اعتنق قسطنطين المسيحية التي أصبحت في وقت لاحق دين الدولة الرسمي للإمبراطورية ، وهذا الجزء الشرقي من الإمبراطورية " عرف فيما بعد باسم "الامبراطورية البيزنطية" ، وظلت واحدة من القوى الكبرى في العالم إلى جانب الإمبراطورية الساسانية الخصم اللدود ، الذي كان قد ورث صراع الرومانية-الفارسي منذ قرون من سابقتها البارثيين.

وبعد وفاة ثيودوسيوس الأول ، الامبراطور الأخير لحكم الإمبراطورية الرومانية الموحدة، تآكلت سيادة الإمبراطورية تدريجياً لإساءة استخدام السلطة، والحروب الأهلية، والهجرات والغزوات البربرية، والإصلاحات العسكرية والكساد الاقتصادي، وتم نهب روما في عام 410 من قبل القوط الغربيين، ومرة أخرى في عام 455 من قبل المخربين وتسارع تسوس الإمبراطورية الغربية، في حين خلع الامبراطور، رومولوس أوغستولوس، في عام 476 قبل اودواسير، ومن المسلم به عموماً بمناسبة نهاية الإمبراطورية في الغرب. ومع ذلك، كان أوغسطس المعترف بها من قبل الأمبراطورية الشرقية، والمنفصلة عن القاعدة الواقعة في الجزء الغربي من الإمبراطورية، والتي توقفت عن الوجود عند وفاة يوليوس نيبوس في عام 480 ، بينما استمرت الامبراطورية الرومانية الشرقية لألف عام أخرى، وسقطت في نهاية المطاف في أيدي الأتراك العثمانيين في عام 1453.

وكانت الإمبراطورية الرومانية من بين القوى الاقتصادية والثقافية والسياسية والعسكرية الأقوى في العالم. وكانت أكبر إمبراطورية في العصر والتاريخ القديم، وواحدة من أكبر الإمبراطوريات في تاريخ العالم.

وغطت في أوجها تحت قيادة تراجان 5 ملايين كيلو متر مربع، وهي منطقة تتكون من 48 دولة في القرن ال21 . وعقدت التأثير على ما يقدر بنحو 70 مليون شخص، في ذلك الوقت 21٪ من سكان العالم بأسره. وظلت الإمبراطورية طول العمر وعلي مدى واسع بما لها من التأثير الدائم علي اللغة اللاتينية واليونانية والثقافية والدين والاختراعات والعمارة والفلسفة والقانون وأشكال الحكم على أحفاد الإمبراطورية، وطوال الفترة الأوروبية في القرون الوسطى، وحتى المحاولات لإقامة خلفاء للإمبراطورية الرومانية، بما في ذلك الإمبراطورية الرومانية، والدولة الصليبية، والإمبراطورية الرومانية المقدسة، عن طريق الاستعمار الأوروبي بعد عصر النهضة، وتم تصدير الثقافة اليونانية الرومانية على نطاق عالمي، ولعبت دوراً حاسماً في تطور العالم المعاصر.

• الجغرافيا والديموغرافيا

كانت الإمبراطورية الرومانية أكبر امبراطورية في التاريخ، بين الدول المتجاورة في جميع أنحاء أوروبا، وشمال أفريقيا، والشرق الأوسط، حيث أطلق عليها الامبرياليين عبارة "امبراطورية بلا نهاية"، وأعربت الإيديولوجية أنها إمبراطورية بلا مساحة محدودة، كما جاء في قصيدة فيرجل في ملحمة اينييد، أنها إمبراطورية بلا حدود التي تمنح للرومان من قبل الإله الأعلى على كوكب الأرض، وتم تجديد هذه الإمبراطورية من الهيمنة العالمية لتحافظ على استمراريتها تحت الحكم المسيحي في القرن ال 4.

وفي الواقع، تم إنجاز التوسع الروماني في الغالب في ظل الجمهورية، على الرغم من أنها غزت أجزاء من شمال أوروبا في القرن الأول، عندما تم تعزيز السيطرة الرومانية في أوروبا وأفريقيا وآسيا، وفي عهد أوغسطس، تم عرض

خطة "خارطة عالمية من العالم المعروف" لأول مرة في العالم في روما، وبالتزامن مع تكوين العمل الأكثر شمولية في الجغرافيا السياسية أن ينجو من العصور القديمة، والجغرافيا للكاتب اليوناني جاسرة سترابو. وعندما مات أوغسطس، وضعت حسابات تذكارية لانجازاته "احتياط *Gestae*" في مكاناً بارزاً لفهرسة الجغرافية للشعوب والأماكن داخل الإمبراطورية، والجغرافيا كانت تعداد، والحفظ الدقيق لسجلات مكتوبة والشواغل الرئيسية لإدارة الإمبراطورية الرومانية.

ووصلت الإمبراطورية إلي أكبر مساحة بموجب تراجان الذي حكم منذ عام 98-117 ، والتي بلغت مساحتها لنحو 5 ملايين كيلومتر مربع في عام 2009 وقسمت بين الدول الحديثة المختلفة إلي الأربعين، وبلغت تقديرات السكان التقليديين من 55 حتي 60000000 نسمة لمدة تتراوح بين سدس وربع من إجمالي سكان العالم، وجعلت منها أكبر عدد من السكان من أي كيان سياسي موحد في الغرب حتى منتصف القرن ال 19، وقد جادل دراسات الديموغرافية الأخيرة الذروة السكانيه التي تتراوح ما بين 70 مليون إلى أكثر من 100 مليون نسمة، وكل واحدة أكبر من ثلاث مدن في إمبراطورية روما، وكانت الإسكندرية، و *Antioch* تقريباً هي ضعف حجم أي مدينة أوروبية في بداية القرن التاسع 17.

كما أكد المؤرخ كريستوفر كيلي ووصف ذلك: بإمتداد الامبراطورية من جدار هادريان في غارقة رذاذ شمال انجلترا للبنوك تحت وهج الشمس الحارة إلي الفرات في سورية، ومن نظام نهر الراين ونهر الدانوب الكبير الذي سار عبر الأراضي الخصبة المسطحة في أوروبا من البلدان المنخفضة إلى البحر الأسود،

ثم إلى السهول الغنية من ساحل شمال افريقيا وجرح مترف من وادي النيل في مصر، والإمبراطورية تأخذ شكل دائري تماماً عبر البحر المتوسط ... التي أشار إليها الفاتحين لها.

واعتمدت سياسة خليفة تراجان هادريان علي المحافظة عليها بدلاً من توسيع الإمبراطورية، وتميزت حدود غرامات، وحدود *LIMITES* بالدوريات، وكانت الحدود المحصنة أشد وطأة وغير مستقرة، مثل سور هادريان، الذي يفصل العالم الروماني عما كان ينظر إليها على أنها التهديد البربري إلى الوقت الحاضر أكثر من أي وقت مضى، وهو نصب على قيد الحياة لهذا الجهد.

• اللغات:

وكانت لغة الرومان الرئيسيه هي اللغة اللاتينية ، والتي يؤكدها فيرجيل كمصدر وحدة الرومانية والتقاليد ، حتى وقت الكسندر سيفيروس الذي حكم من 222-235، وكانت شهادات الميلاد والوصايا من المواطنين الرومان مكتوبة باللغة اللاتينية، وكانت اللاتينية هي لغة المحاكم في الغرب والجيش في جميع أنحاء الإمبراطورية، ولكن لم تفرض رسمياً على الشعوب التي وضعت تحت الحكم الروماني، حيث تتناقض هذه السياسة مع الإسكندر الأكبر، الذي يهدف إلى فرض اليونانية في جميع أنحاء إمبراطوريته كلغة رسمية.

ونتيجة لذلك من فتوحات الاسكندر ، أصبحت اليونانية *koine* هي اللغة المشتركة حول شرق البحر المتوسط وحتي آسيا الصغرى، وتمثل "الحدود اللغوية" في التقسيم بين الغرب اللاتينية والشرق اليونانية التي مرت على شبه جزيرة البلقان.

وحصل الرومان على تعليم النخبة اليونانية كلغة أدبية، ومعظم الرجال من الطبقات الحاكمة، يمكن أن يتكلمون اليونانية، وشجع الأباطرة جوليو-كلودين المستويات العالية من الصحيح اللاتينية "*Latinitas* "، وهي الحركة اللغوية المحددة في المصطلحات الحديثة مثل اللاتينية الكلاسيكية، وفضلت اللاتينية لإجراء المهام الرسمية. وحاول كلوديوس للحد من استخدام اليونانية، وأحياناً سحبت الجنسية من أولئك الذين يفتقرون إلى اللاتينية ، ولكن حتى في مجلس الشيوخ وجه على موقعه ثنائية اللغة الخاصة في التواصل مع سفراء يتحدثون اليونانية. وينقل عن سوتونيوس أنه يشير إلى أن لدينا لغتين.

وفي الامبراطورية الشرقية، ترجمت القوانين والوثائق الرسمية بانتظام إلى اليونانية من اللغة اللاتينية، حيث يشار إلى التداخل اليومي من اللغتين التي وضحتها نقوش ثنائية اللغة، والتي كانت في بعض الأحيان حتى في الانتقال ذهاباً وإياباً بين اليونانية واللاتينية، لكل السكان الأحرار للإمبراطورية، ولكن عدداً كبيراً من المواطنين الرومان افتقرت إلي اللاتينية، على الرغم من أنها كانت من المتوقع أن تكتسب على الأقل المعرفة الرمزية، وظلت اللاتينية علامة على *"Romanness"* .

ومن بين المقترحات الأخرى ، فإن الإمبراطور دقلديانوس الذي حكم منذ عام 284-305 ، فإنه سعى لتجديد سلطة اللاتينية ، والتعبير اليوناني علي انه *kratousa dialektos* يشهد حالة استمرار اللاتينية باسم "لغة القوة".

وفي أوائل القرن ال 6 ، شارك الامبراطور جستنيان في جهود موضوعيين لتأكيد مكانة اللاتينية كلغة القانون، على الرغم من أن في وقته اللاتينية لم تعد تعقد أي عملة كلغة المعيشة في الشرق.

• امبراطورية روما:

وهناك فترة من الاضطرابات والحروب الأهلية في القرن الثامن قبل الميلاد، حيث شهدت مرحلة التحول في روما من الجمهورية إلى الإمبراطورية، وهذه الفترة شملت يوليوس قيصر، الذي تولى في نهاية المطاف للسلطة الكاملة على روما كديكتاتور، وبعد اغتياله في عام 44 قبل الميلاد، استبعد الثلاثي مارك أنتوني، يبيدس، وأوكتافيان، ابن شقيق قيصر، ولم يمض وقت طويل قبل أن يذهب أوكتافيان إلى الحرب ضد أنتوني في شمال أفريقيا، وبعد انتصاره في معركة أكتيوم البحرية عام 31 قبل الميلاد توج أوغسطس الإمبراطور الأول لروما، وظل حكمه من 27 قبل الميلاد إلى 14 م، والتي تميزت بالاستقرار والسلام.

وأنشئ أوغسطس شكل من أشكال الحكم المعروفة باسم عهد الزعامة، الذي يجمع بين عناصر من الجمهورية مع القوى التقليدية للملكية، ولكن مجلس الشيوخ لا يزال يعمل، على الرغم من أوغسطس، ظل في السيطرة على الحكومة ، وبدأت روما في الازدهار مرة أخرى، وكان الإمبراطور ينظر إليها على أنها إله، وبعد ذلك، كانت تعبده كل الأباطرة كآلهة بعد الموت، ومن بين حكام روما كانت تراجان الذي حكم من 98-117، وهادريان من117-138، وأنطونيوس بيوس من 138-161، وماركوس أوريليوس من 161-180، وارتفع منحط، الرجل القاسي أيضاً إلى الطاقة: كاليجولا من37-41، ونيرون من 54-68 حيث كان مكروه بحيث عهودهم ضربت من السجلات الرومانية الرسمية.

الفصل الثالث عشر

الإمبراطورية الرومانية المقدسة

الإمبراطورية الرومانية المقدسة للأمة الجرمانية تكتل سياسي قروسطي بأراضي أوروبا الوسطى والغربية وُلد خلال العصور الوسطى المبكرة وتم حله رسمياً سنة 1806. تاريخ بداية الإمبرطورية هو سنة 962 حين توج البابا يوحنا الثاني عشر أوتو الأول العظيم إمبراطوراً لكيان شمل ألمانيا وإيطاليا (بورغونيا لاحقاً) التي ورثت الجزء الأكبر من الإمبراطورية الكارولنجية، لكن ما يميزها أنها لم تعد تشمل "فرنسا الغربية"، أي تقريباً فرنسا الحالية. وصلت الإمبراطورية الرومانية المقدسة للأمة الجرمانية إلى ذروة قوتها خلال العصور الوسطى المتأخرة، وشكلت مع البابوية الكاثوليكية واحدة من القوتين العالميتين.

استخدم لفظ الإمبراطورية الرومانية في عام 1034 للدلالة على الأراضي التي تحت حكم كونراد الثاني، والإمبراطورية المقدسة في سنة 1157. بدأ استخدام مصطلح إمبراطور الروماني للإشارة إلى ملوك شمال أوروبا في وقت مبكر مع أوتو الثاني (إمبراطور بين عامي 973 – 983).

استخدم الأباطرة من شارلمان – المتوفى سنة 814 – حتى أوتو الأول العظيم (إمبراطور بين عامي962 – 973) ببساطة لقب الامبراطور أغسطس للإمبرطورية الكارولينجية.

قُـــدم مصـطلح الامبراطوريــة الرومانيــة المقدســة للأمــة الجرمانيــة في سنة 1254، وظهر التعبير الكامل "في نهاية القرن الخامس عشر حين فقدت المملكة الكثير من نفوذها في إيطاليا، رغم بقاءها مرتبطة بها حتى النهاية بـبعض الكيانات الإقليمية الإيطالية المتكاملة فيها : "مقدس" و"الروماني" مصطلحان استخدما في روح محاكاة للإمبراطورية البيزنطية؛ كما شـدد عـلى مقطـع "للأمـة الألمانية" مـن سـنة 962 ومـا بعـدها، كـان جـوهر هـذه المؤسسـة في الأصـل في شـعوب القوميـة الجرمانيـة، المشـكلين للفرنجـة الشـرقيين بعـد التقسـيم الكارولينجي.

كـان لقـب الإمبراطـور انتخابيـاً أساسـاً، وفقـاً للتقاليـد "الفيدراليـة" لدوقيات ألمانيـا الرئيسـية الأربعـة (ساكسـونيا، فرنكونيـا، بافاريـا وألامانيـا) المتمايزة كل منها بقاعدتها العرقية المختلفة. كان الناخبون من عليـة نـبلاء مملكـة ألمانيا، الذين كانوا يتنازعون على التاج. كان لقب الإمبراطوري يعتبر من ناحيـة في جميع أنحاء أوروبـا الغربيـة المنصـب الأعـلى ومبـدءاً لا جـدال فيـه، وغالبـاً ما يشهد على ذلك عملياً عدم وجود بودستا أساسي للأباطرة، وتحولـوا رسـمياً إلى صورة رمزية عاجزين عن التعبير عن رغبتهم في المملكة.

حاولت بعض العائلات الكـبرى الإسـتحواذ عـلى التـاج الإمبراطـوري الوراثي مثل السلالة الأوتونية، لكن أسرة هابسبورغ حسمت الأمـر لصـالحها منذ نهاية العصور الوسطى محتفظة باللقب حتـى سـنة 1806، وإن لم تلـغ أبـداً صلاحية الأمراء النـاخبين ومكـانتهم. فبوفـاة كـل إمبراطـور كـانوا يجتمعـون لينتخبوا خلفاً له.

أُلغِــيَ لقب الإمبراطور "الروماني" على يد إمبراطور آخـر هـو نـابليون الأول إمبَراطور فرنسا الذي فرض على فرانسـيس الثـاني هابسـبورغ أن يأخـذ لقب "إمبراطور النمسا" الأكثر انسجاماً مع المناطق التي كان يحكمها فعلاً. وتم حل الإمبراطورية الرومانية المقدسة رسمياً في سنة 1806.

حتى المعاصرون لم يعرفوا كيفيـة تحديـد هـذا الكيـان. في وصـف شـهير كتب صأمويل بوفندورف سنة1667 في كتـاب (*De statu imperii Germanici*) المنشور باسمه المستعار سيفيرينو مونزامبانو: «لقـد زالـت، لـذا تعتـبر جرمانيـا جسداً بلا تهذيب مثل الوحش».

و قـال عنهـا فـولتير في وقـت لاحـق: «لـيس مقدسـة ولا رومانيـة ولا إمبراطورية»

• الفـرق بـين الإمبـراطوريـة الكارولنجيـة والإمبـراطوريـة الرومانـيـة المقـدسـة:

الإمبراطوريـــة الكارولنجيـــة ذات صـــلة وثيقـــة بصـــورة مؤسســـها شارلمان وذريته الكارولنجيين وفتوحاته وعلاقته الخاصة مع البابوية.

ولئن ظهرت الإمبراطورية الرومانية الجرمانية (الإمبراطوريـة الرومانيـة المقدسة) منذ الفترة الكارولنجية، فإن فشلها في استيعاب مملكة فرنسا الأساسية حال دون أن تكون وريثاً، إن لم تكن على نفس قدر التاج الفرنسي.

و لكن اللقب الإمبراطوري ظل مستمراً بمعنى معين، ولذلك في حساب الأباطرة يـُرَاد في بعض الأحيان أن يبدأ من شارلمان.

• إمبراطورية "رومانية"؟

من الناحية القانونية لم يبق من الإمبراطورية الرومانية التي أسسها الإمبراطور أوغسطس سنة 27 ق.م وقسّمهاثيودوسيوس الأول إلى جزئين (395) سوى جزءها الشرقي الذي ورث مكانة الجزء الغربي بعد خلع آخر أباطرته رومولوس أوغوستولوس (476) مستعيداً وحدة الدولة رسمياً. اعتبر سكان الإمبراطورية الشرقية أنفسهم روماناً، وسموا دولتهم بمملكة الرومان.

كان تتويج البابا لاون الثالث لشارلمان إمبراطوراً سنة 800عملاً يفتقر لصورة شرعية من الناحية القانونية: وحده إمبراطور الروم الشرقي هو من يتوج أي أحد يناظره في الغرب، لذلك نظرت القسطنطينية بفوقية وبعين الشك لذلك الفعل.

وبالرغم من ذلك، فإن التتويج البابوي له ما يبرره من الناحية الرسمية لسببين:

1. حكُم امرأة آنذاك للإمبراطورية البيزنطية وهي إيرين، هو أمر باطل بعيون الغربيين، ما خلق فراغاً في السلطة فاتحاً الطريق أمام انقلابات محتملة (وفي الواقع لم يكن ممكناً للإمبراطورية البيزنطية آنذاك التدخل المباشر في أوروبا الغربية بأي حال).
2. قضية أن البابا أعلن نفسه الوريث المباشر للإمبراطورية الرومانية مدُعياً السلطة المؤقتة بفضل وثيقة تبرع القسطنطينية(مزورة)، التي يمنح قسطنطين الأول بموجبها مُلك مدينة روماوما تاخمها للبابا سيلفستر الأول؛ اعترُف بتزوير الوثيقة في القرن الخامس عشر عبر

الدراسة الفيلولوجية، ويبدو أنها كُتبت في القرن الثامن حين توجب على البابا المهدد بزحفاللومبارديين فرض سلطته. في تلك المناسبة قام بتتويج مماثل غير شرعي رسمياً كسابقه، متوجاً بيبين القصير ملك الفرنجة، كشكر له على المعونة التي قدمها في الصراع مع اللومبارديين.

حاول الأباطرة الرومان-الألمان بشتى الطرق الحصول على قبول من البيزنطيين كنظراء لهم: عبر العلاقات الدبلوماسية أو سياسية أو الزواج أو بالتهديد. ولكنهم لم يحصلوا على النتائج المرجوة في كل مرة، لأن القسطنطينية كانت تدعوهم دائماً بـ"ملوك الألمان" ولم تدعهم أبداً بـ"الأباطرة".

ولئن كانت دعواهم بالتصرف كورثة للرومان مشكوك فيها قانونياً إلا أنها حققت بعض النجاحات التي لا تنكر، مثل استعادة القانون الروماني منذ منتصف القرن الثاني عشر، والذي عاد إلى الغرب من خلال أنشطة الجامعات ليحل محل كل أو معظم القوانين الجرمانية السارية منذ زمن الغزوات البربرية ومحل تلك القوانين الكنسية التي نشرتها المؤسسات الكنسية. وهكذا، رغم البداية التي يحجبها سوء الفهم والأعمال المفروضة قانوناً، صارت الإمبراطورية الرومانية المقدسة إحدى أحجار الزاوية في المجتمع الأوروبي، وأثرت عميقاً بالأحداث عبر القرون.

- **المؤسسات:**

تميزت الامبراطورية منذ العصور الوسطى المبكرة بالصراع من أجل إبقاء الدوقات المحليين بعيداً عن السلطة، لم تتمكن الإمبراطورية أبداً من أن تُحكم السيطرة على الأرض التي تملكها رسمياً، خلافا لملوك الأراضي الإفرنجية الغربية والتي ستصبح فرنسا فيما بعد.

بينما كانت الإمبراطورية مضطرة منذ البداية لمنح مزيد من السلطات للدوقات المحليين على أراضيهم. وقد بدأت هذه العملية في القرن الثاني عشر وانتهت تقريباً مع صلح وستفاليا سنة1648. فشلت عدة محاولات لاستعادة العظمة الإمبراطورية الأصلية.

رسمياً كانت الإمبراطورية مستوعبة بين حاجة ملك ألمانيا لأن يتوج من قبل البابا (حتى عام1508) من جهة والسمو الإمبراطوري (*Reichsstände*) من جهة أخرى.

• الملك الألماني:

شكّل تتويج شارلمان إمبراطوراً على يد البابا في عام 800 مثالاً سار عليه الملوك اللاحقين: كانت هذه البادرة نتيجة لدفاع شارلمان عن البابا ضد تمرد سكان روما. ونشأ من هذا المشهد مفهوم أن الإمبراطورية هي المدافع عن الكنيسة.

و أن يصبح أحدهم إمبراطوراً يعني ضمناً أنه صار ملكاً ألمانياً. انتخب الملوك الألمان منذ زمن بعيد: في القرن التاسع من قِبل رؤساء أكبر خمس قبائل (الفرنجة والساكسون والالبايوفاريين والسويبيين والثورنغيين) وفي وقت لاحق من قِبل الدوقات الرئيسيين الكنسيين منهم والعلمانيين؛ وأخيراً فقط عبر من أَطلق عليهم اسمأمراء الناخبون. أُقر هذا الاجتماع رسمياً بموجب مرسوم الذهبي الصادر في 1356 من رايشتاغ نورنبيرغ برئاسة الامبراطور كارل الرابع. في البداية الناخبون كانوا سبعة وتغير هذا العدد على مر القرون.

حتى عام 1508، كان الملك المنتخب حديثاً: يقصد روما ليتوّجه البابا إمبراطوراً. وهذا الأمر في كثير من الحالات يستغرق سنوات عديدة لو أن الملك كان مشغولاً بأمور أخرى كقيادة الحروب.

لم يكن ممكناً بداً للإمبراطور أن يستأثر بحكم الإمبراطورية. فقد كانت سلطته محددة فعلياً بجهاز الإمبراطورية التشريعي وهو الرايشتاغ. وكان هذا تجمعاً معقداً يلتئم على فترات غير منتظمة وفي أماكن مختلفة بناءً على طلب من الامبراطور. فقط بعد سنة 1663 أصبح الرايشتاغ تجمعاً دائماً.

• السمو الإمبراطوري:

كيان كان يعتبر رتبة إمبراطورية، إن وفقاً للعادات الإقطاعية فليس هناك سلطة أعلى منها غير الإمبراطور نفسه. فقط هؤلاء من كانوا يجلسون في الرايشتاغ، وكانوا مع اختلافات كبيرة عبر القرون:

- ✵ الأقاليم التي يحكمها أمير أو دوق أو حتى من ملك كما في بعض الحالات (مثل بروسيا فيما بعد).
- ✵ الأقاليم الكنسية التي يحكمها أسقف أو أسقف كونت.
- ✵ الفرسان الإمبراطوريون.
- ✵ المدن الإمبراطورية الحرة.

عدد الأقاليم كبير بصورة مذهلة، حيث بلغ عدة مئات في زمن صلح وستفاليا. من ضمنها العديد لم تزد مساحته عن بضعة أميال مربعة. لذلك وصف العديدون الإمبراطورية بأنها كالفسيفساء.

التاريخ:

✓ **من الفرنجة الشرقيين حتى صراع التعيينات:**

يعتبر العام 962 عموماً التقدير الأقصى لسنة تأسيس الإمبراطورية على يد أوتو الأول العظيم إلا أن البعض يفضل ربط بداية الإمبراطورية الرومانية المقدسة بتتويج شارلمان إمبراطوراً للرومان في سنة800، وكان الباقون يسمون شارلمان نفسه ملك الفرنجة. كما أن اللقب يوضح أن الإمبراطورية الكارولنجية كانت تغطي مساحة تشمل فرنسا وألمانيا الحاليتين، إذا كانت على قاعدة تشكيل كلا البلدين.

لذلك ترى غالبية المؤرخين أن قيام الإمبراطورية هي العملية بدأت بتقسيمالإمبراطورية الكارولنجية بموجبمعاهدة فيردان سنة 843، مع استمرار سلالة الكارولنجيين بطريقة مستقلة في الأجزاء الثلاثة. كان الجزء الأكثر شرقية من نصيب لودفيش الجرماني وقد خلفه الكثير حتى وفاة لودفيش الرابع الملقب ب"الطفل" آخر كارولنجي الجزء الشرقي.

انتخب دوقات ألامانيا وبافاريا وفرنكونيا و ساكسونيا كونراد الأول الإمبراطور الروماني المقدس للفرنجة وهو غير كارولنجي زعيماً لهم في سنة 911. رضي خلفه هاينريش الأول (919 – 936) الساكسوني بإمبراطورية شرقية منفصلة عن تلك الغربية الإفرنجية (ما يزال يحكمها الكارولنجيون) في سنة 921 مطلقاً على نفسه لقب ملك *الفرنجة* الشرقيين (*rex Francorum orientalium*).

عـين هـاينريش ابنـه أوتـو خلفـاً لـه والـذي كـان قـد انتخـب ملكـاً بـآخن سـنة 936، ثـم تـوج إمبراطـوراً في سـنة 962 باسـم أوتـو الأول (عرف بالعظيم فيما بعـد) وقـد قـام بخطـوة مهمـة نحـو الإمبراطوريـة (وليس نحو مملكة الفرنجة الشرقيين المتبقية الأخـرى مـن المملكـة الإفرنجيـة) بمباركة من البابا. كان أوتو قد حقق الكثير قبل استلمه السـلطة، حـين انتصر على المجريين في معركة لشفيلد سنة 955.

يُشار إلى التتويج في الأدب المعـاصر واللاحـق كانتقالـة للإمبراطوريـة. كانت الأسطورية المستنبطة أن إمبراطوريةً واحدةً كانت ولا تزال قائمـة. تعتـبر أنهـا ابتدأتبالإسـكندر الأكـبر ومـرت بـالروم ثـم مـن الفرنجـة آلـت أخـيراً إلى الإمبراطورية الرومانية المقدسة (وهذا ما يُفسر تسميتها بالرومانية). واعتبر الأباطرة الألمـان الخلفـاء المبـاشرين للأبـاطرة الرومـان، ولهـذا السـبب أعطـوا في البداية لقب أوغوسطوس. في البداية لم يسَمَى الأباطرة بعد بـال"رومـان"، ولعل ذلك تحاشياً للصـراع مـع الإمبراطـور الرومـاني الـذي مـا زال موجـوداً في القسـطنطينية. وأصـبح مصـطلح الإمبراطـور الرومـاني (*Imperator Romanorum*) شائعاً فقط بعد عهد كونراد الثاني.

في ذلـك الـزمن، لم تكـن المملكـة الأكثـر شرقيـة "ألمانيـة" بقـدر مـا كانـت كونفدراليـة للقبائـل الجرمانيـة القديمـة البايوفـاريون والسـويبي- ألامانيون و الفرنكونيون و ساكسون. وربما بقيت الإمبراطورية على قيد الحيـاة كاتحاد سياسي الوحيد فقط بفضل قـوة شخصـية ونفـوذ هـاينريش الساكسـوني وابنه أوتو. مع ذلـك وإن كـانوا قـد انتخبـو رسـمياً مـن قبـل رؤسـاء القبائـل الجرمانية، فإنهم في الواقع كانوا قادرين على أن يعينوا من يخلفهم.

تغير هذا بعد وفاة هنري الثاني دون أبناء في سنة 1024، وانتخب كونراد الثاني أول السلالة السالية ملكاً في العام نفسه بعد بضع جلسات فقط. يبدو أن اختيار الملك كان مزيجاً معقداً من النفوذ الشخصي والصراعات القبلية والميراث والتزكية من قبل الزعماء المدعوون لتشكيل اجتماع الناخبين الكبار.

توضحت بالفعل في ذلك الوقت الثنائية بين الأقاليم، تلك التي للقبائل القديمة المتأصلة في أراضي الفرنجة، والملك الإمبراطور. فضل كل ملك قضاء معظم وقته في أراضيه. هذه الممارسة لم تتغير إلا عهد أوتو الثالث الملك في سنة 983 والإمبراطور بين عامي 996 و1002، والذي بدأ في استخدام المقار الأسقفية المنتشرة بالإمبراطورية كمقار مؤقتة للحكومة. يبدو أن حتى خلفائه هنري الثاني، كونراد الثاني وهنري الثالث قد تمكنوا من ربط الدوقات بالأراضي. لذا لم يكن مصادفة أن تتغيير المصطلحات آنذاك وتظهر إرهاصات مصطلح المملكة التوتونية (*Regnum Teutonicum*).

تلاشى مجد الإمبراطورية تقريباً في صراع التعيينات، الذي حرم خلاله البابا غريغوريوس السابع هنري الرابع كنسياً (الملك سنة 1056 والإمبراطور بين عامي1084 و1106).

وعلى الرغم من إزالة الحرمان بعد رحلته إلى كانوسا سنة 1077 إلا أن ذلك كانت له انعكاسات بعيدة المدى. في ذات الوقت انتخب الدوقات الألمان رودولف شوابيا ملكاً آخر، وتمكن هنري الرابع من هزيمته في سنة 1080 بعد ثلاث سنوات من الحرب. لقد تضررت الجذور الأسطورية للإمبراطورية إلى الأبد بإذلال الملك الألماني. والأهم من ذلك أن الكنيسة صارت لاعباً مستقلاً على ساحة الإمبراطورية.

• الإمبـراطوريـة الرومانـي في ظل آل هوهنـشتـاوفن:

صعد أول أباطرة سلالة هوهنشتاوفن (كانوا دوقات شـوابيا) كـونراد الثالث العرش سنة 1138، بالفترة التـي شـهدت اسـتعادة مجـد الإمبراطوريـة في ظل ظروف اتفاق فورمس الجديدة. كان فريدريك الأول بربروسـاثاني سـلالة هوهنشتاوفن (ملكاً في سنة 1152 وإمبراطوراً من عام 1155 حتـى 1190) أول من دعى الإمبراطورية ب"المقدسة" ولطالما وجه التشريع بهذا المنحى.

كما عادت فكرة "الرومانية" لتتنامى في عهد فريـدريك الأول، في محاولـة على مـا يبـدو لتبريـر السـلطة الإمبراطوريـة المسـتقلة عـن البابـا. بـرر اجـتماع إمبراطوري في حملات رونكاليا سـنة 1158 صراحـة القـوانين الامبراطوريـة من خلال رأي (*quattuor doctores*) للهيئة جامعة بولونيا القانونية الجديـدة التي استخدمت عبارات مثل : الأمـير لا يخضـع لقـانون (*princeps legibus solutus*) المؤخوذة من قانون (*Corpus iuris civilis*). إن ما وضعه المشرعون الرومان لنظام مختلف تماماً ولا يتوافق أبداً مع بنية الإمبراطورية كان يعتبر ثانوياً جداً، في هذه اللحظة حاول بلاط الإمبراطور التشريع لنفسه.

القوانين الإمبراطورية تم الإبلاغ لنا المصطلح العام الفخمة حتـى صراع التعيينات، ولكن وردت لأول مرة في رونكاليا. وتشمل هـذه القائمـة والطـرق العامة، والتعريفات، وإصدار عملة، وجمـع الضرـائب والعقابيـة تعيـين واقالـة المسؤولين. هذه الحقـوق المتأصـلة في سـاعة صراحـة القـانون الرومـاني، مثـل القانون الدستوري، وهذا النظام الآن مرتبطة القانون الإقطاعي، ولعل أبرزهـا تغيـير الانسـحاب مـن خصـومات هـاينريش الأسـد في 1180، والتـي أدت إلى الحرمان الكنسي. فردريك، وذلك لبعض الوقت، تحاول ربط على نحو أوثق مع الامبراطور الدوقات الألمان المتمردين ككل.

كان إنشاء صلح جديد (سلام الأرض) في جميع أنحاء الإمبراطورية حدث دستوري هام آخر في بلدة رونكاليا، فلم يكن ذلك محاولة لإلغاء قوانين الأخذ بالثأر بين الدوقات المحليين فحسب، وإنما أيضاً لربط أتباع الإمبراطور بنظام قضائي ومكافح للجريمة وهو مفهوم لم يكن مقبولاً في كل أنحاء العالم آنذاك.

منذ ذلك الحين، بعد صراع التعيينات، الامبراطور لم يعد يستطيع الاعتماد على الكنيسة على التمسك بالسلطة، وبشكل متزايد شتاوفن فريدريك الأراضي الممنوحة للمسؤولين عن أمله في أن يكون أكثر من المناورة المحلية الدوقات. في البداية استخدمت أساساً للحرب، هذه سوف تشكل الأساس لفئة من فرسان المستقبل، ودعم آخر للامبريالية.

آخر المفهوم المبتكر للمرة كان الأساس المنهجي من المدن الجديدة، من جانب كل ذلك الجزء من الامبراطور المحلية الدوقات. ويعزى ذلك في جزء منه إلى الانفجار من السكان، ولكن أيضاً على ضرورة تركيز السلطة الاقتصادية في مواقع إستراتيجية، وحتى ذلك الحين المدن الوحيدة القائمة هي أساس الرومانية القديمة أو أقدم الأسقفية المواقع. من بين المدن التي تأسست في القرن الثاني عشر فرايبورغ إم برايسغاو، النموذج الاقتصادي لكثير من لاحقة، وميونخ.

اللاحقة للحكم هوهنشتاوفن، فريدريك الثاني، وكان في كثير من وسائل مختلفة من الذين سبقوهم. ولا يزال الطفل في البداية سادت صقلية، بينما في ألمانيا، ابن فريدريك الأول بربروسا، فيليب دوق شوابيا وأوتو الرابع في منافسة معه على لقب ملك ألمانيا. بعد أن توج الامبراطور، 1220، وخطر الصراع مع البابادعت سلطة روما؛ مذهلة حتى بالنسبة للكثيرين، في ظل القدس في الحملة السادسة الصليبية لعام 1228 في الوقت الذي كان لايزال محروماً من قبل البابا.

بينما فريدريك الثاني في الشعبية الأسطورية للفكرة، في وقت واحد يجعل الخطوة الأولى في العملية التي أدت بعد ذلك إلى التفكك. على ناحية التركيز على إقامة دولة في صقلية حديثة للغاية في ذلك الزمن، الخدمات العامة والنظام المالي والنظام القضائي. وعلى الجانب الآخر فيديريكو وكان الامبراطور الذي يمنح القوى الكبرى إلى الألمانية الدوقات في "امتيازين" اثنين لم يكن ممكناً لسلطة المركزية التراجع عنهما. في 1220 فرديريك حد كبير الأساقفة نقل إلى عدد من الامبراطورية الإنسان (الفخمة)، بما في ذلك إنشاء الرسوم والنعناع وقطع نقدية، وإقامة التحصينات. في 1232 توسعت كثيراً هذه الحقوق إلى الأقاليم الأخرى. على الرغم من أن العديد من هذه الامتيازات التي كانت موجودة من قبل، على الأقل أنها لا تمنح بشكل عام ونهائي، للسماح للحفاظ الدوقات من أجل شمال من جبال الألب فريدريك حين يريد التركيز على وطنه، لإيطاليا. في وثيقة مؤرخة في 1232، لأول مرة، ودعا الألمان أصحاب الأرض، وتغيير كبير آخر.

الفصل الرابع عشر

الإمبراطورية والمسيحية

أولاً – موجز عن الامبراطورية الرومانية:

يعتبر قيام الامبراطورية الرومانية أعظم الانجازات السياسية التي تمت في التاريخ، حيث تبدو انتصارات الاسكندر الأكبر وشارلمان ونابليون ضئيلة، بالمقارنة بالبناء المتين الذي أقامه يوليوس قيصر وخليفته أوغسطس. كان يوليوس قيصر، الذي يعتبر من بعض الوجوه أعظم رجل أنجبته روما، هو مؤسس الامبراطورية، كما كان أوغسطس قيصر هو أول الأباطرة العظام. ولكن كانت الامبراطورية الرومانية نتاج عملية طويلة من النمو السياسي والدستوري والاجتماعي، مما يضفي على تاريخ روما أهمية عظمى، فكانت الامبراطورية الرومانية هي الحل الوحيد الممكن لصراع دام نحو سبعمائة عام. فتاريخ روما هو قصة صراع طبقة ضد طبقة أخرى، طبقة النبلاء ضد طبقة عامة الشعب، صراع الأقلية ضد الأكثرية، صراع حكومة الأثرياء ضد جموع الشعب المهملة. إنها قصة المسيرة المنتصرة للديمقراطية، والحكومة الشعبية ضد الحكم المطلق لطبقة النبلاء. فلقد أصر عامة الشعب – رغم كل الفروق الهائلة – على المطالبة بحقوقهم، حتى نالوا أخيراً قدراً من المساواة الاجتماعية والسياسية والقانونية مع سادتهم. ولكن الصراع الطويل أضعف كلا الفريقين حتى لم تعد، لا الأكثرية المناضلة، ولا الأقلية المستبدة، بقادرتين على تحقيق التوازن العادل. فقد انتصرت الديمقراطية في الصراع، لكنها خسرت نفسها واضطرت إلى قبول سيد عام على رأس الأرستقراطية. ولم يكن الأمر قليل الأهمية بالنسبة

للمسيحية، فقد كانت الامبراطورية الرومانية تخطو عملياً – لأسباب داخلية وأخرى خارجية – نحو حكومة الرجل الواحد، وهو المقابل السياسي للديانة الشاملة التي تنادي "بالله الواحد والمخلص الواحد".

ثانياً – الامبراطورية الرومانية تمهد للمسيحية:

حوالي منتصف فترة حكم أوغسطس قيصر، وُلد طفل يهودي، كان من المقرر أن يملك على إمبراطورية أكبر إتساعاً، وأطول بقاء من إمبراطورية القياصرة. إنها لحقيقة مذهلة أن يتواكب – تقريباً – قيام الإمبراطورية الرومانية مع ظهور المسيحية. ومع أنه يبدو للنظرة السطحية، أن الامبراطورية الرومانية بدت كأكبر عدو للمسيحية في عهدها الأول، بل وكانت في بعض الأحيان أعتى مضطهد لها، إلا أن الامبراطورية الرومانية كانت – من وجوه كثيرة – أعظم تمهيد للمسيحية، بل – وفي بعض الجوانب – أفضل حليف لها، فقد كانت الامبراطورية – من وجهة النظر السياسية – إعلاناً بحلول "ملء الأزمنة" فإن القياصرة – مهما كانوا، ومهما فعلوا – قد أعدوا الطريق للرب. ولا بد أن نقدم هنا موجزاً لبعض الخدمات التي قدمتها الامبراطورية الرومانية للبشرية بعامة، ولملكوت الله بخاصة.

1. السلام الروماني وتوحيد العالم:

كانت أول خدمة أدتها الامبراطورية الرومانية للعالم هي استتباب الأمن والسلام، فلم يكن في العالم سلام منذ أيام الاسكندر الأكبر، بل كانت الصراعات الداخلية والغزوات الخارجية سبباً في استمرار حالة من الغليان، وتم ارساء أسس السلام العالمي عندما أمسك أوغسطس قيصر بزمام الحكم، فاستقرت الأحوال في بلاد الامبراطورية من بريطانيا شمالاً إلى نهر الفرات

شرقاً. لقد وضعت روما نهاية لحروبها الأهلية، كما أوقفت جميع الحروب بين شعوبها، ورغم أن حروبها كانت في بعض الأحيان جائرة وبلا مبرر، كما تصرفت في بعض غزواتها تصرف البرابرة، إلا أنها كانت تحكم الشعوب التي أخضعتها حكماً يتميز بروح إنسانية. انتهت الصراعات الداخلية التي سببت الكثير من الغليان في الشرق، فأصبحت كل مناطق أسيا الصغرى وبلاد الشرق الأوسط خاضعة لروما، وهكذا وحدت الامبراطورية الشعوب اليونانية والرومانية واليهودية تحت حكم واحد، ومزجت هذه الشعوب معاً وأعدتهم للمسيحية، حيث أمكن آنذاك فقط ، الحديث عن العالم كوحدة : "كل المسكونة" (لو 2 : 1) التي تحكمها حكومة واحدة، فقد صار الجميع أعضاء في دولة عالمية واحدة، هي الامبراطورية الرومانية التي تظلل الجميع بشعار النسر الروماني.

2. **العالمية والتحرر من القيود القومية:**

لقد ساهمت الأوضاع الجديدة في التحرر من القيود القومية، ذلك التحرر الذي بدأ بفتوحات القائد المقدوني، فقد زالت – تحت علم الإمبراطورية الرومانية– كل الحواجز القومية، وصارت المدن الكبرى – مثل روما والاسكندرية وأنطاكية وغيرها - أماكن التقاء لكل الأجناس واللغات. فقد حمل الرومان – أينما توجهوا – قوانينهم وحضارتهم، كما استقر الإغريق بالآلآف في كل المراكز الهامة كأساتذة بالآلاف وتجار وأطباء ورياضيين. كما نزحت أعداد ضخمة من أهل الشرق ومعهم آلهتهم وأسرارهم إلى روما التي أصبحت صورة مصغرة للعالم. وأصبح الجنود – في الجيوش الرومانية، من كل أركان الامبراطورية – رفقاء سلاح وأصدقاء. كما أسهم الآلاف من العبيد

من ذوي التعليم والثقافة الرفيعة، في حركة التحرر؛ لأنهم في كثير من الأحـوال كانوا أرفع ثقافة من سادتهم، فأصبحوا لهم معلمين. كما أنه في كـل مدينـة هامـة -شرقاً أو غرباً- استقرت جماعات كبيرة من شتات اليهود.

3. انتقاء الأفضل (Electicism):

كانت هذه العالمية دافعاً كبيراً لتغير أفضل الأفكـار، ولم يكـن ثمـة شـئ أفضل للمسيحية من هذا الانصهار بين جميع الأجناس، وتبـادل الأفكـار. فقـد اكتشف كل شعب الأشياء التي يشترك فيها مع جيرانه. ومنذ القرن الثالث قبـل الميلاد، والرواقيون ينادون ببشـارة الأخـوة المدنيـة والأدبيـة بـين كـل البشـــر. وبإنصهار النظم الفلسفية المختلفة، انتقل الاهتمام بـالنظرة القوميـة إلى الاهـتمام بالنظرة الأخلاقية والأدبية والإنسانية، وهكذا أصـبح الجميـع متسـاويين أمـام "الواحد"، ولم يعد ثمة فرق إلا من جهـة الفضـيلة والرذيلـة، واقـترب النـاس إلى "الإله" الحكيم الصالح، حتى قال أحد الشعراء: "إننا ذريته".

كما عمل شـتات اليهـود عـلى إعـداد الفكـر في الامبراطوريـة الرومانيـة للمسيحية، فقد تعلَّم اليونانيون مـن اليهـود، واليهـود مـن اليونـانيون، وتعلَّـم الرومانيون من كليهما. كما ساعد القـانون الرومـاني، والادارة الرومانيـة شـتات اليهود مساعدة كبيرة، وازداد عدد المستوطنات اليهودية واكتسـبت قـوة في كـلا القسمين الشرقي والغربي، من الامبراطورية. وقد أتى اليهود من بلادهم بعبـادة الإله الواحد ممتزجة بالفلسفة اليونانية التـي كانـت تسـير فعـلاً نحـو عبـادة الله الواحد، وهكذا كانت الطقوس الوثنية آخذه في الأفول.

لقد تكلم اليهود بلغة العالم في ذلك العصر، وهي اليونانية، وترجموا أسفارهم المقدسة إلى اليونانية، وبها كسبوا الكثير من الدخلاء. وكانت الروح الرومانية في البداية ضعيفة، ولكن سرعان ما انضوى الرومانيون تحت هذا الاتجاه العالمي واختيار الأفضل. وبإزدياد فتوحاتهم اتسعت عقولهم، واعتنقوا سياسة الاسكندر في الاحتفاظ بآلهة الشعوب المهزومة، وجعلوها تحت حماية روما، وضموها إلى مجتمع آلهتهم. وبهذه الطريقة كان من الطبيعي أن تسيطر الأفكار الوثنية للشعوب المهزومة –وقد كانوا أكثر ثقافة وأعرق حضاره– على عقول الرومانيون.

4. **حماية الثقافة اليونانية:**

كانت الخدمة الجليلة الأخرى التي أسدتها السلطات الرومانية للبشرية وللمسيحية، هي الحماية التي أضفتها روما على تراث الحضارة اليونانية. ويجب أن نذكر أن الرومانيين لم يكونوا في الأصل إلا قبائل متبربرة غازية لا تعني كثيراً بالثقافة، بل كانت القوة هي مثلهم الأعلى. وكانوا قد قضوا بالفعل على حضارتين عريقتين رفيعتين، هما: حضارة قرطاجنة في شمال أفريقية، دون أن يتركوا لها أثرًا – وحضارة " إترووريا " (*Etruria*) في إيطاليا التي اكتشفت– في الأزمنة الحديثة – بعض أثارها وبقاياها. ومن الصعب إدراك ما كان يمكن لروما الجبارة أن تفعله بالعالم، لو لم تقع تحت تأثير ثقافة اليونان الراقية وفلسفتهم الرفيعة. ولو أن إله الحرب الروماني "مارس" لم تهذبه الحكمة الإغريقية "بالاس أثينا" (*Pallas Athene*) لفعل ما فعله الوندال والتتار من القضاء على الحضارة الإنسانية، ووقف تقدم البشرية. أما الإغريق –من جهة أخرى– فقد أمكنهم أن يغزوا، عن طريق التفوق في كل شئ مرتبط

بالحياة العقلية للإنسان، أكثر من قدرتهم على الغزو بالسيف. وكان الفكر اليوناني في حاجة إلى قوة عملية وسياسية لحمايته. فالرومانيون بعد أن تسببوا – في البداية– في الكثير من الخراب، تعلَّموا شيئاً فشيئاً، وتحضروا وأسهموا في ازدهار الحضارات التالية، بأن حفظوا وكشفوا للعالم كل الخصائص الروحية للإغريق، وأخذت صلة الإنسان بالاله – التي عرفوها من سقراط وأفلاطون – تنتشر إلى أوسع مدى. وقد استفاد الكثيرون من عظماء اللاهوتيين وقادة الكنيسة المسيحية، من حضارة الاغريق، وفلسفاتهم وعلومهم اللاهوتية، حتى قال أكليمندس السكندري إن الفلسفة اليونانية والشريعة اليهودية، كانتا المعلم الذي أتى بالعالم إلى المسيح. كما أن الرسول بولس – الذي خرج بالمسيحية من البقاء حبيسة الحظيرة اليهودية، ونادى بشمولها لكل الناس– تعلَّم الكثير من الفكر اليوناني وبخاصة من الرواقيين. ومما يسترعي الالتفات أن الإرساليات المسيحية الأولى ذهبت فقط إلى الشعوب التي تتكلم اليونانية، وهو ما كان واقعاً في كل مراكز الامبراطورية الرومانية.

5. **اللغة**:

كانت الأحوال في الامبراطورية الرومانية من جهة اللغة على أفضل ما يكون لنشر المسيحية. وقد أمكن للجمهوريات اليونانية – بأعمالها ومشروعاتها وعبقريتها الرائعة وامكاناتها التجارية – أن تنشر لهجاتها اليونانية في كل جزر بحر إيجة وسواحل أسيا الصغرى وصقلية وكل الأقاليم اليونانية. ومن هذا الكم الكبير من اللهجات اليونانية، نشأت أخيراً لغة يونانية عامة (*Koine*). ومع انتصارات الاسكندر الأكبر أصبحت هذه اللغة الاغريقية هي اللغة الشائعة فكانت معروفة في شمالي الهند وفي بلاط فارس، وعلى سواحل

البحر الأسود البعيدة علاوة على البلاد المحيطة بالبحر المتوسط، فكـان المـوطن الأصلي للإنجيل (بلاد اليهودية) محاطاً مـن كـل الجهـات بالحضـارة اليونانيـة. بل قد تغلغلت الثقافة اليونانية واللغة اليونانية في وسط يهود فلسـطين العنيـدين والمحافظين على هويتهم. ورغم أن اليونانيـة لم تكـن هـي اللغـة الأصـلية لربنـا يسوع المسيح، إلا أنه على ما يبدو لنا، كـان يعرفهـا ويتحـدث بهـا متـى اضـطر إلى ذلك، أما لغته التي كان يتكلم ويعلّـم بهـا فكانـت الأراميـة. وتـاريخ صراع المكابيين يقدم لنا دليلاً قوياً على مدى انتشـار الثقافـة اليونانيـة واللغـة اليونانيـة بين اليهود. وفى الأيام الأخـيرة لأورشـليم ذاتهـا، كـان فيهـا جماعـات هيلينيـة من يهود أتقياء، وكانت اليونانية لغة عالمية عند اليهـود أنفسـهم. وكـان الـنقش المكتوب على جدار الساحة الخارجية للهيكل لتحـذير الأمـم – تحـت التهديـد بعقوبة القتل – مكتوباً باللغة اليونانية.

وأصبحت اللغة اليونانية (*Koine*) هي اللغة الشائعة بين شتات اليهـود، فقد أدرك اليهود مزايا اللغة اليونانية كلغة للتجارة – التـي هـي وظيفـة اليهـود الرئيسية – وللثقافة ولإكتساب دخلاء. وقد نشروا الأسـفار المقدسـة بالترجمـة السبعينية في العالمين اليوناني والروماني. وعندما ظهر الرومانيون، وجـدوا هـذه اللغة معروفة جداً وواسعة الإنتشار ومتأصـلة الجـذور، فلـم يـأملوا في إحـلال لغتهم محلها، بـل لم يحـاولوا ذلـك ، في الحقيقـة إلا في صـقلية وجنـوبي إيطاليـا، وبالتدريج رحبوا بها واستخدموها وسـيلة للاتصـال بـين الشـعوب في المنـاطق الشرقية الخاضعة لهم.

ومـع أن اللاتينيـة كانـت – بـالطبع – لغـة الغـزاة الرسـمية، فقـد كـان الحكام – بعامة – يصدرون أحكامهم وقراراتهم باللغة اللاتينية ومعها ترجمتهـا باليونانية حتى يقدر الشعب أن يفهمها. وكثـيراً مـا شـكا الشـعراء والمؤرخـون اللاتينيون من أن اليونانية قد تغلبت على لغة الرومـانيين المنتصـرين. وبإنتشـار اللاتينية أصبحت هناك لغتان عالميتان جنباً إلى جنب في كل أقطار الامبراطوريـة الرومانية، ولكن كانت اللغة اليونانية هي اللغـة السـائدة في النصـف الشـرقي من الامبراطورية، وهو الذي كان التربة الأولى التـي أنتشـرت فيهـا المسـيحية. وعندما مدت المسيحية نشاطها إلى الغرب، وجدت في اللاتينيـة وسـيلة جـاهزة للتفاهم والاتصال. واحترام الرومان للغة اليونانية أمر يدعو للتقدير، فقـد كـان ذلك لفائدة المسيحية، لأنها عندما بدأت تتجه نحو العالم تخلت عـن الأراميـة – لغتها الأصـلية – لكـي يصـبح الإنجيـل إنجـيلاً للعـالم كلـه، تمـت ترجمتـه إلى اليونانية، ولم يضطر المبشرون المسيحيون الأوائل إلى تعلم لغـات أو ألسـنة، بـل كفتهم اليونانية تلك المشقة. وقد كتـب الرسـول بـولس باليونانيـة إلى الكنيسـة في روما ذاتها، فقد كانت اليونانية شـائعة فيهـا. وبيـنما كانـت المسـيحية تنتشـر في الشرق اليوناني الـذي ربطـت بـين أجزائـه الادارة الرومانيـة، كـان الرومـان يمهدون الطريق إلى الغرب ويعدونه للمسيحية.

6. **الأحوال في الامبراطورية** :

لقد فتحت الامبراطورية الرومانية أمام المسـيحية الطـرق الكـبرى التـي سار فيها الرسل والمبشرون. فشبكة الطـرق العظيمـة التـي كانـت تـربط العـالم المتحضر آنذاك، لم تخدم الجيـوش الرومانيـة والحـرس الامبراطـوري فحسـب، بل أدت نفس الخدمة للارساليات التبشيرية الأولى. وعندما بدأت الكنائس تنشأ

في كل جهات الامبراطورية، سهَّلت هذه الطرق تنظيم الكنائس والاتصالات فيما بينها، مما دعم الكنيسة وجعلها تتغلب أخيراً على الامبراطورية ذاتها. وعندما استتب السلام في ربوع الامبراطورية، ازدحمت كل هذه الطرق بحشود من القوافل والتجار، فانتعشت التجارة تحت ظروف أفضل من قبل، ولم يتبادل الناس الأشياء المادية فحسب، بل والأشياء الروحية أيضاً. وكان الكثيرون من التجار والصناع من المسيحيين، وبينما كانوا يبيعون ويشترون الأشياء الفانية، لم تفتهم الفرصة لنشر الإنجيل. وكان البحر – بالنسبة لامبراطورية تحتضن كل شواطئ البحر المتوسط – وسيلة هامة للاتصال، بعد أن أصبحت طرق التجارة البحرية في البحر المتوسط أكثر أماناً عنها في أي فترة سابقة، فقد طرد "بومبي الكبير" القراصنة من البحر، وعند سقوط سكتوس بومبي لم يكن ثمة قوة بحرية معادية. وقد أدت السفن التي كانت تروح وتجيء، بأعداد لا حصر لها في ذلك البحر الروماني – خدمات رائعة وفرصاً عظيمة للخدمات التبشيرية المسيحية الأولى .

7. التسامح:

كان للقدر الكبير من الحرية الذي سمحت به السلطات الرومانية لمختلف الديانات ، فضل في نمو المسيحية الوليدة . فلم يكن من سياسة الامبراطورية –في بداية الأمر – اضطهاد الديانات، أو إنشاء محاكم تفتيش. وقد ازدهرت عبادات غريبة كثيرة، وافدة من الشرق ومن مصر، في العاصمة. وما لم تصبح هذه العبادات خطراً على الفضيلة العامة أو على سلام المجتمع، فإنه كان مسموحاً لها بالانتشار دون مساءلة، بل وتحت أعين الشرطة.

8. النموذج لكنيسة جامعة :

بالإضافة إلى ذلك ، فإن الامبراطورية الرومانية قد قدمت للمسيحية صورة ظاهرة للطموح الروحي ، فوسعت الرؤية أمام الكنيسة. فكان في إمكان بولس– كمواطن في امبراطورية عالمية – أن يحلم بديانة تضم كل البشرية، فإن كان سيف الرومان قد استطاع أن ينتصر ويوحِّد كل المسكونة ، فيجب على الكنيسة المجاهدة ألا يكون سعيها في الدائرة الروحية، بأقل من ذلك. كما استمد منها المسئولون الأوائل الكثير من الأفكار في تنظيم المجتمع الجديد، حتى صارت الكنيسة المسيحية – فيما بعد – صورة من الامبراطورية الرومانية. وقد استخدم المسيحيون الكثير من أسلحة العدو، وتعلموا منه أساليب الهجوم، والدفاع، وقيمة التنظيم الشامل.

9. التشريع الروماني:

تميز القانون الروماني في أصوله بأضيق الاستثناءات. وقد صيغ أول قانون روماني رسمي حسب الأنماط اليونانية، إلا أن الرومان – هنا كما في أمور أخرى كثيرة – طوَّروا ما استعاروه وصاروا أساتذة التشريع في العالم القديم. ومع اتساع امبراطوريتهم ومفاهيمهم، أعادوا صياغة قوانينهم لتطبق على كل رعاياهم. وكان من أعظم الخدمات التي أسدتها الإمبراطورية الرومانية للعالم القديم هي النظام المتناسق لقوانين صالحة، حتى صارت مصدراً لمعظم القوانين في العالم الحاضر. وقد لعب القانون الروماني دوراً يضارع في الأهمية دور الشريعة اليهودية، في صياغة النظم المسيحية. فقد علَّم الناس الطاعة واحترام السلطات، وبرهن على أنه قوة فعالة للتحضر والمساواة في أرجاء الإمبرطورية.

10 . **التمهيد سلبياً:**

قدمت روما لرعاياها قوانين ممتازة وحكومة نظامية، وحماية عسكرية، ولكنها لم تقدم لهم ديانة مقنعة، وكانت الامبراطورية العالمية في حاجة إلى ديانة عالمية لم تجدها إلا في المسيحية. وهكذا ليس فقط بما أمكن للرومانيين أن يتمموه، بل بما لم يتمموه أيضاً صار الطريق ممهداً أمام الرب، وأصبح الشعب مهيأ لمجيئه. لقد أثبتت الديانات القومية القديمة أنها غير قادرة على اشباع الحاجات المتزايدة لطبيعة الإنسان روحياً وأدبياً، وكان الإفلاس الأدبي بارزاً. لقد انحدرت الديانة الرومانية القديمة من فضائل مجردة إلى مجرد شكليات ولم يعد الإنسان يجد في ديانة الدولة مجالاً لنشاطه الروحي. فهو لم يعد مجرد ذرة في المجتمع، يقوم بطقوس دينية، ليست لصالح روحه، بل لصالح المجتمع. وكانت شخصية الفرد آخذة في البروز ببطء، كما دعت المدارس الفلسفية الجديدة الإنسان للبحث عن السلام مع الله – بعيداً عن الدولة – في عزلة بنفسه قبل كل شئ . إلا أنه حتى أفضل تلك المدارس وجدت أن الحاجة ملحة وصارخة إلى ديانة إيجابية، لا سلبية. الحاجة ماسة إلى حياة مثالية كاملة حية متحركة، فوق حياة البشر العادية. وهكذا أحس الناس بشديد الحاجة إلى إعلان جديد، إلى رؤية جديدة أو إلى معرفة صحيحة بالله. وأعتقد الناس في الأيام الغابرة أن الله قد أعلن ذاته للأولين من الحكماء أو الأبطال من أسلافهم، لذلك يجب على الأجيال التالية أن تقبل بالإيمان ما نادى به أولئك الراءون الأولون الذين كانوا أقرب إلى الله – كما قال شيشرون –ولكن سرعان ما نفذ هذا الكم من المعرفة، فإن أفلاطون بعد أن حلَّق إلى الذروة في الفكر الفلسفي والشعري

عن الإله، اعترف بالحاجة إلى شيطان أو إنسان خارق للعادة (سوبر مان) ليفضي إلينا بأسرار الأبدية.

وفي بداية عصر الامبراطورية الرومانية بدأت فترة من القلق والاضطراب الديني واسع المدى، وحاول الناس أن يجدوا لهم في الفلسفة والسحر والتنجيم والطقوس الغريبة، مكاناً اميناً يستريحون إليه. وكان هذا سبب الانتشار السريع المكثف للأسرار الشرقية التي وعدت العلاقة المبتدئة مع الله هنا، برجاء أفضل عند الموت، وأرضت الرغبة الملحة في الخلود في نهاية الزمان. وكانت هذه هي النفوس الجادة المستعدة لإستقبال الأخبار الطيبة عن يسوع بفرح، أما الآخرون فكانوا قد فقدوا كل إيمان بجميع أشكال الدين، وأسلموا أنفسهم ليأس قاتل واعتنقوا الأبيقورية التي كانت تبشر بالفناء والانتهازية. كان لهذا النمط من التفكير سحر رهيب على من أوصلهم اليأس إلى حالة من الضياع. ونرى ذلك بصورة قوية في شعر لو كريتيوس (*Lucretius*) أي عمر الخيام في الأدب اللاتيني – وآخرين غيره، فإذ لم يقدروا أن يجدوا الله أسلموا أنفسهم لفلسفة الشك القاتلة. وتتأكد الحاجة الماسة إلى إنجيل جديد للحياة والخلود، من قراءة النقوش اليونانية والرومانية المنقوشة على القبور في ذلك العصر. بل إن "سينكا" – الذي كاد أن يكون مسيحياً في بعض النواحي – تحدث عن الخلود "كحلم جميل". ولم يكن لدى "سيرفيوس سولبيشيوس" (*Servius Sulpicious*)، وهو يكتب رسالة لشيشرون لتعزيته في موت "توليا" (*Tullia*) التي افتقدها كثيراً، إلا كلمة "لو" في حديثه عن المستقبل. ويقترح قيصر – الذي كان يشغل رئاسة الكهنوت، والذي يمثل أعلى سلطة دينية في الدولة– أن يكون السجن مدى الحياة هو عقاب المجرمين الأوغاد حيث أن الإعدام

سيعني الفناء ومن ثم الراحة لهم . ويتحدث كاتو – أكثر رجال جيله تديناً وورعاً – بكلمات لا تلقي أى لوم على إبيقورية قيصر وماديته. أما شيشرون فقد اكتفى بأن يترك موضوع الخلود بلا حل. لقد سخر فلاسفة أثينا من الرسول بولس عندما تحدث في أريوس باغوس عن القيامة. كان هذا هو سلوك الطبقات المثقفة في العالم اليوناني الروماني في فجر المسيحية، ولكن كانت هناك – بلا شك– رغبة قوية في الوجود المستمر. وكانت الطبقات الأخرى تمارس طقوس ديانات قومية ميتة بطريقة آلية، وكان البعض يبحثون عن الإثارة وعن مجالات لإشباع أهوائهم الدنيا. كما كان البعض الآخر يبحثون عن السلام والأمل في المستقبل في أسرار الديانات الشرقية. كان قد بدأ ظهور التمييز بين الشر الأدبي والمادي، ومن ثم إدراك الخطية، فلم تكن الديانة والأخلاق قد اتحدتا من قبل، وكان "عرش عقل الإنسان" شاغراً. وكانت المسيحية الوشيكة هي أفضل من يشغله. كان الفكر اليوناني الروماني آخذاً في الإتساع ليتلقى تعاليم يسوع النقية.

ثالثاً – موقف الامبراطورية الرومانية من الديانات:

أ- <u>الديانة الرومانية أو ديانة الدولة</u> :

يكشف تاريخ الديانة الرومانية عن تغلغل العبادات والطقوس الأترورية واليونانية والمصرية والشرقية، حتى لم يعد ممكناً التعرف على الديانة الرومانية القديمة، بل لم يمكن لدارسي التاريخ القديم أن يكتشفوا حقيقة العديد من الآلهة الرومانية. فقد ظلت أنماط العبادة الرومانية وطقوسها، تتراجع باضطراد حتى أخلت السبيل – مع غيرها من الطقوس الغريبة الأخرى التي غلبت عليها – أمام قوة المسيحية. وباتساع الدولة الرومانية زادت مطالبها

الدينية. وفي فترة الحكم الملكي كانت ديانة روما هي ديانة مجتمع زراعي بسيط. وفيما بين الحكم الملكي والحرب البونية الثانية، أصبحت ديانة روما أكثر تعقيداً وزاد عدد الآلهة كثيراً بما ورد من سائر الأقاليم الإيطالية والعالم اليوناني. فقد تأثر الفكر الروماني في البداية بأسرار ديانة إتروريا الغامضة، ولعله من هنا جاء ثلاثي الكابيتول (جوبيتر – جونو – منيرفا) الذي سبق أن دخل إلى إتروريا من مصادر يونانية مما يدل على أن الرومان لم يكونوا أول من تأثر في إيطاليا بديانة اليونان. أما المستعمرات الإغريقية في جنوبي إيطاليا فقد كانت سخية في مساهماتها، ففتحت الطريق أمام الغزو التالي لآلهة اليونان. وكانت الكتب السيبليانية (*Sibyllain*) قد نقلها الرومان في زمن مبكر جداً عن الكوميين (*Cumae*) لتصبح أسفاراً مقدسة عند الرومان.

وفي 493 ق . م. – في أثناء مجاعة – تم بناء معبد لثلاثي الآلهة اليونانية (ديمتر وديونيسيوس و برسيفون) بأسماء لاتينية هي " سيرس (*Ceres*)، وليبر (*Liber*)، وليبرا (*Libera*) كبداية لإنعدام الثقة في الآلهة الرومانية القديمة، وهو الأمر الذي تكرر كثيراً في التاريخ الروماني، بإدخال آلهة جديدة أجنبية في أوقات الشدة. وفي 433 ق . م . جاء "أبولو" من نفس المصدر ، وتبعه مركوري (عطارد) ثم أسكليبيوس (*Asclepius*) في 293 ق . م .

وفي 249 ق . م . ظهرت عبادة ديس (*Dis*) وبروسربينا (*Proserpina*) من ترنتو (*Tarentum*). كما تم إدخال أنماط أخرى من العبادات والمعبودات غير الرومانية. لقد كانت روما في ذلك العصر، واسعة الأفق في سياستها لمواجهة الاحتياجات الدينية المتزايدة للمجتمع. إلا أنها لم تكن تسمح بذلك خارج إيطاليا، كما تطور الذوق نحو الأشكال الجمالية

والدرامية للعبادة. وكانت فترة الحرب البونية الثانية فترة حرجة في الحياة الدينية الرومانية فترنحت العقائد الدينية أمام عدم الإيمان المتزايد، فتخلت الطبقات المثقفة – بل والرعاع أيضاً – عن الديانة الرومانية القديمة، فغرق المثقفون في مذهب الشك، بينما مال الرعاع إلى الخرافات، فوضع المثقفون الفلسفة محل الدين، أما الرعاع فأحلوا العبادات الحسية الشرقية محل الدين. وذهب الرومان مرة أخرى إلى البلاد الأخرى ليستعيروا لهم آلهة، فذهبوا هذه المرة إلى اليونان ومصر وأسيا، وأدخلوا جميع الآلهة اليونانية ، وسرعان ما جمعوا بينها وبين الآلهة الرومانية، فقد دخل هيبي (*Hebe*) في 191 ق . م . باسم جوفنتاس (*Juventas*). وفي 179 ق . م. دخلت أرطاميس باسم ديانا. وفي 138 ق . م. دخل أريز (إله الحرب) على أنه مارس(*Mars* – المريخ) .

إلا أن الشرق – موطن الديانات – أثبت أنه أكثر نفعاً. ففي 204 ق . م. أدخل الرومان سيبيل (*Cybele*) من بسينوس (*Pessinu*) إلى روما وعرفوها باسم "الأم العظيمة"، وكانت تلك ضربة قاضية للديانة الرومانية القديمة، كما كانت دافعاً إلى إدخال العبادات الحسية العربيدة الغامضة التي أسرت عقول العامة. وسرعان ما جاء "باكوس" (إله الخمر) برذائله. وأدخل "سولا" (*Sulla*) عبادة "ما"(*Ma*) من فريجية بديلاً للآلهة "بلونا" (*Bellona*) كما أخذوا من مصر "إيزيس". وفي حروب بومبي ضد القراصنة، دخلت "مترا" (*Mithra*) إلى روما فكانت أعظم منافس للمسيحية. وبدأت الديانة تؤول إلى أيدي السياسيين، حتى صارت في أواخر أيام الجمهورية في أيدي رجال السياسة. وانحدرت العبادة إلى الشكلية، وتفاقمت الشكلية إلى الكف عن العبادة.

وفي ظل الامبراطورية أخذت الأنظمة الفلسفية تحل محل الديانة وانتشرت الطقوس الشرقية. وكانت النهضة الدينية في أيام أوغسطس قيصر مجرد محاولة لنفخ الحياة في العظام اليابسة. وكانت خطته دينية من ناحية، وسياسية من الناحية الأخرى، لإقامة ديانة شعبية إمبراطورية يكون هو رأسها، وتدور حول شخصه. فقد اكتشف ضرورة وجود ديانة امبراطورية. فقد كان الملوك في الشرق – منذ أمد بعيد – يعتبرون آلهة لدى رعاياهم. وقد أراد الاسكندر الأكبر – كسياسي حكيم – أن يستخدم هذا الأمر كرابطة اتحاد لدولته الواسعة . كما انتشرت نفس العادة لدى خلفائه في الشرق وبخاصة في مصر وسورية. وعندما استتب السلام في عهد أوغسطس قيصر في العالم، كان الشرق على استعداد أن يعتبره إلهًا. ومن ذلك نشأت عبادة الأباطرة، أو عبادة روما متجسدة فيهم. وقد أدت هذه العبادة إلى الوحدة الدينية في الإمبراطورية، وفي نفس الوقت أدت إلى تفخيم الامبراطور. إلا أن كل هذا الجهد ذهب هباء، فقد ماتت الديانة الرومانية القديمة، وظلت الحاجات الدينية في الإمبراطورية تجد شبعها في الفلسفة والأسرار التي كانت تتضمن الأمل في الخلود. وسرعان ما فقدت عبادة شخص الإمبراطور أيضاً قوتها، حتى إن "فسباسيان" تهكم – وهو على فراش الموت – على فكرة صيرورته إلهاً. وهكذا أخذت عبادة الإمبراطور في الاضمحلال باضطراد.

ب- الديانات المرخص بها ، والديانات غير المرخص بها :

انقسمت الديانات غير الرومانية إلى ديانات أخرى مرخص بها وديانات غير مرخص بها، ففي أوقات مختلفة بسبب حدوث كوارث من زلازل أو أوبئة أو مجاعات أو غيرها، كان الرومان يلجأون الى إدخال عبادات غير رومانية

كوسيلة لاسترضاء الآلهة. وكان معنى هذا أن تلك العبادات يمكن لأتباعها الأجانب ممارستها دون التعرض للعقاب. وهكذا أصبح مصرحاً لأي شعب يقيم في روما، بحرية إقامة عبادته الأصلية طالما كان ذلك لا يتعارض مع سلام الدولة، أو كان يفسد أخلاقيات المجتمع. إلا أنه في 186 ق . م . صدر قرار من مجلس الشيوخ بإجراء تحقيق صارم حول الطقوس الخاصة بعبادة الإله "باكوس" التي نشرت الانحلال الأخلاقي بين أتباعه. إلا أن روما لم تمارس مطلقاً الاضطهاد بانتظام. وكانت الطقوس الأجنبية والخزعبلات الغريبة، رغم تحريمها وطرد أتباعها من المدينة في بعض الأحيان، تعود دائماً أقوى مما كانت. ويجب ألا يفوتنا القول أن العناصر الأخلاقية الأصلية قد سقطت عن الديانة الرومانية، فأصبحت مجرد ديانة عسكرية وسياسية. لخير الدولة، وليس لخلاص الأفراد. وكان على الفرد أن يلتزم القيام بطقوس مرسومة معينة ليجنب الدولة المتاعب. ولم تكن الدولة تطلب أكثر من ذلك. بل تترك للفرد قدراً كبيراً من الحرية في البحث عن الاثارة أو متعة الجمال في دفء الأسرار الأجنبية. وهكذا بينما كان الرومان يميزون بين الديانات المرخص بها وغير المرخص بها، إلا أنهم نادراً ما استخدموا العنف ضد الديانات غير المرخص بها، فلم يتعرض الكثير من الديانات غير المرخص بها للإنزعاج، بل إن فكرة الامبراطورية – في صميمها – جعلت من التسامح مع الديانات غير الرومانية أمراً ضرورياً، وقد تنازلت الدولة – عملياً، لا نظرياً – عن فكرة الديانات غير المرخص بها، لكنها احتفظت بها في سجل القوانين لاستخدام ذلك في أحوال طارئة، مثل ما حدث مع الديانة المسيحية، ولم تكن الحكومة وحدها هي المتسامحة. بل كانت الأشكال المختلفة للديانات متسامحة فيما بينها، وعلى علاقات طيبة مع بعضها البعض، فكان يسمح لشخص ما بالعضوية في أسرار عبادة عدة آلهة، وفي نفس

الوقت يمكن أن يكون كاهناً لإلهين أو أكثر، فلم يكن هناك أدنى اعتراض على عبادة المسيح مع ميترا وايزيس وأدونيس، وكان ادراك الناس لوحدة الإله يتزايد، ويعطون لجيرانهم الحق في عبادة الإله الواحد المجهول، تحت أسماء مختلفة وأشكال متباينة. ويقال أن "هادريان" قد سمح بإقامة معابد في كل الامبراطورية "للإله المجهول".

1. اليهودية ديانة مصرح بها:

وتعتبر اليهودية – بالنسبة لتاريخ المسيحية – مثالاً هاماً للديانة المصرح بها. ومع أنه لم يوجد شعب منعزل أو عنيد أكثر من اليهود، إلا أنهم مع ذلك ومنحوا ذلك الحق. فمنذ أيام يوليوس قيصر كانت السياسة الامبراطورية نحو اليهود ودياناتهم متسامحة تماماً ، باستثناء المحاولة المجنونة في أيام "غايوس" (*Gauis*) التي لم تدم طويلاً. وكثيراً ما حمتهم الحكومة من كراهية الرعاع لهم. وكان مسموحاً لهم – حتى 70 م – بحرية ارسال مساهمتهم السنوية للهيكل في أورشليم، بل وسمحت لهم بامتيازات حكم ذاتي وسلطات تشريعية خاصة بهم. وهكذا شكلوا جماعة منعزلة متميزة في وسط المجتمع الروماني. بل أن الحرب المشئومة (68 – 70 م) وسقوط أورشليم، لم يسفرا عن اضطهاد اليهود رغم أن الرومان سحبوا معظم سلطات الحكم الذاتي والتشريع الذاتي، وأجبروا اليهود على دفع ضريبة عن كل بالغ لمعبد الكابيتول للإله "جوبيتر"، ولكنهم ظلوا يسمحون بالعبادة اليهودية ويحمونها، بل أعفوهم من الواجبات التي لا تتفق مع ديانتهم مثل تأدية الخدمة العسكرية. وكان هذا التسامح نحو الديانة اليهودية، بالغ الأهمية بالنسبة للمسيحية الوليدة التي كانوا يعتبرونها نوعا مصلحاً من الديانة اليهودية.

2. لماذا حرمت المسيحية وحدها:

وهنا يبرز السؤال: إن كانت هـذه هـي السياسـة العامـة للامبراطوريـة، من الاعتدال والتسامح و إفساح المجال أمام كـل الآلهـة والعبـادات، واحـترام معتقدات كل شعوب الامبراطورية. فكيف يحدث هذا الأمر الاستثنائي بتحريم المسيحية وحدها واضطهادها؟

لقد كانت المسيحية – في الحقيقة – ديانة غير مرخص بها، ولم تسمح بهـا الحكومة كما سمحت باليهودية، ولكن ليست هذه إجابـة السـؤال، فقـد كانـت هناك ديانات أخرى غير مـرخص بهـا، ونمـت بســرعة في الامبراطوريـة، كـما لم يكن التحريم لأن المسيحية كانت تهاجم الخطأ وتكسب دخلاء، وجرؤت على الظهور حتى في "بيت قيصرـ"، فقـد كانـت عبـادة "ميـترا" وعبـادة "ايـزيس" تهاجمان غيرهما من العبادات، ومع هذا تسامحت معهما رومـا. كـما لم يكـن ذلـك بسبب كراهية الشعب، لأن الشعب لم يكن يكره المسيحيين أكثر مما يكره اليهود، فلا بد أنه كانت هناك أسباب أخرى.

3. امبراطوريتان:

لقد وُلدت امبراطوريتان في نفس الوقت تقريبـا تشـابهتا جـداً واختلفتـا جداً حتى أصبح لا بد من نشوب الصراع بينهما حتى الموت. فكـان المسـيحيون يؤكدون أن المجتمع الذي ينتظرونـه ويعملـون مـن أجلـه هـو "ملكـوت" أي مملكة، **كان لا بد من الصراع للأسباب الآتية:**

أ - الخلط بين الروحي والزمني:

لم يفكر المسيحيون على أساس قـومي أو عنصــري، ولكـن عـلى أسـاس مسكوني. ولم يستطع الرومـان أن يفهمـوا معنـى قيـام مملكـة الله عـلى الأرض،

وظنوا أن المسيحيين يطمعون في إقامة ملكوت سياسي، وسرعان ما اكتشفوا أن المسيحية لم تأت لتنقذ بل لتدمير الإمبراطورية وتمزيقها. وقد جعل الحماس المسيحي من كلمة "ملكوت" أمراً مزعجاً جداً لوطنية الوثنيين، لأن الكثيرين من المسيحيين – في انتظارهم لظهور الرب ثانية – أخطأوا في ظنهم أن مملكة المسيح على الأرض وشيكة الظهور، مما يهدد الدولة الرومانية. ورغم أن المسيحيين استناروا بالتدريج في هذا الصدد، إلا أن الضرر كان قد وقع.

وكانت كل من الامبراطورية الرومانية والمسيحية تهدفان إلى إقامة تنظيم اجتماعي يضم كل الجنس البشري. ولكن رغم تشابه هاتين المملكتين في نقاط عديدة، وقد مهدت إحداهما الطريق للأخرى، إلا أن التناقض بينهما كان أقوى من أن يسمح بالمصالحة بينهما، وكانت المسيحية تهدف نحو العالمية من خلال الفرد، فأضفت قيمة جديدة على الشخصية الإنسانية.

ب - مطالب فريدة للمسيحية:

يبدو أن المسيحية قد استفزت الكبرياء الرومانية بدعاواها الغريبة، فقد نادت أن العالم سيحترق بنار ليفسح الطريق لسموات جديدة وأرض جديدة، وأن المدينة الخالدة "روما" لا بد أن تسقط، وأن ملكًا سيأتي من السماء له يخضع المسيحيون، وأنه في وسط الخراب القادم سينعم المسيحيون بالسلام.

ج - طرافة المسيحية:

بعد أن خرجت المسيحية من تحت عباءة اليهودية، لا بد أنها فاجأت الحكومة ، كديانة جديدة غير مصرح بها، وقد أصبحت لها قوتها، وكانت أحدث وآخر ديانة تظهر في الامبراطورية فجأة بدون سابق انذار. ولم يكن واضحًا أمام العقل الروماني، أن المسيحية ظلت تنتشر لمدة جيل في ظل التسامح الديني الذي

كفلته الدولة لليهودية باعتبارها ديانـة قديمـة العهـد، فقـد كـان الرومـان ذوي طبيعة محافظـة لا يحبـون التجديـد. وقـد نصـح أعظـم رجـال الدولـة في عهـد أوغسطس قيصرـ، وهـو ميسـيناس (*Maecenas*)، الإمبراطـور بـألا يتسـامح مع أديان جديدة هدَّامة للامبراطورية، وأن ظهور عقيدة جديدة فجأة لهـا أتبـاع كثيرون، قد تشكل خطراً على السلام العام.

د - عدم تسامح الديانة المسيحية وانغلاقها:

وبطريقة ما كان المسيحيون يهدمون روح التسامح في الامبراطورية، بعدم تسامحهم مع الديانات الأخري وانغـلاق مجـتمعهم، بيـنما قبلـت كـل الـديانات الأخرى في الامبراطوريـة التسـاهل وحريـة الاختيـار، وكانـت عـلى اسـتعداد للالتقاء مع نقاط الاتفـاق مـع جيرانهـا أكثـر ممـا مـع نقـاط الاخـتلاف ، لكـن المسيحية لم تقبل المهادنة ولم تتسامح مع سائر الأنظمة الدينية الأخـرى ، وبـدت بذلك ظالمة للعبادات الأخرى التي ظلت السند الروحـي لكثـير مـن الشـعوب قبل أن تشرق شمس المسيحية. ولكن لا يمكن أن نلومها متى عرفنا أنه من أجل حياتها ورسالتها ، كان عليها ألا تتهاون في الحق المسلم إليها، فقد كان العديدون من الوثنيين على استعداد أن يقبلوا المسيح بفرح مع ميترا وإيزيس وسيرابيس.

لكن المسيحية كانت تستلزم الانفصال التام، فلم تكن عبادة المسيح تحتمل أي منـافس، فهـي الديانـة الوحيـدة المقبولـة ويجـب أن ينفصـل أتبـاع المسـيح عن العالم. ولقد كانت كنيسة المسيح حاسمة في موقفهـا، فالمسـيحية لا تتسـاوي مع أي ديانة أخرى، بل هي تسمو فوق كل الديانات. وبدت – بالطبع – هـذه الروح عدائية بالقياس الى روح تلك الأيـام التـي سـمحت للـديانات المتنافسـة أن تعيش معًا بغير مبالاة. أضف إلى ذلك انعزال المجتمع المسـيحي، فلـم يكـن

مسموحاً لأي وثني –مهما بلغ من الورع ومارس تطهير النفس عن طريق التصوف وطقوس ديانته القديمة– أن يكون عضواً في الكنيسة المسيحية ما لم ينبذ تلك الأشياء العزيزة عليه . وقد ظهرت روح الانعزال في كل جوانب الحياة العامة. وكان المسيحيون يجتمعون ليلاً في اجتماعات سرية، وقد اتهمهم أعداؤهم بأنهم يرتكبون أبشع الجرائم في تلك الاجتماعات مثل إقامة ولائم للدعارة ومعاشرة الأمهات وغير ذلك من الرذائل، وكان كل ذلك لانعزالهم.

هـ- العناد:

أضف إلى ذلك العناد الشديد الذي قابل به المسيحيون مطالب السلطات الامبراطورية، وكان ذلك مثيراً جداً للحكام الرومان. وكان يمكن أن يتركهم الرومان أحراراً في ديانتهم لو أنهم أظهروا الطاعة – ولو شكلياً – للديانة الرسمية للدولة. إن اعتدال الرومان واحترامهم للقانون قد اصطدما بعناد المسيحيين وإصرارهم، وقد بدت شجاعة الشهداء أمام أعدائهم كنوع من التعصب العنيد، وقد أشار الامبراطور "أوريليوس" إلى المسيحية مرة واحدة بتلك العبارة: "محض عناد" كما أشار اليها أريستيدس (*Aristides*) قائلاً: إنها "مجرد عناد".

و -مهاجمة الديانات الوثنية:

لم يقنع المسيحيون بالانسحاب الحاسم من الممارسات الوثنية، بل هاجموا الديانات الوثنية بكل شدة، وصارت تلك الديانات– في رأي المسيحيين – "تعاليم شياطين". كما كانت الديانة الإمبراطورية وعبادة الامبراطور نجاسة في نظرهم، ومن ثم وقعوا تحت طائلة الاتهام بعدم والولاء للإمبراطور

والإجرام في حقه، وهزأوا من القول بأن عظمة روما ترجع إلى احترامها للآلهة. وهكذا بدا المسيحيون ملحدين، من وجهة نظر الوثنيين. وحيث أن الديانة كانت مسألة ترتبط بسلامة الدولة وخيرها، فإن الإلحاد يمكن أن يستجلب غضب الآلهة على الدولة.

ز - القاء المسيحيين للأسود:

ما أن بدأت المصائب والكوارث تنهال على الامبراطورية الرومانية، حتى ألقوا باللوم على المسيحيين. ففي القديم، كثيراً ما كانت روما تسترضي الآلهة باستيراد ديانات أخرى جديدة. وفي أحيان أخرى كان يتم استبعاد بعض الديانات الشرقية حفاظاً على الفضيلة. آما الآن، فقد أصبح المسيحيون هم كبش الفداء، عندما تقع الكوارث. فإذا حدثت مجاعة أو زلزلة أو وباء، أو أي كارثة قومية، ترتفع الصرخات مطالبة بالقاء المسيحين الى الأسود.

وقد ظلت هذه النظرة الظالمة إلى المسيحية – كعامل هدَّام للإمبراطورية – حتى سقوط روما في يد ألريك (*Alaric*) ملك القوط. وقد نسي الوثنيون أن المصائب والكوارث الكبري – كما قال المدافعون – كانت تنزل بروما قبل العصر المسيحي. وكان المسيحيون على الدوام على استعداد للتضحية بذواتهم في أوقات الشدة، مقدمين العون للوثنيين والمسيحيين على حد سواء.

ح - الكراهية للجنس البشري:

ولقد تجمع كل حقد على المسيحين في اتهامهم "بالكراهية للجنس البشري" أو للمجتمع، والتي قوبلت "بكراهية الجنس البشري لهم". لقد كان المسيحيون مكروهين للغاية، ليس من الرعاع فقط، بل ومن الطبقات العليا

المثقفة أيضاً. وكان معظم أتباع المسيحية الأوائل من طبقة العبيد أو العتقاء. فلم يكن "الكثيرون حكماء" ولا "الكثيرون شرفاء"، كما كان القليلون منهم مواطنون رومانيين. وقد ذكرنا بعض الجرائم التي اتهمهم بها اعدائهم، وقد دعوهم "مسيحيين" لأول مرة في انطاكية، استهزاء بهم. كما دعاهم اليهود "نصاري". ولم يكن هناك لقب حقير إلا وألصقوه بهم، فنعتوهم بأحط النعوت. ولم يجد الكتَّاب الرومان ألقابًا أبشع من أن يلقبوهم بها. "فتاسيتوس" (*Tacitus*) يعتبر الإيمان المسيحي من الأمور البغيضة الشنيعة التي اجتاحت روما، ويصفها بأنها "خرافة قاتلة"، كما وصفها "سوتونيوس" (*Suetonius*) "غريبة وضارة" ، ويقول عنها "بليني" (*Pliny*) إنها "تافهة حقيرة"، ولذلك قال "يوستس" (*Justus*): إن المسيحيون كانوا مكروهين وملعونين من كل الجنس البشري. وقد تأكدت هذه الكراهية وهذا الحقد بهجمات الفلسفة على المسيحية. وعندما شدت الديانة الجديدة أنظار الفلاسفة، لم يكن ذلك –أولاً– إلا للسخرية منها. ويمكن معرفة موقف الفلسفة الوثنية – بجلاء – بقراءة كتابات "كلسوس" (*Celsus*) وكتابات المدافعين المسيحيين.

4. لم تكن الامبراطورية الرومانية المصدر الوحيد للإزعاج:

لقد ظلت الفلسفة طويلاً بمعزل عن ديانة الجليلي المصلوب، فكان "الحكماء" هم آخر من دخل ملكوت الله. فعندما رسخت المسيحية أخيراً كقوة دائمة في الفكر الانساني، تنازلت الفلسفة، وأخذت أقوال المسيحية في الحسبان، إلا أن هذا جاء متأخراً جداً، بعد أن كان الايمان الجديد قد أصبح مكروهاً فعلاً من العالم. واكتشفت الفلسفة ضعفها وبدأت في إصلاح نفسها بمحاولة أن تكون فلسفة وديناً معاً، وهو ما حدث بصفة خاصة في الأفلاطونية الحديثة.

حيث ينحني فيها العقل أمام الاعلان. وكانت القوة الأخرى التي عكرت سلام الكنيسة المسيحية، هي العدو الكامن داخل الحظيرة. فقد دخلت أعداد كبيرة من الوثنيين إلى الكنيسة. جاءوا بأفكارهم الشرقية واليونانية، مثلما جاء المسيحيون من اليهود بأفكارهم اليهودية معهم. وقد أدي هذا الى هرطقات شنيعة، وكانت كل مدرسة فكرية تشوِّه – على طريقتها الخاصة – الإيمان القويم. ثم انضم إلى تلك القوى المعادية، حليف آخر هو الوثنية المصلحة بقيادة كهنوت مجروح في كبريائه. ففي البداية، كان مما ساعد المسيحية كثيراً، هو أنه لم يكن هناك كهنة حاقدون غيورون على رأس الديانة اليونانية الرومانية، كما كان في اليهودية والديانات الشرقية، فقد كان الاضطهاد الديني دائماً من صنع الكهنوت، وهو ما لم يحدث في العالم الروماني إلا في وقت متأخر عندما بدأ إهمال المعابد والمذابح وهجرانها، وهنا قام الكهنة كهيئة معارضة. وهكذا نرى أنه لم تقف السلطة الإمبراطورية الرومانية وحدها في وجه المسيحية، **إنما كان يحرضها ويدفعها إلى ذلك:**

1- كراهية الشعب لها.
2- الفلسفة.
3- كهنة الوثنيين.
4- الهرطقات داخل الكنيسة.

رابعاً: العلاقات بين الامبراطورية الرومانية والمسيحية:

علينا هنا أن نوضح كيف أن موقف الامبراطورية الرومانية الذي كان في البداية وديًّا أو غير مبالٍ، تحول الى صراع وحشي، وكذلك المراحل المختلفة في سياسة الحكومة الرومانية – لو أمكننا الحديث عن أي سياسة مرسومة–تجاه

المسيحية، والاتهامات أو الإجراءات التي حوكم على أساسها المسيحيون، وأن نبين أيضاً متى وكيف أصبح الاعتراف بالمسيحية جريمة. وسنرى أن الإمبراطورية الرومانية كانت تسير باضطراد نحو الضعف، بينما كانت المسيحية تكتسب على الدوام أرضاً جديدة. **ولإيضاح ذلك سنقسم تاريخ الامبراطورية الرومانية إلى ست فترات:**

1- <u>من بداية المسيحية حتى موت نيرون في 68 م</u>:

لم يكن الايمان المسيحي – في البداية – معروفاً للسلطات الرومانية، فقد ظهرت المسيحية في بداية الأمر كنوع من اليهودية المصلحة والأكثر روحانية، كما لم يفكر تابعوها والمبشرون الأولون بها في الانفصال عن المجتمع اليهودي، فلم يكن ينظر إلى المسيحية إلا كمذهب من المذاهب اليهودية التي ينتمي إليها كل يهودي بينما يظل يهودياً موسوياً. لكن سرعان ما توترت هذه العلاقة الودية بسبب اتساع التبشير بالمسيحية وقبول الدخلاء من الأمم. وجاء أول اضطهاد للكنيسة الوليدة من اليهودية الحاقدة، فكان اليهود هم أول من اشتكوا ضد المسيحيين أمام المحاكم الرومانية. ولم ترفض الحكومة الرومانية أن تضطهد المسيحيين فحسب، بل وحمت الايمان الجديد من الاتهامات اليهودية ومن عنف الغوغاء.

وسرعان ما وجد المبشرون المسيحيون – وبخاصة الرسول بولس– في الإمبراطورية الرومانية حليفاً للخير. وعندما كتب الرسول بولس رسالته إلى الكنيسة في روما نصحهم بالخضوع للسلاطين "المرتبة من الله". ولابد أن هذا الانطباع الطيب قد تدعم بالمعاملة السمحة التي لقيها الرسول بولس في سجنه الأول في روما واطلاق نيرون سراحه في المحاكمة الأولى. وكان

العسكر الرومان قد أسرعوا إليه في أورشليم أنقذوه من تعصب أبناء جنسه. وكان موقف الرومان من اتهامات اليهود للمسيحيين إما عدم المبالاة كما فعل "غاليون" وإلى أخائية الذي لم يهمه "شئ من ذلك"، أو اكتشفوا براءة المتهمين كما فعل فيلكس، وبوركيوس فستوس.

وهكذا نظر الرومان الى المسيحية باعتبارها مذهباً من المذاهب اليهودية، ولكن اليهود تقدموا خطوة أخرى في اتهام المسيحيين بعدم الولاء لقيصر (وهو ما اتهموا به الرب يسوع أمام بيلاطس)، مدَّعين أن المسيحيين "كلهم يعملون ضد أحكام قيصر، قائلين إنه يوجد ملك آخر يسوع ". وهكذا تبرأت اليهودية من المسيحية، ووقفت المسيحية بمفردها. كما أن الأعداد المتزايدة من المسيحيين أكدت للحكومة الرومانية، استقلال المسيحية عن اليهودية، علاوة على أن محاكمة مواطن روماني – هو بولس الرسول – في روما ذاتها، زاد الحقيقة وضوحاً.

ولم يقع أول اضطهاد من الدولة الرومانية للمسيحية، نتيجة لسياسة معينة أو لتوجس الخطر على الدولة، كما لم تكن هناك اتهامات محددة، لكنه نتج عن شرارة عارضة أشعلت الحريق في روما (في يوليو 64 م)، فحتى ذلك التاريخ لم يأبه أي إمبراطور بالمسيحية. لقد وُلد يسوع في متصف فترة حكم أوغسطس قيصر، وكانت خدمة يسوع الجهارية في زمن طيباريوس قيصر، وفي عهده أيضاً صلب المسيح وقام. إلا أن حكمه انتهي مبكراً(37 م) فلم يشهد انتشار الايمان الجديد، رغم أنه ينسب لهذا الامبراطور تقديم قرار لمجلس الشيوخ بضم المسيح الى "البانثيون" (مجمع الآلهة) الرومانى، (وهي أسطورة بالطبع)، وفي الحكم القيصر "لغايوس" (*Gaius*) المجنون لم يكن "الطريق

الجديد" قد أنفصل بعد تماماً عن اليهودية. وقد قام غايوس بإجراء ضد اليهود، إذ أمر باقامة تمثال له في الهيكل. وفي حكم كلوديوس (41 – 54م) كانت معاملة الرومان لليهود قاسية وقد أمر بنفي عدد منهم من روما. ويرى البعض أن هذا الأمر قد شمل المسيحين أيضاً، إذ نفى بعض المسيحيين باعتبارهم يهودًا، إلا أن "ديو كاسيوس" (*Dio Cassius*) يلمِّح إلى أن ذلك كان إجراء بوليسياً للحد من انتشار العبادة اليهودية في روما. وفي عهد نيرون – بعد حريق روما 64 م – حدثت أول خطوة عدائية اتخذتها الحكومة ضد المسيحيين، وكان "تاسيتوس" المؤرخ الروماني هو أول من وصفها. فقد أدت تصرفات نيرون الطائشة إلى إشاعة انه هو السبب في هذا الحريق المتعمد، لأنه كان يرغب في إعادة بناء المدينة على أساس خطط أفخم. ومع أنه عمل كل ما كان ممكناً لإخماد الحريق معرضاً حياته للخطر، كما بذل كل ما استطاعه لتخفيف غضب الناس، وأمر بإقامة الطقوس الدينية لاسترضاء الآلهة وصرف غضبهم، إلا أن الاتهام ظل معلقاً برقبته. ومن أجل تبديد الشائعات، ألقى بالذنب على المسيحيين المكروهين من الجميع وأوقع بالمسيحيين أقسى العقوبات. فتم اعتقال أعداد ضخمة ممن يعترفون بمسيحيتهم، ولم تكن التهمة الموجهة إليهم هي اشعال الحريق عمداً، بقدر ما كانت هي كراهيتهم للجنس البشري بعامة. ومات الضحايا وسط استهزاء الناس، بعضهم ألبسوهم جلود حيوانات فمزقتهم الوحوش إرباً إرباً، وعلقوا البعض الآخر على صلبان وأشعلت فيهم النيران للاضاءة ليلاً، حتى بدأ الناس يحسون بالرثاء لهم كما يقول "تاسيتوس".

✍ **وهنا يثور السؤال: لماذا أصبح المسيحيون وحدهم هدفاً للاضطهاد ؟ لقد أسهمت في ذلك جملة أسباب:**

يرى "فارار" (*Farrar*) في اعتناق "بوبيا" للمسيحية – الذي استغله اليهود بخبث التفسير الوحيد للاضطهاد الأول للمسيحيين، ويؤيده في ذلك "لا يتفوت"، إلا أننا نرى أن ذلك – في حد ذاته – لم يكن سبباً كافياً رغم أن اليهود كان يسعدهم انتهاز هذه الفرصة للانتقام من أعدائهم.

كان المسيحيون قد أصبحوا – في نظر السلطات – طائفة متميزة ، سواء من خلال تقارير الحكام في الأقطار الشرقية حيث كانت المسيحية تتقدم بخطوات واسعة، أو مما أثارته محاكمة الرسول بولس في روما من اهتمام كأحدث طائفة دينية، وبذلك كانوا أنسب الضحايا لارضاء الآلهة وعامة الشعب.

كان عدد المسيحين في روما كبيرًا – بلا شك يسبب نشاطهم الدءوب في اكتساب دخلاء حتى تضخمت أعدادهم.

لم يكونوا متحفظين في التعبير عن معتقداتهم، فقد صرحوا بأن الأرض نهايتها للحريق، وأنهم ينتظرون بشوق مجئ "ملكهم" ثانية ليصلح المجتمع. وكان كل ذلك كفيلاً بأن يلقي عليهم بالشك بسهولة.

لقد كسبوا كراهية الشعب بانعزاليتهم، فتحولت كراهية الشعب لليهود إلى كراهية للمسيحيين. وإن جماعة أصبحت موضع كراهية عامة الشعب، لا بد أن توضع تحت رقابة إدارة شرطة المدينة.

كان قسم كبير من المسيحيين في روما من غير الرومانيين، ومن ثم لم تكن لهم امتيازات المواطنين الرومانيين.

ولعل في هذه الأسباب – مع ما سبق في البند الثالث – ما يفسر لماذا أصبح المسيحيون هدفاً للاضطهاد. على أي حال لقد وقع عليهم اختيار نيرون ليكونوا كبش فداء لأغراضه الخاصة وأغراض مشيره "تيجلينوس" (*Tigellinus*). وهكذا حدث الاضطهاد الأول وليد الصدفة لتحويل الشكوك بعيداً عن نيرون، ولم يكن بسبب أي سياسة مرسومة، أو لتوجس الخطر منهم على الدولة، أو لأن المسيحيين أرتكبوا جرائم. لكن اضطهادهم أتاح الفرصة لأعدائهم لالتماس الأدلة ضدهم وتصيد الأسباب.

ومع أن هذا الاضطهاد كان في أساسه أمراً عارضاً، إلا أن نتائجه كانت بالغة الأهمية. **وهناك ثلاثة آراء بالنسبة لتاريخ سياسة تحريم الحكومة الرومانية للإيمان الجديد:**

- الرأي القديم وهو أن الاضطهاد لمجرد الاعتراف بالمسيحية، بدأ في أيام تراجان في 112 م، وهو رأي أصبح الآن لا يلقى قبولاً بصورة عامة.
- يؤمن سير "رمزي" (*Ramsay*) أن هذا التطور من العقاب على جرائم محددة، إلى تجريم مجرد الاعتراف بالمسيحية ، حدث فيما بين 68 م – 96 م.
- يرى "هاردي" (*Hardy*) و"مومسن" (*Mommsen*) و "ساندای" (*Sunday*) و "انجوس" (*S. Angus*) أن محاكمة المسيحيين في أيام نيرون قد أدت إلى اعتبار مجرد الاعتراف بالمسيحية جريمة عقوبتها الموت.

ويذكر "تاسيتوس" اضطهاد المسيحية كأمر عارض لم يدم طويلاً، بينما يذكر "سوتونيوس" (*Suetonius*): أن عقاب المسيحيين كان مذكوراً في قائمة لوائح الشرطة الدائمة لحفظ النظام، وهو ما لا يتفق مع ما ذكره "تاسيتوس" من أنها كانت إجراءات استثنائية فريدة ضد "الخرافة المقيتة". ولكن ليست

الروايتـان متعارضـتان، إذ أن "تاسـيتوس" يـذكر المرحلـة الأولى، بيـنما يـذكر "سوتونيوس" عبارة موجزة عن المبدأ الاداري الذى أدى إليه ما عمله نـيرون، فقد واصلت إدارة البوليس – في عهد نيرون – ما بدأته واعتبرته سياسة دائمة. ومع ذلك – كما يرى سير "رمزي" لم يحاكم المسيحيون لكونهم مسـيحيين، بـل على أساس بعض الاتهامات المرتبطة بهذا الاعتراف واعتبارهم أعداء للمجتمـع واتهامهم بالسحر وغير ذلك، كعدم التعاطف مع النظم السياسـية والاجتماعيـة للامبراطورية. وبالتدريج رأوا أن الدين ذاته يتضمن هذه الجـرائم فـتم تجريمـه كدين، وأوكلت الرقابة عليهم ومعاقبتهم لإدارة الشرطة التي أصبح لها الحـق – في أي وقـت – في اتخـاذ ارجـاءات عنيفـة ضـدهم، أو أن تتجـاهلهم حسـب مقتضيات الأحوال. وهكذا صارت المسيحية ديناً محرماً. ولكن لم تكن الحكومة الرومانية تمارس اضـطهاد المسـيحيين بصـورة منتظمـة، بـل كـان اضـطهادهم أو عدم اضطهادهم، يتوقـف – منـذ ذلـك الوقـت – عـلى مـزاج الإمبراطـور الحاكم وعلى طبيعة ادارته وحكمه، ونشاط حكام الأقاليم، وعلى حالة الشـعور العام تجاههم. ولـيس هنـاك دليـل مبكـر عـلى أن الاضـطهاد نـيرون قـد امتـد إلى خارج روما. ولكن من الطبيعي أن المثـال الـذي قدمـه الإمبراطـور كـان – بالضرورة – قدوة لكل الحكام في الإمبراطورية. وقد خلقت النهايـة العاصـفة لحكم نيرون، والأيـام المضـطربة التـي سـبقت ارتقـاء فسباسـيان، جـوًّا مواتيـاً للمسيحية.

ويبـدو أن الرسـول بـولس – بعـد تبرئتـه عنـد المحاكمـة الأولى أمـام الإمبراطور – واصل نشاطه التبشيري بدون عوائق غير عادية، حتـى اسـتدعي إلى روما للمرة الثانية. والاضطهاد في عهد نيرون له أثر بالغ في تاريخ المسـيحية،

فقد بدأ نيرون في اضطهاد المسيحيين، فخلق بذلك سابقة لمن جاءوا بعده من الحكام. كما أن المتاعب بدأت أولاً في عاصمة العالم ثم انتقلت في المرحلة التالية إلى الشرق ثم إلى أفريقية ثم إلى الغرب. ولكن حتى ذلك الوقت ظل الاضطهاد محلياً. وكان نيرون أول المضطهدين الرومان، وقد انتهت حياته نهاية مفجعة مثل هيرودس أغريباس، وهي حقيقة ملفته للنظر وقد علق عليها كثيراً "لاكتانتيوس" (*Lactantius*) وغيره من الكتَّاب المسيحيين.

2 - فترة حكم أسرة فلافيوس (68 م – 96 م) :

يري سير "رمزي" أن الأباطرة الفلافيين حوَّلوا النظام – الذي وضعه نيرون لمعاقبة المسيحيين على جرائم محددة – إلى تجريم المسيحية ذاتها. فقد رسم اضطهاد نيرون منهجاً للدولة الرومانية – فيما بعد – لموقفها من الإيمان الجديد، فلم يستطع الأباطرة الفلافيون أن يحيدوا عن النهج الذي رسمه نيرون. وكانت المسيحية آخذة في الانتشار وبخاصة في الشرق وفي روما نفسها. وليس لدينا أي خبر عن أي اضطهاد في عهد "فسباسيان" (*Decius*) رغم أن "هيلاري" يذكره – بطريق الخطأ على أنه مضطهد مثل نيرون و"ديسيوس"، وكذلك لا نقرأ عن أي اضطهاد في عهد ابنه تيطس. ولكن لا يعني ذلك أنه لم يحدث في عهديهما أي نوع من الاضطهاد، حيث أن الأمر كله كان منوطاً بإدارة الشرطة، ولابد أنه وقعت بعض أحداث العنف بين الحين والآخر حسب الظروف المحلية. ولابد أنه كان لسقوط أورشليم من أثر على الديانة اليهودية، مثلما كان لسقوط روما – على يد القوط والوندال والجرمان – من أثر في ديانة روما، فقد أضعف فكرة وجود إله قومي يرتبط بديانة سياسية ، واتسعت الهوة بين الديانة اليهودية والديانة المسيحية، فتحررت المسيحية من نفوذ اليهودية.

كما أن اليهود– بعامة – أدركوا وقتئذ عدم جدوى الأحلام السياسية، وأصبحوا أكثر استعداداً للانضمام للإيمان المسيحي، وأصبح التمييز بين المسيحية واليهودية واضحاً، كما زادت المقاومة والعداء. ومع أن فاسبسيان قد فرض الضريبة على كل شخص بالغ من المسيحيين من أصل يهودي، ومن اليهود على السواء، ولكن لا يذكر التاريخ شيئاً عن حدوث عنف على المسيحية في عهد فاسباسيان. كما لم يعرف عن تيطس أنه كان مضطهداً، إلا أن رأيه في اليهودية والمسيحية – كما سجله في مجلس الحرب أمام أورشليم في 70 م ، والذي نقله لنا " سولبيشيوس ساويروس" (*Solpicious Severus*) يستلفت النظر لموافقته على السياسة التي بدأها نيرون. ولا شك في أن "ساويرس" قد نقل ذلك عن "تاسيوس" دون تمحيص، حيث أنه يناقض ما ذكره "يوستيوس". ويدافع تيطس عن تدمير الكهنة بأنه أراد أن يستأصل ديانة اليهود والمسيحيين تماماً، حيث أن هاتين الديانتين – رغم معارضة إحداهما للأخرى – هما من أصل واحد فقد خرجت المسيحية من تحت عباءة اليهودية، فإن استؤصل الأصل، فلا بد أن يبيد الفرع سريعاً. إلا أننا لا نعرف أي إجراءات عنيفة قام بها تيطس ضد أي منهما مباشرة، ولعل مدة حكمه القصيرة لم تمهله لذلك.

ويبرز "دوميتيان" كمضطهد واضح، في تلك الحقبة من التاريخ، كما برز نيرون في الحقبة الأولى، ولم تكن إجراءاته ضد المسيحيين عملاً قائماً بذاته، بل كان جزءًا من سياسة عامة قاسي منها غيرهم. فكان حكمه عودة للمبادئ القديمة. وقد حاول إصلاح الأخلاق، والقضاء على الترف والرذيلة، والطقوس الشرقية اللاأخلاقية، وأن يتخلص من الممثلين والفلاسفة

والمنجمين. وفي محاولتـه لإحيـاء الديانـة القوميـة اصـطدم بهـذا الـدين العـالمي الجديد. وقد حكـم بـالموت عـلى ابـن عمـه "فلافيـوس كليمـنس" (*Flarius Clemens*) لاعتناقه المسيحية (أو الإلحاد في نظر دوميتيـان)، كـما نفـى زوجتـه "دوميتيلا " (*Domitilla*). ولم يكـن الاعـتراف بالمسـيحية تهمـه كافيـه لإدانـة المـواطنين الرومـانيين مـن الطبقـة العليـا، فكانـت تلصـق بهـم تهمـة الالحـاد أوالسحر، ويندرج تحت ذلك رفض الخضوع لدين الآلهة القوميـة. أمـا بالنسـبة للمواطنين الرومانيين من عامة الشعب، وشعوب الولايات المختلفة، فكان مجرد اعتناق المسيحية يستحق الحكم بالموت. ولم يصدر الإمبراطـور مرسـوماً محـدداً أو حظراً عاماً، ولكن استمر العمل بالمبدأ الذي وضعه نيرون. وقد كان هناك – كما يقول "مومسن" (*Mommsen*) حظر ساري المفعول عـلى المسـيحيين، كـما على قطَّـاع الطـرق، إلا أن الإجـراءات العنيفـة ضـد الفـريقين، كانـت تحـدث في نوبات غير منتظمة بناء على أهواء حكام الأقاليم. وقد اتخذ دوميتيـان خطـوة واحدة محددة ضد المسيحيين حين وضع اختباراً سهلاً للتعرف عـلى المسـيحيين، ومن ثم يسهِّل عملية البحث والتحري. وكان هذا الاختبار هو أن يطلب مـنهم السجود لتمثال الإمبراطور. وكان هذا الأمر أيضاً جزءاً مـن سياسـة دوميتيـان العامة، لتأكيد سـيادته وألوهيتـه وترسـيخ عبـادة الامبراطـور كربـاط للوحـدة السياسية للامبراطوريـة. ويعكـس سـفر الرؤيـا معانـاة الكنيسـة في عهـد هـذا الإمبراطور.

3 - مدة اسرة الأنطونية (96 – 192 م):

نرفا وتراجان: (*Tragan&Nerva*):

بموت دوميتيان استعادت الكنيسة سلامها الذي استمر خلال الفترة القصيرة لحكم نرفا (96 – 98 م)، والثلاثة عشر عاماً الأولى من حكم تراجان. ومن العجيب أن البعض من أفضل الأباطرة الرومان (تراجان، ماركس أوريليوس، وديثيوس ودقلديانوس) كانوا قساة على المسيحيين، في حين أن البعض من أسوأ الأباطرة (مثل "كومودوس" (*Commodus*) و"كاركلا " (*Caracalla*) و "هيلوجابلوس" (*Heliogabalus*)) تركوا المسيحيين في سلام. وكانت المسيحية تنتشر بسرعة في فترة الهدوء. ولما تولى "بليني" حكم ولاية بيثينية في 111 م، ووجد – وبخاصة في القسم الشرقي من ولايته – أن المعابد والهياكل تكاد تكون مهجورة تماماً، أحضر أمامه بعض المسيحيين، وعلى أساس ما فعله سابقوه، أمر باعدامهم بسبب ديانتهم. إلا أن بليني سرعان ما اكتشف تورط الكثيرين جداً من الرجال والنساء ومن كل الأعمار، ومن المواطنيين الرومان وسكان الولايات. فأرسل المواطنين الرومان إلى روما لمحاكمتهم. ولكن بسبب نزعته الانسانية، استنكف من إعدام كل المسيحيين، كما كانت تقتضي السياسة العامة للدولة.

وكتب بليني إلى الإمبراطور تراجان، يخبره بما قام به بالفعل، محبذاً –بطريقة خفية – ابداء التسامح معهم، ومتسائلاً ألا يجب التمييز بين المسنين والشباب؟ ألا نغفر لمن ارتدوا عن المسيحية وسجدوا لصورة الإمبراطور، ولعنوا المسيح؟ أيكون مجرد الإعتراف باعتناق المسيحية جريمة تستحق الموت دون اثبات جرائم أخرى، أم يجب معاقبة ما يصاحب ذلك الإيمان من جرائم،

ثم بعد ذلك يشرح أسلوبه هو، فقد أعطى المتهمين فرصة للارتـداد. أمـا الـذين ثبتوا على الإيمان فأعدمهم، حيث اعتبر عنادهم و إصرارهم – في حد ذاتـيهما – يستحقان العقاب، إلا أن الإدارة بتدخلها وجدت الكثير لتفعله، فقد قدمت لها عريضة مجهولة بها أسماء كثيرة، أنكر غالبيتهم أنهم مسيحيون، وقد قـام الوشـاة أسماء أخرى كثيرة، وقد انكر أولئـك بالمثـل انـتمائهم للإيـمان المسـيحي، وكـان بيليني مقتنعاً تماماً بأن اجتماعات المسيحيين تخلو من الضرـر، وبتعـريض اثنتـين من الخادمات للتعـذيب، لم يكتشـف سـوى أوهـام متطرفـة خاطئـة، وأجـاب تراجان بأنه لا يمكن وضع قاعدة عامة محددة وشاملة، وكان مـن الواضـح أنـه يؤيد صحة ما فعله بليني، وربما لم يكن يتفق تماماً مـع بيلنـي في اقتراحاتـه التـي تتسم بالانسانية، **ومع ذلك فقد أصدر الإمبراطور ثلاثة قرارات هامة:**

1. يجب ألا تبحث سلطات الشرطة عن المسيحيين، لكن إن اتهموا وادينـوا فيجب معاقبتهم.
2. ألا تقبل البلاغات المجهولة ضد المسيحيين.
3. المشتبه فيهم يعفون من العقـاب متـى ثبـت أنهـم لم يكونـوا مسـيحيين، أو أنهم انطروا المسيحية.

وقد اعتبر البعض أن هذا القرار من تراجان، كان أول تقنين رشمي لحظر المسيحية ولكننا سبق أن رأينا أن المسيحية تم حظرها بناء عـلى محـاكمات نـيرون علاوة على ذلك، ليس هنـاك أدنـى أثـر لأي مبـدأ جديـد لاسـتخدام القسـوة، لا في خطابات بليني وزلا في إجابة تراجان، فلم يكن اضـطهاد المسـيحيين امـراً منظماً أو عاماً كما لم تكن إجابة تراجـان مرسـوماً بالتسـامح، إلا أنهـا في مجملهـا كانت في صالح المسيحيين، إذ قللت من المخاطر التي يترعضون لها وكان الأمـر كله متعلقاً بالإدارة.

لم يستحدث تراجان أي أجراء ضد المسيحيين، كما لم يشجع أي إجراء ضدهم وطلب من قائد الجيش أن يتغاضي عن المذنبين في هذا الخصوص، وقد استشاره "بيليني" على أمل إقرار معاملة أكثر اعتدالاً للمسيحيين بأن وضع في صيغة سؤال، ما كان يرغب هو فعليا في الموافقة عليه إن جواب تراجان وضع نهاية للنظام القديم من "العداء الذي لا يلين".

هادريان: كانت فترة حكم هارديان (117 – 138م) فترة تسامح مع المسيحيين، فلم يكن هارديانن متعصباً بل منفتحاً يبحث في كل الأديان والكثير من الأسرار، وكان على استعداد لترك الحرية لكل الأديان، وفي أسيا حيث كانت المسيحية تنتشر بشدة، حدثت حالة من الرعب بسبب تشجيع الوشاة ضد المسيحيين فكان أي شخص يعترف بالمسيحية معرضاً للتهديد من الوشاة من أجل الحصول على رشوة وقد وجد "ليسنوس سلوانس جرانيانوس" – مثل بيليني– نفسه في مواجهة مشاكل في هذا الخصوص، فكتب إلى هارديان يطلب النصيحة وقد وصل جواب هارديان الى خليفة "جرانيانوس" وهو "مينوسيوس فوندانوس" وإلى آسيا (حوالي 124 م)، وقد طعن في اصالة هذا المستند الهام "افربك" و "كايم" و "لايتفوت" و "السير وليم رمزي" وفي الحقيقة نرى أنها وثيقة أقرب إلى الصالة منها إلى الزيف، لأنه من سوى هارديان – المتفتح الذهن – كان يمكنه أن يكتب مثل هذا الجواب؟ ومن الجلي أن المسائل التي رفعها الوالي الى هارديان كانت مشابهة للمشاكل التي رفعها بيليني الى تراجان، وكانت إجابة هارديان خطوة حاسمة لصالح المسيحية، خطوة أبعد ما جاء في جواب تراجان.

وكان جواب هارديان يسير على الخطوط الآتية:

1- لا يمكن تجاهل الوشاة، لئلاً يعاني الأبرياء (كما كان في عهد بيليني)، ولئلاً يتاجر الوشاة في تقديم الاتهامات.

2- على من يتهمون المسيحيين أن يثبتوا أن المتهمين قد ارتكبوا ما يخالف القانون.

3- ليس مسموحاً بتقديم عرائض أو القيام بمظارهات ضد المسيحيين.

4- إذا لم يستطع الواشي اثبات دعواه، فلابد من عقابه.

وهذه المواد زادت كثيراً من المخاطر أمام الوشاة، وقللت من الأخطار التي يتعرض لها المسيحيون، ولم يرد بها اعتبار مجرد الاعتراف بالمسيحية جريمة، ولكن لم ينسخ هذا المبدأ أيضاً ولعل جواب هارديان قد اعطى دافعاً معيناً نحو استخدام اجراء أكثر تحديداً وأدق انتظاماً.

4 - انطونيونوس بيوس (من 138 – 161 م):

وقد واصل انطونيونس سياسة تراجان وهارديان إلا انه حدث اضطهاد في عهده حيث أعدم "بطلماوس" و "لوكيوس" في روما، كما أعدم "بوليكاربوس" أسقف سميرنا، إلا أن انطونيوس أيد بشدة سياسة هارديان في حماية المسيحيين الذين لم يحكم عليهم ضد عنف الرعاع، وذلك في خطاباته إلى "لاريسا" واثينا وتسالونيكي وإلى "كل الهيلينيين".

5 - ماركوس أوريليوس (161 – 180 م):

بدأ تحت حكم أوريليوس رد فعل قوي كان له أثره على المسيحيين، وذلك بسبب حوادث الحدود وتفشي الوباء، كما إلى سياسة أوريليوس التي كانت تهدف أغلى العودة الى المبادئ القديمة وإحياء الديانة الرومانية القومية،

وفي عهده امتد الاضطهاد الى الغرب (الى بلاد الغال أي في فرنس) وعلى أفريقية كمقدمة للاضطهاد العام الذي حدث في القرن الثالث ورغم أن اورويليوس لم يقم عملياً بإجراء أي تغيير إلا أنه لم يكن هناك التسامح الذي ميز العهود الثلاثة السابقة، حقيقة أنه لم يصدر أي مرسوم عام أو قرار محدد بالاضطهاد، وتعود حالات الاستشهاد العديدة التي سجلت في ذلك العهد إلى كثرة الكتابات المسيحية المفصلة التي وصلتنا عن ذلك العهد.

ظلت المسيحية – في حد ذاتها – جريمة، كما أن عناد المسيحيين وحده كان يكفي سبباً للعقاب، ولكن يبدو أن اوريليوس قد لام الحكام على صرامتهم في "لوجدون"، ولم يشجع الوشاة ضد المسيحيين، بل أن "ترتليانوس: وصفه بأنه "حامي المسيحيين": ومن ثم لا نجد في ذلك العهد أي محاولة جادة أو منظمة للقضاء على الإيمان الجديد، وظلت الإدارة المركزية: "طوال ذلك الوقت بلا أي سياسة ثابتة نحو المسيحيين، غذ يبدو أن الدولة لم تكن قد حزمت أمرها بعد (كما يقول هاردي).

أما في عهد "كومودوس" (180 – 192) فقد تمتع المسيحيون بالراحة، ويعتقد أن هاردي ان التنظيم المسيحي لم يكن يعتبر خطراً جسيماً على الإمبراطورية في القرنين الأول والثاني، فلو أن روما رأت مثل هذا الخطر في المسيحية، أو انها امبراطورية داخل الإمبراطورية، لبدأت سياسة إبادة منظمة خلال الفترة التي كانت فيها المسيحية أضعف من أن يقاوم، وعندما أدركت الإمبراطورية مدي خطر المسيحية عليها – كما حدث في القرن الثالث الميلادي – اتخذت اقسى الإجراءات، كانت المسيحية قد أصبحت أقوى من أن تضار أو تنهار، وقد أخذت الإمبراطورية منذ ذلك الحين في الضعف والاستسلام.

6 - الأسر المتغيرة (192 – 284 م):

وفي الفترة التالية التي سادها عدم الاستقرار، إذ تعاقب على العرش في أقل من مائة عام، نحو عشرين إمبراطوراً بدا كل منهم أسرة حاكمة جديدة، مما سمح للمسيحية أن تنتشر بلا متاعب تقريباً، كما أن حروب القبائل المتبربرة المستمرة، وضورة اليقظة الدائمة عند نقط الحدود أو جدت ظروفاً مواتية للمسيحية، كما أن ابتعاد المسيحيين عن حلبة الصراع السياسي، مع قبولهم لكل أسرة حاكمة جديدة، حفظهم من الصدام مع الحكام الجدد، بالإضافة إلى أن العديد من هؤلاء الأباطرة لم يكونوا رومانيين أصلاً بل أجانب لا ارتباط قوي لهم بالإيمان الروماني القديم، ولم تكن أفكارهم الدينية متزمتة، وكل ذلك كان بالغ الأهمية لإيمان الجديد القادم من الشرق، كما أتيت بعض الأباطرة أنهم لم يكونوا غير معاديين للمسيحية فحسب، بل متعاطفين معها، فلم يحدث في هذه الفترة أي اضطهاد شرس _ ربما باستثناء ما حدث في عهد "ديسيوس"، وبالتأكيد لم يحدث اضطهاد طويل الأمد في تلك الفترة، كما أن الكنيسة ذاتها كانت قد نزمت نفسها على مبادئ الادارة الإمبراطورية، ومن ثم أصبحت قوية متحدة، حتى عندما هبت عليها العواصف، لم تهتز، ففي 202 م بدأ "ساويروس" اضطهاداً قاسياً في افريقية ومصر، إلا أن "كاراكلا" المتقلب أعاد لها السلام، أما "هيلو جالبوس"، **فقد ساند المسيحية بطريق غير مباشر:**

1- بتحقير الديانة الرومانية.

2- بالتسامح، وقد عرض – حسب أحد الكتاب – أن يمزج بين المسيحية واليهودية والسامرية في ديانة واحدة، كما كان "الكسندر ساوريوس" متسامحاً يسعى للتوفيق بين الديانات، فقد وضع في معبده الخاص تماثيل

لكل من اورفيوس وأبولونيوس وابراهيم والمسيح ويقال أنه كان في نيته إقامة معبد للمسيح وقد تفجر اضطهاد محلي في عهد "ماكسيمن التراقي" أما أول اضطهاد عام فكان في عهد "ديسيوس" **وفيه نقتطان تستحقان النظر:**

1. لم يكن الموت هو العقوبة المباشرة للاعتراف بالمسيحية، بل استخدمت كل وسيلة ممكنة لحث المسيحيين على ارتداد وإنكار المسيح.
2. وجهت السلطات الرومانية كل جهودها – بصفة خاصة – إلى المسؤولين في الكنيسة، بعد أنم أدركت هذه السلطات خطورة التنظيم المسيحي، وقد واصل "جاليوس" هذه السياسة أما "فاليرون" فبعد أن وقف الاضطهاد سعى إلى الحد من الانتشار هذه الديانة بنفي الأساقفة وغلق الكناس، ثم بعد ذلك أصدر قانوناً يقضي بعقوبة الموت، وقد أصدر "جالينوس" أول قرار فعلي بالتسامح ومنع الاضطهاد ورد الأملاك المسيحية وبذلك دخلت المسيحية فترة أربعين سنة من الهدوء، وبنقص المخاطر الخارجية أمامها قل عدد الراغبين في الإيمان، انهمك أعضاؤها الانشغال بالأمور العالمية، ولم يوقف هذا الانحدار إلا اضطهاد دقلديانوس.

3- من دقلديانوس حتى صدور أول مرسوم إمبراطوري بالتسامح (284 – 311م): كان دقلديانوس – مثل بعض المضطهدين الآخرين – واحداً من أقدر الحكام الرومكان، ولم يكن ميالاً إلى الوقوف ضد المسيحيين، إلا أنه اضطر أخيراً –بسبب زوج ابنته "جاليريوس" إلى اتخاذ إجراءات عنيفة ولم يكن مقصوداً من أول مرسوم أصدره دقلديانوس في الربع والعشرين من فبراير سنة 303 م إبادة المسيحية، بل كان القصد منه الحد من نموها

وإضعاف تأثيرها السياسي وكان موجهها أساس ضد الكتب المقدسة والكنائس والاجتماعات المسيحية، آما المرسوم الثاني فكان ضد النظام الكنسي، وقد ضمن المرسوم الثالث الحرية للمرتدين عن المسيحية، لكنه سعى إلى إجبار المسيحيين العنيدين على الخضوع بتعذيبهم، وكان هذا اعتراف ضمنياً بفشل الحكومة الإمبراطورية وبعد أن ألغيت عقوبة الموت، أصدر "مكسيمين" مرسوماً رابعاً بإعادة عقوبة الموت ومطالبة المسيحيين بتقديم الذبائح للآلهة، وفي نفس السنة في 304م اقتنع دقلديانوس بعدم جدوى هذه الإجراءات، فأوقف عقوبة الموت ، فكان هذا التقلب في سياسة الإمبراطورية، ثم تنازله عن العرش في العام التالي، اعترافاً واقعياً بانتصار "الناصري".

وبعد ان استمر الاضطهاد ثماني سنوات (أو عشر سنوات لو حسبنا الاضطهادات المحلية بعد 311 م) أصدر جاليورس – الذي أصابه مرض عضال – من مدينة نيقوميديا، مع قسطنطين وليسينوس أول مرسوم عام للتسامح في 30 ابريل 311م بعد أن كانت المسيحية في تلك الأثناء أثبتت أنها دولة داخل الدولة، وأخيراً تم الاعتراف بها كديانة قانونية ولو أنها لم تكن على قدم المساواة مع الوثنية.

4- من أول مرسوم عام بالتسامح حتى سقوط الامبراطورية الغربية (311 – 476م): في هذه المرحلة اصبحت المسيحية – في البداية – على قدم المساواة مع غيرها من الديانات المنافسة، ثم علت فوقها، وأخيراً أصبحت الديانة الرسمية للدولة في الشرق والغرب، وما أن حصلت المسيحية على التسامح حتى اصبحت هي نفسها غير متسامحة، بل أضحت مضطهداً مريراً لكل الديانات المنافسة وللهرطقات، وبعد ان

انتصر قسطنطين على "ماكسنتيوس" في موقعة "قنطرة ملفيان" في 27 أكتوبر سنة 312 م، أصبح هو الحاكم الوحيد في الغرب وأصدر مع زميله "ليسنيوس" إمبراطور الشرق، مرسوم التسامح الشهير في 30 مارس سنة 313 من مدينة ميلانو وبموجبه اكتسبت كل الأديان حقاً متساوياً في التسامح، وهكذا وقفت المسيحية على قدم المساواة مع الوثنية، وكان تعاطف قسطنطين مع المسيحية لدوافع سياسية في أكثره، فقد أراد أن يكون مع الجانب الفائز، ومع كل نجاح جديد كان يزداد ميلاً إلى المسيحية رغم أن حياته في مجملها كانت وسطاً، وكان يحلم بأن يمزج الوثنية والمسيحية في مجتمع واحد تحت نفس النظام القوانين والشرائع، فهو لم يحظر الوثنية بأي حال من الأحوال، وبتأسيس مدينة القسطنطينية، صارت المسيحية – في الواقع – دين الدولة، وهو تحالف أدى الى عواقب وخيمة على المسيحية، فقد بدأت عندئذ في خنق حرية الضمير التي قاست من أجلها كثيراً، وبدأ "الإيمان القديم" لفترة طويلة يمارس عدم التسامح، وقد ورث أبناء قسطنطين عن أبيهم طبيعته القاسية ومسيحيته الأسمية، كان قسطنطين قد ترك الوثنية والمسحية واقتين على قدم المساواة، وبدأ أبناؤه بعده في إبادة الوثنية بالعنف، وبعد أن صار قسطنطيوس الإمبراطور الوحيد ولأنه لم يرث عن أبيه الاعتدال والحذر، وبتحريض من النساء والأساقفة أصدر مراسيم تأمر بإغلاق المعابد ومنع الذبائح وقد تردد الحكماء من حكام الأقاليم، في تنفيذ هذه الإجراءات المتسرعة، وهكذا بدأت المسيحية في السيطرة والهجوم، ولم تضطهد الوثنية فحسب، بل أن حزب الأغلبية في المسيحية حظر كل منافسيه، وفي هذه المرة هاجمت البدع والهرطقات "الإيمان القويم"، ولعل عنف أبناء

قسطنطين وعدم تسامحهم وقسوتهم تبرر رد الفعل لدى "يوليانوس المرتد" الذي قام بجهد خيالي لإعادة الدين القديم، وبينما كان يعلن التسامح مع المسيحية سعى إلى إضعافها بالسخرية من عقائدها، كما أوقف امتيازات رجال الدين، ومنع الكنيسة من قبول العديد من لهبات والعطايا، واستبعد المسيحيين من المراكز العامة، ومنع تعليم الكلاسيكيات في المدارس المسيحية خشية أن يصبح لسان المسيحيين أفضل في مواجهة حجج الوثنيين وأخيراً أضفى على العبادة الوثنية فخفخة ومهابة لجذب الناس إليها، إلا أن القوة الأدبية في المسيحية انتصرت على كل ذلك، وعند موته في احدى ساحات القتال في حربة مع الفرس، قال متأوها: "لقد انتصرت أيها الجليلي" (وهو يقول لا يستند الى مصدر ثقة)، واستمر الحياد الدينة مدة قصيرة بعد موته، وقد خرج "جراتيان" بتحريض من "امبروزيوس" (أسقف ميلان) عن هاذ الحياد فأزال تمثال النصر من مقر مجلس الشيوخ، ورفض أن يخلع على نفسه لقب وثياب الكهنة الأعظم، وحظر الذبائح الدموية وسدد ضريبة قاضية للديانة القديمة إذ سحب منها بعض الامتيازات المالية، وبذلك جعلها تعتمد على التبرعات الاختيارية، وقد اتخذ ثيودسيوس الأول –أو الكبير – سياسة دينية عنيفة تجاه كل من الهرطقة والوثنية، ويُعزي تعصبه الى امبروزيوس، الذي كان يعتبر أنه ليس لليهود أو للوثنيين أو للهراطقة أي حقوق على الإطلاق، وهكذا بدأ التحريم المنظم للوثنية، ففي 381 م رفض حق إصدار "الوصية" للمترتدين عن المسيحية، وفي 383 م أنكر عليهم حقهم في الميراث، وفي 391 م حرمت العبادة الوثينية العامة، وفي 392 م حرم العديد من العبادات الوثنية الخاصة والعامة، وفرضت

عقوبات أكبر على تقديم الذبائح، وهكذا ارتدت المسيحية بربرية الوندال، ومارست كل أنواع العنف ومصادرة الأملاك، كثيراً ما كان الرهبان والكهنة يقودون الرعاع في هذه الأعمال، وواصل أبناء ثيودسيوس سياسة التمادي في قمع الوثنية، وقد عزل هونوريوس في الغرب في 408 م الوثنيين من الوظائف المدنية والعسكرية، وفي مرسوم لاحق في 423م أصبح بقاء الوثنية أمراً مشكوكاً فيه، وتثبت القوانين المتلاحقة ضد الارتداد، أن الوثنية كانت ما زالت مصدر جذب للناس، وقد صدرت في عهد فالتنبات الثالث 423 – 455 م وثؤدسيوس الثاني قوانين لهدم المعابد أو تحويلها إلى كنائس مسيحية، واستمر اضطهاد الوثنية في الغرب في 476 م بالقضاء على الوثنية وقد عجل سقوط الإمبراطورية الغربية في 467 م بالقضاء على الوثنية نهائياً وفي الشرق أغلق وبروح استبدادية منعت العبادة الوثنية في الخفاء تحت طائلة العقاب بالموت.

خامساً– انتصار المسيحية وتحول الإمبراطورية الرومانية إليها:

تم الآن الاعتراف بالمسيحية ديانة رسمية للغرب والشرق، وصارت المسيحية من القوة حتى أنها ضمنت اليها المتبربرين الذين استولوا على الغرب، فكبحت جماحهم وعلمتهم تحت قيادة البابوية حتى امتدت انتصارها إلى ما وراء حدود الإمبراطورية الرومانية.

وينسب "ميريفال" تحول الإمبراطورية الرومانية إلى المسيحية إلى أربعة أسباب هي:

1- الدليل الخارجي الظاهر في اتمام النبوات وعمل المعجزات.

2- الدليل الداخلي في إشباع الاحتياجات الروحية للناس وتقديم الفادي لهم.

3- نماذج الحياة النقية، والاستشهاد البطولي، للمسيحيين الأوائل.

4- النجاح الذي حققة المسيحيون في عهد قسطنطين.

ويعلل "جيبون" ظاهرة نجاح المسيحية في الإمبراطورية الرومانية بما يلي:

1. حماسة وغيرة المسيحيين الأوائل.
2. اعتقاد المسيحية في الخلود مكافآت وعقوبات في المستقبل.
3. المعجزات.
4. القانون الأخلاقي السامي والفضائل النقية الواضحة في حياة المسيحيين.
5. التنظيم المسيحي الكنسي القوي حسب نظم الإمبراطورية.

إلا أنه ما من قائمة من قوائم هذه الأسباب تكفي لتعليل نمو ونجاح ديانة يسوع الناصري.

أ - أسباب سلبية:

كان لانتصار المسيحية – في المقام الأول – أسباب سلبية – منها: الإفلاس الأدبي والروحي للعالم القديم، والفساد الداخلي وانحلال الأنظمة الوثنية، وقد فشلت كل الديانات القومية القديمة، وهجرها جميع الفلاسفة وجماهير الشعب، ولم يكن تقديم ديانة عالمية للإنسانية كلها، إلا في المسيحية، فقد تدهورت العبادات إلى مجرد شكليات بحته، لا تمنح القلب أي راحة، وأحس الناس بحاجة ماسة وملحة الى اعلان الهي، لا يمكن لديانة فلسفية أو طبيعية أن تشبعها.

ب - أسباب ايجابية:

ولكن يرجع نجاح الدين الجديد أساساً إلى أسباب ايجابية، من بينها الحماسة والغيرة للإيمان المسيحي، والجدية الصادقة في الحياة وفي الكرازة، وقد تجلت صفاتها الأصيلة الخالصة – على أفضل ما يكون – في اتباعها في وسط الاضطهاد، كما في الموت البطولي لشهدائها، أما الوثنية فرغم تحالفها مع القوة المدنية، ورغم ماضيها الأسطوري، فلم يكن في مقدورها مواجهة الاضطهاد، وعندما اضطرت الوثنية الى الاعتماد على الهبات التطوعية، لم يمكنها ان تنجح كما حدث مع المسيحية، ومثلها العليا في إنكار الذات، وقد بلغت جدية المسيحية الأولى الذروة لاعتقادها في المجئ الثاني الوشيك للرب ونهاية الدهر، كما أن وسائل الاتصال ساعدت المسيحية كثيراً في انتشارها، وكانت أهم وسيلة لها هي الحياة المثالية لإتباعها، وقد قابلت المسيحية القوة السياسية بالقوة الأدبية والروحية، علاوة على أنه عندما درس المفكرون – في العالم القديم – المسيحية وجدوها تطابق اسمى مبادئ العقل والطبيعة، إلا أن السبب الرئيسي في نجاح المسيحية، هو توافق تعليمها مع الطبيعة الروحية للانسان، وكانت هناك جدية عميقة عند قطاع كبير من العالم القديم، قدمت له المسيحية السلام والراحة والقوة المنشودة، كما كان في المسيحية أيضاً ميزة ضخمة جدا فوق كل الأديان المنافسة لها في الامبراطورية الرومانية، وهي ملاءمتها لكل الطبقات في كل الظروف والتغيرات ، فلم يكن فيها شئ محلي أو قومي، كما قدمت أعظم صورة للنموذج المعاصر عن الأخوة ، كما ان احترامها للمرأة قد أكسبها العديد من المؤمنين، فكانت المسيحية – في هذا الصدد – أسمى جداً من عبادة "مثرا" منافستها العظمى، وفي عصر التغيرات الاجتماعية الكبيرة والعديد من الكوارث

والمحن، استهوت المتألمين بانكارها لنفسها وسعيها الدائب من أجل سعادة الآخرين، وكقانون أخلاقي كانت المسيحية أسمى وأنبل من كل النظم والعبادات المعاصرة أنا الميزة التي لا تقدر بثمن والتي تفوقت بها المسيحية على كل الديانات والفلسفات الأخرى، فكان ما في حياة يسوع المثالية الكاملة من سحر وقوة وجمال وروعة ، فقد كان شخص يسوع مثالا وحافزا للحياة الاسمي أمام كل الفلاسفة وعامة الشعب ، أقوى من كل فضيلة مجردة أو كمال ، ويقول "ليكي" في كتابه "تاريخ الأخلاقيات" لقد أمكن للمسيحية أن تعمق جذورها في قلوب الناس لأنها كانت مثالاً للأشواق الأدبية لذلك العصر ، ولأنها جسمت بصدق المثل الأعلى للسمو الذي كان يسعي اليه البشر، ولأنها تجاوبت مع احتياجاتهم الروحية وأهدافهم وعواطفهم، ولأن الكيان الروحي كله للإنسان استطاع أن يتسع ويمتد من خلال تأثيرها " أضف الى كل هذه الظروف المواتية المذكورة آنفاً في البند ثانياً "الأعداد للمسيحية" – وبذلك يمكننا أن نفهم كيف تحولت الامبراطورية الرومانية الى ملكوت المسيح .

الفصل الخامس عشر

بداية النزاع بين البابوية والإمبراطورية

شاءت الظروف أن يتبلور النزاع بين البابا جريجوري السابع *Pope Gregory VII* والإمبراطور هنري الرابع إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة (1056-1105) حول شغل بعض الأسقفيات الشاغرة وبخاصة في شمال إيطاليا، إذا صر كل من البابا والإمبراطور علي أن لكل منهما الحق في سيامة الأساقفة وتمسك كل منهما برأيه لأنه رأي أن في انتصار خصمه تحطيمًا للمبدأ الذي يسعى هو من أجله.

فهنري الرابع وجد في تمسكه برأيه محافظه على حقه الذي ورثه عن أسلافه، وأن تمسكه بفرض رأيه أمر تتوقف عليه هيبته في إيطاليا وغير إيطاليا من بلاد الإمبراطورية، لذلك أسرع بتعين اثنين من أتباعه على أسقفيتي فرمو *fermo* وسبوليتو *spoleto*، على الرغم من أن هاتين الأسقفيتين تقعان فعلاً في دائرة اختصاص البابا.

أما جريجوري السابع فقد تمسك من جانبه بنظرته السمو البابوي بحكم أن البابا خليفة السيد المسيح على الأرض ووريث القديس بطرس في الغرب، كما اعتبر نجاحه في فرض رأيه على الإمبراطور أمرًا تتوقف عليه هيبته ومستقبل البابوية، فضلاً عن سياسته في الإصلاح الكنسي – وهي السياسة التي شرع فعلًا في تنفيذها.

ثم تأزم الموقف بشكل خطير عندما عين هنري الإمبراطور أسقفًا جديـدًا لميلان هو الأسقف تدالد *tedald* في عام 1075، وحينئذ أدرك البابـا أنـه لابـد من العمل السريع، ويبـدو أن البابـا جريجـوري السـابع كـان مسـتعدًا عندئـذ التحدي والصراع.

فأرسل رسالة شديدة اللهجة إلى هنري الرابع في أواخر عام 1075 أنذره فيها بالعزل وهدده بالويل والعذاب أن هو لم يخضـع لـرأي البابويـة، وفي ذلـك الوقت ثارت ثائرة الإمبراطور فعقد تجمعًا في ورمز *worms* في يناير 1076 قرر فيه بطلان انتخاب البابا جريجوري السابع بل وعزله من منصبه.

وعندما سمع البابا بذلك القرار قابله بهدوء، ودعا هو الأخر بعقد مجمـع في الفاتيكان في فبراير 1076 قرر فيه توقيع الحرمان على هنـري الرابـع وعزلـه من منصبه وتحرير جميع رعاياه وأتباعه من إيمان الطاعة والتبعية التـي اقسـموها له. (انظر المزيد عن هذا الموضوع هنا في موقع الأنبـا تكـلا في أقسـام المقـالات والكتب الأخرى). وبذلك بدأت الحرب بينهما ومـع أن موقـف الطـرفين كـان حرجًا وصعبًا إلا أنه من الواضح أن هنري الرابع وجد نفسه في موقف أصعب من خصمه، لأن البابا كان يستطيع أن يعتمد على عطـف كثـير مـن أبنـاء العـالم المسيحي بوصفه الأب الروحي للكنيسة، في حين كان هنري الرابـع لا يسـتطيع حتى الاعتماد على ولاء رعاياه بعد أن وقع عليه البابـا قـراره بالحرمـان بوصـفه مسيحيًا وعقوبة العزل بوصفه ملكًا.

وبعبارة أخري فإن كفتي البابوية والإمبراطورية لم تكونـا متعـادلتين أبـداً عند بداية النزاع بل طيلة أدوار النزاع الآتية، لأن البابا كـان يسـتطيع أن يعتمـد دائمًا على أسلحه قويه أهمها شـعور الشـعب مـن حولـه، فضـلًا عـن الأسـانيد المستفادة من الكتاب المقدس التي تعطي البابا هذا الحق العظيم، **في حين اسـتند الإمبراطور فيما ذهب إليه إلى:**

1. القانون الروماني الذي يمجد الإمبراطورية وسلطتها وهو مستمد من أصول وثنية يسهل على البابوية الطعن فيها.
2. الجيش الإمبراطوري الذي ثبت عجزه في أكثر من مناسبة عن إخضاع البابوية.
3. والواقع أن الإمبراطور لم يجد له نصير سوي تلك الفئة قليلة العدد من رجال الدين والإيمان الذين عرفوابالسيمونية وسوء السيرة، وهؤلاء لم يكن لهم من النفوذ أو المقومات الخلفية ما يجعل منهم سندًا حقيقيًا للإمبراطور، أما ذو المكانة من القديسين وكبار رجال الدين فقد شايعوا جميعًا البابوية في موقفها المعادي للملك.

وهكذا تلفت هنري الرابع حوله فلم يجد من يعتمد عليه من الدوقات والأمراء، إذ كانوا جميعًا يخشون نزعته الاستبدادية، فكان أن عقد أمراء ألمانيا وأساقفتها مجمعًا في تريبور *tribur* في أكتوبر 1076 وقرروا فيه الخروج على طاعة هنري الرابع وإنذاره باختيار إمبراطور غيره على ألمانيا إن لم يغفر له البابا في مده أقصاها فبراير 1077 م علي أن يقضي الفترة ما بين أكتوبر 1076 وفبراير 1077 في أحد الأديرة محرومًا من الإمبراطورية.

وكان أن انسحب هنري الرابع إلي ذلك الدير الذي جعل يفكر فيه في حاله، وان كان الموقف لم يكن في حاجه إلى تفكير، ذلك أنه وجد نفسه وحيدًا أمام خصم عنيد لا يرحم، فلابد له من التراجع والاستسلام إذا أراد إنقاذ عرشه، مما تطلب من هنري الرابع سرعة العمل قبل أن يجتمع أعداؤه في ألمانيا فيؤدي ذلك إلى مظاهره عدائية ضد الملك تضعف مركزه وتجعل البابا يتشدد في موقفه، واخيرًا لم يجد الإمبراطور هنري الرابع حلًا أمامه سوى أن يرحل سرًا

إلى البابا، في الوقت الذي كان البابا قد بدأ رحلته إلى ألمانيا، ولكنـه أسرع عنـدما علم أن خصمه هنري الرابع عبر الألـب سـاعيًا إليـه، واحتمـي البابـا في قلعـه "كانوسا" التابعة لماتيلدا ملكه تسكانيا، وكان الـبرد قاسـيًا عنـدما اخـذ هنـري الرابع يصعد الطريق الجبلي الوعر إلى قلعة كانوسا، حيث بقي ثلاثـة أيـام واقفًـا على الجليد أمام أبواب القلعة الموصدة في وجهه، حتى تعطف عليه البابا وسمح له بالمثول بين يديه على شرط بأن يسلم للبابوية بكل ما تطلبه دون أي قيد وكـان ذلك في يناير 1077.

ويُقال أن الإمبراطور دخل على البابا حافي القدمين مرتديًا ثوبًا من ثيـاب الرهبان المصنوعة من الصوف الخشن، حتى إذا ما وجد نفسه أمام خصمه ارتمي عند قدميه وانفجر باكيًا وهو يصيح "اغفر لي يا أبتاه المقدس".

فغفر له البابا بعد أن فرض عليه شروطًا قاسيه وزوده بالنصح والإرشاد، وقد اكتسـب بهـذا هنـري الرابـع غفـران البابـا وطالـب بـولاء رعايـاه ولكـن بعد أن دفع الثمن غاليًا، كلفه كرامته ومكانتـه، فهـا هـو حـاكم الإمبراطوريـة العظيم بذل نفسه أمام البابـا ويعـترف للبابويـة بحقوقهـا كاملـة حتـى حرمانـه مـن رعايـة الكنيسـة وعزلـه مـن منصـبه، وهـا هـو حليفـه قيصـر وشـارلمان ارتضى أن يقف البابا منه موقف الحكم بينه وبين شعبه أن شاء أمرهم بـالخروج عـلى طاعتـه، وان شـاء أمـرهم بالامتثـال لـه، لـذلك لـيس مـن المبالغة أن نقرر أن الضربة التي أنزلهـا البابويـة بـالإمبراطور في كانوسـا كانـت قاصمه، وان الأخيرة لم تسترد هيبتها ومكانتها السابقة مطلقًا بعد ذلك.

المرحلة الثانية من الصراع بين الإمبراطورية والبابوية:

مـرّ قرابـة قـرن مـن الزمـان ووصـل إلى كـرسي البابويـة البابـا ادريـان الرابع *Pope Adrian IV* ووصل إلى الإمبراطورية فردريك الأول، وجعل كـل منهما يسعى لتقويه مركزه خصوصاً وأن كلا مـنهما كانـت لـه شخصـيته القويـة بالإضافة إليالحروب الصليبيه (حـروب الفرنجـة) التـي كانـت رحاهـا دائـرة في الشـرق. فلـما بـدأ الإمبراطـور يجـور عـلى حقـوق البابـا حتـى أنـه حـبس كبير أساقفة لوند الذي كان صديقًا حميمًا للبابـا ادريـان الرابـع، وعنـدما دخـل مندوب البابا على الإمبراطور عام 1157 حياه بعبارة غريبة هي "أن البابا يحيك كوالد والكرادلة يحيونك كأخوة".

فدهش فردريك من هذه التحية التي جعلت من الكرادلة أخوة مسـاويين للإمبراطور، كما أن الإمبراطـور دهـش مـن رسـالة البابـا المرسـلة إليـه والتـي احتوت عبارة مؤداها أن التابع الإمبراطوري يعتبر منحه من البابا، فالبابا بذلك يمنح الإمبراطورية للإمبراطور، فثار لكرامته وأيـده الأسـاقفة الألمـان في ذلـك لاحظ انقسام الكنيسة بين كنيسة ألمانية تتبع الإمبراطور وأخـرى في رومـا تتبـع البابا) أدرك الإمبراطور أن قبوله لهذه الرسالة هو تنازل عن حقه وإعلان تبعيته لهذا البابا، ولذلك رد مدافعًا عن حقه: أننا نتسلم الإمبراطور من الله عن طريـق انتخاب الأمراء، فأن شريعة الله تقضي بأن يكـون حكـم العـالم بواسـطة سـيفي الإمبراطورية والبابوية، كـما قضـت تعـاليم القـديس بطـرس، بأنـه يجـب عـلى الناس أن يخافوا الله ويكرموا الملك (رسالة بطرس الأولي الآية 17) وعلي هـذا فإن كل ما يقوله بأننا تسلمنا التاج الإمبراطوري إقطاعا مـن البابـا يعتـبر باطـل العقيدة لأنه يخالف أوامر الله وتعليم بطرس الرسول.

وقع هذا الرد وقع الصاعقة على رأس البابا، وكان عليه أن يتجنب سوء الصدام بينهما ولوأن سوء النية قد توافر بين الطرفين، وان هذا الحادث قد كشف النقاب عن حقيقة شعور كل منهما تجاه الأخر ومهد الطريق لصدام قريب بينهما.

فالإمبراطور بدأ يدخل بنفوذه في منطقه نفوذ البابا في شمال إيطاليا وساعده على ذلك خوف بعض الآراء وضعفهم هناك بالإضافة إلى ضعف البابا نفسه لكبر سنة وتوفي في 1159 وخلفه الكاردينال رولاند باسم البابا اسكندر الثالث وظل في منصبه قرابة 22 سنة (1159– 1181) تمسك أثناءها بحقوق البابوية ودخل النزاع إلى مرحله العنف بين الإمبراطور وبينه، لا سيما وأنه كانت تحكمها علاقات سيئة قديمة بينهما، فاستعمل البابا في روما سلاح الحرمان ضد بابا ألمانيا مما آثار الإمبراطور، وأراد أن يكسر أنيابه حتى بالسلاح لو استطاع، إلا أن أساقفة ألمانيا أنفسهم وهم التابعون له لم يوافقوه على أن يشهر السلاح ضد الكنيسة مهما كان الأمر، فتألف حلف علماني بزعامة الإمبراطور الذي ثار لكرامة الإمبراطورية، وعقد رجال الإكليروس في روما حلفًا واحد برئاسة البابا اسكندر قرارًا بحرمان الإمبراطور من رحمه الكنيسة.

وهنا نفذ الإمبراطور فكرته وهو استعمال القوه العسكرية فزحف على روما بجيش جرار، فهرب البابا إلى جنوب إيطاليا حيث النورمان المحاربين الأشلاء بالإضافة إلى انتشار مرض الطاعون في جيشه ففتك بالكثير من رجاله ولم يستطع العودة عندما حوصر من الجنوب بالنورمان ومن الشمال بتحالف دويلات شمال إيطاليا والطاعون ينهش رجاله فهزم أسس حلفاء البابا في هذا المكان مكانًا باسمه واعتبروها معجزه على يديه وسمي المكان بمدينه الإسكندرية نسبه إلى البابا اسكندر شمالي مدينه جنوا.

أخيرا لم يجد الإمبراطور فردريك مفرًا من الخضوع والتسليم، فدخل البندقية منكس الأعلام حيث كان البابا اسكندر الثالثفي انتظاره يحيط به جموع حافلة من الكرادلة تلمع عيونهم بالفرحة بهذا الانتصار الذي عدوه انتصار ألهياً، ولم تلبث أنتكررت تمثيلية كانوساً بعد مرور مائه عام، فآتي الإمبراطور فردريك الأول العظيم حليفه فتجرد شارلمان كما كان ينادي ليرتمي بين قدميّ البابا اسكندر الثالث باكيًا طالبا منه الصفح والغفران، مثلما فعل سلفه العظيم هنري الرابع مع البابا جريجوري السابع 1077.

وهكذا تم الصلح بين الإمبراطورية والبابوية في أغسطس عام 1177 أي بعد مائة عام بالتمام فوافق فردريك الأول على رد جميع الأراضي المغتصبة من البابابوية، وتعهد كل من الطرفين بمساعده الطرف الآخر ضد أي عدو يهدده، علاوة على عما وافق عليه الإمبراطور من عمل هدنة مع حلفاء البابا النورمانديين في صقليه لمده خمس عشره سنة. وهدنة أخرى مع المدن اللمباردية في شمال إيطاليا لمده ست سنوات وقبل أن تنتهي هذه الهدنة الأخيرة مع المدن اللمباردية ثم توقيع صلح كونستانس سنة 1083 بين المدن اللمباردية والإمبراطور، وهو الصلح الذي نص علي أن تتمتع هذه المدن بجميع أركان الاستقلال السياسي والقضائي والاقتصادي والعسكري، مع احتفاظ الإمبراطور ببعض المظاهر التي تصور سيادته اسمياً، مثل موافقته على تعيين حكام المدن وفرض الضرائب البسيطة للمساهمة في نفقات جيوش الإمبراطورية.

علي أنه من الواضح أن هذه الشروط لا تخفي الحقيقة الواقعة وهي أن المدن اللمباردية أصبحت دويلات مستقلة بمقتضى معاهده كونستانس وأن نفوذ الإمبراطور في شمال إيطاليا أصبح اسمياً وأن البابوية قد أخذت وضعها بشكل كبير.

ومن هنا نري في هاتين الحلقتين من الصراع بين الإمبراطورية والبابوية أن:

1- إن الكنيسة كانت سلطه وكانت إقطاعية تبحث عن نفوذها السياسي والاقتصادي ولو بحد السيف أو الثورات.

2- الإمبراطورية تبحث عن نفوذها وتقويته حتى باندلاع الحروب الصليبية في الشرق التي خاب أثرها وتركت الكنيسة الشرقية المظلومة تدفع قسطًا كبيرًا من الثمن.

3- أن الباباوات في انتصاراتهم على الأباطرة دخلهم الزهو والافتراء فتركوا جانب الروح وبحثوا عن لذة الجسد فتركوا الكتاب المقدس وبحثوا عن المال والسيف.

4- ذهبت نفوس الشعب المسكين تحت أرجل هؤلاء وأولئك دون تقديم أي عمل روحي.

• البابا والدولة وصراع الإرادتين:

بحلول عام 800 ميلادياً شهدت أوروبا التزاوج السياسي بين كنيسة روما والإمبراطورية الرومانية المقدسة، وذلك مقابل التزاوج القائم بين الإمبراطورية البيزنطية وكنيسة القسطنطينية في الشرق، ولكن ديناميكية العلاقة بين السلطة الزمنية والدينية اختلفت من الشرق للغرب، فعلى حين سيطر

الإمبراطور البيزنطي على البطريركية في القسطنطينية فإن هذا لم يحدث في الغرب حيث ظلت العلاقة بين الإمبراطوريات والملكيات المتعاقبة والكنيسة في روما تتأرجح بشكل كبير، فالأولى تملك سلطة القوة والجيوش، بينما بابا روما يملك السلطة الروحية وفقا للعقيدة الكاثوليكية، وبالتالي فإن غضب الكنيسة على أي إنسان كان كفيلاً بحرمانه من الآخرة وجنتها، ورغم التوافق المبدئي الذي كان بين بابا روما والإمبراطورية الرومانية المقدسة في البداية، فإن السياسة والمال كان لهما بطبيعة الحال الأثر الأكبر في القضاء على الاستمرارية المطلقة لعلاقة الوئام بين هاتين المؤسستين، فكثيراً ما رأينا قيادات لكنيسة روما ترفض الخضوع لسلطة الإمبراطور أو الملك، بينما وجدنا أيضاً إمبراطوراً أو ملكاً يسعى تدريجياً للقضاء على النفوذ المتغلغل للكنيسة في قصره ودولته.

حقيقة الأمر أن هناك بعض المتناقضات التي ميزت علاقة كنيسة روما والسلطة الزمنية في وسط وغرب أوروبا، فرغم أن بعض البابوات كانوا يسعون سعيا حثيثا للسيطرة على الملوك والأمراء من خلال مد نفوذ الكنيسة إلى قصورهم ورجالهم، فإن ملوكاً آخرين كان لهم دورهم في زعزعة استقرار الكرسي البابوي ومؤسسات الكنيسة حماية لملكهم، فكانت هذه سمة العلاقة بين الطرفين حتى مطلع القرن الحادي عشر الميلادي، عندما بدأت تتفجر العلاقة المتوترة بين الطرفين بشكل فج، وكان ذلك بسبب الخلاف الذي دب بين البابا «جيرجوري السابع» والملك الألماني «هنري الرابع» بسبب ما هو معروف بحق منح الإقطاعيات *Investiture*، حيث سعى البابا لسحب حق منح الإقطاعيات لرجال الكنيسة من الملك، وهو ما لم يلق قبولاً لدى الملك والذي بدأ يتطاول على البابا واصفاً إياه بأنه «أفاق» مطالباً بعزله من منصبه البابوي

فيكون بذلك ملعونا على مدار الزمن، فكان رد البابا قوياً فعزله كنسياً ورفع عن رعاياه حق الطاعة له معتبراً أن أيا منهم يقدم فروض الولاء والطاعة يعد خارجاً على الدين ومصيره جهنم في الآخرة واللعنة في دنياه، وإزاء هذا العزل الكنسي أصبح الملك في وضع صعب، فاضطر لعبور جبال الألب للذهاب للبابا ليسترضيه لمدة أربعة أيام راكعاً أمام كنيسته حتى عفا عنه البابا، فعاد الملك «هنري الرابع» وهو يضمر في نفسه كل الشر للبابا، فانتظر الفرصة المناسبة وعاد لإيطاليا بجيش قوي استطاع أن يخيف البابا والذي اضطر للهروب ومات وهو في المنفى، وقد استمرت فصول هذه المسرحية الهزلية حتى تم الاتفاق على حل وسط بين البابوية والملك الألماني من خلال توزيع حقوق منح الإقطاعيات على الاثنين بشكل يحفظ للكنيسة بعض هيبتها دون الإخلال بسلطة الدولة.

لقد كان هذا الفصل في حقيقة الأمر مجرد بداية فجة لسلسلة من الأزمات بين البابوية من ناحية والسلطة المدنية أو الزمنية من ناحية أخرى، فحقيقة الأمر أن الملوك ضاقوا ذرعاً بالنفوذ المتصاعد للكنيسة في كل شيء، فالملك لا يرث العرش إلا بدور للبابا أو مندوبه، والإنسان محاصر من مولده لمماته بدور للكنيسة سواء في تعميده أو تناوله أو اعترافه أو غفران ذنبه، كما أن لموته طقوساً كنسية يجب مراعاتها، ولكن الأهم من ذلك دور الكنيسة الحاسم في موقفه في الدار الآخرة، فبيدها حقوق المغفرة وأبواب الجنة تمر من خلال الكنيسة، وهي أمور بدأت تضغط على المواطن البسيط والملك والأمير على حد سواء، فنجد هناك تحركاً نحو مزيد من الاستقلالية عن الكنيسة، وقد تفاقم الوضع بشكل أساسي بعدما سعى الملوك لفرض الضرائب على أراضي الكنيسة التي كانت تملك في مناسبات كثيرة أكثر من ثلث الأراضي الزراعية، من ناحية أخرى فقد سعت الكنيسة لأن تفرض سطوتها الروحية على الملوك بمنح نفسها حق معاقبتهم في الدنيا، وهو ما حدث عندما حاول بطريرك الكنيسة الإنجليزية

«وليم بيكيت» الاستحواذ على حقوق الكنيسة أمام ملك إنجلترا رغم الصداقة التي كانت تجمعهما والتي أدت لعزل الأخير كنسياً، وهو ما أدى إلى طلب الملك من بعض رجاله أن يخلصوه من البطريرك فقتلوا الرجل، وهو ما ترك أوروبا في حالة ذهول سياسي وديني، يضاف إلى كل هذه الأسباب سبب آخر وهو رفض الكنيسة منح الطلاق لبعض الملوك كما كان الحال مع ملك فرنسا فيليب أغسطس الذي اضطره البابا «إينوسنتي الثالث» لاستعادة زوجته.

ولكن أخطر فصول الخلاف بين البابا والملوك كان الصراع الذي نشب حول محاولة الملك الفرنسي «فيليب الجميل *Philip the Fair*» فرض الضرائب على ممتلكات الكنيسة فرفض البابا «بونيفاس الثامن» فلم يتورع الملك من إرسال مجموعة مسلحة دخلت على البابا وضربوه واختطفوه فمات المسكين متأثراً بسجنه والاعتداء عليه، ولم يكتف الملك فيليب بذلك بل قام بقوة السيف بنقل مقر البابوية لأول مرة إلى مقاطعة «أفينيون» وهو ما سمي في التاريخ الكنسي الاحتجاز البابوي، حيث بقيت هناك لمدة سبعين عاماً حتى عادت مرة أخرى لروما. لقد استباح ملوك فرنسا الواحد تلو الآخر قدسية الكرسي البابوي، وهو ما لم تتغلب عليه الكنيسة في حقيقة الأمر حتى اليوم، فلقد أدى هذا الانتقال إلى كسر هيبة الكنيسة وخلق حالة من الفوضى الدينية في أوروبا والتي تفاقمت بعدما تدخلت فرنسا مرة أخرى للدفع من خلال كرادلتها لانتخاب بابا غير بابا الفاتيكان فيما عرف بالـ *Western Schism* أو الانفصال الغربي للكنيسة» وعند مرحلة محددة من تاريخ الكنيسة الكاثوليكية كان هناك مقران للبابوية في آن واحد الأول في روما والثاني في آفينيون مرة أخرى، ولأول مرة تعاني الكنيسة الكاثوليكية من هذا الانفصام في الهوية والسلطة على حد سواء بسبب صراعها مع سلطة الملوك والأمراء، فلقد انقسمت الولاءات داخل الكنيسة الواحدة بسبب الصراع بين السلطة الروحية والدينية.

وواقع الأمر أن سلطان الكنيسة كان روحياً وفي أمور السياسة فإن سلطان السيف هو الأبقى، وهنا يتبادل البابوات والملوك مسؤولية ما حدث بدرجات متفاوتة وفقا للأزمنة المختلفة، وذلك رغم مقولة السيد المسيح الشهيرة «أعطوا ما لقيصر لقيصر، وما لله لله» ولكن هنا اختلت موازين حقوق قيصر والرب وفقا لممثليهما في الدنيا، وبرغم كون هذه الجملة دستوراً عظيماً لما يجب أن تكون عليه علاقة السلطة الدينية والسياسية، فإن هذا لم يحدث، فكثير من قيادات الكنيسة لعبوا دوراً سياسياً خارج صلاحياتهم الروحية، فعلى كاهل البابا «أوربان الثالث» على سبيل المثال مسؤولية الخراب البشري الذي حل على العالم بسبب فتواه للجهاد الصليبي في الأراضي المقدسة كما ستتابع في الأسابيع القادمة، والحقيقة أن المشكلة الأساسية نتجت عن خطورة المزج بين الدين والدولة، فالأول يتناول العلاقة بين الإنسان وفاطره، والثاني بين الإنسان ونظيره، وما أخطر المزج بين الشرعيتين، كما أن الأول مصدره المولى سبحانه وتعالى، والثاني مصدره علاقة بني البشر بعضهم ببعض.

وتستوقفني هنا عبارة لأحد المؤرخين يقول فيها «إن المسيحية دائماً ما تقوم بتخريب السلطة الزمنية التي احتضنتها»، مستنداً إلى التاريخ الممتد للخلافات بينها وبين الإمبراطوريات والدول التي استوعبتها، وتقديري أن هذه الجملة بها تقصير واضح لسببين الأول لأن التخريب هنا حل على الدين والدولة على حد سواء، والثاني هو أن العبارة اقتصرت على الكنيسة وحدها بينما التجربة الإنسانية تشير إلى عكس ذلك خاصة مع محدودية نجاح أو أكاد أجزم فشل نماذج الدولة الثيوقراطية التي مزجت الدين والدولة عبر التاريخ، فما أخطر من لا يتعلم من تجارب الخلط بين الدين والسياسة في التاريخ!

المراجع

1. كتاب " أثر العرب والمسلمين في الحضارة الأوروبية"/ للكاتب فتحي علي يونس/ القاهرة/ 1996م

2. كتاب " أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوروبية "/ للكاتب أحمد علي الملا/ دار الفكر للنشر/ الطبعة الثانية/ 1981م

3. كتاب " تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس"/ للكتاب 1ـالدكتور خليل إبراهيم السامرائي،2ـالدكتور عبد الواحد ذنون طه،3ـالدكتور ناطق صالح مطلوب/

4. أفغراف سمير نوف، تاريخ الكنيسة المسيحية، ترجمة: الكسندروس، حمص، ط9، 1964.

5. السيد الباز العريني، تاريخ اوربا العصور الوسطى، بيروت، دار النهضة العربية، 1968.

6. جان جاك شوفاليه، تاريخ الفكر السياسي من المدينة الى الدولة القومية، ت: محمد عرب صاصيلا، بيروت، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات للنشر والتوزيع، ط1، 2006.

7. عبد الحميد البطريق، عبد العزيز النوار، التاريخ الأوربي الحديث من عصر النهضة إلى مؤتمر فينا، بيروت، دار النهضة العربية،.

8. عبد القادر احمد يوسف، العصور الوسطى الأوربية 476-1500، بيروت، المكتبة العصرية، 1967.

9. عبد العظيم رمضان، تاريخ أوربا والعالم في العصر الحديث، القاهرة، الهيئة العربية العامة للكتاب، 1997.
10. عبد المجيد النعنعي ، اوربا في بعض الأزمنة الحديثة 1453-1848، بيروت ، دار النهضة العربية ، 1983.
11. كرستوفر دوسن ، تكوين اوربا ، ت: محمد مصطفى ، القاهرة ، 1967، ص33.
12. محمد محمد صالح ، تاريخ أوربا من عصر النهضة وحتى الثورة الفرنسية 1500-1789، بغداد ، دار الجاحظ للطباعة والنشر ، 1981.
13. وول ديورانت ، قصة الحضارة ت: عبد الحميد يوسف ، القاهرة ، مطابع الدجوى – عابدين ، 1975.
14. ابن الابار، ابو عبد الله محمد بن عبد الله (ت658هـ/ 1259م)، الحلة السيراء، تحقيق: حسين مؤنس، ط القاهرة، 1383هـ/ 1963م.
15. الادريسي، ابو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله (ت560هـ/ 1164م)، صفة المغرب والسودان ومصر والأندلس، مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق، ط ليدن، 1283هـ/ 1866م.
16. ابن بلقين (ت 489هـ/ 1096م)، مذكرات الامير عبد الله، تحقيق: ليفي بروفنسال، ط القاهرة، (بلا. ت).
17. الخطيب، لسان الدين ابو عبد الله محمد التلمساني (ت776هـ/ 1374م):
18. اعمال الاعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام، تحقيق: ليفي بروفنسال، ط بيروت، 1376هـ/ 1956م.

19. الحلل الموشية في ذكر الاخبار المراكشية، ط تونس، 1348هـ/ 1929م.
20. ابن عذارى، ابو العباس احمد بن محمد المراكشي- (ت بعد سنة 712هـ/ 1312م)، البيان المغرب في اخبار الأندلس والمغرب، تحقيق: كولان وبروفنسال، ط بريل، 1371هـ/ 1951م.
21. ابن الفوطي، كمال الدين ابي الفضل عبد الرزاق احمد الشيباني البغدادي (ت723هـ/ 1323م)، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة، تحقيق: مهدي النجم، ط بيروت، 1424هـ/ 2003م.
22. ابن قتيبة، محمد بن مسلم (ت276هـ/ 889م)، الامامة والسياسة، تحقيق: الاستاذ علي شيري، (د.م)، (بلا.ت).
23. ابن القوطية، ابو بكر محمد بن عمر القرطبي (ت367هـ/ 977م)، تاريخ افتتاح الأندلس ، ط القاهرة، (بلا.ت).
24. المالكي، ابو بكر عبد الله، رياض النفوس، تحقيق: حسين مؤنس، ط القاهرة، 1371هـ/ 1951م.
25. مؤلف مجهول، اخبار مجموعة، ط مدريد، 1284هـ/ 1867م.
26. المقري، شهاب الدين حمد بن محمد التلمساني (ت 1041هـ/ 1631م)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ط مصر، 1302هـ/ 1884م.
27. ياقوت، شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الرومي البغدادي (ت626هـ/ 1228م) معجم البلدان، ط2، بيروت، 1416هـ/ 1995.
28. ثانيا: المراجع الثانوية:

29. الادهمي، محمد مظفر، تاريخ أوربا الحديث ـ عصر النهضة الثورة الفرنسية ـ القرون 16ـ18 ميلادية، ط بغداد، 1410هـ/ 1989م.

30. ارنولد، سير توماس، تراث الاسلام، عربه وعلق حواشيه: جرجيس فتح الله، ط2، بيروت، 1392هـ/ 1972.

31. بدوي، عبد الرحمن، دور العرب في تكوين الفكر الاوربي، ط بيروت، 1400هـ/ 1979م.

32. التكريتي، سليم طه، أوربا ترسل بعثاتها الى الأندلس ، مجلة الوعي الإسلامي، العدد 37، الكويت، 1388هـ/ 1968م.

33. الحجي، عبد الرحمن، التاريخ الأندلس ي، ط دمشق، 1396هـ/ 1976م.

34. حسين، محمد كامل، في الطب والاقربازين ضمن كتاب اثر العرب والاسلام في النهضة الاوربية، ط القاهرة، 1390هـ/ 1970م.

35. الخطيب، محمد، تاريخ الحضارة العربية، ط سوريا، 1428هـ/ 2007م.

36. السامرائي، خليل ابراهيم واخرون، تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس ، ط الموصل، 1407هـ/ 1986م.

37. سليمان، علي حيدر، تاريخ الحضارة العربية والاوربية الحديثة، ط بغداد، 1411هـ/ 1990م.

38. سيديو، خلاصة تاريخ العرب، ط بيروت، (بلا.ت).

39. شيفل، فرديناند، الحضارة الاوربية في القرون الوسطى وعصر النهضة، ط بيروت، 1372هـ/ 1952م.

40. الصياد، محمد محمود، في الجغرافيا ـ ضمن كتاب اثـر العـرب والاسـلام في النهضة الاوربية لمجموعة مؤلفين، ط القاهرة، 1390هـ/ 1970م.
41. عاشور، سعيد عبد الفتاح وآخرون، الحياة الفكرية والعلميـة في الاسـلام ـ ضمن كتاب دراسات في تاريخ الحضارة العربية الاسلامية، ط2، الكويت، 1407هـ/ 1986م.
42. العبادي، احمد مختار:
43. الحياة الاقتصادية في الدولة الاسلامية ـ ضـمن كتـاب دراسـات في تـاريخ الحضارة العربية الاسلامية، ط2، الكويت، 1407هـ/ 1986م.
44. نظم الحكم والادارة في الدولة الاسلامية ضمن كتاب دراسـات في تـاريخ الحضارة العربية الاسلامية، ط2، الكويت، 1407هـ/ 1986م.
45. عبد الحليم، رجب محمـد، العلاقـات بـين الأنـدلس الاسـلامية واسـبانيا النصرانية في عصر بني أمية وملوك الطوائف، ط القاهرة، (بلا.ت).
46. العقاد، عباس محمـود، اثـر العـرب في الحضـارة الاوربيـة، ط2، القـاهرة، (بلا.ت).
47. عنان، محمد عبد الله:
48. دولة الاسلام في الأندلس ، ط القاهرة، 1389هـ/ 1969م.
49. دول الطوائف، ط القاهرة، 1389هـ/ 1969م.
50. فكري، احمد، قرطبة في العصر الاسلامي تاريخ وحضارة، ط الاسكندرية، 1404هـ/ 1983م.

51. الفلاحـي، عبـد المنعم، مـآثر العـرب والاسـلام في القـرون الوسـطى ط الموصل، بلا . ت.

52. القلماوي، سهير ومحمود عـلي مكـي، في الادب ضـمن كتـاب اثـر العـرب والاسلام في النهضة الاوربية لمجموعة مـؤلفين، ط القـاهرة، 1390هـ/ 1970م.

53. كيب، جوزيف ماك، مدنيـة العـرب في الأنـدلس ، ترجمـة: تقـي الـدين الهلالي، (د.م) ، 1370هـم1950م.

54. مدكور، ابراهيم بيومي، في الفلسفة ضمن كتاب اثـر العـرب والاسـلام في النهضة الاوربية، لمجموعة مؤلفين، ط القاهرة، 1390هـ/ 1970م.

55. المطوي، محمد العروسي، الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، ط تـونس، 1365هـ/ 1945م.

56. مورينو، مانويل جوميث، الفن الإسلامي في اسبانيا، تعريـب: لطفـي عبـد البديع، ط القاهرة، بلا . ت.

57. هونكـه، زيغريـد، شـمس العـرب تسـطع عـلى الغـرب، ط6، بـيروت، 1402هـ/ 1981م.

58. يونغ، لويس، العرب واوربا، ترجمة: ميشيل ازرق، ط بيروت، 1400هـ/ 1979م.

المراجع الاجنبية:

1. *Hackett , Francis , francis the First, Newyork ,Doran and Co , 1937 .*
2. *Criswell , David , The Rise and Fall of the Holy Roman Empire,Baltimore,2005.*
3. *Joseoh,brusher, popes Through the ages, Prinction,1959.*
4. *Jackson, Richard,A History of the French Coronation,Chapel Hill, 1984.*
5. *Osborn,Kenan, The Christian Sacrament of Initiation , Paptism Confirmation,New York,1987.*
6. *Hayes,A.C, A Political and Cultural History of Modern Europe , New York,1944.*
7. *Knecht,R.J, Francis I, Cambridge , 1982,.*
8. *Merle,J.H, History of The Reformtion of The Sixteenth Century,2001.*
9. *Mack.P.Holt, The French Wars of Religion, Cambridge, Cambridge University Press.*
10. *Hartt,Frederick , A History of Italion Renaissance Art,New York,1910.*
11. *Tilley,Arthur,The French Wars of Religon,London,Macmillian Company,1989.*
12. *Mullet,Michael,Luther,Methuen,and Co,1986.*
13. *Hanna,William, The Wars of Huguenotes,New York,Robert Carter and Brothers,1872.*
14. *Bossy,John, Christian in the West 1400-1700. Oxford,1985.*
15. *Armstrong,B.C, John Calvin, www.*
16. *Monter, Wiliam,Calvin Geneva, New York,1967.*
17. *………… ,Judging the French Reformation , Hersey in Trials.by.Siteenth.Century.Century.Parliament, Cambridge,1991.*
18. *Baumgartner,Frederuc, Henry II , Durham,N.C,1988.*
19. *Mentzer, Raymond The. Legal Response. to Hersey in Languedoc1500-1560, Sixteenth Century journal,, London,1973*
20. *Sutherland,N.M, The Huguenot Struggle for Recognition , New Haven,1980.*
21. *Knecht,Robert Jean, The Rise and Fall of Reformation France 1483-1610,Black Wall,2001.*

22. Diefendorf,Barbara, Catholics and Huguenots in the Sixteenth-Century,New York,1991.

23. Mariejoil,Jean.Hippolte,Chatherine.de.Medicis,Haohette , 1920.

24. William, Durant,The Age of Reason, Simon and Schuster,1961.

25. Machinnon, Growth and Decline of the French Monarchy ,London,1988.

26. Conner,Philip,Huguenot Hrartland ,Montauban and Southern French Calvinism During The Wars of Religon,Aldershot,2002.

27. Hauser,Henri, The French Reformation and the French People in the Sixteenth Century, American Historical Review,1899.

28. Roelker,Nancy,Queen of Navarre: Jeanne de Albert,1528-1572,Cambridge,1986.

29. Kindon,Robert,M, Geneva The Coming of the Wars of Religion in France,1553- 1563,Genave,1956.

30. Taber,Linda.C. Royal Policy and Religious Dissent Within the Parliament of paris,1559-1563.Unpublished PhD Thesis, Stanford University,1982.